

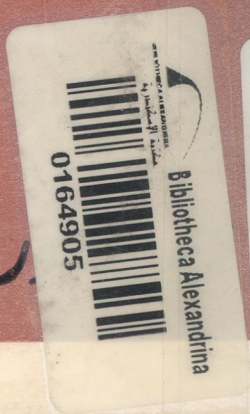


مکسیم گورکی

# فوما جور دیف



رینی خشبہ





# فوما جور دہیف

لکھنؤ

تألیف  
مکسیم جورکی

ترجمة  
دریسی خشیہ

---

دار القاهرة للطباعة  
۲۶ شارع منصور - القاهرة





## الفصل الأول

● منذ حوالي ستين عاما ، حينما كان رجال الأعمال يجمعون ثروتهم  
التي تعد بالملايين فوق ضفاف نهر الفولجا ، كان رجل يدعى اجنات  
جوردييف يعمل في كسح المياه التي تتسرب الى بطن صندل من صنادل  
تقل البضائع تابع لرجل من أثرياء التجار اسمه زايف .

وكان جوردييف هذا رجلا قوى البنية حسن المنظر ، وأبعد من  
أن يكون غيبيا . لقد كان واحدا من هؤلاء الذين ينجحون في أعمالهم  
دائما ، لا لائتهم من ذوى المواهب والمثابرة في العمل ، ولكنهم ، لما  
تأوتوا من النشاط الجم ، لا يأنفون من القيام بأى عمل من الأعمال  
التي يدركون بها ما يطمحون اليه ، وكيف يأنفون من شيء وهم  
لا يعرفون ما معنى الانفة ؟ ثم هم لا يعرفون من القوانين شيئا الا قانون  
رغباتهم . وفي بعض الأحيان نلاحظ أن هؤلاء الناس يتكلمون وهم في  
خشية من ضمائرهم ، بل هم قد يقاسون الكثير في صراعهم مع هذه  
الضمائر . الا أن الشخص الضعيف هو فقط الذي لا يستطيع أن ينتصر  
على ضميره ، أما الشخص القوى فليس أسرع عليه من أن يخضع ضميره ،  
ويؤرغمه على أن يخدم المطمح الذي يسعى اليه . انه قد يضحي بليال  
طويلة لا يذوق النوم فيها لما يقوم به من تضال ، وربما انتصر عليه  
ضميره آخر الامر ، ولكنه اذا انتصر فان روحه لا تنال منها الهزيمة  
أبدا ، بل يظل بفضل هذه الروح القوية سائرا فيما كان فيه بمثل  
الحيوية التي كانت له من قبل .

وعندما بلغ اجنات جوردييف الأربعين من عمره ، كان هو نفسه مالكا لثلاثة زوارق بخارية واثنى عشر صندلا ، وكان يحظى باحترام كبير من أول نهر الفولجا الى آخره ، بوصفه رجلا من رجال المال الكثير والعقول الراجحة، الا أنهم كانوا يلقبونه بلقب : أبو كيفه ! لأنه لم يكن يتبع في حياته طريقا واحدا رتبيا لا يتعداه كما يفعل من هم مثله من الناس ، بل كان في ثورة ضدها دائما ، لا يكاد يأخذ منها بعمل حتى يتركه الى غيره ، نافرا من الجرى وراء الثروة التي كان غيره من الناس ينظرون اليها بوصفها الغرض الاساسي من وجودهم في هذه الحياة .. وكان يبدو كأنما هناك ثلاثة أشخاص من هذا الرجل اسم كل منهم جوردييف ! أو قل ان ثلاث أرواح مختلفة كانت تسكن جسد جوردييف هذا ! وكانت احدي هذه الأرواح ، وهي أهمها جميعا ، روحا مغرمة باحراز المكاسب والجرى وراءها .. ولا شيء غير ذلك . وكانت هذه الروح حينما تتناول السوط وتلوح به الى اجنات ، تدفعه فيفزع الى العمل بهمة عجيبة ، كأنه خلق للكبح وللكدح فحسب . ولقد كانت هذه الهمة تتأجج فيه ليلا ونهارا ، وتفنى منه روحه وجسمه ، وكان لا ينى يفتح يديه لتسلم المئات والآلاف من الروبلات - أى الريالات - كأنه لم يكن يشبع قط من سماع رنين النقود الحلوة، ووقعها الساحر . لقد كان موكلا بنهر الفولجا يدرعه شمالا وجنوبا ، وفي يده شباكه التي يصيد بها ذهبه الكثير الجم . محكما قبضته على حبالها . لقد كان يشتري القمح من القرى ثم يحمله في صنادله ليبيعه في مدينة ريبنسك ، وكان مغرما بغش الناس وخذاعهم ، يغشهم قاصدا أحيانا ، ويغشهم بفطرته ومن غير قصد أحيانا ، وكان يضحك من نشوة النصر في وجوه ضحاياه على الدوام . وقد بلغ جنونه بالمال خدائخرافيا يفوق خيال الشعراء . الا أنه بالرغم من هذا النشاط الجم الذي كان يسخره لجمع المال ، لم يكن شرها بأى معنى من معاني هذه الكلمة ، بل لقد كان في بعض الاحيان يبدي من عدم المبالاة بأمواله ما يحير البال !

فقد حدث ذات يوم من الأيام التي كانت ثلوج الفولجا تنهار فيها  
فى بواكير الربيع ، وكان اجنات جوردييف واقفا على الشاطئ يشاهد  
هذا المنظر ، أن رأى كتل الجليد تدفع صندله الكبير الجديد الذى يبلغ  
طوله مائتين وخمسين قدما فتصدمه بصخرة ناتئة من صخور الشاطئ ،  
فتسحقه سحقا .

وهنا ، يصر اجنات بأسنانه متمتما : « عال ! أعصره يا ثلوج  
هيرة ثانية ! ٠٠ هيا ٠٠ مرة ثانية قلت لك ! »  
وهنا يلتفت اليه ماياكين ، أعز أصدقائه ، واشبين (١) أبائهم .  
ويقول له : « انها كأنما تعتصر عشرة آلاف روبل بتمامها من جيبك  
يا اجنات ! »

ويجيبه اجنات : « لا بأس ! فما أيسر أن أجمع مائة ألف أخرى !  
ولكن ٠٠ انظر ماذا يصنع الفولجا ! يا لله ! أى قوة هذه ؟ ان فى  
بوسعه أن يقلب الارض كما تقلب الزبد بملعقة ، لو أرتى قوة التفكير  
فى ذلك . أنظر ! هاهو ذا صندلى بوياريننا يطفو هناك ، وهو مع ذلك  
لم يمض عليه غير موسم واحد ! حسن ٠٠ هلم فلنشرب نخب نهايته  
تلك ، هل لديك مانع ؟! »

ثم تحطم الصندل ، وكان اجنات وصديقه جالسين عند نافذة  
مشرب على ضفة النهر يجرعان الفودكا ، ويشاهدان التيار وهو  
يجرف حطام البوياريننا فيما يحمل من كتل الجليد .  
ويقول ماياكين : « لشد ما يؤسفنى أن تفقد هذا الصندل يا  
اجنات ! »

— ليس من الحكمة أن نأسف على شيء . لقد أعطى الفولجا ، ثم  
أخذ الفولجا ما أعطى ٠٠ والفولجا مع ذلك لم يقطع يدي ! »

(١) الاشبين هو والد الطفل الروحى اى الذى ينيبه الوالد الاصلى عنه فى ساعة  
تعميده عنداخواننا المسيحيين وستستعمل هذه الكلمة بكثرة فاسترعى اليها الانظار (د)

— حتى اذا . . . !

— حتى اذا — ماذا ؟ على الأقل ، لقد رأيت الحادث بعيني، رأسى «  
وهذا درس طيب للمستقبل . لشد ما يحزننى أننى لم أر كيف  
احترقت سفينتى فولجار عندما احترقت . لا شك أنها كانت منظرا  
عجيبا . . نيران للزينة فى منتصف الليل على صفحة الماء ! لقد كانت  
سفينة كبيرة !

— وأكبر الظن أنك لم تأسف على ضياعها هى الأخرى !

— وهذه السفينة البخارية ؟! كلا . . لا أستطيع أن أقول ذلك ؟  
لقد أسفت على ضياعها حقا . . على أن من الجنون الاسف على شىء ، اذ  
ما الفائدة ؟ . . ابك ما استطعت ، ولكن الدموع لن تطفىء حريقا . .  
فلتشتعل السفن جميعا ، فانى لن أثور ولن أسخط اذا احترقت كلها .  
ما دامت النيران التى تتأجج فى روحى ستظل مشتعلة هى أيضا .  
وغمغم ماياكين ثم قال وهو يضحك بصوت خافت : « ان الرجل  
الذى يتكلم مثل هذا الكلام هو رجل غنى ولا بد ، حتى اذا لم يكن  
يملك قميصا يغطى به ظهره ! »

وبالرغم من تسليم اجنات هذا التسليم الفلسفى بحسارته آلاف  
الروبلات . كان أعرف الناس بقيمة كل كوبك ، وكان لا يمنح  
شحاذا أى درهم الا بخلع الضرس ، واذا فعل فاتما يعطى أولئك الذين  
لا يقدرّون على عمل مطلقا ، فاذا لم يكن الشحاذا الذى يستجديه عاجزا  
عجزا تاما عن العمل نظر اليه فى حزم ثم قال له :  
— يا لك من أحمق ! ألا تستطيع أن تعمل ؟ اذهب وساعد خادم  
مخازنى فى رفع هذه الكومة من التراب وسأعطيك كوبكين .

وحينما كانت حمى العمل تملك عليه زمامه كان يبدو قاسيا لا  
يستشعر قلبه الرحمة لمن حوله — بل لم يكن يرآف نفسه فى سبيل.

الحصول على المال ، وحينئذ تراه وقد أحس كأنه أصبح عبد أعماله  
الذليل ، وليس سيدها المسيطر . وكان هذا يحدث عادة في الربيع  
عندما تمتلئ الدنيا بالسحر والجمال ، وعندما تسبح الروح في زرقاة  
السماء الصافية فتنتشى وتهتز ، وعند ذلك تراه مشغول البال مستغرقا  
في التفكير يرسل نظراته الفاحصة من تحت جبينه المعقد ذي الأسارير ،  
وقد ركبته الهم واستحوذ عليه القلق كأنما يتحدث الى نفسه بأشياء  
لا يستطيع أن يحرك بها لسانه . ثم تستيقظ في أعماقه روح أخرى -  
الروح الشهوانية الضارية ، روح الوحش الجائع ، فتراه وقد أصبح  
فظا يسئ معاملة الناس ويسلط عليهم لسانه البذيء ، وهنا يكب  
على الشراب ويستسلم لغرائزه البهيمية الجافية ، ويجمع الناس من  
حوله ليشاطروه الشراب ، ومن ثم يشعر بحميا شديدة ونشوة لا  
تعادلها نشوة ، ويصبح كالبركان الذي تغل في جوفه الحمم . ومع  
ذاك تراه وكأنه يحاول أن يحطم الاغلال التي أحكم احاطتها بنفسه -  
فهو يشدها من هنا ومن هنا ، لكنه لا يقوى على تحطيمها . ثم تراه  
وقد نهض وهو في حالته الرثة هذه ، وفي هندامه الاشعث، وبوجهه  
الذي ورمه الشراب وقلة النوم ، وغيبه الحمازين الوحشيتين ،  
وصوته الحشن الاجش ، يهيم متنقلا من بيت فساد الى بيت فساد  
آخر ، غير حاسب للأموال التي يبعثرها حسابا ، فاذا سمع أحدا يردد  
غناء فيه شجو وفيه عاطفة رأبته يهتز متأثرا ثم ينهض فيرقص  
ويتخايل ، فاذا حاول أحد أن يقف في سبيله تشاجر معه . ولكن  
شيئا من هذا كله وا أسفاه لم يكن يذهب عنه أشجانه ولا يرد اليه  
راحة باله .

وكان الناس ينسجون الأساطير عن مجالس سكره وعرياداته ،  
وكان الكثيرون منهم يشهرون به أبشع التشهير بسببها ، ولكن أحدا  
منهم لم يكن يرفض دعوة اجنات اذا دعاه الى شيء منها . وكان اجنات  
يستمر على هذه الحال أسابيع وأسابيع في كل مرة . ثم تراه يعود

الى داره فجأة وعلى غير انتظار والروائح الحبيئة التى تشبع بها جسمه  
وملابسه فى دور الفساد تفوح منه وتغشى من حوله ، لكنك مع هذا  
تراه مستسلما خائر النفس بآدى الانقباض ، يتقبل فى صمت وبعينين  
ذليلتين لا تعبران عن شىء عندئذ . . الا عن الشعور بالحجل الشديد . .

ما توجهه اليه زوجته من لوم وتبكيك ، ثم تراه ينسل وقد أصبح  
وديعا كالحمل الذى يساق الى مذبحه فيتوجه الى غرفته ويغلقها على  
نفسه ، وربما ركع فيها ساعات وساعات أمام الايقونات المقدسة  
ورأسه الى أسفل وذراعه مسترخيتان الى جانبه وكتفاه محنيتان فى  
ذلة وضراعة ، لكنه لم يكن يحرك لسانه بكلمة واحدة كأنما كان يخشى  
أن يصلى . وكانت زوجته ربما مشت على أطراف أصابعها الى باب  
غرفته لتصغى اليه من خلال ثقبه فلا تسمع الا تنهدات عميقة أشبه  
بآهات الرجل المريض ، أو الجواد المنهوك ، تنبعث من داخل الغرفة .

وقد يناجى اجنات ربه بكلمات يتمتم بها وهو يشنى يديه بشدة  
الى صدره الرحب قائلا :

- يا الهى ، يا من تعلم كل شىء !

وطالما كان فى هذه الحال من التوبة والاستغفار لم يكن يدوق شيئا  
غير الحبز والماء . وكانت زوجه تضع له فى كل صباح زجاجة من الماء  
ورطلا ونصف رطل من الحبز وشيئا من الملح أمام باب غرفته ، فاذا  
ذهبت فتح الباب ليأخذ هذا الزاد الذى يشبه جراية الرهبان تم أغلق  
الباب على نفسه مرة أخرى ، ولم يكن أحد يقطع عليه سكونه فى مل  
هذه الحلوات ، والواقع أن كل انسان كان يتحاشى لقاءه .

وبعد أيام قليلة من هذا تراه وقد عاد الى سوق الحبوب والأوراق  
المالية ، ثم راح يضحك ويمزح ويبرم العقود لتسليم الحبوب وعيناه  
صافيتان كعيني الباشق لا تخطنان صغيرة ولا كبيرة من دقائق  
العمل .



ولكن اجنات في حالاته الروحية الثلاث هذه كانت تسيطر عليه  
أمنية عظيمة واحدة - هي أن يكون له ولد . وكان كلما تقدمت به  
«السن اشتدت هذه الأمنية ، واستبدت به، وكان يكثر من التحدث الى  
زوجته في هذا الشأن . وكان كلما قدمت اليه فطوره أو غدائه قطباً  
جبينه وعبس ، وراح يسائل أكيولينا زوجته السمينة المكتنزة  
ذات الحدين الموردين والعينين النعساوين قائلاً :

- هيه . . ألا تحسبن بشيء يا أكيولينا ؟

وكانت تعلم جيداً ماذا يقصد ، الا أنها كانت تجيبه غير حافلة :

- وكيف بالله عليك لا أحس شيئاً ، ولك قبضتان تزنان عشرة  
أرطال ؟

- انى أسأل عما فى بطنك أيتها البلهاء !

- أى امرأة أكلت كل تلك ( العلق ) يمكن أن تحمل فى بطنها  
جنيناً ؟!

- المهم ليس « العلق » ، المهم هو افراطك فى الشراب . انك تتخمين  
نفسك بالطعام حتى لا يبقى فى بطنك موضع لجنين !

- ولماذا ؟ ألم ألد لك أطفالاً ؟

وهنا يجيبها اجنات بازدرء :

- بنات !! اننى انما أريد ولداً ، ألا تستطيعين أن تفهمى ذلك ؟  
ولد ، و . . وريث !-خبرينى لمن أترك أموالى اذا مت ؟ من ذا الذى  
يستغفر لى ويصلى من أجلي حينما أفارق هذه الحياة؟ أهب أموالى كلها  
لديبر من الاديرة ؟ لقد منحتها ما فيه الكفاية ؟ أتركها لك ؟ لشد ما  
تصبحين شفيعاً مليحاً، ولشد ما يمتلىء عقلك بالفطائر المحشوة حتى وأنت  
فى الكنيسة ! ثم أنا اذا مت فسرعان ماتتزوجين رجلاً آخر ويكون مصير

أموالى الى يد مغفل من المغفلين ، فهل تظنين أن هذا هو ما أكدح فى سبيله ؟ هه ؟

وكان كلما فكر فى أن حياته حياة خاوية ولا معنى لها ما دام محروما من ولد يحمل اسمه من بعده ، ثار ودارت الدنيا من حوله ، وصار نكدا حاد الطبع بدرجة لا تحتمل .

لقد ولدت له زوجته فى خلال السنوات التسع من زواجهما أربع بنات ، الا أنهن جميعا قد توفين ، وبالرغم مما كان يحدوه من الشوق الى يوم ميلاد كل منهن فإنه لم يكن يشعر الا بالقليل من الحزن لوفاة كل منهن . لأنه لم يكن يريد بنات . . . وقد بدأ يضرب امرأته فى العام الثانى من زواجهما ، ولم يكن يضربها فى أول الامر الا عندما يكون مخمورا فقط ولم يكن يدفعه الى ضربها حقد أو بغض ، بل كان لا يضربها الا عملا بالمثل الذى يقول :

« حب امرأتك كما تحب حياتك ، ولكن هزها كما تهز شجرة التفاح » . ولكن بما أن كل طفلة وضعتها كانت تحطم أحلامه فقد بدأ يكرهها ، وأصبح مولعا بضربها لأنها لا تلد له غلاما !

وحدث مرة حينما كان فى بعض أعماله فى اقليم سامارا جورنيا أن تسلم رسالة جاء فيها أن زوجته قد توفيت ، فصلب على نفسه ، ثم كتب الى صديقه ماياكين يقول له هذه العبارة الساذجة : « ادفنها من غيرى ( ! ) وخذ بالك من أملاكى » ثم ذهب الى الكنيسة حيث أقام لها قداسا ، وبعد أن فرغ من صلواته سكننا لروحها صمم على أن يتزوج ثانية ، وبقدر ما يستطيع من سرعة .

وقد كان عندئذ فى الثالثة والأربعين من عمره . ولقد كان ، كما قدمنا ، طويلا عريض الكتفين همشرى الجسم ، ذا صوت عميق جهير . وكانت نظرات عينيه المظللتين بحاجبيه الكثيفين الأسودين نظرات جريئة يشع فيها الذكاء . وكان فى وجهه الذى لوحته الشمس ،

وبلحيته الثقيلة السوداء كثير من ذلك الجمال الروسي السليم الذى .  
كان يتدفق فى هيكله القوى كله . وكان احساسه بقوته يتجلى فى .  
خطرات مشيته ، ورشاقة حركاته جميعا ، وكانت النساء ينجذبن .  
اليه ، ولم يكن هو يصدف عنهن .

ولم يكده يمضى على وفاة زوجته أكثر من ستة أشهر حتى تقدم .  
لخطبة ابنة رجل قوزاقى من أتباع المذهب القديم كان يعيش فى .  
الأورال ، وكانت بينهما علاقات تجارية . وقد وافق القوزاقى .  
على هذا الزواج بالرغم من شهرة اجنات بأنه (أبو كيفه) ، وبالأحرى .  
بالرغم من وصول شهرته بالهوس الى اقليم الأورال . أما اسم الفتاة .  
فكان ناتاليا ، وكانت طويلة رشيقة ذات عينين زرقاوين واسعتين .  
وشعر كستنائى طويل ، وبهذا كانت نعم العروس لاجنات الرشيقي .  
ولشده ما كان فخورا بزوجه الجديدة ، ولشده ما أحبها من صميم .  
قلبه . . . ولكن . . . سرعان ما أخذ يدرسها فى تأمل عميق !

ان الابتسام لم يكن يعرف طريقه الى وجه زوجته الجميل البضى .  
الا نادرا ، وكانت تبدو ساهمة حاملة باستمرار ، وكانت عيناها .  
الزرقاوان ذواتا هذا الصفاء الساكن تعكرهما أحيانا نظرة قاتمة .  
صارمة ، وكانت اذا فرغت من أعمال المنزل تذهب الى أكبر غرفة .  
من غرفه ثم تجلس فى النافذة ساكنة هادئة دون أن تنبس أو تتحرك .  
ساعتين أو ثلاثا ، وبالرغم من أنها كانت تحملق فى الشارع فانها .  
كانت تبدو كأنها منقطعة الصلة عن كل ما يجرى فيه ، وكان كل .  
انتباهها مركز فى أغوار نفسها ، تبحث فيها عن ذاتها . وكانت لها .  
مشية غريبة . . فلم تكن تمشى طليقة حرة فى غرفات المنزل الفسيحة .  
الرحبة ، بل كانت تمشى ببطء وفى حذر ، وكان البيت مؤثنا تأثينا .  
ثقيلًا شديد التباهى ، كل ما فيه من رياض لامع يكاد يصرخ كاللئى .  
يقول : ان المالك رجل ذو ثراء جم ومال كثير ، وكانت الزوجة .  
القوزاقية تتحاشى أن تمس هذا الاثاث الفاخر والصواوين الزاخرة :

بالفضة ، كأنما كانت تخشى أن تمسكها فتسحقها سحقا . وكانت الحياة التي تغلي غليانا في تلك المدينة التجارية الكبيرة لا تثير شيئا من البهجة في نفس ناتاليا ، وإذا حدث أن خرجت مع زوجها لنزهة على ظهور الحيل ظلت عينها ثابتتين في ظهر السائس لا تريمان عنه ، وإذا سألتها زوجها أن تصحبه لزيارة أصدقائه لم ترفض ، لكنها كانت تظل ساكنة هادئة في أثناء تلك الزيارات كما هو دأبها في المنزل . فإذا حضر بعض الأضياف لزيارتها قدمت اليهم الطعام والشراب بطريقة آلية دون أن تشترك معهم فيما يشرثون به ، ودون أن توجه من الحفاوة بأحدهم أكثر مما توجهه الى الآخر . وكان الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يثير شبح الابتسام على ثغرها هو هذا الرجل الذكي اللبق ماياكين .

لقد كان ماياكين يقول عنها دائما : « هذه ليست امرأة ، إنما هي عصا ! ولكن .. صبرا .. فما الحياة الا شعلة من نار للزينة ، ولا بد أن تشتعل منها هذه الراهبة يوما ما .. وكل ما تحتاج اليه هو الزمن ، وعند ذلك سنرى أى زهرات يانعات ستقدم لنا ؟ »

وكان اجنات يقول لزوجته مازحا : « وبعد ، فيا ذات الوجه الطويل ، فيم تفكرين ؟ أمشوقة أنت الى دار أبك ؟ هيا .. امرحي ! »

لكنها لم تكن تزيد على أن تنظر اليه في سكون وصمت ، دون أن تنبس بكلمة .

« انك تقضين وقتا طويلا في الكنيسة ، ورأيت أن الأوان لم يئن بعد لهذا .. وسيكون لديك الوقت الكثير لكي تذهبي اليها وتعترفي بذنوبك .. فاقترفي هذه الذنوب أولا ، فإذا لم تقترفي ذنوبا ، فلن يكون لديك ما تتوبين منه أو تأسفين على أنك فعلته .. وإذا لم تتوبي فلن تجدى خلاصا .. ولهذا .. فهلمى فاقترفي قليلا من

الذنوب وأنت لا تزالين فى حسدانة العمر .. هيا .. لنذهب.  
فلنتنزّه على ظهور الحيل .. هيا ..

- لا أحسب أن بى ميلا الى هذا !

فاذا قالت ذلك ، جلس الى جانبها ، ونثر ذراعاه حولها ، لكنها  
كانت تبدو باردة ولا تستجيب لأية عاطفة .. فلا يملك الا أن  
يقول لها وهو محمق فى عينيها :

- ناتاليا .. ما الذى يجعلك مهمومة هكذا ؟ هل وجدتنى غشا  
ثقيل انظر ، اه ! لكنها لم تكن تجيب بأكثر من : كلا .. !

- فماذا اذن ، يا ست أهلك !

- لست هذا على الأخص

- فقيم تفكرين ؟

- لا شيء

- فماذا .. اذن ؟

- لا شيء ..

واستطاع يوما أن يجعلها تصرح بما فى نفسها بصورة أوضح :

- ان احساسا غامضا يخامرني .. وكل شيء يبدو فى عيني.  
غامضا مبهما .. ويبدو لى أن كل هذه الأشياء ليست حقيقية !

ثم لوححت بيدها مشيرة الى الجدران والاثاث ، وكل ما حولها ،  
ولم يعن اجنات بالتفكير فيما قالته ، بل لم يزد على أن ضحك ضحكة  
خاطفة ثم قال :

- ماشاء الله ! ليس هذا صحيحا ، فكلها أشياء حقيقية ، وأشياء  
جيدة وغالية الثمن .. ولكنك اذا كان يسرك أن أحرقها ، أو أن  
أبيعها أو أن أتخلص منها وأشتري كل شيء من جديد ، فعلت ، فهل  
يسرك أن أفعل ؟

وتسأله في غير احساس : - ولماذا ؟

لقد كان يعجب كيف تستطيع فتاة في مثل هذا الشباب اليانع والصحة التامة أن تعيش كأنها داخل قوقعة ٠٠ لا تشتتهى شيئا ولا تذهب الى مكان الا الى الكنيسة ، ودون أن تميل الى لقاء أحد ٠٠٠

وكان اجنات يقول لها مواسيا : ليس عليك الا أن تصبرى حتى تلدى لى ابنا ٠٠ وعندها ٠٠ تتبدل الحال غير الحال ! ان عدم وجود هذا الطفل هو الذى يسبب لك كل هذا الهم ، لانك لا تجدين الآن ما تشغلين به نفسك ، فاذا جاء وجدت أمامك ما يشغلك دائما ٠٠٠ وعلى هذا ٠٠ فسوف تلدين لى ابنا ٠٠ أليس كذلك ؟

وتجيبه وهى تنكس عينيها : حتى يشاء الله !

ولم تمض أيام حتى كانت أعصابه لا تحتمل تلك المناكدة ، ولا هذا التجهم

- وبعد فأيتها الراهبة ٠٠ أنت يا ستنا ! ما الذى يجعلك تبدين مهمومة مغمومة هكذا ؟ انك تسيرين كأنك تطئين زجاجا مكسورا ، وتظهرين بمظهر الذى ارتكب جريمة قتل ٠ انك صبية قوية ذات عضل ٠٠ لكنك باردة لا روح فيك ٠٠٠ حمقاء صغيرة ٠٠ وهذا هو ما أنت !

وقد عاد ذات يوم الى المنزل وبه آثار نشوة من السكر ، ثم راح يغازلها ، الا أنها قاومته ، فأثار هذا غضبه ، مما جعله يصيح بها :

- ناتاليا ٠٠ احذرى نتيجة تصرفاتك !

وتنظر اليه بملء عينيها وتقول له غير مهتمة :

- وماذا يحدث اذا لم أفعل ؟



ويصيح بها وهو يخطو نحوها : ماذا ؟  
فتقول له وهي ثابتة في مكانها ، ودون أن تطرف لها عين :  
- لعلك تحدث نفسك بأن تضربني !

وكان اجنات معتادا أن يرى الناس يرجفون أمامه اذا كان غاضبا  
أو مهتاجا ، ولهذا فقد جن جنونه لما رأى من تحديها له بهدونها  
ورباطة جأشها ، ولم يملك الا أن صاح بها :

- سأريك اذن ...

ثم أرسل ذراعه يريد أن يبطش بها ، لكنها أتت بحركة رشيقة  
في اللحظة المناسبة فتفادت من الضربة ، بعد أن أمسكت بالذراع  
الهائلة ، ونثرتها بعيدا عنها ، ثم قالت له بصوت هادىء : « اذا  
مستنتى بسوء فلن تدنو منى بعد اليوم »

ثم أخذت عينها العظيمنتان تضيقتان شيئا فشيئا ، وأخذت مبيضها  
النفاذ بعيد اجنات الى صوابه ، وقد عرف من قسما ت وجهها أنها  
هى أيضا وحش شرس مثله ، وأنها لن تستسلم أبدا وان ضربها  
حتى الموت . فرأى أن يقصر الشر ، فانصرف وهو يقول : « يالك من  
امرأة جريئة ! »

لقد استسلم لها هذه المرة ، لكنه كان ينوى ألا يتكرر هذا مرة  
أخرى ، فقد كان من أشق الامور على نفسه أن توجد في هذه الدنيا  
امرأة تأبى أن تسجد بين يديه ، فما بالك اذا كانت هذه للمرأة  
زوجته ؟ ومع ذلك فقد أدرك أنها لن تستسلم له فى أى أمر من  
الامور ، وأن نتيجة هذا لا بد أن تكون ملحمة مروعة بينهما .

وفى اليوم التالى ، بينما كان يرصد كل حركة من حركاتها ،  
والدهشة بادية على وجهه العابس المقطب سمع نفسه يتمتم قائلا :  
« لا بأس ، سنرى من يكسب المعركة ! » قالها وزوبعة القلق العاتية

تجتمع في أغوار قلبه ٠٠٠ وكان يؤمن بأن القتال كلما نشب سريعا  
أسرع اليه بالتمتع بنشوة النصر . ولكن لم تكد تمضي أيام أربعة  
حتى أخبرته ناتاشا بأن جنينا يتحرك في أحشائها ، وقد سرت في  
كيانه رعشة من الفرح وأخذها في ذراعيه ، وهو يقول لها في صوت  
متهدج :

آه يا ناتاليا لو أن الجنين ولد ٠٠٠ لو أنك وهبت لي ولدا ٠٠٠  
أقسم لا نغمرنك بأكداس من الذهب ! ولكن هذا لا قيمة له ! بل  
أقسم لا تكونن لك عبدا مدى الحياة ! وأقسم على ذلك بالله العظيم !  
وأقسم لا أسجدن عند قدميك لتطئني بهما !

- ليس هذا بأيدينا ، بل الله وحده هو الذي يعلم ماذا يكون  
الجنين ٠٠ ؟

قالت هذا لتذكره في لطف ورقة . ويحببها اجنسات في حسرة  
وأسف وقد نكس رأسه : « أوه ٠٠ أجل ٠٠٠ الله وحده »

ومنذ تلك اللحظة وهو يترفق بزوجه كأنها طفل صغير .

وقد سألها مرة في لهجة حبيبة وان تكن صارمة : « لماذا تجلسين  
هكذا في النافذة ؟ انك تعرضين نفسك للاصابة ببرد شديد ان تم  
تحذرى ، ثم انى لاحظ أنك لا تنفكين صاعدة نازلة على السلالم ،  
فلماذا ؟ انك تضرين نفسك بهذا . وأرجوك يا ناتاشا أن تزيد في  
مقدار ما تأكلين ، اذ لا بد أن تأكل لشخصين ، ولا بد أن يكون له  
نصيبه » .

وكانت ناتاليا قد أخذت تبدو أكثر هدوءا وتفكيريا في أشهر  
الحنن ، وأشد انطواء على نفسها ، وكانت الأفكار في حياة الأمومة  
المستقبلية تجيش في نفسها ، الا أن هذا لم يمنع التبسم الهادئ من  
الامام بشفتيها ، وأخذت عينها تلمعان أحيانا بشعاع جديد أشبه  
في ضعفه ورفيفه بأول أنفاس الفجر .

وبدأت أول آلام الوضع تنتابها في باكورة يوم من أيام الحريف ،  
وعندما سمع اجنات أولى صرخات الألم ترسلها زوجته في جوانب  
المنزل امتقع وجهه وأراد أن يقول لها شيئا لكنه لم يستطع أن ينبس  
بكلمة ، ومن ثم لوح لها بيمينه محييا وهبط الى الطابق الأرضي  
وأوى الى تلك الغرفة الصغيرة التي كانت مصلى والدته ، وأمر الخادم  
بأن يحضر اليه شيئا من الفودكا ، وجلس مكتئبا وراح يشرب وهو  
ينصت الى الجلبة التي تجرى في المنزل . وكانت أوجه الصبور  
المقدسة التي تتسم بالقتامة وقلة المبالة تتخايل في شحوب في  
الركن الذي تضيئه مصابيح الأيقونات . تم سمح وقع أقدام  
مصعدة في الدرج . . . . . وصوت شيء ثقيل يجرونه فوق الأرضية . .  
وفرقعة أحواض وآنية . . . . . لقد كان كل شيء يجري في سرعة ، ومع  
ذلك فقد كان يخيل له أن الزمن كسيح مقعد لا يكاد يتحرك .

وسمع اجنات صوتا يائسا يقول : « الظاهر أنها لن تستطيع أن  
تلد ، ولعل الواجب يقتضى أن نرسل الى الكنيسة ليفتحوا أبواب  
الملكوت » .

ثم دخلت الغرفة التالية لغرفة اجنات امرأة صالحة عجوز كانت  
تعيش في المنزل كاحدى الخدم ، وأخذت تصلى بصوت مسموع  
قائلة :

— يا مولانا ومخلصنا العزيز . . . يا من نزلت من السموات لتلدك  
العذراء المقدسة . . . يا عالما بضعف المخلوقات جميعا . . . اغفر  
لهذه . . . خادمتك الوفية . . .

ومن حين الى حين كانت صرخة تمزق نياط القلب تتردد في البيت  
فتعلو على جميع الاصوات ، أو ربما سمع أنين طويل يدوى في جميع  
غرف المنزل ثم يتلاشى في أركانها التي أخذت تنتشر فيها ظلال المساء ،  
وكان اجنات يرسل نظراته الضارعة الى الايقونات ، متنهدا من أعماقه  
وهو يحدث نفسه قائلا : « أما والله لو جاءت بنتا بعد هذا كله ! »

وكان يقطع انتظاره بالنهوض بين حين وآخر ليصلب على نفسه  
وليركع بين أيدي الايقونات ثم يعود فيجلس عند المائدة مرة أخرى  
ليعكف على شرب الفودكا التي لم تعد تسكره الآن ، ثم يستسلم  
لأغفائة خاطفة • وعلى هذا النحو أمضى المساء كله والليل جميعه  
وصباح اليوم التالي •

وعند الظهر قدمت القابلة وهي تهبط مسرعة على الدرج وتصبح  
بصوت سعيد مسرّس :

— تهنئاتي يا اجنات ماتفييفتشس لقد ولدت ابنا !  
— هل — أنت لا تهزلين •• اليس كذلك ؟  
— يا الهى •• أنا لا أهزل ، وما الداعى للهزل ؟

وهنا يأخذ اجنات نفسا عميقا يملا صدره الكبير كله ، ثم يركع  
على ركبتيه ليصلى لله في صوت متهدج ويدها الى صدره قائلاً : « حمدا  
لك يا الهى — لا شك أنك لم تشأ أن تنقطع ذريتي التي سوف تكفر  
عما ارتكبتها في حقك من الذنوب •• فشكرا لك يا الهى الكريم ! »  
ثم ينهض ويشرع في اصدار أوامره بصوت منجلجل قائلاً : « هيا !  
ليذهب أحدكم الى كنيسة سانت نيكولاس ليحضر القسيس ! وليقل  
له ان اجنات ماتفييفتشس هو الذى يطلبه ! وليخبره بأنه سيقراً صلاة  
لامرأة ولدت طفلا !••»

ولم يكده يفرغ من أوامره حتى دخلت احدى الخدم وهي تقول في  
صوت قلق :

« سيدى اجنات ماتفييفتشس ! ان سيدتى ناتاليا فومينيشنا تسأل  
عنك • انها فى حالة سيئة »

وهنا يصيح اجنات بصوت مدو وعيناه تلجمان بشرا : « فى حالة  
سيئة ؟ •• بل انها ستتعافى • قولى لها اننى آت سريعا واننى فخور

يها ، واننى سأأتيها بهدية عظيمة ! انتظري ! جهزي شيئا من الطعام للنفس ، وأرسلنى فى طلب ماياكين ٠٠ الاشبين ! »

والظاهر أن نشوة الفرحة قد جعلت جسمه الكبير الضخم يزداد كبيرا على كبره ، وكنت تراه يذرع الغرفة وهويحك يديه احدهما بالاخري ، ناظرا الى الايقونات شاكرا مصلبا ، ملوحا بذراعيه ٠٠ ثم لم يلبث أن ذهب بعد هذا الى زوجته .

وكان أول ما استرعى انتباهه جسم أحمر صغير كانت القابلة تغسله فى حوض صغير ، وما كاد يراه حتى عقد يديه وراء ظهره ، وراح يخطو على أطراف قدميه ، متقدما نحوه ، وهو ينظر الى شفثيه فى صورة مضحكة ٠٠ لقد كان الطفل يصرخ ، ويتحوى وهو فى الماء - عريانا ، عاجزا ، مثيرا للرافة والرثاء !

ثم راح اجنات يقول للقابلة فى صوت كله ضراعة : « خنى بالك منه أرجوك ٠٠ حاسبى عليه ، فهو ليس له عظام بعد ! »

ونظرت القابلة اليه وهى تبسّم بفمها الاهتم الخالى من الاسنان ، وجعلت تتشاقط الوليد من يد الى يد فى خفة ورشاقة ، ثم قالت له : « اذهب الى زوجتك ! »

ولم يسعه الا أن يطيع ، ثم راح لزوجته وهو يخطو نحوها :  
- هيه ناتاليا !

وما كاد يدنو من السرير حتى أزاح الكلة قليلا ، وسمع ناتاليا تقول فى صوت ضعيف : « اننى لن أسلم مما أنا فيه ! »

وراح اجنات يحملق فى وجه زوجته الفارق فى تلك الوسادة البليضاء التى كانت تنتشر فوقها خصل شعرها الاسود ، أشبه ما تكون بالأفاعى الميتة . ولم يكد يميز ذلك الوجه الاصفر الخالى من الحياة الذى انتشرت التجاعيد القائمة حول عينيه الكبيرتين المحملقتين ، بل

لم يكذب يميز هاتين العينين المفزعيتين المسمرتين بلا حراك فى شىء ما وراء الحائط .. وهكذا كان هذا انذارا بوقوع كارثة تؤجل دقات السعادة فى قلب اجنات .

- حسن .. هذا هو الذى يحدث دائما فى مثل هذه الأحوال .  
قال ذلك وهو ينحنى ليقبلها ، لكنها أنشأت تقول وهى تنظر فى عينيه مباشرة :

- اننى لن أسلم مما أنا فيه أبدا !

لقد كانت شفتاها بيضاوين باردتين ، ولم تكذب شفتاه تلمسانهما حتى أيقن أن الموت قد دب فى جسمانها بالفعل ..

وأنشأ يتمتم وقد أجس بالخوف يجثم على صدره ويبهز أنفاسه :  
« يا الهى ! ناتاليا .. هذا لا يمكن ! انه .. انه لا يستغنى عنك ..  
فيم تفكرين ؟ »

وهكذا وقف وهو لا يستطيع أن يصنع شيئا الا أن يهتف بزوجه . وكانت القابلة لا تنفك ترقص من حوله وهى تهدد الطفل الصارخ فى الهواء ، محاولة أن تجعل اجنات يفهم ما تقول لكنه لم يكن يسمع شيئا ولم يكن يستطيع أن يحول عينيه عن وجه زوجته المخيف المفزع . وكانت شفتاها تختلجان ، وكان فى وسعه أن يتلقف منهما بعض الكلمات الا أنه لم يكن يفهم منها شيئا . ثم جلس على حافة السرير وجعل يقول بصوت متقطع لا يعنى شيئا :

« ولكن .. انه لا يستطيع أن يعيش من غيرك .. لقد ولد توا .. هيا .. خذى بالك من نفسك .. لا تفكرى مطلقا فى مثل هذا الامر ..  
اطردى هذه الفكرة من رأسك .. اطردىها ! »

لقد كان يتكلم وهو يعلم أن كلامه لا فائدة فيه . وكانت الدموع تتجمد فى عينيه ، وهو يحس أن شيئا ثقيل كالرصاص ، باردا كالثلج ينصب فى صدره .

ثم سمع ناتاليا تتمتم بصوت غير مسموع تقريبا قائلة :



« سامحنى • وداعا •• اعتن به • لا تشرب »  
ثم حضر القس ووضع شيئاً ما فوق وجهها ، ثم شرع من خلال  
تأوهات كثيرة ينشد هذه الدعوات :

« يا الهنا العظيم يا خالق الكون •• يا شافى جميع الامراض ،  
اشف خادمك الوديعة ناتاليا التى وضعت طفلاً توا •• ارفعها يا اله  
السموات من فوق فراشها الذى ترقد فيه •• ذاكرة ما قاله نبيك  
داود : « انهم ينهمكون فى المعاصى ، وهم أشرار فى عينيك »

ثم تهافت صوت القس الطاعن فى السن ، وتجهم وجهه الناحل ،  
وانتشر عبق البخور من ثيابه •• ثم وصل صلاته قائلاً :  
« ثم نج الطفل الذى وضعت من كل شر •• ومن كل شدة ••  
ومن كل المتاعب •• ومن الأرواح الشريرة التى تطيف بالنهار ،  
وتطيف بالليل » •

وكان اجنات فى أثناء ذلك يبكى فى صمت • وكانت دموعه  
الغليظة الدافئة تتساقط فوق الذراع العارية •• ذراع ناتاليا ••  
لكنها لم تكن تستطيع أن تحس شيئاً منها •• فقد كانت ذراعها لا  
تتحرك ولا تسير فيها أية رعشة حينما كانت الدموع تنهمر فوقها ••  
وعندما انتهت الصلاة ، راحت ناتاليا فى غيبوبة ، ثم وافتها المنية بعد  
يومين ، دون أن تنفج شفاتها بكلمة لأحد - لقد ماتت فى مثل هذا  
السكون والصمت اللذين لازاماها فى حياتها • وقد احتفل اجنات  
بدفنها احتفالاً فخماً ، وبعد أن تم تنصير ابنه وتسميته فوما ، عهد  
به ، والأسف يلاً قلبه ، الى صديقه ماياكين ، الذى كانت زوجته قد  
وضعت طفلاً هى الأخرى ، لتتعهد برعايتها •

ولقد تركت وفاة ناتاليا كثيراً من الشعرات البيض فى لحية اجنات  
•• الا أنها بالرغم من ذلك زادت فى حياته شيئاً جديداً - شيئاً لطيفاً  
ظريفاً •• ملاً عينيه بهجة ونورا :

## الفصل الثاني

كان ماياكين يعيش في بيت كبير ذي طابقين ، تحيط به حديقة واسعة تنمو فيها أشجار جميلة طويلة العمر من أشجار الزيزفون ، التي كانت أغصانها المورقة تغطي نوافذ المنزل بستائر داكنة من الدانتلا المخرمة ، وكان كل ما في وسع الشمس أن تصنعه هو أن تتخلل هذه الستائر المورقة ، وتتسرب الى الغرف القائمة المثقلة بالصواوين والصناديق الكثيرة وشتى أنواع الاثاث ، مما كان يجعلها دائما تبدو في مظهر معتم صارم . وكانت أسرة ماياكين أسرة مشهورة بالتقى والورع ، ومن ثم فقد كان جو الدار لا ينفك تجلجل فيه أصوات التوبة ودعوات الانابة والتسبيحات والصلوات ، كما كان ينتشر فيه عبق البخور ودخان الشموع ورائحة الزيت الذي تضاء به مصابيح الايقونات . وكانت الطقوس الدينية كلها تجرى في دقة ونظام تام ، وباعت من السرور بها والاقبال عليها كذلك ، وذلك أن أفراد العائلة الذين كانوا يعيشون في هذا البيت كانوا يوجهون كل نشاطهم المتدفق الجياش الى مسائل الورع وأمور التقوى . وكانت أطياب السيدات المتشحات بالثياب السوداء تشاهد رائحة وغادية خلال تلك الغرف المعتمة الحائقة المقبضة ، وفي أرجلهن تلك الاكوات - أو قل الشباشب - الخفيفة ، وعلى وجوههن مظاهر الورع المصطنع .

وكانت أسرة ماياكين تتكون منه ومن زوجته وابنته ومن خمس قريبات كان عمر صغراهن أربعة وثلاثين عاما ، وكان هؤلاء القريبات جميعا يتساوين في التقى والزهد في المسرات ، وكن جميعا ياتمرن بأمر آنتونينا ايفانوفنا ، زوجة ماياكين ، وهي امرأة طويلة نحيفة .

سمراء ، ذات عينين رماديتين تلمعان ذكاء . وكانت محبة للسلطة ، وكان لماياكين ولد يسمى تاراس ، الا أن اسمه لم يكن يذكر قط بين أسماء أفراد العائلة ، وكان أهل المدينة يقولون ان تاراس حينما كان عمره تسع عشرة سنة ، كان قد ذهب الى موسكو للدراسة ، وكان قبله تزوج بعد ذلك بثلاث سنين ضد رغبة أبيه ، ومن ثم فقد تبرأ منه أبوه ياكوف ماياكين ، ولم يعد أحد يدري ماذا صار اليه أمر هذا الابن بعد ذلك ، الا أنه قد أشيع أنه نفى الى سيبيريا لجريمة ارتكبتها .

أما ياكوف ماياكين فكان رجلا ضئيلا نحيفا مفتول العضل ، ذا لحية مدببة محمرة صهباء ، ونظرات عينيه المائلتين الى الخضرة تكاد تقول للناظر اليه :

« لا بأس يا صاحبي لا بأس .. اننى أعرف ما يدور بنفسك ، ولكنك اذا كفتت عنى أذاك فلن أبوح بسرک لا أحد »

وكان له رأس بيضى كبير لا يتناسب وجسمه الصغير . وكانت جبهته العريضة ذات الأخاديد العميقة تندمج فى صلعة رأسه بحيث يبدو كأن له وجهين ، وجه يستطيع كل انسان أن يراه ، لما يحفل به من بدوات الذكاء والنفاذ ، وما يبرز فيه من ذلك الأنف الضروفي الطويل ، ثم وجه آخر خال من العيون ، وكله تجاعيد حتى ليخيل اليك أن ماياكين قد أخفى عنك عينيه وشفثيه فى تلك الغضون حتى يجين الحين للكشف عنها ، حينما يستطيع أن يطلع على الدنيا بعينين أخريين ، وان يبتسم لها ابتسامة جديدة !

وكان يملك معملا لصنع الحبال ودكانا على أحد أرصفة السفن مملوءا الى سقفه بالحبال والقنب والسلب ، وكان له فى مدخل هذا المحل غرفة مكتب يدخل اليها من باب زجاجى ذى مفصلات تحدث صريرا مزعجا . وكان المكتب يشتمل على درج كبير قبيح الشكل ، أكل الدهر عليه وشرب ، وللدرج كرسي واطيء ذو ذراعين كان يجلس عليه

ماياكين ، ويقضى عمره فى شرب الشاي وقراءة صحيفته المفضلة الموسكوفسكيه فيدموستى . وكان يقع من نفوس زملائه التجار موقع الاحترام ، وكان معروفا بينهم بأنه رجل سريع الفهم واسع الادراك . وكان مغرما بالتباهى بأبائه وآباء آبائه ، وكان يقول بصوته ذى الأزيز :

« لقد كنا ، آل ماياكين تجارا منذ عهد الملكة كاترين ، وبالاختصار ان الدم الذى يتدفق فى عروقى دم منسب ! »

ففى هذه العائلة اذن ، أمضى ابن اجنات جوردييف السنين الست الاولى من عمره . وكان فوما ، وهو فى السنة السادسة ، يبدو برأسه الكبير وكثفيه العريضتين أكبر من سنه ، بسبب كبر جسمه ، وبسبب هذا البريق الذى كان يشع من عينيه السمرالوين اللتين تشبهان ثمرتين من ثمار اللوز . وكان ولدا هادئا ، الا أنه كان من هذا النوع الذى يصر على أن يكون له أسلوبه الخاص فى الحياة . وكان ، هو والصغيرة ليوبا ابنة ماياكين ، يقضيان النهار بطوله يلعبان بلعبهما تحت رعاية احدى قريبات الاسرة ، تلك الخادمة السمينة الساكنة اعجوز المثلثة بأثار الجدرى ، التى كانوا يسمونها لسبب من الاسباب « بوزيا » وكانت مخلوقا فيه وحشة وفيه انقباض ، حتى لقد كانت تكلم الطفلين اذا كلمتهما ، بكلمات قصيرة خاطفة . وبصوت هادىء خفيض . وكانت تحفظ عددا لا حصر له من الصلوات والتسابيح ، ولكن يبدو أنها لم تكن تعرف شيئا من الحكايات . . . لآن فوما لا يذكر أنه سمع منها حكاية ما .

وقد سارت الامور على خير حال بين فوما وليوبا ، لكنها كانت اذا عاكسته أو أثارته غضبه كان لونه يمتقع ، وكانت عيناه تدوران دورانا مضحكا ، وكانت خياشيمه تنبسط ، وربما هجم عليها وراح يضربها بكل ما فيه من قوة ، وعند ذلك كانت تصيح وتصرخ ، وربما جرت الى والدتها لتشكوه اليها ، ولكن آنتويننا ايفانوفنا كانت تحب فوما ولم تكن تعير شكواى ابنتها أدنى التفات ، وكان هذا منها يقوى أواصر

الصداقة بين الطفلين • أما أيام فوما فكانت طويلة متشاكلة • وكان كلما استيقظ في الصباح اغتسل ، ثم ركع أمام ايقونات ليتمتم بصلوات لا نهاية لها • وبعد ذلك تجلس العائلة لفظورها الذي تشرب فيه قدرا كبيرا من الشاي ، وتآكل الكثير من لقمة القاضي والكعك والفظائر المحشوة باللحم • فاذا انتهى الفطور خرج الطفلان ، ولاسيما في أيام الصيف ، يتجولان في الحديقة الشجراء التي كانت تنتهي بأخدود عميق مظلم تنتشر منه أبخرة وأشياء مخيفة • ولم يكن يسمح لهما بالاقتراب من هذا الاخدود ، وكان هذا يضاعف خوفهما منه • فاذا كان الشتاء لعبا داخل المنزل حتى وقت الغداء ، اذا كان الجو شديد البرودة ، فاذا كان غير ذلك ذهبوا يتزحلقان بالزحافات على ثلج تل سحيق •

وعند الظهر ، كانا يتناولان غداءهما « على الطراز الروسى القديم الصالح » كما كان ماياكين يقول ! لقد كان أول ما يوضع على المائدة مطبقية كبيرة ممتلئة بحساء الكرنب ، ليس فيها شيء من اللحم ، ولكنها تشتمل على أقراص من العيش المحمر وكمية كبيرة من الدسم العائم على سطح الحساء ، ثم تقدم شرائح من اللحم على حدة لتؤكل مع الحساء ، ثم يتلو هذا لحم محمر من أى نوع • • لحم خنزير مثلا ، أو لحم أوز أو لحم عجل أو لحم كرش مخلوط بشريد من دقيق الحنطة • • ثم يلي ذلك شوربة بالكبد والكلاوى أو شوربة بشعرية ، ويختتم هذا كله بشيء من الحلوى الجيدة • أما الشراب الدائم فكان شراب الكفص المصنوع من العرعر أو عنب الديدب أو الحبز - وكانت آنتونينا ايفانوفنا تحتفظ على الدوام بأنواع مختلفة من هذا الشراب • وكانوا يأكلون فى صمت وسكون ، وكان ما يبذلونه من جهد فى التهام طعامهم يجعلهم يرسلون تهديدات متعبة • وكان الطفلان يتناولان طعامهما على حدة من اناء واحد • وباقى الاسرة من اناء واحد كبير آخر • ولم يكونوا يصنعون شيئا بعد أكلة كهذه الا أن يناموا ، ولهذا كانت الحركة تخمد فى المنزل ساعتين أو ثلاثا ، ولم يكن يسمع فى منزل

ماياكين الا الشخير والتنهيدات الناعسة !

فاذا صحوا تناولوا الشاي وراحوا يرددون ما يحاك من شائعات حول شماس الكنيسة والمرتلين وأنباء العرس الاخير أو سلوك بعض التجار من معارفهم .

وقد يقول ماياكين لزوجته بعد الفراغ من شرب الشاي :  
« وبعد فيا أماه . . على بالكتاب المقدس » .

وكان أحب ما يقرؤه من هذا الكتاب سفر أيوب ، وكان اذا وضع نظارته ذات السلوك الفضية على أرنبة أنفه التي تشبه منقار الصقر ، استندار حوله ليلقى نظرة على الاسرة كي يطمئن على أنهم حاضرون جميعا ، وكان يلذذ أن يجدهم جميعا فى أماكنهم المعتادة ، وقد بدوا فى هيئتهم تلك الكئيبة العادية التى يظهرون فيها بمظهر التقوى والصلاح .

« كان يوجد رجل فى أرض أوز » .

وهكذا بدأ ماياكين قراءته بصوته ذى الصرير ، وكان فوما الذى كان جالسا مما يلي ليوبا على الكنبه التى فى الركن يعلم أن اشبينه ماياكين ربما توقف قليلا ليمر بيده على هامته الصلعاء ، وكان يرسم لنفسه وهو يصغى الى ماياكين صورة خيالية لهذا الرجل الذى يسكن فى أرض أوز ، فكان يتصوره طويلا عاريا ذا عينين عظيمتين كعيني المخلص المرسوم فى الايقونة ، وله صوت كصوت الطبله النحاسية التى يطل عليها الجنود فى ثكناتهم . وكانت كلما مرت دقيقة ازداد هذا الرجل طولاً ، حتى اذا أصبح طويلا كالسما مد يديه القائمتين بين السحاب فجعله شقين وراح يصيح بصوته المزعج :

« لماذا يوهب النور لرجل طريقه خافية ، وقد حل الله فيه ! »

لقد كان فوما يرتعد من الخوف وكانت سنات النوم قد هربت جميعها من عينيه عندما كان ينظر الى اشبينه وهو يعبث بشعرات من لحيته ينتفها ويقول فى فكاهة رشيقة :



« ان ثم زميلا جسورا يليق بك يا فوما ! »

لقد كان فوما يعرف أن ماياكين يشير الى هذا الرجل الذى من أرض أوز ، وقد أكد له هذا ابتسامة اشيبينه • ان الرجل لم يكن قمينا بأن يشد السماء فيوقعها على الارض ثم يمزقها اربا اربا بيديه الجبارتين • ثم رأى فوما الرجل مرة ثانية بعين خياله ، وكان هذه المرة جالسا على الارض و « لحمه مغطى بالدود وركام التراب » وكان جلده قد أصبح « مشققا كريبه الرائحة » والآن أصبح الرجل ضئيلا ضعيفا وراح ينظر الى الدنيا كما ينظر اليها أحد الشحاذين الذين يقفون عند سقيفة احدى الكنائس •

وقال فوما متسائلا : « ومن ذا الذى يستطيع أن يخرج شيئا نظيفا من شيء غير نظيف ؟ »

فقال ماياكين شارحا : « لقد وجه هذا السؤال الى الله ، اذ سأله قائلا : كيف يمكن أن أكون صالحا اذا كنت قد ولدت من لحم امرأة ؟ » وهنا جعل ماياكين ينظر الى النساء مستقصيا وفى عينيه لمعة من النصر ••

فتنهدت النساء قائلات : « لقد برهن الرجل الصالح على قيمة نفسه » ••

وهنا قال ماياكين وهو يضحك ضحكة ساخرة :

« أيتها البهاوات اذهبن وأمنن الطفلين فى فراشهما » •

وكان اجنات جوردييف يحضر الى آل ماياكين يوميا ، وكان يحضر لابنه كثيرا من اللعب ، وكان يتلقفه من على الأرض ثم يحتضنه بلذة وشغف ، الا أنه كان يبدو أحيانا منحرف المزاج • لقد كان يسأل ابنه فى شيء من القلق المكتوم :

— ماذا يجعلك بادى الكتابة مهموما هكذا ؟ لماذا لا تضحك ولا تطرب.

أكثر ؟!

وقد قال لصديقه ماياكين ذات مرة متسائلا :  
- أخشى أن فوما سيكون يوما ما كما كانت أمه ، لقد أصبح له مثل  
-عينيها الحزنتين !

ولكن ماياكين أجابه ضاحكا : « ليس هذا أوان التفكير فى ذلك ،  
لقد كان ماياكين يحب فوما حبا شديدا ، وقد هلع هلعاً بالغا حينما  
قال له اجنات فى احدى زياراته انه ينتوى أن يسترد ابنه ليعيش  
معه فى منزله . وقد قال له ماياكين يوم ذاك مفزوعا :

- دع الولد يا شيخ يعيش معنا فقد أخذ علينا وتعود الحياة بيننا .  
انظر . . انه يبكي . . ألا ترى !

- لا بأس . . فسيقلع عن بكائه عما قليل . أتظن أن الله قد أعطاني  
ولدا لكى أعطيك اياه بدورى ؟ ثم . . ان الاحوال فى منزلك هذا كثيية  
موحشة . . انه أشد وحشة من دير . . وهذا مما يضر بالولد . . ثم  
أنا . . لشد ما أشعر بالفراغ بسبب بعده عنى . . اننى أعود الى  
منزلى لأجده دارا خاوية ، ليس فيها ما يسعدنى ويثير البهجة فى  
نفسى . . وأنا لا يمكننى أن آتى لأسكن معك من أجله . . فلست أنا  
الذى كان المقصود أن أكون له . . بل كان المقصود أن يكون لى . .  
تلك هى المسألة يا صديقى . . وقد حضرت أختى أنفيسا لتعيش معى  
. . وستوليها عنايتها .

وعلى هذا فقد انتقل فوما الى دار أبيه . .

وقد استقبلته عند باب هذه الدار امرأة عجوز مضحكة ذات أنف  
طويل مقوس وفم كبير أهتم . وكانت طويلة الجسم مستديرة الكتفين  
ذات شعر أشيب ، تلبس ثوبا رماديا ، وتلف شعرها الذى وخطه  
الشيب ، بمنديل حريرى صغير - ولم يشعر فوما نحوها بشيء من  
المحبة أول الامر ، بل كان يوجس منها خيفة ، لكنه عندما رأى عينيها  
السوداوين المتبسمتين تفيضان محبة وحنانا وسط هذا الوجه  
المجعد - المكرمش - اندفع نحوها ليخفى وجهه فى نطاقها الواسع .

الفضفاض ، وهنا لم يسعها الا أن تقول له بصوتها الناعم والعاطفة .  
تهزها هذا ، وهى تزيبت على رأسه الصغير :

يا ولدى الصغير اليتيم ! انظر يا اجنات كيف يحضننى ويتشبث  
بى هذا الحبيب الصغير !

وكان فى غرامها بفوما شىء حلو رقيق لكنه غريب غير عادى .  
شىء لم يعهده اجنات جوردييف من قبل ، مما جعله يحملق فى عيني  
أخته العجوز فى تطلع ورجاء . لقد كانت مهمة هذه السيدة هى أن  
تبدأ تعويد الغلام على حياة لم تكن تدور له فى بال من قبل . فهى  
عندما ذهبت به لتضعه فى فراشه ذلك اليوم الاول ، لم تلبث أن جلست  
الى جانبه ، ثم مالت نحوه قليلا وهى تقول :

— هل أروى لك حدوته ؟!

وتعود فوما بعد ذلك أن يستغرق فى نوم عميق لذيذ على صوتها  
الناعم الباعث ، وهو يزخرق لنفسه الصور الحلوة الرائعة من عالم  
الخيال . ولقد كان يعجب من جمال هذا العالم عبا . وكان من حسن  
حظه أن عمته العجوز هذه كان فى رأسها كنز من الاساطير لا تفنى  
مادته ، وذاكرة عجيبة وخيال أعجب يساعدها على سرد تلك الاساطير  
وكان يخيل لفوما حينما تغفو عمته أحيانا ، وهى تسرد عليه قصصها  
الشائقة ، أنها هى هذا الـ بابا - بابا ، يا جا ، بطل أساطيرها . بابا -  
يا جا صالح رحيم . وفى أحيان أخرى كان يتصورها فى صورة  
فاسيليزيا الحكمة الجميلة . أما اذا رقد بعينيها المفتوحتين ، وأنفاسه  
الوانية ، محملا فى ظلال التهاويل المرتعشة ، المتصاعدة من مصابيح  
الايقونات . فقد كان خياله يملأ تلك الظلال بمنظر عجيبة يصوغها  
من قصص تلك الاساطير . وكانت الظلال الصامتة - الحية مع ذلك -  
تحتشد فوق الجدران وأرضية الحجر وتنزلق عليها ، وكان فوما  
يستشعر شيئا من الرهبة ، وان تكن رهبة لطيفة مسلية مع ذلك ،  
وهو يحيل هذه الظلال فيجعلها صورا وألوانا من الحياة ، ثم لا يلبث

أن يبطل بها ويمزقها في لحظة ، بخطفة واحدة من أهداب عينيه ، وعند ذلك كانت عيناه تأخذان تعبيراً جديداً ، أقل خطورة وجداً ، وأكثر دعة وطفولة ٠٠ لقد كان الظلام والوحشة يثيران فيه احساساً عميقاً من الالهفة والترقب ، يدفعه الى حب الاستطلاع ، ويجعله لا يبالي الرعب المنبعث من بعض الاركان المظلمة ٠٠ فهو يذهب اليه ليستطلع ماذا يختبئ فيه ٠٠ ولم يكن يجد فيه شيئاً بالطبع ٠٠ الا أنه لم يكن يفقد الامل في أن يجد فيه شيئاً يوماً ما ٠

وكان أبوه يثير الخوف في نفسه ، الا أنه كان يحبه مع ذلك ٠ وكان جسم اجنات الضخم ، وصوته المدجلج الرنان ، ووجهه الملتحي ، وشعره الكثيف الاشيب ، وذراعا الطويلتان الجبارتان ، وعينهاه اللماحتان ٠٠ كان هذا كله يجعله في روع الطفل أشبه بأحد لصوص الغاب في احدي الاساطير ٠

وفي أحد الايام ، وكان فوما قد بلغ السابعة من عمره ، راح يسأل أباه الذي كان قد غاد توا من رحلة طويلة ، عن المكان الذي كان فيه ٠ فلما قال له أبوه : « من أقصى الفولجا » ٠ راح يسأله هذا السؤال العجيب : « هل كنت في غارة من غاراتك ؟ » يريد فوما بالطبع غارة من تلك الغارات التي يشنها لصوص الغاب !

وهنا ذهل أبوه ٠٠ وراح يتساءل وقد حملهق وصعد حاجبيه :

- ١٠٠١ هـ ؟!

- لكنك ٠٠ لص يا أبى ٠٠ أليس كذلك ؟ ٠٠ أنا أعلم أنك لص ! قالها فوما وهو يدير عينيه في خبث ، وقد بلغ به السرور مبلغه لاعتقاده أنه استنتج بمثل هذه السهولة اختراق الحجب التي تحجز بينه وبين حياة أبيه السرية !

وقد رد عليه أبوه في صرامة :

« انما أنا تاجر ! »

الا أنه بعد لحظة من التفكير راح يبتسم ابتسامة طريفة مهذبة ، ثم

قال :

- وأنت مغفل صغير ! أنا تاجر حبوب يا أبله . . وأمتلك عددا من المراكب البخارية ! ألم تقع عيناك على السفينة يرمك ؟ هذه إحدى سفنى . . وسفنك أنت أيضا !

وعند ذلك أنشأ فوما يقول فى تهدة خاطفة : « يا لها من سفينة ضخمة ! »

وهنا قال له أبوه وهو يداعبه :

- اذن . . ما دمت صغيرا فسأشتري لك سفينة صغيرة . . على قدك ! فهل أفعل ؟

وقال فوما متلهفا : « أوه . . أجل ! »

الا أنه بعد ما أجال تفكيره فيما دار بينه وبين أبيه من حديث عاد يقول ، كالذى يعتذر : « لقد كنت أعتقد أنك لص ! »

- أنا تاجر قلت لك !

وقد قالها اجنات محتدا ، وهو يتفرس مشفقا فى ابنه الذى كأنما بدت عليه خيبة الرجاء فى أن أباه ليس لصا .

وسأله فوما بعد لحظة : « مثل بابا فيدور ماياكين ، الذى يبيع السلب والحبال ؟ »

- أجل . مثله ، لكننى أغنى منه بكثير . . ان لدى أموالا أكثر مما لدى فيدور .

- لديك أكوام من المال ؟

- ربما . . ولعل بعض الناس عندهم أكثر مما عندى .

- كم خزنة ؟

- ماذا ؟!

- كم خزنة من المال ؟

- يا مغفل . . ان الناس لا يقيسون الغنى بعدد الخزائن .

- بل هم يفعلون !،

وقد قالها فوما منتشيا وفي انتعاش شديد ، ثم رفع عينيه الى  
أبيه متعجلا الشرح ٠٠ ثم أكمل حديثه فقال :

- لقد سرق مكسيم اللص ذات مرة اثني عشر صندوقا مملوءة  
بالذهب ، فضلا عن فضة كثيرة ، من رجل غني ، ثم سطا على الكنيسة  
بعد ذلك ، واخترق بسيفه صدر رجل آخر ، وقذف بجسمه خارج  
قبة الجرس ، لأنه كان يحاول دقه طلبا للنجدة .

وهنا راح اجنات يسأل ابنه ، وقد سر سرورا كبيرا لما رأى من  
انتشاء فوما وانتعاشه :

- أكانت عمتك تحدثك بكل هذا ؟  
- أجل ٠٠ ولماذا ؟

فضحك اجنات ثم قال : « لا شيء ٠٠ ولكنى فهمت الآن لماذا جعلت  
من والدك لصا ! »

وسأله فوما في رجاء وتمن :

- لعلك كنت لصا ذات مرة !  
- كلا ٠٠ أبدا أبدا ٠٠ واطرد هذه الفكرة من رأسك !  
- أبدا ٠٠ أبدا ٠٠ ؟

- أبدا أبدا ، قلت لك : يا لك من غبي صغير أتحنسب أن مما يشرف  
أى انسان أن يكون لصا ؟! انهم جميعا مجرمون آثمون هؤلاء اللصوص  
الذين تعجب بهم ٠٠ انهم لا يؤمنون بالله ، ويسطون على الكنائس ،  
ومن أجل هذا تستنزل الكنائس ومن فيها لعنة الله عليهم ٠٠ هم !  
ولكنى جئت لأقول لك يا بني ، انه قد آن أوان تعليمك ٠٠ وهذا هو  
الوقت المناسب لذلك ، أيها العفريت الصغير ٠٠ ستدرس طول الثبنتاء ،  
فاذا أقبل الربيع ، وحان موسم أعمالى ، أخذتك معى على الفولجا ٠٠  
وسأله فوما في رهبة :

- تعنى أننى أذهب الى المدرسة ؟

- بل تبدأ دراستك أولا مع عمته في المنزل .  
ومنذ ذلك اليوم وفوما الصغير يجلس كل صباح عند منضدته  
ليكرر ما تقوله عمته من أحرف الهجاء السلافى ، مشيرا اليها باصبعه :  
آز . . بوكى . . فيدى . .

حتى اذا وصل الى الاحرف :  
برا . . فرا . . جرا . . درا . . أخذت المقاطع ترن فى أذنيه رنينا  
رتيبا مضحكا . . ولم يكن يملك نفسه من الضحك عليها فعلا . .  
وكان يكرها كرا سريعا - ثم لم يمض زمن طويل حتى كان يشرع  
فى قراءة أولى تساييحه :  
- مبارك هو الذى . .

وكانت عمته تشجعه وهى مسرورة بنجاحه قائلة :  
- عال . . عال . . يا حبيبي . . صح يا فوموشسكا . . صح  
يا حبيبي !

وحينما حدثت أباه عما ناله من التقدم فى دراسته ، التفت اليه  
وقال له فى لهجة فيها من الجذ والخطورة ما فيها :

« عال جدا . . مبروك عليك يا فوما . . سأخذك معى الى أستراخان  
فى الربيع . . وعندما يأتى الحريف سوف أرسل بك الى المدرسة ،  
لقد كانت الايام تمر مرا سريعا فى نظر فوما . . حتى لكأنها كرة  
ندحرج على منحدر تل من التلال ، وكانت عمته لعبته ، بقدر ما كانت  
معلمته . وكانت صديقة طفولته ليوبا ماياكينا تحضر أحيانا لزيارتها ،  
مكانت العمة العجوز الشمطاء تنقلب فتكون طفلة مثلها تماما ، وكانوا  
جميعا يلعبون لعبة الاستغماء ، وربطة العينين . وكان الطفلان  
بضحكان من أعماقهما حينما يريان العمة العجوز تتخبط وسط الغرفة  
والمندبل مربوط على عينيها ، ويداهما ممدودتان ، وهى تتعثر بالكراسى  
والمناضد بالرغم مما تبديه من حذر ، وهى تتحسس الأماكن التى  
تخبثان فيها ، مغممة فى أنفاسها المقطوعة :

« العفريتان الصغيران .. القردان الشقيان .. يا ترى أين هما  
مختفيان ؟! »

لقد كانت الشمس ترسل أشعتها اللطيفة على هذا البدن العجوز  
ذى الروح الشابة - تلك الحياة المعتقة التي تصب ما تبقى فيها من مدخر  
القوة والعافية لتنضّر هاتين الروحين وتزيدهما بهجة .

وكان اجنات يذهب الى بورصة الجبوب فى الصباح الباكر ، ثم  
يبقى هناك فى كثير من الاحيان حتى المساء ، وربما ذهب فى المساء  
لزيارة أصدقائه ، أو لحضور جلسات مجلس المدينة ، أو الى أى مكان  
آخر . وفى بعض الاحيان كان يعود الى المنزل مخمورا لا يعى . وكان  
فوما ، فى أول الامر ، يهرب منه ليختبئ فى مكان ما ، حينما يراه  
كذلك ، لكنه سرعان ما تعود هذا منه ، وكان يسره أن يلتقاه على هذه  
الصورة من أن يراه مقيقا واعيا ، فقد كان يبدو أكثر سداجة وبراهة  
وهو سكران ، وأكثر بشاشة وودا .. وفضلا عن هذا فقد كان يبدو  
أكثر سخفا ومعاينة ! وكان اذا عاد ليلا ، يرسل من صوته المدوى  
ما يوقظ الطفل من نومه العميق :

- أنفيسا ! افتحى يا أختى العزيزة لكى أرى ابنى وورينى ..  
افتحى يا أختى .. افتحى .. با لك من أخت طيبة !

وربما كان جواب أخته الوحيد هو :

- اذهب ونم أيها السكير العرييد .. الواقف هناك .. تلخبط  
وتهدى ولا تستحى من شيبتك هذه !

- أنفيسا ! ألا تسمحين لى بأن ألقى نظرة واحدة على ابنى ! نظرة  
واحدة فقط !

- قلع الله عينيك من كثرة ما تشرب من هذه الحمر !

وكان فوما يعرف أن عمته لن تفتح لاييه باب الغرفة .. ولهذا  
كان يعود الى فراشه ، تاركا اياهما فيما فيه من شجار ونقار .



فان كانت عودته نهارا وهو فى هذه الحالة من السكر ، فربما تلقف  
بسه فى يديه الجبارتين ، ثم راح يضحك فى نشوة سكره ، وجعل  
يجىء ويروح فى الغرفة وهو يقول :

— ماذا تريد أن أشتري لك يا فوما ؟ تكلم ! حلويات ؟ لعب ؟ هيا !  
أطلب منى أى شىء ٠٠ فلن يوجد فى هذه الدنيا شىء لا يمكن أن  
أشتره لك ٠٠ تذكر هذا ٠٠ لقد جمعت مليون روبل ٠٠ ولا زلت  
أجمع أكثر وأكثر ، وهى كلها لك !

الا أن بشاشته تلك ربما انطفأت فجأة كما تنطفىء الشمعة فى  
هبه من الريح ٠ فترى خديه المنتفخين وقد انخسفا ، وعينيه الملتهبتين  
وقد أغرقهما الدمع ، وشفتيه وقد عبرتهما تكشيرة واجمة ٠

وربما نظر الى أخته وقال :

— أنفيسا ! ماذا لو أنه مات ؟! ماذا أصنع اذن ؟

وكانت هذه الفكرة قمينة بأن تصيبه بنوبة من نوبات الجنون ،  
وعند ذلك تسمعه يجأر ويصرخ ، ثم ينظر متفرسا فى ركن من الاركان  
المظلمة ، ويهتف قائلا :

— لو حدث هذا لأضمرت النار فى كل شىء ، وأتيت على كل شىء  
٠٠ وجعلته كله حطاما !

وكانت أخته تصيح به :

— كف عن صياحك هذا أيها الوحش ، أتريد أن تشيع الرعب فى  
نفس الطفل ؟ أم تريد أن تجلب له المرض ؟

وكان جوابها ذاك كافيا لتراجعه ، فينصرف وهو يغمغم :

— طيب ٠٠ طيب ! هأنذا منصرف ، فلا تصيحى ولا تصخبى ٠٠  
ولا تزعجيه !

وكان فوما اذا أصابته علة أو ألم به مرض ، ترك أبوه كل أشغاله  
وقد يلزم بيته لا يبارحه ، ويأخذ فى التنقل من غرفة الى غرفة أخرى



•• فلن يوجد في هذه الدنيا شيء لا يمكن أن اشترية لك ••

مهموما محزوننا ، وفى عينييه من الخوف ما فيهما ، وفى صدره من  
الآتين والتفجع ما فيه ، ولا ينى يوجه الى اخته والى ابنه سيلا لا ينقطع  
من الاسئلة والنصائح .

وكانت أخته ربما نهرته قائلة :

- انك ربما استنزلت غضب الله وسخطه على رأسك . فأمسك  
عليك لسانك والا سمع ما تلغو به . . . وقد ينزل بك عقابه لما تجازيه  
به من هذا الجزاء السيء على ما أحسن به اليك من هذه النعم كلها !  
- آه يا أختاه ! ألا تستطيعين أن تفهمي أنه اذا أصابه أى شيء  
نحطمت حياتي ! فما جدوى الحياة من بعده ؟ لا شيء . . . !

وكان فوما ينزعج أول الامر لهذه المشاجرات ، ولتلك التقلبات  
العابزة فى مزاج أبيه ، الا أنه سرعان ما تعودها . . . وكان كلما أطل  
من النافذة ولمح أباه ينزل من مركبة الجليد فى صعوبة ومشقة أسرع  
الى عمته ليقول لها فى غير مبالاة :

- لقد عاد بابا مخمورا مرة أخرى يا عمّة !

ثم أقبل الربيع ، وبر اجنات بوعدہ لفيوما ، فقد صحبه معه فى  
السفينة ، حيث تكشفت لعيني الطفل ألوان من الحياة جديدة ومختلفة  
اختلافا كليا .

لقد كانت اليرمك ، تلك السفينة الجرارة البديعة التابعة للتاجر  
اجنات جوردييف ، تنزلق مع أتيار مسرعة رشيقة ، على حين كانت  
شططان الفولجا على الجانبين تقبل للقائها . وكان الشاطيـه الأيسر يمتد  
الى حيث يلتقى والافق نفسه كبساط من السندس الأخضر مغمورا  
فى أشعة الشمس ، والشاطيـه الأيمن يرسل قممه المغطاة بالغيابات  
الى عنان السماء حيث تتشبث بها سكينتها الغافية . وكان الفولجا  
المنبسطة الصدر ينساب بينهما فى هذا المدى المهيـب ، وأمواهه  
تترقرق فى هدوء وجلال وتؤدة ، تنعكس فيها تلك الظلال القائمة

التي ترسلها القمم المشجرة الى اليمين ، والمخمل الاخضر والقטיפه الذهبية التي تكتسى بها المروج المائية والشواطىء الرملية الى اليسار . وكانت القرى تتراعى تارة فوق القمم ، وأخرى وسط المروج ، والشمس تعكس أشعتها على زجاج نوافذ الاكواخ ، وتلمع على الكلل المنسوجة من القش ، والتي تغطي الاسطح ، وتتلاّلا في ذهب الصلبان التي تحجب قمم الاشجار جانبا منها . وكانت مراوح الطواحين تتحرك في وناء ورفق في النسيم الطلق ، ومداخن المعامل تنسج خيوطا من دخانها في صفحة السماء . وكان صمت النهر تشمقه صيحات الاطفال بقمصانهم الحمراء والزرقاء والبيضاء ، وهم وقوف عند حفاقي الشاطيء يشاهدون السفينة مناسبة فوق الماء ، منتظرين هذا المرح الصغير الذي ترسله قلابة السفينة من ورائها لكي يصل الى اقدامهم فيدغدغها . وحفنة من اطفال آخرين يثبون في زورق صغير ثم يعملون أيديهم في مجاديفه بشدة وعنق حتى يكونوا في وسط التيار لكي تؤرجحهم جرة (١) السفينة . وكانت تيجان بعض الاشجار العالية تبرز من تحت الماء - وفي بعض الاماكن كانت أحراش بأكملها تنبت فوق صفحة النهر ، حتى لتبدو كأنها جزائر في وسط العباب ، وكانت ألحان بعض الاغنيات الكثيبة التي يتغنى بها العمال اللاهثون تصل من الشاطيء هكذا :

- واحد .٠٠ اثنين .٠٠ هب ! واحد ، اثنين .٠٠ شد !

وكانت اليرمك تمر ببعض أرمات (٢) الحشب فتطويها في أمواجها فتتهتز اهتزازا عنيفا ، ويأخذ ملاحوها يتضاحكون ويتصايحون عندما يختل توازنهم . وكانت نقالة صغيرة مشحونة مصعدة في النهر ، وكانت عروق الحشب الصفراء التي تحملها تتلاّلا كالذهب في أشعة

(١) جرة السفينة هي هذا الدليل من الامواج والزبد الذي تحدنه وراها وهي نمخر

عباب الماء ( د )

(٢) اليرمك بفتحين الحشب يضم بعضه الى بعض ويركب في البحر ( القاموس ) ،

الشمس فتنعكس في صفحة الماء التي يكسبها الربيع قتامة . وقد أرسلت سفينة ركاب صفارتها وهي مقبلة نحو اليرمك، وكانت أصداء الصفير تنساب بعيدا لتتلاشى في الغابات وفي كهوف الجبال . وقد دفعت الامواج بالمركبين فاصطدما وسط التيار ثم افترقا ، وهما يهزان الجرارة والنقالة ، وكان على منحدرات الشاطئ الايمن شرائط من الحقول تلمع فيها سنابل القمح الشتوى ، وشرائط من الارض البور ، وشرائط أخرى من الارض المحروثة استعدادا لزراعة الربيع . . . وكانت تنتشر فوق ذلك جميعا طيور لم تكن تبدو أكثر من نقط صغيرة ترى من وراء الماء ، ومع ذلك فقد كانت ترى بوضوح تام اذا طارت وانعكست على صفحة السماء الزرقاء . وكانت قطعان الماشية التي تبدو كاللعب ترعى من قرب ، على حين وقف راعيها الذئبي يبدو كاللعبه هو الآخر ، متكئا على عصاه يمتع ناظريه بجمال النهر .

وكان الانسان يجد على مدى النظر الانطلاق ، والحرية . . . واللائلاء ، وخضرة المروج البهيجة ، وزرقة السماء الصافية . . . كما كان يستشعر القوة المكبوتة في الماء الساكن . وكانت شمس مايو الساطعة تتلظى في كبد السماء ، وكان الهواء ممتلئا بعطر النباتات ذات الحضرة الدائمة والاغصان الصغيرة ، وكانت الشواطئ على عاداتها في استقبال السفينة وامتناع العين والروح بجمالها الذي كانت لا تفتأ تبدي منه منظرا جديدا بعد منظر جديد . وكان كل شيء يتحرك ببطء ، كل شيء . . . الطبيعة والناس على السواء . . . كانوا يتسمون بالكسل والكلال . . . ولكن لا . . . لقد كان يبدو أن وراء هذا الكسل تجثم قوة هائلة ، قوة لا تقهر ، لكنها لم تشعر بنفسها بعد ، ولم تكون لها أهدافا ولا أغراضا واضحة ، وعدم شعورها بنفسها هذا كان يلقي ظلالا حزينا على هذه الاقفاق الجميلة الشاسعة . لقد كان يمكن أن تسمع ، حتى في صيحات الطيور الهائلة مع الريح ، نغمات وأصوات تشف عما تكتم هذه الطيور نفسها من الجلد وقوة الاحتمال . . . كما تشف عن الانتظار أليستسلم

المتشوف الى ظهور حياة جديدة . لقد كانت الاغانى الباكية أشبه بالتماس للنجدة . وكان الانسان يستطيع فى بعض الأحيان أن يتبين فيها ما يؤدى اليه اليأس من مخاطرة . . . . . لقد كان النهر يتنهد مستجيبا ، والاشجار تحنى رءوسها مفكرة ، والصمت مخيما على كل شىء .

وكان فوما يقضى جميع أوقاته فى قمره الربان الى جانب والده ، وكان يلاحظ فى صمت وبعينين مفتوحتين المنظر العام لضفاف النهر ، وكان يبدو له أنه يسبح فى طريق فضى واسع الى الملكوت العجيب الذى يسكنه الفرسان وسحراء العصور الحالية . وفى بعض الأحيان كان يوجه الى والده أسئلة عما يرى ، وكان اجنات يجيبه راضيا طيب خاطر ، الا أن فوما لم يكن يقتنع بأجوبة أبيه ، لقد كانت أجوبة سطحية لا يفهمها ولم يكن فيها ما كان يتشوف الى معرفته . وقد تنهد مرة قائلا :

- ان عمى أنفيسا تعرف خيرا منك بكثير

وضحك اجنات وسأل فوما :

- وماذا عساها تعرف ؟

وأجاب فوما فى اقتناع : - كل شىء !

لكنه لم يصل الى الملكوت العجيب مطلقا ، وان كانوا يصلون الى مدن لا تختلف فى شىء عن المدينة التى نشأ فيها فوما ، وكان بعض هذه المدن أكبر من مدينته ، وكان بعضها أصغر ، الا أن الناس والمنازل والكنائس كانت كلها مثل التى كان يعرفها من قبل . وقد ذهب مع والده ليراها الا أنها لم تعجبه وفضل أن يعود الى السفينة ، فعاد اليها وهو متعب منحرف المزاج .

وقال له اجنات يوما :

- غدا سنصل الى أستراخان

- وهل أستراخان مثل هذه المدن كلها ؟
- طبعا . وماذا تنتظر أن تكون ؟
- وماذا بعد أستراخان ؟
- البحر . بحر قزوين ، كما يسمونه
- وماذا فيه ؟
- سمك ، أيها المغفل ، وماذا غير السمك يعيش فى الماء ؟
- ان مدينة ركتزا تقع تحت الماء !
- آه .. ركتزا ! ولكن هذه كانت مدنة خصوصية جدا ، ولم يكن يعيش فيها الا الصالحون .
- أليس فى البحر أية مدن صالحة ؟
- وراح اجنات يفكر قليلا ثم قال :
- كلا .. ان ماء البحر مالح ولا تستطيع أن تشربه .
- وبعد البحر ؟ هل توجد أرض مرة أخرى ؟
- طبعا .. ان البحر لا بد أن ينتهى مهما بلغ من الاتساع ، أليس كذلك ؟ انه أشبه بوعاء كبير
- وبعد ، أفليس هناك مدن أخرى ؟
- أجل ، لكنها ليست مدنا ، انها مدن فارسية . تذكر هذه الأشياء الفارسية التى رأيتها فى السوق .. خوخ ومشمش وعناب .. و .. و ..
- أجل . أجل
- فالها: فوما ثم استسلم للنوم
- وقد اُتقال لأبيه يوما ما :
- أتوجد بلاد أخرى كثيرة ؟
- بلاد كثيرة يا بنى .. كثيرة جدا
- وهل كلها متماثلة ؟
- ماذا تعنى ؟

- أعنى المدن و . . والأشياء !

- هي كما تقول

وبعد عدد من أمثال هذه الأحاديث لم تعد عينا فوما السوداوان  
تحقق في الإفاق بمثل التشوف الذي كانت تحقق به من قبل .

وقد أخذ عمال السفينة يحبونه ، وبادلهم هو حبا بحب . لقد  
أحب جميع هؤلاء الرجال الأقوياء المشوقين الذين دبغ الطقس  
جلودهم ، والذين كانوا يكلمونه مداعبين ممازحين ، وزاده حبا فيهم  
ما صنعوا له من غاب وسنارات لصيد السمك وزوارق صغيرة من  
لحاء الشجر ، وكانوا ربما يلعبون معه ويأخذونه ليجدف في الزوارق  
الصغيرة عندما يكون أبوه في المدينة في بعض أعماله . وكان فوما  
كثيرا ما يسمعهم يثرثرون بكلام عن أبيه ، الا أنه لم يكن يهتم بهذا ،  
ولم يخبر أباه قط بشيء مما كانوا يتحدثون به عنه . الا أنه قد  
حدث ذات مرة حينما كانوا يحملون السفينة في أستراخان بأحمال  
من الوقود أن سمع فوما الميكانيكى بتروفتش يقول :

« يا له من مجنون أحمق ! يأمرنا بأن نأخذ كل هذا الخشب على  
ظهر السفينة انه حمل ثقيل سيفطس بها الى حافتها ، ثم يأتى  
فيقول : «ما قصدكم من اتلاف الآلات ؟ وما غرضكم من استهلاك  
كل ذلك الزيت ؟ »

ثم سمع الربان الأثيب الصارم الوجه يقول : « وهذا كله  
لا سبب له الا شرهه الشنيع الملعون . . . تالله انه للشيطان الطماع  
نفسه ، ان كان ثمة شيطان طماع !

- انه شره لا شك !

لقد كانت هذه الكلمة تتكرر على كل لسان ، حتى انطبعت في  
ذاكرة فوما ، وعندما جلسا يتناولان عشاءهما في تلك الليلة قال  
لأبيه فجأة :



- بابا !

- أجل ؟

- هل أنت سره ؟

ولما سأله عما يعنى ذكر له فوما ما سمعه من الربان وما قاله الميكانيكى ، فاربد وجه اجنات ، وبدا الغضب فى عينيه ، وأنشأ يقول وهو يهز رأسه :

« فهذا هو ما كان اذن !! حسن ، خير ، خير لك ألا تسمع ما يقولون . . . فهم ليسوا من مقامك . . . لا تختلط بهم ، ولا تنس أنك سيدهم ، وأنهم خدمك . وفى وسعنا أن نقذف بهم جميعا من السفينة اذا أردنا . انهم لا قيمة لهم ، وكثير منهم أشبه بالكلاب الضالة ، فافهم ذلك ولا تنسه . وهم باستمرار لا يتورعون أن يقولوا فى حقى كلاما شنيعا ، والسبب الوحيد هو أنني سيدهم وصاحب الامر والنهى عليهم . اننى رجل غنى وناجح ، وكل غنى محسود دائما ، وكل الناس أعداء لصاحب الطالع السعيد . »

ولم يمض على ذلك يومان حتى كان للسفينة ربان جديد وميكانيكى جديد .

وقد سأل فوما أباه قائلا :

- أين الربان يا كوف ؟

- لقد تخلصنا منه - فصلناه !

- ولماذا ؟

- لأنه قال ما قاله

- وبتروفتش

- وبتروفتش كذلك

وقد راققت فى عينى فوما تلك البساطة التى كان أبوه يستطيع بها التخلص من الناس ، وقد تبسم له ، ثم نزل من القمرة الى ظهر

السفينة حيث وجد أحد العمال جالسا يفك حبلا ليصنع ممسحه .  
فقال له :

- لقد أحضرنا ربانا جديدا
- أعرف . . صباح الخير يا فوما اجناتيفتش . هل نمت جيدا ؟
- وميكانيكيا جديدا أيضا
- وميكانيكيا جديدا أيضا . . ألا تشعر بالاسف على بتروفتش ؟
- كلا
- كلا ؟ مع أنه كان دائما لطيفا معك !
- لماذا كان دائما يتكلم كلاما فارغا عن والدى ؟
- أوه ! هل حصل هذا ؟
- حصل . . لقد سمعته بنفسى
- هم . . وعمل سمعه والدك هو أيضا ؟
- كلا . . فأنا الذى بلغتته !
- فأنت اذن الذى أخبرته . . أليس كذلك ؟
- قالها العامل وهو يعود الى عمله دون أن يزيد .
- لقد قال لى أبى اننى صاحب الأمر هنا ، وقال اننى  
النخلص من أى واحد اذا أردت .
- هل قال ذلك حقا ؟

وكان العامل يحملق فى الطفل الذى كان يقول ما قال متباهيا  
بسلطانه فى حماسة كبيرة .

ولاحظ فوما أن العمال قد أخذوا يعاملونه بحذر بعد الذى  
حدث ، بل كان بعضهم يشند فى تملقه وابداء الضراعة له ، وبعضهم  
فد أخذ يغير لهجة المباشطة الى لهجة الجد ، وقد يمتنع من التحدث  
اليه على الاطلاق . وكان فوما يحب مشاهدتهم وهم ينظفون ظهر  
السفينة ، لقد كانوا يتفلقون برشاقة والماسح بأيديهم ، وبناطيلهم

مشمرة الى ركبهم ، وهم يصبون جرادل الماء على الختسب ، وينثرونه الى بعضهم مازحين متضاحكين صاخين ، وكانوا يتزحلقون فيقعون أحيانا . وكان الماء يتصبب فى كل مكان ، وكان صوت انصبابه أشبه بظهارة مرحة لاصوات العمال . ولم يكونوا يعملون حسابا لوجود فوما بينهم وهم يقومون بهذا العمل الظريف . فقد كان هو نفسه يشاركهم فيه ، وكان يداعبهم بنثر الماء عليهم . . . ثم يجرى صائحا مسرورا عندما يهددونه بأن ينثروا الماء عليه هو أيضا . لكنهم بعد فصل ياكوف وبتروفتش لم يعودوا ينظرون اليه نظرة الصداقة التي كانوا يولونها اياه من قبل ، وقد أدرك أنه كان سبب ذلك ، وأن أحدا منهم لم يعد يود ملاعبته ، فكان شعور الحزن والريكة يستولى عليه ، فيترك سطح المركب ، ويولى وجهه شطر قمره الربان ، حيث يجلس مكتئبا متراخيا وهو ينظر الى شواطئ النهر الزرقاء ، وقمم الغابات الطالعة الهابطة فى أفق السماء ، والعمال من أسفل منه ينثرون الماء ويتضاحكون مرحين ، وهو يتطلع الى الذهاب اليهم ، الا أن شيئا ما كان يمنعه من ذلك .

« لا تخلط نفسك بهم . . . فأنت سيدهم ! »

انه لم يكن ينسى هذه الكلمات التي قالها له أبوه

لقد كان يجد فى نفسه نزوعا الى الهتاف بهم فى لهجة أمرة ناهيه كما كان أبوه يفعل ، وكان يحاول أن يجد كلاما مناسبيا يوجهه اليهم . الا أنه لم يكن يستطيع . ومر على ذلك يومان أو ثلاثة ، ثم اقتنع أخيرا أنهم لا يحبونه ، فأخذ يسأم من وجوده على السفينة ، وراح بهفو الى وجه عمته الحبيبة أنفيسا وهو يتنسم له من خلال هذه الضبابة الوردية من الانطباعات الجديدة التي حجبتة عنه . . العمة أنفيسا التي كانت ابتساماتها وقصصها وضحكاتها الظريفة تجلب لقلبه الدفء دائما ، وتغمره بالسعادة باستمرار . . . لقد كان لا يزال يعيش فى عالم السحر والحوريات . . . الا أن يد الواقع القاسية

كانت قد مزقت هذا النسيج من عنكبوت الوهم الذى كان يتخيل مز  
حلاله كل شيء حوله . لقد اضطرته حادثة الريان والميكانيكى الى  
اجالة فكره فيما حوله ، فأصبحت عيناه أحد بصرا ٠٠٠ لقد اكتسبتنا  
نظرة فاجصة لم تكن فيهما ، وكانت الأسئلة التى يوجهها الى والده  
تنبعث عن رغبة الذى يريد أن يفهم السبب فى كون أن العجل  
والآلات جعلت الناس يسلكون على هذا النحو الذى يسلكونه !

وذات يوم شاهد المنظر التالى :

لقد كان العمال يحملون كتلا من الأخشاب على نقالات ، فاذا  
عامل منهم اسمه ييفيم ، وكان صبيا ظريفا ذا شعر مجعد ، يقول :

- أوه ٠٠ لا ٠٠ لقد زادت المسألة عن الحد ٠٠ أنا عمري  
ما اتفقت معه على جر كتل الأخشاب لحضرتة ! أنا عامل فى سفينة  
ليس الا ٠٠٠ وكل العالم يعرف ماذا يصنع العامل فى سفينة ٠٠٠  
وأنا لا يمكن أن أجر كتل الخشب لحضرتة ٠٠ شكرا ! ان هذا يعنى  
أنه يسلخنى مرتين ٠٠ يعنى ٠٠ يشغلنى بروحين ٠٠ وأنا لم أتفق  
على ذلك ٠٠٠ انه رجل لا ضمير له ، ما دام يمص دماءنا على هذا  
النحو .

وسمعه فوما ، وأدرك أنه يتحدث عن والده ٠٠٠ وقد لاحظ أن  
هذا الصبى ييفيم ، بالرغم من شكواه ، يضع كتلا على نقالته أكثر  
مما يفعل أى عامل آخر ٠٠ ثم يشتغل أسرع مما يشتغلون أيضا ،  
وكان العمال الآخرون لا يلقون بالا الى صخبه وجعيره ٠٠٠ حتى  
العامل الآخر الذى كان يحمل النقالة من طرفها الآخر مع ييفيم ٠٠٠  
انه لم يكن يشكو الا حينما كان ييفيم يبالغ فى الاكثار من وصع  
لأخشاب فوق النقالة ٠٠٠ فكان يقول له :

- كفاية ٠٠ انه ليس حصانا الذى تحمله هذه الأحمال !

- أحرص ! انهم ما داموا قد وضعوك فى السرج فما عليك الا أن

جر الحمل من غير أن تحسرن ٠٠٠ فأمسك عليك لسانك حتى ان  
صوا دمك كله ٠٠٠ فليس في وسعك أن تفعل شيئاً في هذا  
لأمر .

وظهر اجنات فجأة ٠٠٠ من أين ؟ لا يدري أحد ٠٠٠ وقد توجه  
بحو يقيم ، وراح يسأله في صراحة :

- ما هذا الذي تقوله ؟

- أقول ٠٠٠ آ ٠٠٠ أقول ان الاتفاق الذي بيننا لم يشتمل على  
٠٠٠ على أن يظل فمى ٠٠ مقفلا !

فعال له وهو يمشى بأصابعه خلال لحيته :

- ومن هذا الذي يمص دماء الناس ؟

ولما وجد الصبى أنه فد طب في ورطة لا يستطيع منها فكاكا ،  
ودف بالكتلة التي كان ممسكا بها ، ثم مسح يديه في بنطلونه .  
وراح يتفرس في عيني اجنات ويسأله بجرأة :

- حسن ٠٠٠ ألسنت على حق ؟ ألسنت تمص دماءنا ؟

آ أنا ؟

- نعم ٠٠ أنت !

ورأى فوما ذراع أبيه ترتفع في الهواء ، ثم سمع لطمة تهوى على  
الصبى فيسقط بشدة على كومة الأخشاب ٠٠٠ وسرعان ما نهض  
الصبى وعاد الى عمله دون أن ينبس بكلمة . لقد كان وجهه مجروحاً  
والدم يتصبب منه على لحاء عرق من خشب البتولا ، وكان يمسح  
الدم في كفه ، وينظر الى البقع الحمراء ، ويتنفس من أعماق رئتيه  
٠٠٠ لكنه لا يفوه بكلمة ٠٠٠ وحينما مر بفوما والنقالة على كتفه ،  
لاحظ فوما أن في عينيه دمعتين غزيرتين تترقرقان في محاجرهما .

وفي أثناء الغداء ؛ كان فوما سارد الذهن زائع العينين ، يخالس  
أباد نظرات مضطربة خائفة ٠٠٠ مما جعل أباه يسأله في رقه

- ما الذى يجعلك تنظر عابسا مكتئبا هكذا ؟

- لا شيء !

- ألا تشعر بصحة طيبة ؟

- أنا بخير

- اذا كان بك شيء ، فقل لى

وفال فوما فجأة :

- انك قوى قوة هائلة !

- أنا ؟ أجل ٠٠ أتا قوى شيئا ما ٠٠ ان الله لم يبخل على فيما

وعب لى من القوة ، فى جملة ما وهب لى ، حينما خلقتنى .

وصاح فوما بصوت ناعم وهو خافض رأسه :

- يا لها من لطمة تلك التى لطمته اياها !

- أتقصد هذا الولد ييفيم ؟

- نعم . لقد كان الدم يتصبب منه ٠٠ وحينما ذهب لعمله كان

يبكى !

وكان فوما يقول ذلك بصوت خفيض فيه رنه من الاسى ، فتممه

احنات وهو يقضم شطيرته :

- هم ٠٠٠ ألتشعر بالأسف مما لحقه ؟

فقال فوما وصوته تخنقه الدموع : أجل ! وهنا قال أبوه .

- فأنت اذن من هذا النوع من الاولاد الذين يتأثرون بسرعه !

قالها وهو يصب لنفسه كوبا من الفودكا ٠٠٠ فلما جرعهما فال

بلهجة مثيرة :

- لا داعى لأن تأسف من أجله . لقد استحق ما لحقه لجراءته فى

الحجر عما فى نفسه . أنا أعرفه ٠٠ انه شاب طيب ، قوى ، مجد

فى عمله ، ذو عقل سليم ٠٠ غير أنه ليس من شأنه أن ينطق بكل ما يجول فى رأسه ٠ وليس من حق أحد أن يفعل هذا ، غيرى أنا ٠٠ فأنا الرئيس هنا ، وليس من الهين أن يكون الانسان رئيسا - ثم ان هذه اللكمة الصغيرة لن تضره ٠٠ بل هى من صالحه ٠ آه يا فوما !٠٠ انك لم تزل صغيرا ٠٠ وأنت لا تستطيع أن تفهم الامور على وجهها بعد ٠٠ ومن واجبى أن أعلمك كيف تسلك سبيلك نى هذه الحياة ٠٠٠ ومن يدرى ٠٠ فلعل الزمن المتبقى لى فى هذه الحياة ليس شيئا طويلا ٠

وقد أخذ اجنات يفكر لحظة ٠٠٠ ثم جرع كوبا آخر من الفودكا قبل أن يصل نصائحه لابنه :

- لا شك أن من الخير أن يستشعر الانسان الرحمة للناس - وهذا يسرنى منك ٠ ولكن يجب أن تعرف متى تستشعر الرحمة ٠٠٠ وأول ما يجب عليك هو أن تنظر الى الشخص ، وماذا ينطوى عليه ، وما قيمته ٠ فاذا وجدت أنه قوى ومقتدر فلا بأس من أن تدرك الرحمة من أجله وأن تبذل له المعونة والمساعدة ، أما اذا كان ضعيفا و ( شغال ردى ) فابصق عليه ووله ظهرك ٠ ثم تذكر ما يلى : اذا وجدت أحدا لا يمل من الشكوى فاعرف أنه لا خير فيه ، ولا معنى للعطف على مثله ، ولا جدوى فى أية مساعدة تبذلها له ٠٠٠ ولن يزيده اشعارك له بالاسف الا فسادا وتواكلا ٠٠٠ واشيينك ماياكين يجمع فى داره أصنافا من هؤلاء الذين لا خير فيهم ولا جدوى منهم ٠٠ من هؤلاء الصالحات المخرفات والشحاذات والعاطلات وحثالة الخلق وغيرهن ٠٠٠ فاقدف بهن من فكرك ٠٠٠ انهن لسن بشرا ٠٠ انهن مجرد قواقع فاعة ، ولا جدوى منهن لأحد ٠٠٠ بل هن بالبراغيث والبتى والهوام الأخرى أشبه ، وليس هو الله الذى يخدمنه ويقمن بعبادته ٠٠٠ فهن لا رب لهن ٠٠ بل هن يستخدمن اسمه كى يتغفلن الناس ليعطفوا عليهن ، ويمنحوهن شيئا يملأن به بطونهن ٠٠٠ فهن لا يخدمن الا بطونهن ، وهن لا يصلحن لعمل شىء الا أن

ياكلن ويشربين ٠٠ ثم ينمن ويحدثن الشخير ٠ انهن يصنعن من أى انسان تريدا ٠٠ وهن دائما يظهرن لك الضراعة والتذلل، الا أنهن يعطبن من يقرب منهن مهما كان صالحا طيبا ، كما تعطب التفاحة المتعفنة ما حولها من التفاح السليم ٠٠٠ ان المشكلة هى أنك لا تزال صغير السن بحيث لا تستطيع أن تفهم مرمى كلامى ٠ لا ضير مطلقا فى أن تساعد انسانا لا يقف جامدا مسلوب الارادة أمام مشكلاته ٠٠ وهو ربما لا يسألك المعونة مطلقا ، لكنك اذا رأيت أنه فى حاجة الى المعونة فابذلها له دون أن يسألك اياها ٠٠٠ فاذا كان شخصا فيه كبرياء ، وممن يشعرون بكرامتهم ، ويؤله أن تقدم له أية معونة ، فحاول أن تساعدوه دون أن يشعر هو بذلك ٠ وهذا هو التصرف الوحيد الصحيح ٠٠٠ ثم ٠٠ اليك هذا المثال : افرض أن لوحين من الخشب قد سقطا منك فى الوحل ، أحدهما معطوب ، والاخر متين صالح ، فماذا ينبغى لك أن تفعل ؟ ان اللوح المعطوب لا يساوى شيئا ، فدعه ، وليظل مكانه فى الوحل ، وفى وسعك أن تدوس فوقه لتظل قدماك نظيفتين جافتين ٠٠ ولكن عليك أن تسحب اللوح الصالح المتين من الوحل ، ثم تجففه فى الشمس ، وسيصلح للاستعمال ذات يوم ولا بد ٠ فهذا هو ما يجب أن يكون يا بنى ، فاستمع لما أقول ، واجتهد أن تتذكره دائما ٠ ان شعورك بالأسف من أجل ييقيم لا معنى له - انه فتى مجد ، وهو يعرف قيمة نفسه ، وأنت لا يمكنك أن تقضى على ما فيه من حيوية بضربة تنزل بها على أم رأسه ٠٠ ولسوف ألقى بالى اليه أسبوعا أو نحوه ، وبعد ذلك سأصعد به الى مكان القيادة ، وقبل أن تلاحظ أنت ذلك ٠٠ سيصبح مرشدا ، فاذا أنا جعلت منه ربانا ، فسيكون ربانا ماهرا ٠ وهذه هى الطريقة التى يصبح بها الانسان شيئا ما ٠٠٠ هذه هى المدرسة التى تربيت فيها ٠٠٠ وكم من لكمة تلقيتها حينما كنت فى مثل سنه ٠٠٠ ان الحياة يا بنى ليست بالنسبة لأى مخلوق هذه الامم العطوف التى تتصورها ٠٠٠ انها رئيس الاعمال المتجهم الكالح الوجه !



وظل اجنات يتحدث الى ولده مدة ساعتين عن شببته وعن الاعمال التي كان ينهض بها ، وعن الطبيعة البشرية ، وعن القوة المخيفة الكامنة فيما نحسبه ضعفا ، وعمما يميل اليه بعض الناس من التظاهر بسوء البخت لكي يستطيعوا بذلك أن يعيشوا على حساب غيرهم . ثم يعود فيتكلم عن نفسه من جديد ، فيخبره كيف استطاع أن يرتفع من عامل بسيط الى صاحب مشروع تجارى ضخم .

وبينما كان الطفل جالسا وعيناه مسمرتان في وجه أبيه ، واعيا لكل كلمة يقولها كانت وشيخة من القربى تدنيه منه ، لم يكن يحس بها من قبل ، لقد كان ما يقصه عليه أبوه يفتقر الى الجاذبية التي كانت تتسم في قصص العمة أنفيسا ، الا أنه كان شيئا جديدا ، الا أنه كان أوضح وأشد بيانا ، وأيسر على الفهم من أساطيرها ، دون أن يكون أقل تشويقا . . . . . لقد خفق قلبه الصغير خفقانا سريعا . وعنيفا ، وشعر به يقترب من أبيه . . . . . ولا بد أن اجنات قد تبين هذا في عيني ابنه ، وآية ذلك أنه نهض فجأة ، ثم تناوله في ذراعيه ، وراح يضمه الى صدره ، فما كان من فوما الا أن لف ذراعيه الصغيرتين حول عنقه ، ثم أسند خده الى خد أبيه ، حيث ظل هكذا . دون أن ينبس .

وهنا ، أخذ أبوه يهمهم :

— يا ولدى ! يا حياتي وبهجة دنياي . . . . . تعلم عن أبيك ما دام هو معك . . . ان الحياة ليست شيئا هيئا !  
وقد أثارت هذه الكلمات المهموسة غصة في قلب الطفل ، فشبذ على أسنانه ، وطفرت الدموع من عينيه حارة سخينة .

\*\*\*

والآن . . . هاهي ذي السفينة مصعدة في الفولجا من جديد .  
وقد وصلوا الى قازان في ليلة من ليالي يوليو ، تحت سماء ملبدة

بالغيوم الداكنة ، وفي سكون كثيب كان يلف النهر من كل جانب ،  
فألقوا مراسيهم عند أسلون ، في ذيل قافلة طويلة من السفن .  
وكان فوما نائما ، فاستيقظ على قرعنة سلاسل المرساة ، وعلى  
صيحات العمال ، ثم أطل من نافذة قمرة ، فلم يستطع أن يتبين  
شيئا ، الا بعض الأضواء الخافتة في ظلام البعد ، والا الماء الذي كان  
حالكا ثقيلًا كحلقة الزيت وثقله ٠٠٠ وقد خفق قلب الطفل من  
الرهبنة ، فصك أذنيه وجلس صامتا ٠٠٠ ثم ترددت من بعد أغنية  
حزينة تترقرق بالدمع كأنها ترتيلة متوسل . وكان حراس السفن  
ينادى بعضهم بعضا في هذه القافلة ، وكان هسيس البخار العادم  
الذي تطلقه البواخر الراسية يشق ظلام الليل ، والمياه السوداء  
تنقر جوانب السفن نقرا لطيفا حزينا . وكان فوما يحقد في الظلام  
تحديداً ممعنا مهجدا لعينيه فتتراءى له أخيلة سوداء لها أهداف من  
النور وكان يعرف أنها صنادل نقل ، الا أن معرفته بشئون  
الراكب لم تجعله ينثبث مما يرى ٠٠ ومن ثمة فقد كان قلبه يسرع  
في نبضه ، وظل خياله يهيبء له صورا كابية ، وتهاويل مفرجة .  
ثم سمع من بعد صوت نشيج طويل ينتهى بما يشبه البكاء ٠٠  
يتردد هكذا :

« أو ٠٠ أ ٠٠٠ أو ٠٠٠ » واذا بعضهم يعبر ظهر السفينة .  
ثم تردد النشيج ثانية ٠٠ الا أنه هذه المرة كان أوضح وأقرب  
ونادى الشخص الواقف على الظهر يقول بصوت منخفض :  
- ييفيم ٠٠ عليك اللعنة ٠٠ قم ٠٠ استيقظ هات المرساة !  
ولكن النشيج كان قريبا جدا هذه المرة ، مما جعل فوما يثب من  
مكانه عند النافذة ، ورعشة شديدة سارية في جسمه .  
ثم اقترب الصوت الغريب أكثر وأكثر ، وجعل يعلو مرة ،  
وينخفض أخرى ، متلاشيا في الظلام ٠٠ وهنا تتردد صوت خافت  
فوق الظهر وهو يهمس :

١ - ييفيم ! انهض ! ان ضيفا يسبح قريبا منا .  
وما كان من ييفيم عندما سمع ذلك الا أن سأل مسرعا :  
- أين ؟!

وهنا سمع وقع أقدام عارية تدب فوق ظهر السفينة ، ودبوبة  
وجلجلة ، ثم اذا فوما يلمح مرساتين تهبطان الى الماء بالقرب .  
نافذته ، ثم تقعان فى الماء الثقيل دون أن تحدثا صوتا تقريبا .  
وأخذ بعضهم يولول من قرب قائلا : « ض . . . ي . . . ف » ثم تبعت  
هذا طربشة صغيرة فى الماء .

وقد جعل هذا النشيج الباكى جسم فوما ينتفض من الفرع ، ا  
أنه لم يجعله يسحب يديه من حديد النافذة ، ولا يحول عينيه عما  
يجرى فى الماء .

« أشعل مصباحا . . . انى لا أستطيع أن أرى شيئا ! »

وفى الحال كانت دائرة من الضوء الخافت تنتشر فوق الماء . وقد  
لاحظ فوما أن الماء يعلو ويهبط قليلا ، والأمواج الخفيفة تنتشر فوق  
صفحته كأنما كان ينتفض ألما .

وهنا سمع من يقول بصوت مفزوع :

« انظر . . انظر . . »

لقد كان يسبح فى دائرة النور وجه انسان مرعب ذو أسنان كبيرة  
بيضاء ذات تكشيرة بادية ، وكان الوجه يعلو ويهبط وهو يمر  
بالسفينة . . . وكانت الأسنان كأنها تتفرس فى وجه فوما ،  
وتقول :

« آه ، أيها الولد الصغير . . أيها الولد الصغير . . ان الماء بارد

هنا » .

ثم اهتزت المرساتان ، وشدتا الى أعلى . . . ثم أسقطتا فى الماء ثانية .

- ادفعهما بعيدا . . . خذ بالك منهما . . . خذ حذرک . . . يجب ألا تستبكا فى العجلة القلابة فى مؤخرة السفينة .

لقد كانت المرساتان تخبطان جانب السفينة فتحدثان صوتا كصرير الأسنان ، ثم أخذت دبذبة الاقدام العارضة تبعد قليلا قليلا نحو مؤخر السفينة ، ومن هناك عاد صوت التشيخ من جديد :

« أو . . . أ . . . أو . . . ؛ ضد . . . ي . . . ف . . . ! »

وهنا صاح فوما :

- بابا . . . بابا . . .

وقفز أبوه ثم أسرع اليه .

وصاح فوما ثانية : - ما هذا ؟ ماذا يفعلون ؟

وزار اجنات زارة متوحشة ، ووثب خارج القمرة فى خطوات ثلاث ، ثم عاد سريعا . . . حتى قبل أن يرتد بصر فوما من النافذة الى سرير أبيه

وقال له أبوه :

- هل أخافوك يا بنى ؟ انهم لا يفعلون شيئا . . . تعال . . . نمى فى سريرى .

ثم أخذه ملء ذراعيه . . . وفوما يسأله هامسا :

- ماذا يصنعون ؟

- لا شيء يا بنى . . . لا شيء . . . لقد غرق واحد من الناس .

وذهبت جثته تطفو على الماء . . . هذا كل شيء . . فلا تنزعج . .  
فالجثة بعيدة من هنا الآن

وسأله فوما وهو يتشبث به ، ويغمض عينيه :

- ولكن . . لماذا كانوا يدفعون به بعيدا

- أو . . كان يجب أن يفعلوا هذا . . لأن الجثة لو علقبت بالمراوح  
. . لوجب أن نسأل عن ذلك . . ان البوليس قد يراها ، ويحدث لنا  
كثيرا من المتاعب . . ويدخل معنا فى سين وجيم - وقد يقبض علينا  
ويعطل أعمالنا ، ولهذا فقد دفعوا بالجثة بعيدا . . . ثم ماذا يضير  
الميت هذا ما دام قد مات بالفعل ؟ . . ان هذا لا يلحق ضررا بجثته  
ولا بمشاعره ، لكنها يمكن أن تحدث لنا نحن كثيرا من المتاعب . .  
اطمئن يا بنى . . ونم ملء عينيك .

- وعلى هذا فسيتترك طافيا هكذا ؟

- قليلا من الوقت ، حتى يخرجه أحد من الماء ويدفنه

- ألا يأكله السمك ؟

- السمك لا يأكل لحم الادميين . . . أما السراطين فتأكله

وأفرخ روع فوما قليلا . . . لكنه لم يزل تنتابه أشباح هذا الوجه  
المرعب ، بأسنانه العارية تعلو وتهبط فوق صفحة الماء الاسود .

- ترى من كان هذا الغريق ؟

- الله وحده يعلم . . اسأل الله أن يشمل بالسلام روحه .

وهنا همس فوما :

- أيها الله الرحيم . . اشمل بالسلام روحه .

- عال . . والآن تستطيع أن تنام ولا تخشى شيئا . . لقد أصبح

الآن بعيدا . . . بعيدا جدا من هنا . . . ماضيا فى طوفانه . . .

وليكن في هذا درس لك ... فحاذر عندما تقترب من الدرايزين  
فقد تسقط في الماء .. لا قدر الله ... و ...

- وهل سقط هو في الماء ؟

- نعم .. ربما كان سكران .. وربما يكون قد ألقى بنفسه في  
الماء لسبب ما ... كما يصنع الناس أحيانا ... والحياة مثل هذا  
... ان الموت قد يكون بركة للانسان ونعمة ... وربما كان موت  
بعض الناس بركة ونعمة للناس جميعا ..

- يا يا ...

- هلم فتم .. يا ولدى ..



## الفصل الثالث

● وذهب فوما الى المدرسة ٠٠ وقد بهره هذا الزيت الفظيخ الذي كان الاولاد يحدثونه في أثناء لعبهم ومرحهم ٠٠ وفي اليوم الاول من التحاقه بها لم يلبث أن اكتشف بين لدااته تلميذين كانا يبذوان أكثر ظرفا من غيرهما ، وكان أحدهما يجلس أمامه مباشرة ، ولم يكن يتمالك من النظر الى ظهره العريض ، وعنقه الغليظ الكثير النمش ، والى أذنيه الكبيرتين ، ورأسه المربع المغطى بوبرة من الشعر الأحمر اللامع .

وحيثما نادى المدرس الاصلع ذو الشفة السفلى البارزة : «سمولين الافريقي» وقف الولد ذو الشعر الاحمر متثاقلا ، ثم مشى الى مقدمة الحجره ، وجعل ينظر في هدوء الى عيني المدرس حينما كان يقرأ له مسألة الحساب ، ثم تناول قطعة من الطباشير وراح يكتب أرقاما كبيرة مستديرة على السبورة بمنتهى الدقة .

وقال المدرس بعد قليل :

— حسن ٠٠٠ كفاية ٠٠٠ نيقولاى يزهوف ٠٠ هلم ٠٠ أكمل

المسألة .

وهنا يثب تلميذ صغير ملول بادى التبرم ، تشبه عيناه الحادثان السوداوان عيني فأر متربص ، ثم يترك التختة التى يجلس عليها مع فوما ، ويمضى فى الممر مصطدما بكل شىء فى طريقه ، مديرا رأسه من جهة الى جهة ، حتى اذا وصل الى السبورة خطف قطعة الطباشير خطفا ، ثم شب على أصابع قدميه وطفق يخربش أرقاما صغيرة

لا يمكن قراءتها ، وهو يضغط على الطباشيرة ضغطا شديدا يجعلها تصر وتفتت . ويجعل المدرس يعقف وجهه الاصفر كالذي يشكو من ألم ، فيخاطبه قائلا :

- على مهلك .. على مهلك .. ليس سريعا هكذا !

ويجيبه يزهورف مجلجلا بصوته المرتفع :

- الجواب هو : التاجر الأول حصل على ربح قدره سبعة عشر كوبكا .

- كفاية ! جوردييف ! كيف يمكننا أن نعرف مقدار الربح الذي حصل عليه التاجر الآخر ؟

لقد كان فوما مستغرقا في ملاحظة هذين التلميذين المذيين يختلف بعضهما عن بعض تمام الاختلاف ، حتى لقد فوجيء بالسؤال ولم يستطع أن يجيب .

- ألا تعرف ؟ قل له يا سمولين !

وكان سمولين منهما في تنظيف أصابعه من آثار الطباشير بخرقة صغيرة ، فلما سمع المدرس يخاطبه ، وضع الخرقة في الصندوق ، ثم راح يكمل المسألة ، فلما أكملها أخذ ينظف أصابعه من جديد ، على حين كان يزهورف يمضى الى مقعده الى جانب فوما ، وما كاد يجلس فيه حتى لكرز فوما لكرزة خفيفة وهمس اليه قائلا :

- ماذا ؟ لماذا لم تستطع أن تجيب ؟ ماذا كان مجموع الأرباح كلها . ثلاثين كوبكا . وكم تاجرا ؟ اثنان ! أحدهما ربح سبعة عشر . . . فكم يربح الآخر ؟!

- أنا عارف ..

وقد تتمم بها فوما في اضطراب وهو يلاحظ سمولين يمضى الى مقعده رزيناً رابط الجأش .. لقد كان يكره وجه سمولين .. هذا



الوجه المستدير الكثير النمش ، بعينيه الزرقاوين المدفونتين فى لجة  
من الشحم • ورفس يزهوف رحل فوما رفسة مؤلمة ، وسأله قائلًا :  
- من أبوك ؟ أبو كيفه ؟!

- آ •• ها ! اسمع ، هل تريد أن أقول لك كل الاجوبة ؟  
- نعم !

- وماذا تدفع لى مقابل ذلك ؟

وفكر فوما لحظة ؛ ثم قال :

- وهل تعرف كل الاجوبة ؟

- أنا ؟ أنا أول الفصل يا سيدنا !

وسمعهما المدرس فنادى بهما :

- أنتم •• هناك •• ممنوع الكلام •• أهو أنت يا ييزهوف ؟

ووثب ييزهوف على قدميه وقال بطلاقة :

- لست أنا يا ايفان آندريفتش •• انه جوردييف !

وهنا قال سمولين :

- لقد كانا كلاهما يتكلمان •

ويعقف المدرس وجهه الاصفر مرة ثانية ، ويدلدل شففته السفلى  
البارزة بشكل مضحك ، وينتهر التلاميذ الثلاثة ••• الا أن انتهاره  
لم يمنع ييزهوف من الهمس ، ويقول لسمولين :

- لا بأس يا سمولين •• لن أنساها لك ! يا فاضح الاسرار ؛

ويجيبه سمولين دون أن يدير اليه وجهه :

- لماذا تلقى اللوم على التلميذ الجديد ؟

فهمس ييزهوف متوعدا :

- ستري ٠٠ ستري !

أما فوما فلم ينطق بكلمة ، ولم يزد على أن جعل يرنو بطرف عينه إلى جاره الظريف ، وهو يعتقد أن من الخير أن يظل بعيدا عنه قليلا .  
٠٠ بالرغم مما فيه مما يجذب .

وفي أثناء الفسحة أخبره ييزهوف أن سمولين هو أيضا ولد غنى - وأنه ابن صاحب مصنع دبع الجلود - لكنه هو نفسه ، أى ييزهوف ، ولد فقير ، وأن أباه خفير في المالية . وكان واضحا أنه فقير بالفعل ، فقد كانت ملابسه مصنوعة من الكستور الرمادى ، ومزرقة عند الركبتين والكوعين ، وكان وجهه معروقا ممتقا أصفر اللون ، وكان جسمه هزيلا ، وجلدا على عظم . وكان يتكلم بصوت خفيض له رنة معدنية ، يؤكد على الدوام بالغمزات واللمزات ، وكان يكثر من استعمال الكلمات التي لا يعرف معناها الا هو فقط . وقد قال لفوما :

- اننى ، أنا وأنت ، سنكون أصحابا !

ولكن فوما نظر إليه فى توجس وانقباض ، ثم سأله :

- ولكن لماذا وشيت بى عند المدرس ؟

- أو ٠٠ هوه ! وماذا فى ذلك ؟ انك تلميذ جديد وغنى ٠٠٠ والمدرس يتساهل دائما مع التلاميذ الاغنياء ٠٠٠ أما أنا ، فتلميذ فقير ، وهو لا يحبني لكثرة ثررتي ، ولائنى لا أقدم اليه هدايا مطلقا ٠٠٠ ولو لم أكن تلميذا مجدا لقتف بى من المدرسة من زمان طويل .  
٠٠ ألا تدرى ؟ اننى سأشتغل بمعهد الرياضة البدنية بعد أن أنتهى من الدرس هنا ، وسيتم ذلك بمجرد أن أنتهى من الصف الثانى . وأحد طلبة المعهد يمرتنى ٠٠ ولا بد لى من أن أبذل جهدى فى الدراسة حينما أكون هناك . لا بد ! كم حصانا عندكم ؟

- ثلاثة ٠٠٠ ولكن ٠٠ لماذا يجب أن تبذل كل هذا الجهد فى

الدراسة ؟

- لائنى فقير .. والتلاميذ الفقراء يجب أن يستذكروا بجد واجتهاد ، لكى يصبحوا أغنياء هم أيضا .. انهم سيصبحون أطباء وضباط وموظفين .. وأنا أحب أن أكون فارس سوار .. السيف الى جانبى ، والمهماز فى حدائى .. وحينما أمشى يسمع الناس خطواتى : طك .. طك .. طك .. وأنت .. ماذا تحب أن تكون ؟

- لا أعرف ..

قالها فوما بصوت ملجلج ، وهو يتفرس فى زميله ، كأنه يدرسه .

- ألا يجب أن تكون شيئاً ؟ هل تحب الحمام ؟

- ن .. نعم .

وقال ييزهوف وهو يقلد لجلجة فوما :

- يا لك من مغفل صغير ! ن .. نعم .. ل .. لا ..! وكم حمامة عندكم ؟

- ولا واحدة !

- هل ترى ؟ أغنياء ، وليس عندكم .. ولا حمامة ! ان عندى ثلاث حمامات ، حمامة من النوع الهزاز ، وحمامة رقطاع ، وحمامة شقلباظ .. ولو كان أبى غنيا لاقنتيت مائة حمامة ، وأطلقتها فى الهواء تطير طول النهار . سمولين عنده عدد لا بأس به .. أربع عشرة ، وهو الذى أعطانى الحمامة الشقلباظ .. ومع هذا .. فهو ولد بخيل .. وكل الاغنياء بخلاء ، فهل أنت بخيل أيضا ؟

- أنا .. لا أدرى !

- يمكنك أن تأتى الى الحى الذى يسكن فيه سمولين ، ويمكننا نحن الثلاثة أن نطارده الحمام .

- لا بأس .. ولكن اذا سمحوا لي بذلك .

- ولم لا ؟ ألا يحبك أبوك ؟

- انه يحبني

- اذن فسيسمح لك ... ولكن لا تقل له اننى سأكون هناك أنا  
أيضا . فربما يمنعك من الحضور اذا عرف .. قل له انك ذاهب الى  
سمولين .. هل تسمع ؟ الى سمولين !

وهنا ، أقبل الولد السمين ، فحياه ييزهوف بايماءة من رأسه ثم  
ناداه :

- أنت يا نمام يا أبا رأس أحمر .. هو ... كيف يستطيع  
صديق أن يربط أسباب وده بأسباب ودك يا عجوز يا أبا زلط !  
وحدجه سمولين وقال له فى رباطة جأش :

- بماذا تجعجع !

وأجابه ييزهوف وهو يقمز بكل جسمه ليثير نائرة سمولين :

- أنا لا أجزجع .. وأنا لا أقول الا الحق .. اسمع : فوما وأنا ،  
سنحضر اليك يوم الأحد بعد الصلاة ، حتى لو كنت فتة باردة !

فأوما سمولين قائلا : - تفضلوا !

- سنحضر .. وعن اذنكم .. فلم تبق الا دقيقة واحدة علي  
الجرس .. وأريد أن أبيع هذا العصفور أولا .

قال هذا ييزهوف ثم أخرج كيسا من الورق من جيبه بداخله شيء  
يخشخش .. ثم انفتل كالزئبق .

وعند ذلك أخذ فوما يتابعه بنظراته ، مأخوذا برشاقته وهو يقول:

« هو ... هو ... ه ! »

وقال الولد ذو الرأس الأحمر مستجيبا للملاحظة فوما :

- وحاذق سريع الفهم !

- وظريف أيضا !

- أو .. هوه !

ونظر كل منهما الى الآخر هنيهة دون أن يتكلما .. ثم قال صاحب الرأس الأحمر :

- هل ستأتى لزيارتى معه ؟

- نعم .

- حسن .. ان حينا حى جميل

ولم يتكلم فوما .. فسأله سمولين :

- هل لك أصحاب كثيرون ؟

- ولا صديق واحد !

- وأنا أيضا .. لم يكن لى أى صديق حتى التحقت بالمدرسة ..

أى صديق .. الا أبناء أعمامى .. والآن .. لقد صار لك صديقان

- أجل .

- ما أظرف أن يكون للانسان أصدقاء ! .. وهذا يجعل الدرس

أسهل .. انهم يقولون للانسان الأجوبة !

- وهل أنت شاطر فى دروسك ؟

- أنا ؟ .. أنا شاطر فى كل شىء !

وقالها سمولين بوجه باش

وأخذ الجرس يصلصل ٠٠ ثم يخف صوته كالحائف الجزع .  
والآن ٠٠ كان فوما يشعر بطمأنينة أكثر بعد عودته الى الفصل  
مرة ثانية ، ثم بدأ يقارن بين صديقيه الجديدين وبين بقية التلاميذ  
الذين فى الفصل .

ولم يلبث أن قرأه على أنهما خير تلاميذ المدرسة جميعا ، وأنهم  
يبلغان فى بروزهما بين تلاميذها بمقدار ما يبرز الرقمان ٥ ، ٧ فوق  
السبورة ( ! ) ومن ثم فقد سره أن يكون هذان التلميذان ، وهم  
أحسن تلاميذ مدرسته ، صديقيه الحميمين .

وعندما انتهى اليوم المدرسى ذهب الثلاثة الى منازلهم معا ،  
وسرعان ما دخل ييزهوف حارة جانبية ضيقة ٠٠٠ أما سمولين فقد  
مشى مع فوما الطريق بطوله ٠٠٠ وقبل أن يفترقا ، قال لصاحبه :

— هل ترى ؟ اننا نستطيع أن نمشى معا الى المدرسة أيضا !

ولما وصل فوما الى المنزل لقيه الجميع بالتحايا وبالهيل والهيلمان!  
فلقد أتخفه أبوه بملعقة كبيرة فضية ، فيها طغراء متقنة . كما  
أتخفته عمته بكوفية من التريكو ، من صنع يديها ٠٠ ثم جلسوا الى  
غداهم بمجرد أن خلع فوما ثيابه ٠٠٠ وكان الغداء يتكون من أطباقه  
المفضلة ٠٠٠ ثم أنشأ أبوه وعمته يلاحقانه بالأسئلة

فهذا أبوه ، الذى كان يحدق مسرورا محبورا فى خدى ولده  
الموردين وعينيه المتلاثلثتين ، يسأله قائلا :

— هيه ٠٠ وكيف أحببت المدرسة ؟

ويجيبه فوما :

— أحببتها كثيرا ٠٠

وقالت عمته فى لهفة وشغف :

- يا قلبى ! خذ بالك .. واحذر الأولاد ... واذا حاولوا أن  
يضروك بشيء فإذهب الى المدرس فى الحال وقل له .

' ولكن اجنات زام قائللا :

- لا لا .. اياك وهذا .. لا تصغ اليها يا فوما ، بل خذ حقه  
بيمينك دائما ... أذق الأولاد طعم قبضتك ... وعلى فكرة ..  
هل هم أولاد ظرفاء ؟

- نعم

ثم ابتسم فوما وهو يتذكر وجه ييزهوف ، ثم أردف قائلا :

- ان أحدهم من أظرف الناس جميعا ... لن تقع العين على أظرف

منه .

- ابن من هو ؟

- ابن أحد الحفراء .

- وتقول انه ظريف ؟

- وفيه شيء من الشراسة

- عال عال .. والآخر ؟

- والآخر ولد ذو رأس أحمر .. اسمه سمولين .

- آه ! هذا ولا بد ابن ديمترى ايفانوفتش ... اتخذ منه  
صديقا لك .. فهو من مستواك .. ان ديمترى رجل واع ، واذا كان  
ابنه سيكون مثله .. يكون ولدا طيبا .. أما هذا الولد الآخر ..  
فهو ما سوف ننظر فى أمره .. فوما .. ادعهما لزيارتك يوم الأحد  
.. وسأشتري بعض الأشياء الطيبة لنقدمها اليهما .. وسنلقى نظرة  
عليهما .

— ولكن سمولين دعاني لزيارته يوم الأحد !

وراح الولد ينظر في وجه أبيه في شيء من الحيرة والقلق :

— أوه .. أحدث هذا ؟ هل دعاك حقا ؟ .. اذن فاذهب اليه .. نعم  
أذهب اذهب .. فلا بد لك من التمرس بجميع أهل هذه الدنيا  
بمختلف طبقاتهم .. والانسان لا يستطيع أن يعيش في دنيا وحده ..  
دون أن يكون له صديق .. هأنذا مثلا .. لقد كنت صديقا  
لاشبينك ماياكين لمدة تزيد على عشرين سنة .. وقد أفادني أيما فائدة  
بالكثير الثمين من آرائه .. وعليك أن تكون كما كان أبوك .. حاول  
أن تصادق من هم أحسن وأكثر اجتهادا منك .. احتك بالصديق  
الصالح مدة من الزمن ، كما تحتك قطعة النقود النحاسية بقطعة  
فضية ، فلا تلبث أن تصبح فضة مثلها .

وضحك اجنات ، وقد خامره السرور بتشبيهه ، ثم أردف :

— ولكنني أمزح .. فحاول أن تكون أنت الاصل لا التقليد ..  
الفضة .. لا للنحاس .. عش بمخك أنت ، حتى لو لم يكن لديك  
ذكاء .. والآن .. هل كلفوك كثيرا من الواجبات المنزلية ؟  
وتنهذ فوما قائلا : « كثير جدا » وقد رددت عمته تنهذته :

— اذن فلا بد من عمل هذه الواجبات .. ولا يصح أن تتأخر عن  
أقرانك . وبهذه المناسبة يطيب لي أن أذكر لك أنك لن تتعلم في تلك  
المدرسة الا القراءة والكتابة والحساب .. ولو أتمت فيها عشرين عاما  
.. أوه .. نسيت أن أقول الا أن تتعلم الاشياء السيئة ، فكان الله  
في عونك اذا حدث لك هذا .. اذن .. أعطيك علة طيبة ! أما اذا  
شرعت تدخن التبغ ، فلسوف أشق لك شفيتيك !

وتدخلت عمته تقول :

— وليعمر قلبك بالخوف من الله يا فومبيكا ! لا تنس الله أبدا !



وهنا عماد والده يقول :

— هذا حق .. خف الله واخش أباك ! الا أنتى كنت أريد أن أقول  
ان الكتب المدرسية ليست كل شيء . وأنت لن تحتاج اليها الا كما  
يحتاج النجار الى عدده ، فأرجع اليها كما يرجع هو الى مطرقته  
ومنساره ، ان هذه الكتب هي عددك .. الا أن العدد لا تستطيع أن  
تعلمك الغرض الذى خلقت من أجله ، وفيه تستعمل .. فافهم ذلك ..  
ولكى تدرك الأمر على وجهه ، دعنا ننظر ماذا يصنع النجار اذا أعطى  
بيلطة وكلف أن يلحو (١) كتلة من الخشب .. فهذه عملية لا يكفى  
فيها أن يكون للنجار يدان وبيلطة ليقوم بها ، بل لا بد أن يكون قد  
حصل على الدراية بطريقة استعمال البيلطة حتى لا يضرب قدميه بدلا  
من أن يضرب الخشب .. وهذا نفسه ينطبق عليك وعلى كتابك ،  
فليس يكفى أن يكون معك كتاب ، بل يجب عليك أن تعرف كيف  
تستعمل الكتاب .. وهذه المعرفة فيها فائدة أكثر من أى كتاب ..  
وأنت لا يمكنك أن تحصل عليها من أى كتاب . والحياة هى التى  
«الوحيد الذى يستطيع أن يعلمك هذا يا فوما» فالكتاب شيء ميت ،  
وهو لن يصبح من الألم مهما عصرته وضغطت عليه ، أو ثنيته أو  
مزقته . أما الحياة فشيء آخر ، لآنك اذا خطوت خطوة خاطئة ، أو  
حللت محلا ليس لك أن تحل فيه ، تصايح الناس بك من كل جانب ،  
بل ربما أوسعوك ضربا بالهراوات حتى تخر ولا حراك بك .

وكان فوما جالسا ومرفقا الى المائدة ، يصغى فى انتباه تام ،  
وحينما كان صوت أبيه يهدر كان يخيل لنفسه طرق النجار ببيلطته  
فى لحاء الخشب .. ثم يخيل لنفسه بعد ذلك جسمه وهو ممدود على  
الأرض المداعة ، ويدهام مبسوطتان يزحف نحو شيء حتى ضخم يريد  
أن يتشبث به ، وان قلبه خلع من الرعب فزعا منه !

(١) Bark حيا الشجرة يلحوها لآزال قشورها -

— ان من واجب الانسان أن يأخذ باله من نفسه ، من أجل العمل نفسه الذى كلف القيام به ، ويجب أن يعرف تماما طريقة القيام به ومباشرته . ان الانسان أشبه شئ بمرشد السفينة ، وهو فى شبابه ، أشبه بالنهر فى فيضانه ، يمكنه أن يسوس سفينته الى وجهتها الصحيحة ، وفى الطريق السوى ، لأن النهر عميق فى كل مكان عمق الشباب نفسه . الا أن لكل شئ ابانه ! والانسان اذا ولى شبابه فلا بد له من الحيلة والحذر . فالفيضان اذا انتهى أخذ ماء النهر يهبط الى مستواه ، ويكون واجب مرشد السفينة أن يتحسس طريقه ، ويحذر الصخور والنتوء والمياه الضحلة ، فيستدير حولها حتى يصل بسفينته الى بر الامان .

ولا يكاد اجنات يصل من حديثه الى هذا الحد ، حتى يقول فوما فى كبرياء وثقة :

— لسوف أصل الى بر الامان سائلا !

ويضحك أبوه قائلا :

— حقا ؟ يا لك من شجاع !

وتضحك عمته ضحكة رقيقة هى أيضا .

\* \* \*

لقد أصبح فوما منذ تلك الرحلة التى صحب فيها أباه على نهر الفونجا أكثر نشاطا ومرحا ، وأكثر ثرثرة أيضا فى حضرة والده وعمته وفى حضرة ماياكين . أما اذا كان بين الناس ، خارج المنزل ، فقد رأيت لا يجد طريق لسانه . لقد كان ينطوى على نفسه ، ثم لا يفتأ يقلب فى الناس عينيه ، كأنما يشم فى جوهم روحا عدائية . أو كأنما فى أغوارهم شئ مختبئ . يتربص به !

وكان يصحو أحيانا في منتصف الليل ، ثم يرقد طويلا مصغيا الى صمت العالم الذي حوله ، ومحدقا بعينيه في ظلماته . . . وكانت الأمور التي حدثت أبوه عنها ربما ثارت أمام ناظريه في شريط من الرؤى المتتابعة ، وكان يخلطها ، دون أن يدري ، بمنظر من الأساطير التي قصتها عليه عمته ، مما تكون نتيجه مزيجا تندمج فيه ألوان الوهم الصارخة بأصداء الواقع الرزينة اندماجا غريبا . . . لقد كانت تؤلف شيئا ضخما ومحيرا . . . وكان ربما أغمض عينيه عسى أن يطرد تلك الرؤى عنهما ، وعسى أن يقف تيار الوهم الذي أثار في نفسه الخوف . . . لكنه لم يكن يستطيع النوم . . . وكانت الغرفة لا تزدد الا أشباحا . . . وعند ذلك كان ربما نادى عمته بصوت خافت :

— عمتي . . . عمتي . . .

— ايه . . . ماذا حدث ؟

فيقول هامسا :

— هل آتى لا تام معك ؟

— لماذا ؟ نم يا حبيبي . . . نم .

— أنا . . . خائف !

— قل : تعالى الله . . . وكررها في شرك عدة مرات ، فلن تشعر بأى

خوف .

وكان فوما يغمض عينيه ، ثم يأخذ في ترديد التسبيحة في سره . . . لقد كان يخيل اليه أن صمت الليل وسكونه أشبه بمدى لا نهاية له من الماء الاسود الراكد ركودا تاما . . . وكان يغطي كل شيء . . . وليس على سطحه أية اهتزازة . . . أية حركة مهما كانت ضعيفة . . . بل لم يكن في الماء شيء قط ، بالرغم من عمقه الذي يشبه عمق البحر . . . وكان شيئا مزعجا أن يكون وحيدا فريدا هكذا . . . لا أنيس له ولا من يذهب بوحشته . . . محمقا وسط هذه الظلمات في هذا الماء الميت ! ثم يرسل

حارس الليل جلجلة فى السكون فجأة ٠٠ فىرى الولد سطح الماء يهتز «  
ويلمح كرات صغيرة وضاعة تثب على وجهه وتغطيه بحباب كثير ٠٠ ثم  
يرن ناقوس ساعة البرج معلنا الوقت ، فينداح الماء ٠٠ ويظل زمناً  
طويلاً وهو يموج بسبب رنين دقات الساعة ٠٠ ثم تسقط شعاعة من  
الضوء على سطحه ٠٠ وتظل تتسع حتى تتلاشى فى حواشى الظلال .  
ومرة تانيه تنتاب فوما تلك الكتابة الموجعة التى يثيرها ذلك المدنى  
الاسود ، فيضرع الى عمته وهو يصير بأسنانه :

- عمتى !

- ماذا؟

- أنا جى !

- تعال ٠٠ تعال يا حبيبي !

فاذا صعد الى سريرها ، لصق يها وقال :

- قولى لى حكاية !

وتقول عمته معترضة ، وبصوت ناعس :

- فى وسط الليل !

- أوه ٠٠ من فضلك !

ولم يلح عليها طويلاً ، فقد تئاءبت المرأة العجوز ، ثم أغمضت عينيها  
وبدأت تجر صوتها الناعس وهى تقول :

- فى مرة من المرات ، وفى بلاد بعيدة جداً كان يعيش رجل مع  
امراته ، وكانا فقيرين أشد ما يكون الفقر ٠٠ وكان يبلغ من فقرهما  
ألا يجدا شيئاً يطعمانه . وكانا يخرجان فى كل صباح ليسألوا  
الناس احساناً ٠٠ ولم يكن لهما غذاء الا هذه الكسر من الخبز التى  
كان الناس يجودون بها عليهما ٠٠ وبعد مدة من الزمن ولد لهما ولد .  
ولما يولد لائى انسان ولد فلا يد من تعميده . الا أنهما كانا فقيرين

لا يستطيعان اقامة وليمة للاشبين والضيوف في حفلة التنصير ، ومن ثمة فلا يمكن أن يجدا أحدا يكون اشبيننا للمولود .. وجعلا يترددان على الناس .. على هذا مرة ، وعلى ذلك مرة .. لكن أحدا لم يرض أن يكون اشبيننا .. ولهذا أخذنا يصليسان لله : « يا ربنا .. يا اله السموات »

وكان فوما يعرف قصة تعميد السيد المسيح .. تلك القصة الرهيبة : لقد سمعها مرات كثيرة .. ولم تكده عمته تبدؤها حتى تخيل المسيح الطفل راكبا حصانا أبيض ، وهو يبحث عن اشبين واشبينة .. وهو يسير في الظلام في البرية ، حيث رأى الملعون يقاسون العذاب ، وسمع توسلاتهم وصلواتهم :

« آه أيها الآدمي الفاني ، اسأل ربك حينما تلقاه ، كم من الزمن سوف نبقى في هذا العذاب أكثر مما بقينا !؟ »

وقد خيل لفوما أنه هو الذي كان يركب الحصان الابيض ، وأنه هو الذي وجهت اليه تلك التوسلات وهذه الصلوات .. فخفق قلبه ، وامتلات عيناه بالدموع ، فعصر عينيه المغمضتين ، ثم تحوى تحت البطانية ، وهو خائف من فتحهما ثانية .

وقطعت المرأة العجوز قصتها المخيفة لتقول له :

— نم يا صغيري ، نم وليباركك الله !

واستيقظ فوما في الصباح التالي على عادته ، واغتسل بسرعة ، وازدرد فنجاله من الشاي، ودلف الى المدرسة وجيوبه ممتلئة بالkekك : الأطايب كى يهدى منها الى الزميل الجائع ييزهوف ، الذى بدأ الآن يتغذى بانتظام مما يجلب له زميله الغنى الموسر الجديد .

وأول ما لقيه ييزهوف قال له وهو يزوى أنفه الصغير المدبب :

— أحضرت لنا شيئا ؟ هلم نأكله .. لقد غادرت المنزل اليوم دون أن أذوق شيئا .. ولقد تأخرت فى النوم ليلة البارحة .. عليها

لللعنة ! ظلمت جالسا حتى الثانية صباحا وأنا مكب على دروسى • هل عملت مسائل الحساب ؟

- لا !

- آه يا لحمه •• ياكسول •• هات أهلها لك ••

ثم راح يقضم كعكة، بثناياه الحادة الصغيرة وهو يزوم كالقطعة ، ويخبط الأرض بقدمه اليسرى ، على حين كان يحل المسائل :

- انظر هنا ! اذا كانت ثمانية جرادل تملأ في الساعة الواحدة ، فكم ساعة استمر نضح الماء ؟ ست ، عال •• ما أحلى طعامك يا صديقى ! اذن فيجب أن نضربها في ثمانية • هل تحب الكعك المحشو بالبصل الاخضر ؟ أنا أحبه لدرجة الجنون •• وعلى هذا يكون عدد الجرادل التى ملئت فى ست ساعات - ثمانية وأربعين جردلا ، ويكون مجموع الجرادل التى أفرغت فى الجوض تسعين جردلا •• وعلى هذا فماذا عليك أن تصنع بعد ذلك ؟

لقد أحب فوما ييزهوف أكثر مما أحب سمولين ، ومع ذلك فقد كان يولى سمولين مقدارا من البود أكثر ••• لقد كان يفزع من ذكاء ييزهوف ومن نشاطه الجيم •• وكان يلاحظ أن هذا الزميل الصغير كان أذكى منه وأحذق ، فكره ذلك ، وحسبه من أجله ، وان كان يعطف عليه فى الوقت نفسه عطف الغنى المتفضل الشبعان ، على الفقير الجوعان • ولعل هذا هو السبب فى أنه كان أكثر ودا لزميله سمولين ذى الرأس الأحمر •• منه ليزهوف الذى كان مغرما بتوجيه نكاته الى زملائه المتخومين المشومين • الذين كان لا يناديهم الا قائلا :

- هو •• أنتم يا سلال الكعك والاطايب !

وكانت نكاته تسيء فوما وتثيره • حتى لقد زجره مرة قائلا :

- أنت يا شحاذا يا صعلوك !

مما جعل وجهه يزهوف الشاحب الأصفر يصبطبع ببقع كبيرة حمراء ، ورد عليه قائلا :

— حسن ٠٠ عال جدا ٠٠ انى لن أساعدك فى عمل دروسك بعد اليوم ٠٠ وسنرى فلاحتك اذن ٠٠ أيها الكتلة المعتبرة !

ومضت أيام ثلاثة لم يتحدثنا معا خلالها ، الأمر الذى سبب شيئا من الضيق للمدرس ، اذ اقتضى هذا أن يعطى ابن الرجل المحترم اجنات جورديف درجات غير مرضية !

\* \* \*

لقد كان يزهوف ولدا طلعة، عساسا ٠٠ لا يفوته شىء مما يجرى حوله ٠٠٠ وكان يعرف أحسن المناسبات للصيد ، وأحسن الأماكن التى يصيد فيها أسماكه ٠٠٠ وكان يعرف كيف يصنع الفخاخ والاقفاص للطيور ، وقد أخبر زملاءه عن السبب الذى شنق الجندي نفسه من أجله فى الطابق العلوى من القشلاق ، ولماذا فعل ذلك . وكان يعرف والد أى التلاميذ قدم هدايا للمدرس وماذا كانت هذه الهدايا .

أما ما كان يعرفه سمولين ويهتم به فكان مقصورا على حياة تجار الحى الذى يعيش فيه ٠٠٠ لقد كان يلذه أن يعرف مقدار ثروتهم النسبية ، والقيمة الصحيحة التى تساويها بيوتهم وسفنهم البخارية ٠٠ وكان يبحث هذه الامور بحماسة .

وكان ميله نحو يزهوف ميل المتفضل المنزل كما كان شأن فوما نحو يزهوف أيضا ، لكنه كان أكثر ودا وأقل تعرضا للقطيعة . وكان كلما نشب شجار بين فوما وبين يزهوف، قام هو بدور حمامة السلام بينهما ، فيصلح ذات بينهما ويسوى خصوماتهما . وقد سأل فوما مرة ، وهما راجعان من المدرسة :

— لماذا تتشاجر معه دائما ؟

فأجابه فوما مهتاجا : انه متبجح مزهو بنفسه .. بدرجة شنيعة!

— هذا لائنك لا تستذكر دروسك ، ولا انه يساعدك .. انه حاذق.

ذكى .. وليس ذنبه أنه فقير .. وهو يستطيع أن يتعلم أى شيء

يريد أن يتعلمه ، وسوف يصبح غنيا يوما ما هو أيضا .

فقال له فوما بازدرء :

— انه لا يزيد على كونه بعوضة ... هذا هو ! انه لا ينفك يزن

ويطن ... وسيأتى اليوم الذى يعض فيه ويلدغ ..

الا أنه كان ثمة ما يؤلف رابطة بين هؤلاء الأولاد الثلاثة ،

وينساعدهم على قضاء الساعات الطويلة بعضهم مع بعض ، متناسين.

ما بينهم من الفرق فى الحسب والاخلاق . فجميعهم كانوا من هواة

الحمام . وكانوا يجتمعون كل يوم أحد عند سمولين ثم يتسلقون

أبراج الحمام المشيدة على سطوح المنازل الخلوية ليطيروا الحمام

الذى فيها .

وكانت هذه المخلوقات المرحة الرشيقة تنتفض ثم تفرد أجنحتها ،

وتطير من البرج واحدة بعد أخرى ، ثم تقف فى صف طويل عندها

حافة السطح ، وهى تثغو وتقل نفسها فى أشعة الشمس ، مما

يلخل السرور على نفوس الأولاد .

وكان يزهوف لا يفتأ يقول لصاحبيه وهو يختلج وينتفض :

« طيروها .. طيروها .. » فكان سمولين يزرع الحمام بعضا طويلا

ربط فى طرفها بعض النثار والسيور ، ثم يرسل من فمه صفيرا

يشق أجواز السماء ، فتطير الحمام مفزعة فى الهواء ، وهى تملؤه

بزفير أجنحتها ، ثم تستدير فتعلو وتعلو فى السماء الزرقاء

الصفافية ، صانعة من نفسها دوائر جميلة ، ويسطع ريشها الأبيض

فى وهج الشمس ، فتبدو كأنها قطع من فضة فى بحر من الثلج ..



ويرتفع عدد منها محلقا ٠٠ محلقا ٠٠ كأنه يريد أن يمس بأجنحته.  
قبة السماء نفسها ٠٠ في سرعة البزاة وخفتها ٠٠ وأجنحتها  
مبسوطة ٠٠ لا تكاد تشعر بأنها تتحرك أبدا ٠ ويبدو بعضها الآخر  
كأنه ( يتشقلب ) في الهواء بخفة ورشاقة ٠٠ فهو يسقط ككرات  
من الثلج مرة ، ثم يعلو تارة أخرى شاقا الهواء كأنه السهام المريشة ،  
والآن ٠٠ ها هو ذا سرب الحمام كله يبدو كأنه قد تجمد في لوحة  
السماء ، انه يغوص فيها ، بل يغرق في أديمها ، والأولاد يلاحظونه  
في مسرة وانتشاء ، دون أن يفوهوا بكلمة ٠٠ ورءوسهم مائلة الى  
وراء ، وأعينهم مثبتة في السماء ، والبريق السعيد الذي يشع من  
نواظرهم المتعبئة يوشيه الحسد لهذه المخلوقات المجنحة التي  
تستطيع بمثل هذه الرشاقة الوثوب من الأرض والتحليق في العلال  
الصفائية ، الساكنة التي تغمرها أشعة الشمس ٠٠٠ لقد أطلق خيال  
الأطفال من عقاله منظر هذه النقط التي لا تكاد تدرکها الأبصار ،  
والتي تبدو كالعنقود في لوحة السماء ٠٠٠ وكأنما كان يزهوف  
ينطق بما في روع الأولاد جميعا حينما قال في صوت ناعم مقمر :  
- يا سلام ! لو كنا فقط ٠٠ نستطيع الطيران مثل هذا !

وفي نشوة هذه المسرة ، تجمع الأولاد متكبيبين ، ملتصقين بعضهم  
ببعض ، منتظرين في هدوء وتشوف عودة تلك الطيور من رحلتها  
في أعماق السموات ، وكأنهم قد نأوا عن هذا العالم كله ، بقدر  
ما ابتعدت الحمايم عن تلك الأرض ٠ وقد كانوا في تلك اللحظة  
السعيدة أطفالا أسعد وأصفى ما تكون الطفولة ٠٠٠ وأبعد من أن  
يتطرق الغضب أو الحسد الى قلوبهم ، وبقدر ما كانوا يشعرون  
بالعزلة عن كل ما في العالم ، بقدر ما كانوا يشعرون بالقرب من  
أنفسهم ، لقد كانت أفواههم صامتة لا تلجلج بكلمة ٠٠٠ وكانوا  
لا تربطهم الا تلك الأشعة المنبعثة من أعينهم ٠٠٠ وكان كل منهم  
يعبرن ماذا يحس صاحبه ٠٠ لقد كانوا سعداء بقدر ما كانت  
هذه الطيور الذاهبة في السماء ناعمة سعيدة !

ثم يعود الحمام الى السطح وقد نال منه التعب والجهد من طول  
ما طار ، ثم يدخل البرج من جديد .

وعندما فرغوا من فرجتهم هذه فى أحد أيام الآحاد . . قال  
ييزهوف ، المحرك الحافز لجميع ما يقومون به من مغامرات :

هلموا أيها الرفاق . . هلموا نلتمس شيئا من ثمار التفاح !

وقد قشع تحديه هذا الغشاء من صفاء النفس الذى استروخته  
قلوبهم من التمتع بمشاهدة الحمام ، فلم يشعروا الا وهم يتجهون  
نحو احدى الحدائق المجاورة . . مندفعين اليها كما تندفع الحيوانات  
وزاء دليلها ، مصيخة لاقل اشارة منه . وقد غلب على خوفهم من  
أن يضبطوا شوقهم الى القيام بغارة ناجحة . فالسرقة هى أيضا ،  
عمل من الاعمال ، وعمل خطر . . وما أحلى ثمراته ! . . وكلما كانت  
المشقة التى تبذل فيه كبيرة ، كانت ثمرته أشهى وأحلى . .

وتسلق الأولاد سياج البستان فى حيطه وحذر ، وكانوا ينتنون  
كرقم ثمانية وهم يزحفون نحو أشجار التفاح ، ناظرين حولهم ههنا  
وههنا . وكان أقل صوت يجعل قلوبهم تدق كالمطارق . وكان  
خوفهم من أن يراهم أحد فيعرفهم لا يقل عن خوفهم من أن يضبطوا  
ويقبض عليهم . . . وكانوا يفضلون طبعاً أن يكتفى بمطاردتهم دون  
أن تعرف شخصياتهم - وذلك بالصياح بهم لا أكثر ، فرب صيحة  
مزقت شملهم وأطلقت سيقانهم للريح فى كل مكان . . . فاذا التأم  
شملهم بعد ذلك . . . جلسوا ليضحكوا وينثرثروا فى هرج شديد  
عما كانوا يشعرون به حينما سمعوا الصيحات ووقع الاقدام التى  
بعثت الرعب فى قلوبهم وجعلتهم ينطلقون لا يلوون على شيء .

لقد كان فوما يبعث الجراءة فى حوادث السطو هذه أكثر مما كان  
يبعثه فى غيرها من الشقاوات والمغامرات . وكان يظهر من الطيش  
والتهور ما يذهل صديقيه ويسلمهما للغم والضيق ، وكان يتعمد  
ألا يبدي أى شيء من الحيطه وهو يجوس خلال بستان من بستانين

الجيران ٠٠ فكان يتكلم بصوت مرتفع ، ويكسر فروع الشجر محدثاً قرقعة عالية ٠٠٠ فإذا حدث أن قطف تفاحة معطوبة لم يبالي أن يلقي بها في منزل صاحب البستان ٠ فإذا نبهه أحد صديقيه الى خطر القبض عليه في مكان الجريمة لم يخفه هذا ، بل حفزه الى ما هو أكثر ، وقد يصر بأسنانه ، وتغيم عيناه ، وتظهر بدوات الكبرياء والمقت على وجهه ، مما جعل سمولين يقول له مرة ، وقد صعر له خده :

- انك تتعمد أن تظهر بمظاهر الشجاعة

فأجابه فوما :

- أنا لست جبانا

- أعرف انك لست جبانا ، ولكن المغفلين فقط هم الذين يتكلفون هذه المظاهر ٠٠ وفي وسعك أن تقوم بما تعمل دون أن تتظاهر بأنك شجاع !

أما ييزهوف فكان رأيه مختلفا قليلا ٠٠ لقد قال مرة فوما :

- يا للمصيبة في رميل يسعى الى حتفه بظلفه ٠٠ ويتمنى أن يقبض عليه ٠ انك لست لي صاحبا ! فأنت اذا قبض عليك فسيأخذونك الى والدك ، ولن يمسك بأذى ٠٠ أما أنا ٠٠ فسوف يعطونني علقة طيبة لن تترك في جسمي كله عظمة نسليمة !

فما زاد فوما على أن أجابه :

- جبان !

ثم حدث أن قبض على فوما في أحد الايام رجل عجوز هزيل الجسم يدعى تشوماكوف ، كان ضابطا من ضباط الجيش ، ثم تقاعد ٠٠ ولقد نافل فوما وهو يقطف التفاح ويدسه في جيبه ٠٠ فصاح به وهو بمسك بتلابيبه :

— والآن .. قفشنتك يا لص !

وكان فوما فى حوالى الخامسة عشرة فى تلك الآونة ، فاستطاع أن يخلص نفسه بسهولة من يدى ذلك الرجل العجوز .. الا أنه لم يلبذ بالفرار .. بل أخذ يحذر الرجل وهو يقطب وجهه ، ويلوح بقبضتيه ، وهو يقول :

— أتجرؤ أن تلمسنى بيديك ؟

— ألسك ! اننى سأسلمك للبوليس .. فهذا الذى سأعمله .. من أبوك ؟

وهنا ارتد فوما الى الخلف لهول المفاجأة .. لقد سكت عنه غضبه ، وخذله كل ما أبداه من مظاهر الشجاعة .. لقد كان يؤمن كل الايمان بأن أباه لن يعفو عنه مطلقا اذا هو سيق الى البوليس ..

وقال وهو يرتجف متلعثما :

— جوردييف !

— ابن اجنات ماتفييفيتش ؟

— نعم !

والآن كان الضابط هو الذى يتراجع الى الوراء .. لقد شد الرجل من نفسه ، وأبرز صدره ، ثم راح يبلع ريقه .. ولم يلبث أن قال فى لهجة الوالد الحنون :

— ألست تشعر بالحجل من نفسك يا بنى ؟ أنت ! ابن رجل مشهور ، وشخصية عظيمة الاحترام كهذه ! اننى ما كنت أنتظر أن يحدث من مثلك هذا العمل أبدا .. تفضل .. انطلق الى بيتك .. ولكن .. اذا عدت الى مثلها ، فلسوف أذهب بك الى والدك .. الذى .. بهذه المناسبة .. يشرفنى أن تسلم لى عليه كثيرا ..

وحسب فوما ، من التغير السريع الذى طرأ على وجه الرجل ، أنه قد خاف سيده الوالد ! وبدلا من أن يقصر الثمر ، ويمضى الى منزله كما قال له الرجل ، وقف مقطباً وجهه فى عينى الضابط ، كأنه جرو ذئب . . على حين راح الآخر ينتقل بثقله من احدى قدميه الى القدم الأخرى ، ويبرم شاربه الذى وخطه الشيب ، وعليه أمانة مضحكة من أمارات الاهتمام والجد . . ثم قال له بلهجة أمرة ، وهو يشير الى الطرقة التى تفضى الى منزله :

- تفضل فاذهب .

- وماذا عن البوليس ؟

وقد قالها فوما مكتئبا . وكان يخيفه فى نفس اللحظة التى قالها فيها ما عسى أن يكون الجواب .

ولكن الرجل تبسم ثم قال :

- أو . . لقد كنت أمزح . . انما كنت أريد أن أخيفك فقط !

- بل . . لقد خفت أبى !

ولم يعتم أن أدار ظهره للرجل العجوز ، وولى فى البستان مدبرا ، أما الضابط فقد تمتم يقول :

- خفت؟! أوه . . يالها من كلمة طريفة !

وقد أدرك فوما من لهجة الرجل أن كلمته قد نالت منه . على أن الحجل كان قد بلغ به المدى ، حتى لقد ظل يومه بطوله يتسكع هنا وهناك وحيدا فريدا . . وعند عودته فى المساء لقيه أبوه محبباً ، يوجه عبوس صارم ، ثم قال له :

- فوما . . هل تسلقت سياج بستان تشوماكوف ؟

وأجاب فوما فى ثبات ، وهو يحلق عينيه فى عينى أبيه :

- نعم !

والظاهر أن اجنات لم يكن ينتظر مثل هذا الرد ، فليث لحظة  
يقلب أصابعه فى لحيته دون أن يتكلم ٠٠ ثم قال :

— ولماذا فعلت هذا أيها النصاب الصغير ! أليس لديك من التفاح  
ما فيه كفايتك ؟

ولم يرد فوما بكلمة ٠٠ بل نكس رأسه ووقف صامتا .

— أنت خجلان ٠٠ أليس كذلك ؟ أحسب أن الذى دفعك الى هذا  
هو صديقك هذا ٠٠ ييزهوف ! وعندما أراه سأرد له الكيل كيلين ٠٠  
وربما منعتك من اللعب معه على الاطلاق .

وقال فوما وهو رابط الجأش :

— لقد فعلت هذا من نفسى

— وهذا ألعن ! ولماذا فعلت هذا ؟

— لا لشيء ٠٠ الا أن

وقال أبوه ساخرا :

— لا لشيء ٠٠ الا ٠٠ اذا فعلت شيئا فيجب أن تعرف لماذا تفعله ٠٠  
تعال .

وتتقدم فوما الى حيث يجلس أبوه ، وأوقفه أبوه بين ركبتيه ، ووضع  
يديه على كتفيه ، ثم راح ينظر فى عينيه ، وهو يقول له متنهدا :

— خجلان ٠٠ هه !

وزام فوما قائلا :

— أو ٠٠ هو ٠٠

— أيها المغفل الصغير ٠٠ يا من تفضح نفسك ٠٠ وتفضحنى معك!

ثم يضم رأس ابنه الى صدره ، ويربت على شعره ، ويسأله قائلا :  
- عجبنا والله ! ماذا يدفعك الى سرقة التفاح من بساتين الناس !  
ويتمتم فوما :

- لست أدري .. اننا دائما كنا نفعل هذا الفعل .. ولقد سئمت  
منه .. ولكن هذا ..

وضحك أبوه وهو يقول :

- ولكن هذا كان شيئا مثيرا !

- نعم ..

- أحسبك الآن قد أفقت .. فلا تعمل هذا العمل ثانية .. والا  
أعطيتك علة لن تنساها !

ووعده فوما أنه لن يعمل هذا على الاطلاق .

- يسرني غاية السرور ألا تعول الا على نفسك .. أما ماذا يكون  
من أمرك فعلم هذا عند الله .. وانت الآن بخير كل الخير ما دمت قد  
تحملت تبعه عمك واعترفت بما فعلت ، وأديت عليه حسابك ..  
ولعل شخصا غيرك كان يلقي تبعه ما عمل على غيره .. فهذا هو  
الطريق يا فوما ، ليكن كل منا مسئول عما يعمل .. ثم ماذا كان من  
أمر هذا الرجل تشوماكوف .. ألم .. يضر .. بك ؟!

وقال فوما من فوره :

- لو فعل .. لرددت له الصاع صاعين !

فغمغم أبوه قائلا :

- هه .. هم ! ..

- لقد قلت له : انه كان خائفا منك .. وهذا هو السبب في أنه  
جاءك وشكاني اليك .. والظاهر أنه لم يكن عازما على ذلك .

- ألم يكن فى نيته أن يفعل ؟

- كلا . . . فقد كلفنى أن أبلغك تحياته

- أوه . . . أحدث هذا ؟

- نعم .

- شخص تافه ! ان من الناس من يتصرف تصرفات غريبة . تسرق منهم فينحنون لك ويتمسحون بك ، ويرسلون اليك تحياتهم . . . أو . . . انى لأعلم أن ما سرقت لا يساوى أكثر من كوبك ، الا أن الكوبك بالنسبة اليه كالريال بالنسبة الى . . . وليس الكوبك هو المقصود . . . بل المقصود هو أن الكوبك ملكه ، ولا يمكن أن يستولى عليه أحد الا اذا أذن هو بذلك ، ولكن . . . حسينا هذا . . . خبرنى الآن أين كنت؟ وماذا رأيت ؟ . . .

وجلس فوما الى جانب أبيه وقص عليه كل ما علق بذهنه ذلك اليوم . وكانت أسارير جبين اجنات تنقبض وتنزوى ، وتغرق فى تفكير عميق وهو يدرس وجه ولده الذى كان يلتهب ويتوهج .

- لقد أهجنا بومة كانت فى الخندق . . . ولشدد ما كانت شيئا ظريفا ! لقد طارت البومة مندفعة . . . ثم . . . اذا هى تنخبط خبطة هائلة فى شجرة . . . وأرسلت صرخة مدوية أيضا - وأكبر الظن أنها ضرت نفسها . . . ثم أهجناها مرة ثانية ، فطارت مرة أخرى . . . وحدث الذى حدث أولا . . . لقد كانت كلما طارت تنخبط فى شىء . . . وما أروع ما كان الريش يتناثر منها ! . . . ثم أخذت تطير حول الخندق مرارا وتكرارا قبل أن تجد مكانا تختفى فيه . . . ولم يهمننا أن نبحث عنها بعد ذلك - وكم شعرنا بالأسف من أجلها - ان كل المخلوقات تخبط خبط عشواء هكذا . . . ألا يستطيع البوم أن يرى شيئا بالنهار على الاطلاق يا بابا ؟

وقال له أبوه :



- كلا ٠٠ يا بنى ٠ ومن الناس من يسير فى الحياة على غير هدى كهذه البومة ٠٠ يخبطون هنا مرة ، ويتخبطون هناك مرة ٠٠ باحثين عن مكان ما يناسبهم ٠٠ ثم لا يصيبون شيئا الا أن يتناثر ريشهم ٠٠ فهم يخسرون ريشهم ، ويضرون أنفسهم ، ثم يمرضون ٠٠ وفى نهاية المطاف يلتون أنفسهم فى أول شيء يصادفهم - أى شيء يضع حدا لنضالهم - وهذا من أشق ما يعانیه أمثال هؤلاء يا بنى ٠٠ من أشق ما يعون !

- وماذا يجعلهم فى مثل هذه الحال ؟

- الاجابة على هذا من الصعوبة بمكان ٠٠ ان بعضهم يعميه العجب والكبرياء ٠٠ لهم أطماع عظيمة ٠٠ ثم لا شيء غير ٠٠ وبعضهم لا عيب فيهم الا الغباوة ٠٠ أوله ٠٠ ما أكثر أسباب ذلك ! ٠٠

\*\*\*

وعلى هذه الوتيرة أخذت حياة فوما تتكشف يوما بعد يوم ٠٠ ولقد كانت فى جملتها حياة هادئة ، وديعة ، ليس فيها الكثير مما يكدرها . وكانت روحه تجد أحيانا ما يحركها فى بعض الانطباعات التى تتنافر هى وهذا الاساس انهادىء الوديع الذى قام عليه وجوده ٠٠ الا أن هذا لم يكن يدوم طويلا ٠٠ لقد كانت روحه أشبه بغدير هادىء مستقر حتى هذه الآونة ٠٠ غدير ظليل لم تصل اليه زوابع الحياة بعد - وكل ما كان يمس حواشيه ، أو يهب على سطحه ، أو يقع فيستقر فى أعماقه ، محركا مياحه لحظة قصيرة ، لا يلبث أن يرسل فيها موجات تتسع وتتسع ، ثم تدع البحيرة هادئة مستقرة كما كانت .

وفى نهاية أعوام تسعة من الدرس ، ترك فوما المدرسة بعد أن لم ينته الا من أربعة صفوف فقط ، ٠٠ ان فوما لم يكن تلميذا ذكيا ، وان كان صبيبا أنيقا أسود الشعر ، أسمر البشرة ، وحف الحواجب ، ذا

خط دقيق من الزغب فوق شفته العليا .. وكانت عيناه الكبيرتان. السوداوان ترسلان نظرة بريئة مفكرة ، وكانت شفته لا تزالان ناعمتين وأشبه بشفتي طفل . لكنه كان اذا أربكه شيء رأيت انساني عينييه ربما يتسعان ، وشفتيه يزمان فيكون منهما خط واحد مشدود ووجهه وقد أصبح جامدا هامدا .

وقال له اشيبه ماياكين مرة : « ان العذارى سيجدن فيك ما هو أحلى من الشهيد ، يا فوما ، غير أنك لم تبد شيئا من أمارات الذكاء بعد ! »

وسمع اجنات هذا ، فتنهد .. كأنه آسف .. تم قال ماياكين :

- لقد آن الاوان لكي يضطلع فوما بأعباء الحياة يا اجنات -
- بل لا بد من الانتظار قليلا ..

- وفيم الانتظار ؟ .. خذنه سنتين أو ثلاثا معك على الفولجا .. ثم الى ال .. مذبح .. لقد كبرت ابنتي ليوبا .. وقد غدت عروسا الآن !

لقد كانت ليوبا في ذلك الوقت في الصف الخامس بمدرسة داخلية ، وكان فوما كلما مر بها أومات اليه متسامخة بهزة من رأسها الأشقر ، الذي تغطي قمته بقبعة صغيرة أنيقة . ولقد كان فوما يميل اليها ، الا أن خديها الموردين ، وعينيها اللطيفتين. السوداوين ، وشفتيها القرمزيتين ، لم تكن تستطيع أن تنسيه هذه الايماوات المتسامخة . وكانت علاقات الصداقة تربط بين ليوبا وبين عدد من الطلبة ، زملائها في المدرسة ، وبالرغم من أن صديقه القديم بيزهوف كان واحدا منهم ، فانه لم يجد من نفسه ميلا الى الاختلاط بهم ، لانه كان يشعر بأنه غريب عنهم . وكان يخيل اليه أنهم يحاولون أن يظهروا له علمهم أمامه ، ثم يضحكون من جهله ، وكانوا ربما اجتمعوا عند ليوبا ثم راحوا يقرءون في كتبهم بصوت.

عال ٠٠ فاذا قدم عليهم فوما ، وكانوا يقرءون أو يتناقشون في شيء ، غضوا من أصواتهم في الحال ، بل توقفوا عن القراءة والمناقشة . وفي يوم من الأيام ، بينما كان يزور آل ماياكين ، دعته ليوبا ليقوما بجولة في الحديقة . وبينما كانا سائرين اذا هي تقطب له وجهها وتسأله :

— ما الذي يجعلك غير أنيس هكذا ؟ انك لا تكاد تفتح فمك بكلمة !

فأجابها ببساطة :

— وكيف أتكلم اذا لم أجد ما أتكلم عنه ؟

— اقرأ الكتب وتعلم ٠٠

— لا أجد بي حاجة الى ذلك .

— ان هؤلاء الأولاد على علم غزير ، ويستطيعون التكلم عن أي

شيء ٠٠ ييزهوف ٠٠ مثلاً !

— انه ثرثار ججناخ !

— بل أنت شخص غيور ! انه ولد خارق الذكاء ٠٠ أجل ، انه

لكذلك ، وسينهب الى موسكو ليلتحق بالجامعة بعد أن ينتهي من

راسته هنا !

— ليكن ٠٠

— وأنت ؟ أتظل على حالك هذه ٠٠ لا تعرف شيئاً ؟

— وما عيب ذلك ؟

فقالت له ليوبا متهكمة :

— ألسنت لبيبا ذكيا ؟

وأجابها فوما بلهجة أكثر تهكماً :

- سأمضى في هذه الدنيا بدون أى قسط من التعليم ٠٠ وسأقطع  
علاقتي بكل أصدقائك ٠٠ هؤلاء المتعلمين ٠٠ ان التعليم لم يخلق الا  
للمحاذين ٠٠ ولست منهم !

وهنا صاحت ليوبا :

- أخ ٠٠٠ يا لك من شخص بنىء غبى شنيع !

قالت هذا ٠٠ ثم تركته وانصرفت .

وزوى فوما ما بين حاجبيه ، ثم حدجها بنظرة جريحة ، ومضى فور  
سبيله هو الآخر ، وقد نكس رأسه من ثقل ما فيه !

وبدأ يتذوق مباحج الوحدة ٠٠٠ سم التفكير الحلو ! لقد كان  
يشعر فى كثير من أمسيات الصيف ، حينما تكون الدنيا متوهجة  
بالوان الغروب التى تشب الخيال ٠٠٠ كان قلبه مثقل برغبة ما ،  
مجهولة ٠٠ وكان اذا جلس فى ركن منعزل بالحديقة ، أو رقد على  
سريره ، أخذ يصور لنفسه رؤى العرائس وجنيات الغاب وأميرات  
الأساطير ٠٠٠ وكأنها تتراعى له فى صورة ليوبا ، أو غير ليوبا ممن  
يعرف من حسان ، ثم تطيف فى سكون وصمت فى ظلال الغسق ،  
ملقية عليه نظرات ناعمة غامضة ٠٠٠ وكانت هذه الرؤى تدفع أحيانا  
بالدم حارا فى عروقه ، فتملؤه بالقوة ، حتى لكان يثب ، فيستعرض  
كتفيه ، ويستنشق أنفاسا عميقة من الهواء العليل المنعش ٠٠٠  
وكانت فى أحيان أخرى تجعله حزينا ، كأنما يحس حاجة الى البكاء  
٠٠٠ وبالرغم مما كان يجد من الحُجل من البكاء ، وما كان يبذله من  
جهد لكى يحبس دموعه ، كانت تغلبه عسلى أمره ، وتنهمر بالرغم  
منه .

وأخذ أبوه يعلمه أسرار العمل قليلا قليلا ، فكان يصحبه معه الى  
سوق الأوراق المالية ، ويعلمه عمليات القطع وابرام العقود ، ويحدثه  
عن زملائه ، و يروى له سبل نجاحهم ووصولهم الى قمة الثروة .

خاصا بالذكر أولئك الذين ملكوا ناصية المال ، واصفا له شخصية كل منهم ٠٠٠ وقد حذق فوما أعمال التجارة بسرعة فائقة ، واندمج فيها بأقبال وجد .

وضحك ماياكين يوما وهو يتحدث الى اجنات ، غامزا فوما :

— ما شاء الله ٠٠ ما شاء الله ٠٠ لقد أزهري اللفت فأعطي خشخاشا !

الا أن فوما ، حتى عندما بلغ التاسعة عشرة ، كان يبدو على شيء من السذاجة والطفولة يجعلانه مختلفا أشد الاختلاف عن أقرانه الذين في سنه ٠٠٠ لقد كانوا يستهزئون به ويحسبون غبيا ، وكان هو يعتزلهم لما يبدو أنه نحوه من ذلك كله . وكان أبوه وماياكين اللذان كانا يوليانه عينا ساهرة دائما ، في حيرة شديدة من حاله المترددة وعدم استقراره على شيء .

وقال اجنات يوما في شيء من الحسرة وهو يتحدث الى صديقه ماياكين :

— اننى لا أفهمه ٠٠ انه لا يذوق الخمر ولا يهوى النساء ، وهو شديد الاحترام لك ولى ، الا أنه أقرب الى أن يكون بنتا منه الى أن يكون رجلا ٠٠ ومع هذا فهو ليس غبيا ولا بليدا ، أليس كذلك ؟

— رأى أنه ليس غبيا ولا بليدا على الاطلاق .

— انه يبدو كمن ينتظر شيئا ٠٠ وكان ثم غشاوة على عينيه — لقد كانت أمه مثل ذلك ٠٠ كانت تتحسس طريقها على الدوام ٠٠ أنظر يا أخى الى أفريكان سمولين ٠٠ انه لا يكبر فوما بأكثر من عامين، ومع هذا فأنت لا تستطيع أن تقول من من الرجلين يدبر العمل جميعا ٠٠ سمولين أو أبوه ٠٠٠ ثم هو يريد أن يسافر ويجوب أطراف الدنيا ليدرس — يدرس فى مصنع أو معمل أو فى أى مكان آخر — وهو من أجل هذا فى شجار مع والده دائما — وهو يقول له

انه لم يعلمه شيئا كان يستحق أن يعلم ... فهذا هو .. أما ابني!!  
فاننى لا أستطيع أن أقف على سره ولا أن أستطلع طلعه !  
ثم تنهد الرجل تنهدة عميقة تحمل الحسرة والأسى .  
وأجاب اجنات فى لهجة حازمة :

- اسمع .. هذا هو ما يجب أن تعمله .. اقذف به فى عمل من  
الأعمال الكبيرة ، ودعه يغرق أو يعوم .. فالذهب لا يعرف الا  
بالنار ... وستكشف لنا هذه التجربة عن معدنه لانه سوف  
يتصرف فيها بتفكيره هو ورأسه هو ... أرسله فى مأمورية تجارية  
على احدى سفنك الهابطة فى نهر كاما يقوم بها وحده . كتجربة من  
التجارب . اه !

- وماذا اذا لم يحسن أو كبذك شيئا من الحسارة ؟ .. ان الضرر  
الذى يلحق جيبك سيعود عليك بربح عظيم ، على الاقل ، ستعرف  
معدن ابنك ، وأى شىء هو ؟  
وأجابه اجنات مقتنعا :

- لك حق .. هذا هو ما سوف أعمله .

\*\*\*

وفى ذلك الربيع نفسه أرسل اجنات ابنه الى نهر الكوما ومعه  
مركبان يحملان قمحا ، يقطرهما الرصاص بريلزىنى ، ويقودهما  
صديق فوما القديم .. ذلك العامل السابق ييفيم - الذى لم يعد  
الناس ينادونه الا ييفيم اليتش ، تأدبا واحتراما ... وقد أصبح  
الآن رجلا ربعة ، يناهز الثلاثين ، له عينان حادتان كعيني فهد ،  
وقد برهنت الحوادث على أنه ربان مستقيم مثابر واسع الادراك .

وقد شددوا رحالهم حثيثا ، وأقلعت بهم مراكبهم فرحين مستبشرين ، ليس فيهم الا متفائل مسرور . وكان فوما فخورا باضطلاعها لأول مرة بمثل تلك المسئولية . وكان يقيم فرحا متهللا برياسة هذا السيد الشاب الذى لا يتبعه سببا وشتما عند كل صغيرة وكبيرة . . . وكان هذا المزاج الفكه المرح الذى يتسم به هذان الرئيسان أشبه بضوء شمس غامر يشع على سائر الملاحين . لقد أقلعا بشحنتهما فى ابريل ، فوصلا الى وجهتهما فى أوائل مايو ، وحينما ألفت السفينتان مراسيهما بجانب البر ، رسا الجرار البخارى بالقرب منهما . وأصدر فوما أوامره بتفريغ القمح بمنتهى ما يمكن من السرعة ، ثم بيعه ، وتسلم الثمن ، والاقلاع الى برم ، حيث يسق المركبين بشحنة من الحديد كان أبوه قد تعاقد عليها لكى يدفع بها الى السوق .

ورست السفن الثلاث على مقربة من قرية صغيرة عند حافة احدى الغابات . وفى أول صبيحة من وصولهم اليها أقبلت شردمة من الرجال والنساء مشاة وركبانا الى الشاطئ وهم يضجون ويهللون ، ويغنون ، ثم تسلقوا جوانب المركبين ، وما هى الا لحظات حتى كان العمل على أشده ، وكنت ترى النساء ينزلن الى العنابر حيث يعبئن القمح فى الغرارات التى يحملها الرجال على كواهلهم ، ويندهبون بها الى الظهر ، ثم ينشون برشاقة فوق الألواح الخشبية السميكه التى كانت تصل بين المركبين وبين الضفة . وبعد قليل كنت ترى صفا طويلا من عربات الكار ممتدا على الشاطئ محملا بغرارات القمح التى طال على الناس انتظارها ، وقد أخذت العربات تدلف فى الطريق الممتد الى القرية . وكانت النساء يغنين الاغانى ، والرجال يمزحون ويتبادلون الشتائم والسباب فى رقة وطيبة قلب ، وكان عمال السفينة وملاحوها الذين تحولوا الآن الى حراس يسهرون على النظام وتنفيذ القانون يصيحون بالشغالة والحمالين ، وكانت الألواح تضرب الماء والحمالون يمشون فوقها ، وكانت الخيل

تسهل وتجمع ، والعربات تصرف وتقرقع ، والرمل يرسل صريراً  
غريباً تحت عجل العربات .

كانت الشمس قد أشرقت منذ قليل . . وكان الهواء المعطر بأريج  
الصنوبر ينعش النفوس وينشط الأرواح ، والماء الهاديء الوداع  
يعكس زرقة السماء ويتمتم في رفق وهو ينتشر على جوانب المراكب  
ويرتطم في سلاسل المراسي . وكانت أصوات الشغالة المرحة وهم  
يعملون . وجمال الشباب المتدفق في أعطاف الربيع ملء هذا المنظر  
من الطبيعة الفتانة المتوهجة في أشعة الشمس - كان هذا كله مفعماً  
بتلك القوة الضاحكة البهيجة التي أشاعت السعادة في أعطاف فوما ،  
وأثارت في جوانحه مشاعر جديدة ، ورغبات لم يكن له بها عهد .  
لقد كان جالساً على الظهر في ظل تندة وهو يشرب الشاي مع ييقيم ،  
وكاتب أحمر الشعر أعشى العينين ، يلبس نظارة على عينيه ، موفد  
من مجلس الناحية ليتسلم القمح . وكان يروى لهما وهو يهز  
كتفيه في حركة عصبية وصوت به صرير وسرسة كيف كان  
الفلاحون يتصورون جوعاً ، غير أن فوما لم يكن يولى ما يقوله أى  
التفات . فقد كانت عيناه تتناوبان النظر بين العمال من أدنى ،  
والضفة الموشاة بأشجار الصنوبر على الجانب الآخر من النهر - ذاك  
المكان الساكن المهجور !

وكان فوما يتمنى لو استطاع الذهاب ثم في قارب صغير ، وبينما  
هذه الفكرة تراوده اذا صوت الكاتب ، ذلك الصوت الذي يشبه  
صرير المنشار ، يأتي من بعيد ليصك أذنيه قائلاً :

- ربما لا تصدق الى أى مدى بلغت الحال بالناس هنا ! اسمع  
يا سيدى : لقد أحضر فلاح من أوسا ابنته ذات الستة عشر ربيعاً  
الى سيد طريف يوماً ثم قال له : « ها قد أحضرت اليك ابنتى  
يا صاحب السيادة » . فلما سأله صاحب السيادة عن السبب قال  
له : « لقد حسبت أنك ، وأنت رجل عذب ، قد تكون بك اليها



حاجة » • فلما عاد السيد يسأله عن السبب مرة أخرى ، قال له الرجل : « حسن •• لقد ذهبت أطوف بابنتي هذه في كل مكان أحاول أن أجد من يحتاج الى خادمة لتشتغل عنده فلم أجد ••• فماذا لو أخذتها أنت ••• وجعلت منها خادمتك ، و ••• اذا شئت ؟ واذا لم تجد منها فائدة أخرى ••• » فانظر الى ذلك الرجل يعرض ابنته •• ابنته ! هل تسمع ؟ على ذلك السيد لمثل هذا الغرض • وقد هاج السيد وماج بالطبع ، وقال لوالد البنت رآيه فيه ، ولكن الفلاح قال ، وهو يعي ما يقوله وعيا تاما : « وماذا أستطيع أن أصنع بها في أوقات مثل هذه ، يا صاحب السيادة ؟ انها حمل مرهق ، وعندى ثلاثة أولاد غيرها ، وهم سيكبرون ويصيرون عمالا ، ولهذا بذلت جهدي في المحافظة على حياتهم ••• فأعطني عشرة روبلات ! وخذ ابنتي ••• لكي أستطيع اعاشة هؤلاء الأولاد » •

— فما رأيك في هذا ؟ أليس شيئا فظيحا ؟ هه ؟

وهنا تنهد ييغيم من أعماقه وقال :

— يا لها من حال سيئة ! ان الجوع ، على حد قول المثل ، كالهرة التي تأكل بنيتها •• ويبدو أن البطن له رآيه هو أيضا فيما هو حق وفيما هو باطل !

ولقد شعر فوما ، لسبب لم يستطع أن يفسره ، بسرور عميق ، للحظ الذي كتب لهذه الفتاة • وسأل الكاتب :

— وهل اشترى السيد الفتاة ؟

وأجابه الكاتب بلهجة فيها شيء من التعبير :

— لم يشتريها طبعا •

— فماذا حدث لها اذن ؟

— أو •• لقد وجد بعض أهل الخير الذين أخذوها عندهم ••

وهنا أرسل فوما آهة أسفة ، ثم قال بصوت أجش فجأة :

- لوجاءني بها هذا الفلاح لعرفت كيف أعيد اليه صوابه .. تالاً  
لضربته ضربة كانت تذهب بشناياه كلها !

وسأله الكاتب وهو يرفع نظارته من فوق أنفه :

- ولكن .. لماذا ؟

- لماذا ؟ وكيف يمكن أن يباع بنو آدم ؟

- هذه وحشية .. أنا معك .. ولكن -

- وفتاة صغيرة كهذه !؟ لو كنت من السيد لدفعت اليه الروبلات  
العشرة التي طلبها .. مساعدة

وهز الكاتب كتفيه ولم يتكلم ، وقد غاظ هذا منه فوما الذي نهض من  
مجلسه وتوجه الى الدرابزين ، حيث كان يمكنه رؤية العمال وهم  
يهبطون من المركب ويصعدون في حركة دائبة .. ولقد جلبت الضوضاء  
الى رأسه الدوار ، وتبلورت المشاعر الغريبة التي كانت تهوم في  
أعماقه فأصبحت حينها الى أن يعمل هو نفسه مع هؤلاء العمال  
بيديه وتمنى أن تكون له قوة خرافية كقوتهم ، وأكتاف هرقلية  
كأكتافهم يستطيع بها أن يحمل مئات ومئات من غرارات الحبوب في  
المررة الواحدة ، حتى يستولى العجب على كل من ينظر اليه .

وهتف بالعمال يحضهم على العمل قائلاً :

« الهمة يا حضرات .. الهمة »

وهنا ارتفعت رعوس كثيرة ترنو اليه ، لمح من بينها وجه امرأة ذات  
عينين سوداوين تبسم له في رقة ، وفي فتنة واغراء .. وقد خفق  
قلبه لتلك الابتسامة ، وشعر كأن شيئاً يأخذه من أعماقه .. وكان  
دمه يغلي ويندفق كالحميم في عروقه .. فلم يملك الا أن ينزع نفسه  
من الدرابزين نزاعاً ، ويعود الى المنضدة .. شاعراً بأن خديه كانا  
يلتهبان النهايا .

ثم التفت اليه الكاتب يقول :

- اسمع .. أرسل برقية الى والدك كي يبعث الينا بكمية إضافية من القمح عوضا عما ضاع من هذه الشحنة بسبب النقل والتفريغ . ولعلك تلاحظكم من الحب يضيع فيما ترى، مع أن كل حبة منه تساوي ثقلها ذهباً .. فواجب عليك أن تعلم ذلك .. ولكن .. هذا الرجل .. والدك .. هم ..

وسكت الكاتب وعلى فمه اشارة لها معناها . فقال له فوما على الفور :

- وكم ترى أن يرسل الى سيادتك مقابل هذا الضائع لايفانكم .  
حقكم ؟ مائة وزنة ؟ مائتان ؟

فأجابه الرجل الذي استولى العجب على نفسه :

- الله أكبر ! هذا يكون شيئا عظيما .. اذا كنت تملك ..  
فقطع عليه فوما كلامه بجفاء وقال له :

- أنا السيد هنا .. وأنا أرجوك ألا تبدي ملاحظاتك الشائنة عن والدي ، وألا تدس أنفك فيما ليس من شأنك .

- معذرة .. وأستميحك العفو .. لا شك مطلقا في أنك على حق .. وأنا أشكرك من أعماق قلبي . أنت .. والدك أيضا .. بالأصالة عنى ، وبالنيابة عن جميع هؤلاء الأهل ..

ونظر ييقيم الى سيده الصغير شذرا ، وجعل يزم شفثيه ويممص بهما .. ولكن السيد الصغير ظل واقفا وعلى وجهه أمارات الجهد والكبرياء على حين كان الكاتب يكييل له عبارات الشكر والممنونية ، وهو يفرك يديه .

- مائتا وزنة ! هذا هو الكرم الروسى على حقيقته ، أيها السيد

الصفير ! اننى سأخبر هؤلاء الفلاحين عن هذه الهدية ، وسترى كـ  
يعترفون لك بالجميل ، ويولونك الشكران .

ثم مال برأسه نحو العمال وهتف بهم قائلاً :

- ان مالك هذا القمح قد أهدي اليكم مائتى أردب من القمح أيها  
الأهالى .

فقال له فوما مصححا :

- بل ثلثمائة أيها الرجل

- بل ثلثمائة وزنة .. شكرا لك يا سيدي . . ثلثمائة أردت من  
القمح هدية منه لكم أيها الناس !

ولكن الاثر الذى كان يتوقعه الكاتب لم يكن هو الاثر المنشود .  
لقد رفع الفلاحون رؤوسهم لحظة عابرة .. ثم عادوا الى عمالهم مباشرة  
دون أن يحرركوا ألسنتهم بكلمة .. وأن كان قائلون منهم قد ردوا فى  
لهجة متلعثمة .. بل قل ، فى اشمئزاز ، بضع كلمات خاطفة :

- شكرا لك ..

- بارك الله فيك ..

- شكرا كثيرا ..

فى حين راح بعضهم يقول فى سخرية ظاهرة :

- قمح !! جميل جدا .. وماذا كان عيب الفودكا ؟ زجاجة من  
الفودكا لكل منا ، الآن ، وفى هذه اللحظة ، كانت خيرا وأولى بلا  
شك ! ان القمح لن يصل الينا .. بل .. سيلهفه المجلس !

فصاح الكاتب محزونا :

- انهم لا يفهمون يا سيدي .. لا يفهمون .. سأذهب لأشرح لهم  
الموضوع .

وذهب اليهم .. ألا أن فوما تم يبال رأى الفلاحين فى هديته ..  
فقد رأى العينين السوداوين تنظران اليه بابتسامة خفيفة غريبة ..  
لقد كانتا تشكرانه .. تدغدغان قلبه .. تدعوانه .. فكيف يستطيع  
أن يرى شيئاً آخر؟! وكانت المرأة تلبس لبس أهل المدينة .. بلوزة  
من القطن ، ونعلا فى رجليها ، ثم منديلا عقصت به شعرها الاسود ..  
وكانت طويلة غيداء .. تميمس كالصفصافة حتى وهى جالسة على هذا  
الكوم من الخشب تصلح الزكائب والغرارات، وذراعها العاريتان الى  
المرفين ، يخطفان الابصار كلما حركتهما وهى تشتغل ، وشفتها  
تبسمان لفوما !

وسمع فوما الربان ييقيم يخاطبه معنا :

- فوما اجنا تيفتش .. ألم تكن مبالغا مبالغة شديدة فى هذا  
التبرع المسرف ؟ ألم تكن خمسون وزنة هى الشيء المناسب ؟ أهكذا  
تعطى باليمين وبالشمال بلا أدنى حساب ؟ انك لم تأخذ بالك جيدا ،  
كان ما لنا ، أنت وأنا .. شيئاً لا يسر !

وقال فوما بجفاء :

- عليك نفسك فقط !

اصنع ما شئت، وفى وسعى أن ألجم لسانى، الا أنك صغير لا تزال  
.. وقد أوصانى أبوك أن آخذ بالى منك .. وأخشى أن يكيل لى  
ما تعلم من لكلمات ولطمات اذا تركت الامور تجرى على تلك الحال !

- سأخبر والدى ..

- عال جدا .. فأنت الرئيس هنا .. ولكن -

- صهين ، ييقيم ، صهين

وصمت ييقيم بعد أن تنهد قليلا .. أما فوما فقد أرسل ناظره  
نحو المرأة ، ثم أنشأ يفكر فى نفسه :

- آه لو أن أحدا يبيع لي امرأة كهذه !

ثم أخذ نبضه يسرع . وبالرغم من أنه لا يزال قلبا بكرا ، فإنه قد ألم بشيء عن علاقات اللفة بين الرجال والنساء مما كان يسمع من أحاديث الناس . لقد كانت أحاديث تتخللها كلمات وقحة وفاحشة ، حتى لكانت نفسه تعافها ، إلا أنها مع ذلك كانت تثير التشوف وحب الاستطلاع فيه . ويا طالما حاول أن يعرف عن هذه الاسرار ما غاب عنه ، إلا أن شيئا من الاخيلة التي كان يلقها له وهمه عن هذه الاسرار لم يكن سميما مفهوما ولم يكن يتصور قط أن العلاقات بين الرجال والنساء كانت من الشناعة والامر الواقع بمثل ما كانت هذه العبارات الوقحة المسفة تصورها . وحينما كان اخوانه يستهزئون به ويؤكدون له أنها كانت كذلك ، ومحال أن تكون غير ذلك ، كان يعبس ، ويكشر بصورة حمقاء ، ويصر على أن تلك الصورة المخجلة لم تكن هي الصورة الوحيدة التي يمكن التعبير بها عما يجب أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة ، وأن ثم صورا غيرها بلا ريب ، أكثر نقاء وطهرا ، وأقل اهانة للطبيعة البشرية .

أما الآن . . . وهو واقف يرنو في عبادة و إعجاب ، الى هذه المرأة ذات العينين السوداوين . . . فلم يكن يجذبه اليها الا هذا الجاذب الحشن . وقد أزعجه هذا وأشعره بالحقارة والهوان . . . ولا حظ ذلك ييفيم ، وكان واقفا الى جانبه ، فقال له فى شيء من الجلد :

- ثم هانت ذا واقف تحديق عينيك فى هذه المرأة اقل ما تشاء ، فأنا لا يمكننى أن ألجم لسانى أكثر مما فعلت . . . انك لم ترها من قبل قط ، لكنها اذا ظلت تلاحقك بعينيها هكذا فلا شك أنك - وأنت صغير غض كما أنت ، ولك أخلاقك التي فطرك الله عليها . . . لا شك أنك ستطب يا مولانا . . . وتقع فى الحيص بيص الذى يرسل بنا الى السيد الوالد ، حافيين ، وعلى الاقدام ، وسيكون من حسن حظنا أن

نبتى لنا سراويل تستر ما تعلم .. وما الله به أعلم .  
وصعد الدم فى وجه فوما ، وقال :  
- ماذا تريد منى ؟

- لا شىء مطلقا ، ولكنك أنت الذى تريد أن تصغى الى .. انى  
يا سيدى عليهم بأدواء النساء خير .. ومن حسن حظ الشباب أن  
برزقهم الله خيرا بهن مثلى ليعظهم ، وليعلمهم كيف يسوسونهن ، وأمر  
النساء بسيط غاية البساطة .. فما عليك الا أن تعد مائدة حافلة  
بزجاجة من الفودكا .. وبيعض ما يؤكل .. ثم لا بأس من زجاجة من  
الجنة بعد ذلك .. فإذا انتهى كل شىء .. فلا أكثر من أن تنفخ صاحبك  
بعشرين كوبكا .. وهذا ثمن يجعلها تبذل لك من الحب كل ما فى  
فليها .

وكان جواب فوما هذا الجواب المكتوم :

- هذا كذب !

- كذب؟! ولماذا أكذب وقد جربت هذا بنفسى مائة مرة على الأقل؟  
اسمع .. دعنى أتول عنك هذه اللعبة .. سأجعلك تتعرف الى هذه  
السيدة !

- فأنت عند قولك !

وفالها فوما وكان يدا تقبض على عنقه

- سأتيك بها هذا المساء

وقضى فوما بقية نهاره فى ذهول وحيرة ، لا يلقى باله الى نظرات  
التبجيل والتودد التى كان الفلاحون ينظرون بها اليه .. لقد كان  
فلقا ، مفزوعا .. كان يشعر كأنما أساء الى أحد .. وكان هذا الشعور  
يجعله ظريفا لطيفا يتودد الى كل انسان ، ويلقاه بما يشبه الاعتذار .

واجتمع العمال في ذلك المساء على ضفة النهر ليعدوا عشاءهم الذي  
أشعلوا لطبخه نارا عظيمة ، وكان اللهب يعكس على الماء شأبيب من  
الوهج الاحمر والاصفر كانت تتراقص على أديمه الناعم ، وعلى زجاج  
القمرة التي كان يجلس فيها فوما متحويا في ركن من الكنبه ٠٠ وقد  
شد الستار على النافذة ، ولم يشعل المصباح ٠ وكان وهج النيران  
يخترق الستار ، وينفذ منه ضوء مرتعس خافت ، لا يفتأ يعلو ويهبط  
على المنضدة والجدران ٠ وكان السكون شاملا ، ولم يكن تم من صور  
بنسق هذا السكون الا غمغمة الاصوات اللاغطة فوق الشاطيء ، وال  
نقر الأمواج الخفيفة على جوانب المراكب ٠٠ وكان يخيل لفوما أر  
أحدا من الناس مختبيء في ظلال القمره ، وقد راج يراقبه من قرب ٠  
آه ٠٠ لقد أقبلنا ! وهاهو ذا وقع أقدامهم يدب على الصقالة ٠٠ وهام  
ذى الصقالة تضرب الماء في غل وغيط ! ٠٠ انه يسمع ضحكا وأصوا  
خافته خارج الباب ٠

وأوشك أن يأمر القادم بأن ينقلب على عقبه ٠٠ بل لقد وقف بالعد  
ليطرده ٠ لكنه قبل أن يستطيع تحريك لسانه ، انفتح الباب و  
مصراعيه ، واذا بالمرأة الطويلة أمامه ٠٠ لقد دخلت ، تم أغلقت الباب  
وراءها دون أن تحدث صوتا ما ٠

وقالت المرأة بصوت هادى :

— يا سلام سلم ! ما للغرفة مظلمة هكذا ؟ ألا من أحد هنا ؟

وأجاب فوما بصوت ضعيف مخنوق .

— بل .

فقالت المرأة وهي تخطو في تهييب :

— اذن ٠٠ سعد مساؤك !

— ساضى المصباح !

لكنه بدلا من أن يفعل شيئا ، انحط على الكنبه ، ثم تحسوى و  
طرفها كما كان



- أوه .. هكذا أحسن .. فبمجرد أن تعناد العين الظلام  
نستطيع الرؤية فيه  
- تفضلي اجلسي  
- شكرا

تم جلست على بعد ذراع منه ..  
لقد كان فوما يلمح الشعاع المنبعث من عينها ، والابتسامة التي  
بحلج على شفيتها .. لقد كانت ابتسامتها تبدو شيئا مختلفا الآن .  
انها كانت أكثر حزنا ، وأقوى على انبعاث الاسى والتشجن !  
وكان هذا كله مشجعا . لقد أغضتنا حينما لقيتنا عينيه ، فساعده  
ذلك على ضبط أنفاسه .. الا أنه لم يدر ماذا يقسول لها ، ومن ثم  
فقد ساد الغرفة صمت كثيب .. وكانت هي أول من وضعت له حدا .  
- انك لا بد أن تشعر بالوحشة ما دمت تعبس وحيدا .. أليس  
كذلك ؟

وقال فوما :

- بلى .

- وكيف وجدت هذا المكان من النهر ؟

- في منتهى الجمال .. غابات كثيرة !

ثم ساد الصمت مرة أخرى

وأحب أن يتكلم فوما فشد لسانه وقال :

- ان نهركم أجمل حتى من الفولجا .

- لقد سافرت على الفولجا .. الى سمبرسك

وردد فوما اسم هذه المدينة ، وهو لا يستطيع أن يفكر في شيء  
ظهوري .. لكنها .. وقد فهمت الآن هذا الانسان الذي يجالسها ،  
عالت له متسائلة في همسة رقيقة :

تعال هنا ! لماذا لا تقدم لى شيئا أشربه أو أكله يا سيدنا ؟

وبدهته هذه الملاحظة فلم شعته ثم قال :

- آه .. نعم .. يا لى من لحمه فى مثل هذه المناسبات .. تفضل

وأخذ يتحسس فى الظلام ، ويأتى بالزجاجات فيضعها على المنضدة ، وهو يصطدم بها ، ضاحكا كالذى يشعر بالاثم ويحس بالحجل .. فنهضت ووقفت الى جانبه ، ثم تبسمت وهى تنظر الى وجهه الحجول . ويديه المرتعشتين :

وأحس أنفاسها ترف على خده ، فلم يملك الا أن يهمس : « أجل ! » وعند ذلك وضعت يديها على كتفيه ، ثم ضمته الى صدرها ، وهى تغغم فى ملق :

- انه لا شىء .. لا تخجل .. تم .. أنت لا شىء بدون ذلك .. افك صغير جدا .. وجميل .. وانى لا أشعر بالأسف من أجلك !

وقد جعلته كلماتها المهموسة يحس كأنه يبكى .. تم عرت روجه استرخاءة لذينة ، فأسند رأسه الى صدرها ثم احتواها فى ذراعيه ، متمتما بكلمات غير واضحة .. كلمات لم يفهم معناها هو نفسه .

\*\*\*

وقال لها وهو مول وجهه عنها ، محدق بعينييه فى الحائط : « اذهبي .. وأطاعنه المرأة ، وذهبت . بعد أن طبعت قبلة على خده .

لقد كان فوما يشعر فى حضرتها بخجل شديد لا يمكن احتماله ، ولما ذهبت ، نهض ثملقى بنفسه على الكنبه من جديد ، بعد أن وقف طويلا ، مأخوذا بشعور غريب ، شعور الذى ضاع منه شىء ثمين . لم يكن يعرف أنه يملكه حتى فقدته . على أنه فى هذه اللحظة نفسئها



•• انه لا شيء •• لا تفعل •• ثم ••

تقريبا كان يملؤه شعور جرىء جديد .. شعور الكبرياء والزهو بنفسه .. وهو شعور لم يلبث أن طغى على الشعور بالحجل فنسخه، وبدلا من أن يشعر بالحجل ، شعر بالاسف على ذهاب هذه المرأة لتسير وحدها فى الظلام ، وفى ليلة باردة من ليالى شهر مايو ... ولهذا فقد أسرع بمغادرة القمرة ، وانطلق الى الظهر ... لقد كان الليل ممثليا بالنجوم وخاليا من حبيبه القمر .. وقد شعر فوما ببرده، وغمره ظلامه ، وكانت جمرات النار لا تزال تتأجج حمراء ذهبية على صفحة النهر . وأنصت فوما : لقد كان السكون الرهيب يمسك أنفاس الهواء ، دون أن يصدعه شيء الا ضربات الماء الخفيفة اللطيف التى تصافح سلاسل المرساة ، ولم تكن تسمع خطوة واحدة فى أى مكان ... وقد أراد أن ينادى المرأة ، الا أنه لم يكن يعرف اسمها . ولبت واقفا بضع دقائق فوق الظهر يستنشق الهواء النقي فى لذة وشغف ... ثم اذا به يسمع فجأة صوت تنهدة مقبلا من الناحية الاخرى من قمرته ، من مقدمة المركب ، فهم بالتقدم الى الامام فى هدوء ورفق ، متيقنا أنه سيجدها هناك .

لقد كانت جالسة على ظهر المركب وهى تبكى ، وقد أسندت رأسه على حوية من الحبال . وكان من اليسير على فوما رؤية كتفيها العاريتين البيضاءوين تعلوان وتهبطان وأن يسمع بكاءها اليائس .. انه هـ نفسه كان يحس باليأس .

وانحنى نحوها فى رهبة يسألها :

- ماذا ؟

لكنها هزت رأسها دون أن تجيب .

- هل ألحقت بك ضررا ؟

ولم تزد على أن قالت له :

- انصرف !

وقال فوما وهو يلمس شعرها فى قلق وربكة :  
- و .. ولكن .. لماذا ؟ لا تغضبى منى .. وعلى كل .. فانت  
نفسك ...

وهمست المرأة الباكية تقول :

- لست غضبى ... وماذا يغضبني منك ؟ انك لست وحشا ،  
وان لك لقلبا نقيآ .. آه ، يا عصفور طريقي .. اجلس الى جانبي  
ثم أخذت يده وسحبته الى جانبها كأنه طفل ، ثم أسندت رأسه  
على صدرها ، وأهوت بشفتيها المشتعلتين على شفثيه تقبلهما .  
وسألها فوما عن سبب بكائها وهو يداعب خدها باحدى يديه ،  
ويربت على كتفها بيده الأخرى ..

وسألته بلهجة نائحة مشجية :

- نسدتك نفسى الا أن تخبرني ، لماذا طلبت الى أن أذهب ؟

وأجابها فوما وقد أطرق برأسه :

- لقد كان الحجل يعصف بى !

فالت صاحكة ، والدموع الغزيرة تساقط على صدر فوما :

- يا طفلى العزيز .. اصدقنى ولا تكذب على .. انك لم تحببني ،  
البس كذلك ؟

- ما هذا الذى تقولين ؟

وكان يقول لها ذلك والجزع يكاد يأخذه من صميمه . ثم راح  
صرح لها باعترافات حارة مخلصة ، ويعبر لها عما آتاها الله من جمال  
ورقة ، وعما شعر به من الرثاء لها والاسف عليها ، وما استولى عليه  
من الخجل وهما معا فى تلك الغرفة ... وبينما كانت تصغى اليه  
كانت تداعب بالقبل خديه وعنقه وصدره العارى . .

فلما انتهى ، أخذت هي ترقرق له الحديث بصوت باغم حزبي ،  
كأنما كانت تحدّثه عن قوم انتقلوا الى عالم البقاء :

— وعلى هذا فقد كنت مخطئـة ٠٠٠ ولم أفهم معنى أمرك  
بالانصراف ٠٠ لقد نهضت ٠٠ وانصرفت ، الا أن كلماتك جعلتني  
أشعر بمرارة شديدة ٠٠ لقد كنت أحسب أن أحدا لن يزدريني على  
هذا النحو . بل كنت أحسب أنني لو طلبت ممن يهوانى الدينـ  
بأسرها تمن ابـتسامـة واحدة ما بخل بها علي ٠٠٠ هذا هو ما كنت  
أظنه . فلما اذريتني أنت على هذا النحو ٠٠ بكيت ٠٠ لقد بكيت  
شبابي الضائع ٠٠ فأنا الآن في الثلاثين من عمري ٠٠ وماذا يبقى  
للمرأة بعد الثلاثين ! آه ٠٠ يا فوما اجناتيفتش !

وهنا ، كانت قد خلطت صوتها بنغمة باكية فيها أنين وفيه  
شجو ، ورفعت من طايقه ، وهي تزيد شيئا فشيئا من سرعة الايقاـ  
في حديثها الرخيم الحنون' ، الذي كانت نبراته صدى حلوا للما  
الترقق . اصغ لما أقول : انتفع بشبابك ، فليس في الدنيا ما هو  
أغلى وأثمن ! ان الشباب مثل الذهب ، يأتيك بكل ما تشتهي  
فأنفقه حتى يكون ثمة ما تستطيع أن تتذكره حينما تشيخ وتكبر .  
لقد كان شبابي هو ما فكرت فيه ، وأحسب أنه هو الذي جعلني  
أبكي ، ولقد انتشى قلبي حينما تذكرت كيف كنت أعيش . وقد  
عاد الى صبـاي حينما رويت من الماء الحى ٠٠ آه يا صغيرى العزيز  
لسوف نعاود سرورنا ان كنت أقع من نفسك الموضع الذي تشتهي  
وعندئذ أفرغ روعي كلها بين يديك ٠٠٠ اننى ان اشتعلت النار في  
يوما . فلن تدعنى الا رمادا !

، ثم أخذت فوما ملء ذراعيها ، وأهوت على شفثيه تقبله في حراره  
وشغف .

تم ارتفع صوت أحد الملاحين من المركب المجاور ينادى في عنه  
- « خف ٠٠٠ ير » !

وراح يخطف الراء خطفا مباغتاً ، ثم تناول دفاقه (١) الخنسي  
وأخذ يدق به على لوح من الصاج يقوم مقام الجرس ٠٠٠ وكانت  
ديذبات الدق تجلجل في حنج السكون الرهيب .

\* \* \*

وبعد أيام قلائل ، وكانت السفينتان قد أفرغتا من حملهما ،  
واستعد الجرار البخارى لتسدهما الى برم ٠٠٠ رأى ييفيم ، ويا هول  
ما رأى ، عربة تهبط نحو حافة الماء ٠٠ واذا فوقها تلك المرأة بيلاجبا  
٠٠ صاحبة العينين السوداوين ، ومعها حقيبة كبيرة ، وكم بقحة !

وقال له فوما بلهجة أمره وهو يشير الى العربة :

- أرسل بعض الملاحين ليحملوا متاعها .

وهز ييفيم رأسه هزة الساخط الناقم ، لكنه أنفذ ما أمر به . وى  
نفسه ما فيها ٠٠٠ وبعد هذا بقليل نظر الى فوما وقال له بصوت  
حافت .

- وعلى هذا فهى مسافرة معنا ٠٠ أليس كذلك ؟

- انها مسافرة معى ٠٠ أنا !

- أنا لم أقصد أنها مسافرة معنا جميعا ٠٠ أو ٠٠ هو !

- وفيهم تلهفك ؟ ٠٠ وفيهم هذه الحسرة ؟

- اسمع يا سيد فوما اجناتيفتش ، اننا ذاهبون الى مدينة كبيرة ،

وهناك من أمثالها الشيء الكثير !

وقال له فوما بلهجة صارمة :

- كفى ٠٠. أمسك عليك لسانك !

---

(١) الدفماق بلغة الملاحين أشبه بمدقة الخشب

فتجهم ييفيم ثم قال :  
- حاضر .. حاضر .. ولكن يجب أن تعلم أن هذا شيء لا يجمل  
بك !

وأجابه فوما متغطرسا ، وهو يضغط على كل كلمة :  
- اذا سمعتك ، أو سمعت أى شخص آخر ، يرسل فيها لسانه  
بمكروه ، فلسوف أحطم رأسك .. فاذاكر هذا ولا تنسه !

وزام ييفيم مهمهما : - يا للداهية السوداء !  
وجمل يحدق فى سيده كالمنكر عليه ، ثم رجع الى الورا حطوة ،  
وابن اجبات يكر عن أنيابه كأنه ذئب .. على حين كانت حسدقتنا  
عينيه تدوران وتبرقان ، ولم ينشب أن زار قائلا :  
- تجاسر .. ولسوف أريك

وقال ييفيم فى شمم ، وبملء الكرامة ، بالرغم مما يخامرهم من  
خوف :

- وقد تكون السيد الأمر هنا .. الا أننى أوصيت أن آخذ نالى  
منك .. ثم .. لا تنس أننى الربان هنا !  
فصاح به فوما وقد هرب الدم من وجنتيه ، وأخذ جسمه كله  
برتجف :

- ربان ! فماذا أنا .. اذن !

- ليس ثم ما يدعوك الى ههنا الصياح .. ان كان هذا كله  
سبب امرأة لا قيمة لها !

واصطبغ وجه فوما ببقع حمراء ، وجعل ينب من احدى قدميه الى  
القدم الاخرى ، ثم كئل قبضتيه ووضعها فى جيبيه ، وقال بصوت  
بابت ، ساكن :

- اسمع .. أنت ربان ! اذا تفوهت بكلمة أخرى فتستطيع  
أن تأخذ بعضك ، وتنكشج من هنا ! أخرج من المركب ! وسيمكننا ،



أنا والمرشد أن نعمل بدونك .. فاهم ! لا تفكر أنك تستطيع أن  
تصدر أوامرك الى .

لقد شده ييفيم .. ووقف غاضبا عبينه عن فوما ، غير مستطيع  
أن ينطق بكلمة !

- لقد سألتك ان كنت تفهم !

- أجل أجل ! ولكن .. فيم هذا الصخب كله ! أمن أجل هذه  
المرأة ال ...

- اخرس !

وعرف الربان من عيني فوما المشتعلتين ، ووجهه المتقلص ، أن  
من اللفظة أن ينسحب .. وسرعان ما فعل .

لقد كان ييفيم ناقما على فوما ، وكان يعتقد أنه عومل معاملة  
طالمة ، لكنه أدرك في الوقت نفسه أنه أمام سييد حقيقى قوى  
الإرادة . ولأنه كان معتادا أن يتلقى الأوامر فى مثل هذه الظروف ،  
لم ير بأسا فى أن يستشعر أن اليد التى فوقه يد قوية ذات بأس .  
وقد توجه فى الحال الى قمرة المرشد فقص عليه ما حدث ، وحييرا  
فعل .

وقال له وهو يصل رواية القصة :

- فما رأيك فى هذا ؟ انهم يقولون ان كلب الصيد الجيد تنجلي  
مواهبه لأول مرة تأخذه للصيد فيها ... وقد يبرز من المزايما ما لم  
نكن تدل عليه مشيته المترنحة المختلجة ... لا بأس .. دعه ينم  
لعبته .. فلن يسفر هذا عن ضرر ما .. فقط .. هذه الحدة التى  
تتملكه ..! وهذه الطريقة التى تار بها فى وجهى ! لقد كان يطن  
كالطبل ..! حقيقة انه لم يلبث طويلا حتى دل على معدنه ، وعلى  
الخامة التى صنع منها ... انه ليخيل لك أنهم كانوا يرضعونه  
القوة ، ويطعمونه السلطان .. لا بالمعلقة .. ولكن بالجردل !  
لقد كان ما قاله ييفيم حقا كل الحق .. فلقد تغير فوما فى الأيام

الاحيرة تغيرا تاما ، بفعل العاطفة التي شبت في أعماقه فجعلته المالك المسيطر على جسم هذه المرأة وروحها ٠٠٠ ولقد راح يعب عما من المفاتن المتأججة التي أصبح سيدها المسيطر ٠٠٠ انها قضت على جميع المتناقضات وألوان الشذوذ التي كانت تجعله يبدو شابا بليدا عيبا . كما أفعمت قلبه بتسباب الكبرياء ، وبالشعور بذاته هو ، والاحساس بفرديته ، ان حب الرجل المرأة خير أى خير للرجل ، أيا كان هذا الحب . حتى لو لم يجلب له الا الضنى والألم ، وذلك أن الألم نفسه لا يخلو من الخير . ان السم هو علاج النفوس الحبيثة . أما الحب ، فيصهر النفوس السليمة ويصلحها كما تصهر النار الحديد وتصلحه .

ان افتتان فوما بهنم المرأة ذات الثلاثين ، التي كان حبهما له اشودة البجة لشبابها ، لم يلهه عن عمله الذي كان يعمل . انه لم يكن يستغرقه حبه فينسى عمله ، ولا عمله فينسى حبه ٠٠٠ بل كان يعدل كل العدل بين هذا وذاك ، لقد كانت المرأة كالحمر الجيدة . تنير فيه الحماسة للعمل ، بقدر ما كانت تثير فيه الحماسة للحب . بل لقد كانت هي نفسها ترتد الى شبابها وعنفوانها تحت سحر ملاحظاته ومعايئاته .

وعندما انتهت بهم الرحلة الى بريم ، وجد فوما خطابا ينتظره من اشبينه ما ياكين يخبره فيه بأن اجنات كان يستعين على وحشته ووحدهته بشرب الحمر ٠٠ ولما كان هذا خطرا على شبيخوخته الوانية فيخلق بفوما أن يسرع بانهاء أعماله بقدر ما يستطيع ، وأن يعود أدراجه الى المدينة . وقد استنتج فوما من ثنايا الخطاب معنى كان أشبه بالندير الذي اتلف عليه هناة قلبه ٠٠ الا أن هذه الغمامة القائمة سرعان ما قشعتها اعماء العمل وملاحظات بيلاجيا . وكان الوقت يمضى حثيثا مسرعا فى سرعة تيار النهر ، وكان كل يوم يمضى يزيد فوما تجارب جديدة وأفكارا جديدة . وكان حب بيلاجيا حب الخلية المتأجج البالغ فى

عمقه المدى الذى لا تستطيع الا امرأة فى سنها أن توفره لحليها .  
وتسقيه كأسه حتى الثمالة . وكانت تتفنن أحيانا فى استحداث  
احساس جديد لا يقل قوة وعمقا عن الاحساس بالحب الملتهب نفسه .  
ولا يقل أثرا فى ربطها بفوما برباط آكد وآمن . . انه احساس  
بأحاسيس الامومة أشبه ، واليها أقرب ، الامومة التى همها الوحيد  
وشغلها الشاغل هو المحافظة على وجيدها من الوقوع فى أخطاء قتاله ،  
وتعليمه حكمة الحياة . لقد كانت فى كثير من الاحيان ، وهما حالسان  
متعاقبين فى الليل على ظهر المركب ، ربما تكلمت اليه فى صوت  
حزين عطوف ، تقول :

— استمع الى كما تستمع الى أختك الكبرى . ان لدى من تجارب  
هذه الدنيا الشيء الكثير ، واني لعلى دراية بالناس ومعرفة ، وكم دا  
مر على من أحوالهم طوال حياتي . . كن على حذر وأنت تختار  
أصدقائك ، لأن من الناس من لا يفلون عن المرض الفتاك فى نقل  
العدوى ، وأنت لا تستطيع أن تدرك ذلك أول عهدك بصدقة أحدهم .  
وقد يبدو الصديق من الاصدقاء كما يبدو أى صديق آخر ، إلا أنك  
تكون قد ابتليت بما فيه من عيوب ونقائص قبل أن تفتن الى ذلك .  
واني ان حذرتك الرجال ، فأنت بالتحذير أولى منا . . مباشر  
النساء ( يا رعاك الله منهن ! ) . انك لا تزال غضا رطب العود ، وان  
فلبك الغرير لم يعله الصدا بعد . ان الغلمان أمثالك — أولئك الاقوياء  
الوجهاء الاغنياء — هم على الدوام صيد ثمين للنساء ، فايك اياك والمرأة  
الناعمة الحاملة ، فهى تمص الرجال كما يمص الدم العلق ، وهى لا تفتأ  
تمص وتمص وتمص ، دون أن تشعر ضحيتها البائسة ، ثم ماذا يكون  
المآل؟! تذهب الضحية ، وتبقى الدودة قوية طرية وفى كامل  
صحتها !! ان النساء يحطمن قلوب الرجال ، ولا يعوضنهم شيئا . .  
وقل منهن من لا تسعى الى فائدة ، ومن لا تطمع فى ربح . . فان  
وجدن . . فهن أولى بمثلك يا فوما .  
وتبسمت كالتى تقول له : « مثلى »

والحق أن بيلاجيا لم تكن تفكر فى كسب مادية قط . وقد اشترى لها فوما بعض الملابس والحلى من برم . وقد فرحت بها عندما أهداها اليها ، الا أنها عندما ألقت نظرها عليها لم تملك الا أن تقول فى قلب واشتغال بال :

— أليس فى هذا اسراف وتبذير يا فوما ! ان أباك سيغضب . لا شك . اننى أحبك على أية حال كان أمرنا . . وبدون هذا كله !  
وقد حدثته منذ أول أمرهما أنها لن تذهب معه الى أبعد من قازان ، حسنت أختها المتزوجة . ولم يكن فوما يعتقد أنها ستتركه ثم ، وقبل ليلة من وصولهما الى تلك المدينة ، وبعد أن ذكرته بيلاجيا بذلك ، إذا هو يشعر بالغم والكآبة ، ويرجوها ألا تفعل ، وأن تبقى معه . وتجيبه بيلاجيا :

— حلمك حلمك . . لا تحزن مقدما . . ان أمامنا ليلة بتمامها ، وسيكون لديك من الوقت ما يكفيك لسكب الدموع . . اذا كنت سنشعر حقيقة بأنك تفقدنى .  
الا أن هذا لم يزد الا الحاحا فى مطالبتها بالبقاء ، وأن تبقى معه . لأنه يريد أن . . يتزوجها .  
وتضحكت . . ثم قالت :

— أوه . . هو . . فهذا هو ما تريد اذن ! تريد أن أهجر روجا حبا من أجلك ! ما شاء الله ! ما أطيب قلبك ! وما أعظم سداجتك ، فانت تريد أن تتزوج اذن ؟ وهل يتزوج الرجال أمثالى ؟ انك ستجد الكثير من الحبيبات قبل أن تفعل . . أو صيك ألا تتزوج حتى تكون قد بلوت من أمر هذه الدنيا ما ينفعك . . وحتى تكون قد سبعت من أطايب الحياة شيئا يجعلك تتوق الى خبزها الاسود ! وحينئذ يكون قد آن لك أن تتزوج . ان الرجل الذى له مثل صحنك يجب ألا يتزوج معرا . اذ أن زوجة واحدة لا تكفيه ، ومن ثم فلن ينفك بجرى وراء

الاحريات ! اذا أردت أن تكون سعيدا ، فانتظر حتى تتيقن أن زوجة واحدة ستكفيك !

الا أن فوما كان ، كلما زادته من هذا الحديث ، لا يزداد الا همما وعنباننا من فكرة فراقهما ، وأخيرا قالت له في هدوء :

- اسمع .. اذا كنت تحمل شعلة لا حاجة بك اليها ، لأن حولك من الضوء ما فيه الكفاية ، فخير لك أن تلقى بها في الماء ، بدلا من أن تملا الدنيا من حولك دخانا ، ، أو من أن تحرق يديك !

- لست أفهم ماذا تعنين .

- حاول أن تفهم .. انك لم تسيء الى قط ، ولست أريد أن ألقى بك أبة اساءة .. وهذا هو ما أريد أن أتركك من أجله .

ان من الصعب التكهّن بما كان سينتهى اليه نقاشهما لو لم تندخل المصادفات والظروف . لقد تسلم فوما في قازان برقية من والده يقول له فيها باختصار :

- احضر حالا بباخرة المسافرين

وقد غاص قلب فوما في رجليه ، غير أنه بعد هذا بوضع ساعات كان واقفا ، أصفر ، شاحب الوجه ، منكس الرأس ، فوق ظهر باخرة المسافرين التي كانت قد أقلعت ، وأخذت تبتعد عن ضفة النهر . ولم يشعر الا وهو واقف بلا حراك ، وقد قبض على الدرايزين بكلتا يديه ، وراح ينظر ، دون أن يطرف ، الى وجه تلك المرأة التي خبل اليه أنه يتلاشى بعيدا عن عينيه ، مع ما يتلاشى من الميناء ومن ضفة النهر . لقد كانت بيلاجيا تلوح له بمندبها وتبتسم .. الا أنه كان يعرف أنها تبكي ! لقد كان صدر فوميصه لا يزال مبللا بدموعها ، تلك الدموع التي تركت قلبه المتألم المعذب يشعر بالبرد والبلل ! ثم أخذ شخصها بنضائل ويتضاءل وبينما كان فوما يرنو اليها كان يحس ان شعورا

ما ، فويا جديدا قد اقتحم قلبه ليسكن فيه مع حزنه لفقده المرأة ، ومع خوفه على أبيه . لقد كان احساسا بالغیظ والكرهية لشخص ما . . ولكن من هو ؟ انه لم يكن يدري ! .

وابتعدت الباخرة . . وأصبح الزحام المجتمع فوق الميناء أشسبه بلطخة لا وجه لها ولا رجلا ولا حركة . . وترك فوما موقفه من الدرايزين ، وراح يذرع ظهر الباخرة جيئة وذهابا ، فى هم وتفكير .

وجلس المسافرون الذين كانوا يثرثرون ويصخبون الى سمايهم . وكان النذل - وبالأحرى الجرسونات - يأتون بالآنية ويرتبونها على الموائد ، ثم ينفثون مسرعين نشيطين ، وارتفعت ضحكة طفل من مكان ما بالدرجة الثالثة ، وأخذت فرقة موسيقية صغيرة ترسل أنغامها فى عالم الباخرة ، وكان الطباخ يقفم بأطباقه ويهرس شريحة من اللحم بصفحة سكينه ، وكانت الباخرة الضخمة تمخر العباب ضد التيار ، وهى تهتز مما تبذل من جهد لتشق طريقها وسط الامواج التى كانت تتحول كلها الى زبد ، وكان فوما وهو يحدق بناظريه فى الماء الفوار المنطلق من ذيل الباخرة يشعر برغبة طاغية الى التدمير والتمزيق والتخريب . . لقد كان يحس هو أيضا بأنه يريد أن يشق كالمحرات فى ذلك التيار ، وأن يهشم جبروته بصدرة وكتفيه

وسمع شخصا ما يتنهد فى صوت مترهل أجش قائلا : « قضاء » . . وهى كلمة سمعها فوما من قبل . . اذ كانت عمته آنفيسا تستعملها كثيرا وهى تجيب على أسئلته . وقد أخطرت هذه الكلمة بحروفها الأربعة ، فى ذهن فوما قوة نسيهة بقوة الله . . ورفع عينيه ليرى من المتكلم . . فلمح رجلين أحدهما عجوز وخط الشيب شعره ، ذو وجه لطيف رقيق ، أما الآخر فكان أصغر سنا من صاحبه ، وله عيواز كبيرتان وايتان ، ولحية سوداء مدبية . وفى وسط وجهه ينهض أنف كبير غزير اللحم ، على جانبيه خدان معروقان مما ذكر فوما بوجسا اشمينه ماياكين .

وأنتسأ الرجل العجوز يؤكد ما قاله صاحبه :

- أجل ، القضاء ! انه يظل مهوما فوق الحياة كما يهوم صياد السمك فوق الغدير ، يتحسس المواضع التي يلقي فيها صنارته ، فتتلقها السمكة الجائعة . ثم يلي ذلك - كما تعلم - انطراح الفريسة بلى أرض الشاطيء وهى تلهت ، حزينة محطومة القلب . فهذا هو لقضاء ، يا صديقى !

وأغمض فوما عينيه ، كأنما بهرتهما شعاعة من ضوء الشمس . ولم يعتم أن قال بصوت عال ، وهو يهز رأسه من العجب : « صحيح : وه . . صحيح جدا ! »

والتفت الرجلان وجعلا يتفرسان فيه - الرجل العجوز بابتسامة شاحبة معبرة ، - والآخر بنظرة استهجان وانكار من تحت جبين مقطب . وقد أربك هذا فوما ، فاحمر وجهه خجلا ، وأخذ بعضه وانصرف ، وهولائنى يفكر فى هذا القضاء . . وقد تولاه العجب . . لما تلتطف الى هذا الحد فمن عليه بتلك المرأة . . لالشيء الا لكى يعود فينتزعها منه بمثل تلك السرعة ، وبمثل تلك القسوة . . ثم أدرك أن الشعور القارص الذى كان كامنا فيه لا يفارقه كان حنقا على القضاء الذى كان يتلاعب به بهذه القسوة . ان فوما لم يسبق أن رأى من الحياة الا وجهها البسام المدلل ، ومن ثم لم يرقه أن يجد فى كأسهما هذه القطرة الأولى من سمها الزعاف . . لقد كان يستلقى الليالى الطوال مؤرقا ساهر العينين يفكر فى هذا الذى قاله الرجل العجوز ، وهو يجتر حنقه وما يكظم من الفيظ . . الا أن هذا الحنق أثار فى نفسه السخط ، وجعله يتشهى الانتقام ، أكثر مما جعله ذليلا منكسر الحاطر مقطوع الرجاء .

ولقى فوما اشبينه ينتظره على المرفأ ، فراح يطره بالأسئلة ، وهو يتلهف لمعرفة ما هنالك .

- أبوك ! لقد جن جنونه يا مولانا !

بهذا أجا به الرجل ، وكانت عيناه الحضراوان تلمعان وهو جالس  
الى جانب الشاب فى العربة

- من السكر !

- ألعن ! لقد أصبح معتوها تماما !

- قل بالله عليك .. قل !

- أقول ياسيدى .. الموضوع .. فيه واحدة .. ست صغيرة ..  
تحمحم حواليه !

- جيل !

قالها فوما وقد رف فى خياله طيف بيلاجيا يداعبه مداعبة لطيفة  
- وقد تمكن سحرها من فؤاد حضرته .. وراحت تحلبه .. وتأثر  
عليه !

وهنا تذكر فوما ما حذرته به بيلاجيا من النساء ولا ســـــــيما  
« السواهى » فراح يسأل :

- وهل هى من النوع الساهى ؟ هه !

- هى ! يا سلام ! ساهية كالبيت الذى شبت فى جوانبه حريقة  
.. : لقد لظشت من حضرته خمسة وسبعين ألف أهيف ، وكأنها  
تتناول منه ريشة !

- يا خبر ! ومن هى ؟

- سونيا ميدنسكاي .. زوجة المهندس

- يا للمصيبة السوداء ! هل تقصد أن تقول - أيستطيع أبى ..  
أخيلته هى ؟



، وأرسل فوما سؤاله هذا، وهو مشدوه مبهور الانفاس

ورجع اشبينه الى الخلف قليلا ، وجحظت عيناه ، ثم قال :

— والله انك لا أكثر من أبيك جنونا أيها الولد ! ألعن منه ! فكر فيما  
تقول ! خلية وهو فى سن الثالثة والستين ؟ ويمثل هذا الثمن ؟ ما  
هذا ؟ وكيف تفكر ذلك التفكير ! حاضر .. صبرا حتى أبلغ أباك هذا  
الكلام !

ثم انفجر يضحك ضحكة مقهقة جعلت لحيته المشعنة تهتز اهتزازا  
قبيحا . وقد ظل فوما لحظة وهو لا يفهم ماذا يريد هذا الرجل أن  
يقول .. ان ماياكين العجوز لم يكن فى حالته الطبيعية على الاطلاق ..  
لقد كان قلقا وفى حالة عصبية ، لقد كان كلامه ، الذى كان يتدقق  
فى الاحوال العادية ، كلاما متقطعاً غير مرتبط الاواصر .. وكان لا  
ينفك يهوشه بالسباب والبصق ، حتى لكان فوما أعجز من أن يفهم  
ماذا يعنى ، والام يرمى . الظاهر أن صوفيا يا فلوفنا مدنسكيا ،  
زوجة هذا المهندس الغنى ، واحدى السيدات المشهورات فى المدينة  
بمسايعهن التى لا تكل فى الاضطلاع بالمشروعات الخيرية ، قد خاطبت  
اجنات جورديف بصدد التبرع بخمسة وسبعين ألف روبل لبناء ملجأ  
للمشردين ، ومكتبة عامة وصالة للقراءة . وقد أثنت الصحف على  
اجنات لاستجابته لهذا النداء ، ثناء رفعت به الى عنان السماء ، على  
كرمه وأريحيته . وكان فوما يعرف هذه السيدة ، فقد رآها غير مرة  
وهى تسير فى المدينة .. وكانت سيدة قليلة الجسم ، الا أنها اشتهرت  
مع ذلك بأنها من أرقش سيدات المدينة . وكان الأهالي لا يعفونها  
من الغمز وشيء من سوء الاحدوثة .

ولما عرف فوما خلية الايمن ، حذج الرجل ثم قال :

— أهذا هو كل ما هنالك ؟ .. وتتركنى مع ذاك أفكر .. ويذهب  
بى الظن كل مذهب ؟ وزئجر الرجل العجوز قائلاً :

- أنت ! أنت كنت تفكر ! بل ٠٠ لقد كان ريفك يجرى !  
وسأله فوما فى دهشة :  
- وفيه كل هذا الغضب ؟  
- خمسة وسبعون ألف روبل ٠٠ أمبلغ كبير هذا أم ماذا ؟ تفضل ٠٠  
أجب أنت :  
وظل فوما يفكر مليا ثم قال :

- مبلغ كبير بالطبع ٠٠ الا أن أبى لديه المال الكثير ٠٠ ولست  
أفهم لماذا ٠٠٠ وارتجف ماياكين، وراح يحملق فى عيني فوما بازدرء،  
تم سأله بصوت ضعيف  
- وأنت الذى تقول ذلك ؟  
- ومن اذن ؟

- لا ٠٠ لست أنت الذى تقوله ٠٠ بل هو سفه الشباب وجنونه  
هو الذى يقوله ٠٠ ثم هو سفه ما أنا فيه من هذه السن الطاعنة التى  
حنكبتها التجارب هو الذى يقول انك لا تزال جروا صغيرا ، ولن ينظى  
زمن طويل حتى تكبر وتتعلم النباح والهيبة !

وكان فوما خبيرا يشغف اشيبينه باستعمال التشابيه والاستعارات.  
والجمل المجازية فى حديثه . وقد ناله الشيء الكثير منها من قبل - بل  
لقد كان ماياكين أقسى عليه فى الحديث من أبيه ، الا أنه ضاق به هذه  
المره . ولم يملك الا أن يجيبه فى حزم واصرار :

- لست أدري ما الداعى لأن تكلمنى بهذه اللهجة ! ثم ٠٠ اننى نم  
أعند طفلا بعد

وقال الرجل ساخرا مسنهزئا وهو يرفع هامته :

- لا يا شيخ !

كان هذا كثيرا على فوما . . ولم يملك الا أن حدج الرجل بنظرة صارمة ، وأخذ يجيبه هذا الجواب الواضح الصريح :

- فعلا أنا لم أعد طفلا . . وأؤكد لك . . وقد سمعت الكنسير من صياحك ولا أريد أن أسمع أكثر !

- اهم . . اهم . . تس تس تس ! أستميحك العفو !

ولولب الرجل عينيه ، ثم أخذ يلوك شفتيه ، واستدار برأسه ، بوظل صامتا دقيقة أو اثنتين . . وعرجت العربية في شارع ضيق ؛ وحينما لمح فوما سطح منزله مال الى الأمام على غير وعى منه .

ثم قال ماياكين وهو يطرّف بعينه :

- أتدرى فيمن كنت تنشب أسنانك ؟

وأجابه فوما وقد سره أن يسمع اشينه يقول ذلك :

ولماذا ؟ هل كانت أسنانا حادة ؟

- الى حد ما . . وهذا شيء جميل يا بنى ، جميل جدا في الواقع . .

لقد كنا نخشى ، أبوك وأنا ، أن تطلع مغفلا . . عال ! وهل تعلمت شرب الفودكا أيضا ..

- نعم . . تعلمتها :

- من زمان ؟ وهل تشرب كثيرا ؟

- ولماذا كثيرا ؟

- ك بعضهم !؟

- كلا . . وحاشا !

- اهم . . عال عال . . ولا بأس فى هذا كله . . الا أنك صريح

أكثر مما ينبغي . . و . . مدب ! انك لا تبالي أن تبوح بأسرارك لاي شخص . . فخذ بالك يا بنى . . فليس من المناسب دائما أن تصارح

للناس بما تنطوى عليه نفسك - والبكم ، ولا أقول السكوت ، واجب ينبغي لك أن تلزمه أحيانا •• وبهذا تنسى الذنوب وتكسب الاصدقاء ••  
ولسان الانسان نادرا ما يكون رطبا أو يعمل لما يقول حسابا •• وبعد  
•• فأبوك لا ينتظر حضورك •• وأغلب الظن أنه غير موجود بالمنزل •

بل كان بالمنزل بالفعل • فهبا هو ذا •• طنين ضحكة العميق الاجش ينطلق من النافذة المفتوحة • وحينما وقفت العربية أمام باب المنزل اذا هو يطل من الشباك •• وحينما لمح ابنه اذا هو يصيح طربا :

- ماذا ؟ هل عدت بالفعل !؟

وبعد هذا بدقيقة واحدة كان الرجل يضم ابنه الى صدره باحدى يديه ، ويميل رأسه الى الوراء بيده الاخرى ليحديق بكلتا عينيه فى وجهه ، ويقول متعجبا وبصوت ملؤه البهجة :

« لوحتك الشمس ، وزاد وزنك ، وعدت معافى أيها الشحاذ !

ثم ينظر الى ماياكين ويقول :

- وأنت أيها المجنون •• كيف ترى فوما ؟

ويجيبه الرجل بصوت فيه رنين الفضة :

- ابن بارك الله لك فيه •

ولمح فوما وهو ينظر من فوق كتف أبيه امرأة نحيلة ذات شعر شبيه بالزغب ، جالسة ومرفقاها على المنضدة فى ركن بعيد من الحجرة لقد كان لها عينان دعجاوان ، وحاجبان رشيقان ، وشفتان لطيفتان حمراوان •• فى وجه رقيق شاحب ، وكان من ورائها أصيص من نبات الاقحوان انتشرت أغصانه المزهرة أعلى رأسها المتوج بذلك التاج الذهبى •

وحيا السيدة ماياكين بصوت فيه رنة عذبة • وهو متجه اليها بيد ممدودة ، قائلا :

- كيف الاحوال يا سيدة صوفيا يافلوفنا؟ ألا تزالين تأكلين أمخاخ الفقراء من أمثالنا نحن الشحاذين لتجمعي التبرعات لمشروعاتك ؟ هه :

وحياها فوما بانحناء دون أن يتكلم • ودون أن يسمع ما أجابت به ماياكين ، ولا ماذا كان أبوه يقول ، أما السيدة الصغيرة فقد نظرت اليه بابتسامة ترحيب رفت على شفيتها •

لقد كان جسمها القريب من أجسام النبات ، المتشح ببعض الثياب السمراء يمتزج بنجادة الكرسي ذات اللون الحمري ، فكانت هذه الظهارة الداكنة تزيد من تألق شعرها الذهبي ، وصفرة وجهها الجذاب •• لقد كانت وهي جالسة في ذلك الركن تحت أغصان الاقحوانة أشبه بزهرة •• أو •• أيقونة !

وقال اجنات :

- انظرى ! انه لا يستطيع أن يصرف عينيه عنك ، صوفيا يافلوفنا •• ألا ترين أنه حصان صغير لطيف •• طلوقة ! هه !

ولم يسعها الا أن تغضى أهدابها ، وصبغت خديها حمرة خفيفة ، وانطلقت منها ضحكة أشبه برنين أجراس فضية •• ثم نهضت واقفة وهي تقول :

- أستأذن •• ولن أتطفل بعد

وفغمت خياشيم فوما رائحة عطر لطيف وهي تمر به ، ولاحظ أن عينها زرقاوان زرقة داكنة •• وأن حاجبيها يكادان يكونان أسمرين وقال ماياكين وهو ينظر في اثرها شزرا :

- وهكذا انصرفت تلك ال •• الرقيقة !

وخاطب اجنات ابنه وهو يدفعه الى الكرسي الذي كانت السيدة

تجلس عليه ، ولكن فوما رمق الكرسي بنظرة ذات معنى ، ثم جلس على كرسي آخر :

- والآن .. حدثنا عن رحلتك .. هل أنفقت مالا كثيرا ؟

وقبل أن يجيب فوما ، وقوق ماياكين قائلا ، وهو يحدج فوما بعينه المبرومتين :

- شيء قليل .. قليل جدا ، اه ! انك اذا وقفت أمامها بفمك مغغورا هكذا ، فانها ستلتش كل ما فى جيوبك !

ولم يعر فوما اشارة اشبينه التفاتا ، وبعد مقدمة خاطفة ، شرع يقص على أبيه ما كان من أمر رحلته ، لكن اجنات قاطعه قائلا :

- لحظة يا فوما .. أشعر بحاجة الى قليل من الشراب

وانتهز فوما هذه المناسبة فقال منكرا :

- انهم يقولون انك كنت تسرف فى الشراب يا أبى .

ونظر اليه اجنات دهشا ثم قال :

- وهل هذه هى الطريقة التى تخاطب بها أباك ؟

ونكس فوما عينيه .. فقال أبوه .

- حسن

ثم دعا بالشراب فى صفيح واغضاء .

ووقف ماياكين ، وجعل يحدق فى الرجل وابنه لحظات ، ثم استأذنى فى الانصراف ، وطلب اليهما ان يشرفاه بالحضور لتناول فنجال من الشاي فى حديقته ذلك المساء

وكأنما أحس فوما ببعض الضيق لوجوده على انفراد مع والده فسأل عن عمته آنفيسا .. فقال له أبوه .:

- انها فى زيارة لاحد الاديرة .. والآن .. خبرنى عن أمنور

الرحلة ، فى حين أتناول شيئا من الشراب

وفى دقائق قليلة كان فوما قد فرغ من اعطاء أبيه خلاصة سريعة  
عن رحلته ، ثم قال :

• - وقد أنفقت بعض المال على نفسى .

• - وكم ؟

• - ما يقرب من ٠٠٠ ستمائة روبل .

• - فى ستة أسابيع ؟ يا له من مبلغ كبير ! انك وكيل كبير المرتب  
، وفيم أنفقت هذا المبلغ كله ؟

• - لقد تبرعت بثلاثمائة وزنة من القمح !

• - ثلاثمائة وزنة ؟ لمن ؟

• - وقص عليه فوما أمر هذا التبرع ، فقال أبوه :

• - حسن جدا . ان أمثال هذه التبرعات خير فى خير ، وهى  
تشريف لأبيك وللشركة . ولا يمكن اعتبارها خسائر أبدا لأنها  
تستثمر فى أغراض شريفة . وليس ثم اعلان عن التاجر خير منها  
يا بنى . ثم فيم أنفقت الباقي ؟

• - أوه . فى أمور شتى .

• - وأصر اجنات على أن يعرف ، فقال وهو يفحص وجه فوما فحفا  
دقيقا :

• - خبرنى صراحة . اننى لا أهتم بالمال فى حد ذاته ، ولكن الذى  
يهمنى هو كيف كنت تنفقه ، وتزجى به قراغك .

• - وغمغم فوما يقول :

• - أو . . . أكلت . . . و . . . شربت . . .

• - شربت ؟ فودكا !؟

• - وفودكا أيضا .

- أحسب أن أوان ذلك لم يحن بعد .. أليس كذلك ؟  
- اننى لم أسكر قط .. وأسأل ييقيم .  
- ولماذا أسأل ييقيم ؟ بل أريد أن أعرف كل شىء منك أنت !  
وعلى هذا فقد شربتها .. هه !  
- يمكننى الاستغناء عنها .  
- ربما .. اليك بعض الشراب .  
ونظر فوما الى أبيه ، ثم كشر تكشيرة كبيرة ضاحكة ، بادله أبوه  
منلها :

- يا للعة ! اشرب ان أحببت ، ولكن فى حدود المعقول ، فلا  
يحدث شىء مطلقا .. انك تستطيع التغلب على السكر بالنوم ،  
لكنك لا تستطيع التغلب على الغباوة بشىء مطلقا .. فاذكر هذا  
ولا تنسه ، وان لم يكن فيه كبير غناء . وهل ... قمت بتجارب  
.. نسائية أيضا ؟ قل .. صرح لى ! ماذا .. أتخاف أن أعطيك  
علقة ؟ ..

- حصل .. لقد اصطحبت امرأة على المركب ، أخذتها من برم  
.. الى قازان .

وزفر اجنات زفرة كبيرة ، ثم قال عابسا :

- لقد لوثت نفسك بهذا العمل وأنت صغير السن بعد .  
- اننى فى العشرين من عمى ، وطالما حدثتنى أنهم كانوا  
يتزوجون فى الخامسة عشرة فى أيامكم .  
- كانوا .. يتزوجون ! .. ليسوا ! .. أو .. كفانا من هذا ..  
لقد كانت معك امرأة .. فماذا هى ؟ اسمع يا فوما .. ان المرأة مثل  
الجدرى .. ليس من العدوى بها فرار .. وأنا لا أدعى لك أننى كنت



ملكاً كريماً في شبابه . . . ولقد أصبت بها قبل أن أكون في سنك .  
وكل ما أستطيع أن أوصيك به هو أن تأخذ حذرِك من النساء .  
لقد ظل اجنات جالسا جلسته هذه وقتاً طويلاً وهو لا يتحرك ،  
ولا يتكلم ، وقد أسند رأسه الى صدره . . . ثم بدأ يتحدث الى ولده .  
من جديد في صوت رزين هادئ :

« اليك ما أردت أن أقوله لك يا فوما . ان أيامي البواقى ليست  
شيئاً كثيراً . . . اننى رجل شيخ طاعن في السن ، وانى لا أُسعر  
بشيء ينقل على صدرى ، ويهد صحتى . . . وأنا لهذا هامة اليوم  
أو غد ، وعندما أترك هذه الدنيا فسوف تصبح أنت المالك لجميع  
أموالى . . . وفي أول الأمر ، سيواليك اشيبك ببعض رعايته ،  
ولا بد لك من الاستماع لنصيحته . . . ولقد قمت بأول عمل عهدت  
به اليك على صورة طيبة . . . والعمل أشبه بالجواد المتوقد حيوية ،  
ولا بد لك من أن تتعلم كيف تروضه وتخضعه لارادتك ، وأن تشد  
شكيمته اليك شداً ، حتى لا يفلت زمامه من يديك ، فحاول أن تشرف  
من عل ، على جميع أعمالك حتى يتيسر لك دائماً أن ترى كل صغيرة  
وكبيرة منها بعينى طائر ، وأن ترى أصغر المسامير التى تمسكه من  
الانفلات » .

وبينما كان فوما ينظر الى صدر والده الرحب ، وينصت الى صوته  
لمجلجل القوى ، كان يقول في نفسه : ليس ثم ما يدل على موتك  
قريباً . وكانت هذه فكرة لذيذة ، وقد كانت سبباً لانبثاق حب  
جديد مفاجئ في قلبه لهذا الوالد .

وواصل اجنات حديثه يقول :

— اصغ لما يقوله لك ماياكين ، فانه رجل غزير الذكاء ، وفي رأسه  
من الالعية ما يكفي لتوزيعه على جميع الناس في هذه المدينة ، ولو  
كان شجاعاً بقدر ما هو ذكى ، لأصبح الآن من أصحاب الأسماء

الكبيرة ٠٠٠ والآن ٠٠ وكما سبق أن ذكرت لك ٠٠ انه لم يبق مز  
عمرى شىء كثير ٠٠٠ ولو أن بيدى ما يجب أن يكون ، لا أخذت  
أستعد للملاقاة منيتى ، وذلك بترك جميع أعمالى ، والتفرغ للصوم  
، والصلاة ، والقيام بعمل يجعل الناس يذكروننى بالخير » .

وهنا قال فوما مؤكدا :

— أو ٠٠ انهم سيدذكرونك بكل خير ولا شك !

— لست أدرى لماذا !

— وما ملجأ المرشدين الفقراء هذا اذن !

ورمق اجنات ولده بنظرة وقال ضاحكا :

— اذن فقد كان لدى ماياكين من الوقت ما يكفى لأن يحدثك عز  
ذاك ، أليس كذلك ؟ أحسب أنه لامنى على هذا !

وقال فوما مبتسما :

— قليلا

— انه لم يكن يصح أن يكون ياكوف ماياكين لو لم يفعل .

— لقد كان يتحدث عن هذا كما لو كان المال ماله

وعند ذلك انطرح اجنات الى الخلف ، وأخذ يضحك ضحكا  
شديدا .

— يا له من غراب عجوز ٠٠٠ لك حق ٠٠٠ ان مالى وماله شىء  
واحد فى نظره ٠٠٠ وهذا هو الذى أقامه وأقعدته بهذا الصدد ٠٠٠  
ان فى رأسه نحلة تطن وتزن ٠٠٠ هذا الأقرع الأصلع ٠٠٠ فماذا  
تحزر أن تكون ؟

وأجابه فوما بعد تفكير قليل :

- لست أدري .

- انه يريد ربط أموالى بأمواله

- وكيف ؟

- خمن

ونظر فوما فى وجه أبيه متفرسا . . . . وخمن

لقد غام وجهه ، ثم مال فى كرسيه الى الأمام ، وقال فى صوت مصمم :

- أنا لا أريد ذلك . . . ولن أتزوجها .

- لا تريد . . . ولماذا ؟ انها فتاة مليحة قوية . . . . وغير غيبية ،  
نم هي ابنة أبيها الوحيدة

- وماذا عن تاراس . . . ابنه الذى اختفى ؟

- ما دام قد اختفى . . . فقد اختفى والى غير رجعة . . . . وهذا  
بوكل ما هنالك . . . وثمة وصية هى الفصل والمعول ، ونصها  
نما يلي : جميع أملاكى ، سائلة وثابتة تصبح ملكا لابنتى ليوبا  
مد وفاتى ، أما أنها أختك من اشبينك ، فيمكننا التغلب على ذلك .

وقال فوما فى اصرار :

- هذا لا يهم . . . اننى لن أتزوجها !

- لا بأس ، وعلى كل فليس هذا أوان الكلام فى هذا . . . . ولكن  
. . . فيم ثورتك عليها هكذا ؟

- أنا لا أحب البنات اللاتى من هذا النوع .

- ما شاء الله ! والآن . . . أى نوع من البنات تحب ، يا سيدى

الظريف ؟

فقال فوما بانفعال :

- أحبهن أكثر بساطة ٠٠ انها دائما وسط زملائها الطلبة  
عزلاء ٠٠٠ ووسط كتبها ٠٠٠ انها من صنف متعال أكثر من أن  
يصلح لي ٠٠ : وهي تسخر مني

- لك حق في ذلك ٠ انها صبية رشيقة ٠٠ بحبوحة ٠٠ بحبوحة  
أكثر من اللازم حقا ٠ ولكن هذا لا شيء ٠٠ فالوسخ يزول - ولا  
بد - اذا حككته بما فيه الكفاية ، واشبينك رجل عجوز متعال أيضا ،  
وهو لم يفعل في حياته شيئا أكثر من جلوسه هكذا بلا عمل ، وقد  
أتاح له هذا قدرا من التفكير والتروى في كل شيء ، ومن ثمة فهو  
رجل يستحق أن يستمع الى نصائحه يا بنى ٠٠ فهو ذو نظرة تدرك  
خفايا الأمور ، ثم هو من عنصر كريم ، وحسب عريق ٠٠ انه من  
سلالة كاترين العظمى ، وهو رجل يقدر نفسه ٠٠٠ وهو عندما  
انقطع نسبه بتبرئه من ولده تاراس ، أحب أن يصل هذا النسب  
بوضعك في مكان تاراس ، فهل تدرك معنى ذلك !؟

وقال فوما بعناد :

- اننى سأبنى مستقبلى دون الحاجة الى مساعدته

فتهكم والده مجيبا :

- انك لم تؤت شيئا من الادراك بعد ٠

وقطع عليهما حديثهما وصول العمة آنفيسا ٠٠ التى تصيح قبل  
أن تصل الى باب الغرفة :

- فوموشكا ! هل قد رجعت !؟

وهب فوما للقائها وعلى شفثيه ابتسامة سعيدة مرحة ٠

وعادت حياة فوما تسير من جديد فى طريقها هذا البطيء  
الترتيب ، وكان صوت أبيه لا يزال يطن فى أذنيه بهذه النغمة  
الساخرة الأنيسة ، إلا أن سلوكه معه كان أكثر تحفظاً وتدقيقاً . .  
لقد كاد يلزمه دائماً بأن يعمل حساب كل شيء مهما كان صغيراً ،  
وظل يذكره دائماً بأنه رباه على اللين والتساهل ، دون أن يقيده  
بالقيود ، ودون أن يلجأ الى المعاملة الحسنة ، كالضرب مثلاً

— ان من الآباء من يلجئون الى الهراوى والمقارع فى تنشئة  
أولادهم ، أما أنا ، فلم أمد اليك اصبعاً طول حياتى .

وقال له فوما وهو يحدثه فى ذلك ذات يوم :

— أحسب أنه لم يكن ثم سبب يدعو الى ذلك يوماً ما

وقد ساء اجنات هذا الرد ، وان يكن فوما قد قاله بلهجة مهذبة،  
فصاح به :

— ما هذا ؟ لقد جعلتك هذه الطريقة فى التربية ولدا جريئاً ،  
أليس كذلك ؟ انك تعرف كيف تكيل الصاع صاعين . . . هه ! فتح  
عينيك ، والا فان هذه اليد اللينة الناعمة تنقلب فتكون يدا من  
حديد تجعل الدموع تنبثق من أعقاب قدميك . . . أتظن أنك صرت  
أكبر من أن تنصاع لأمثالنا ؟ يا لك من ولد كريبه أشبه بشجرة  
عش الغراب، تنتشر منها الرائحة المنتنة وهى لا تزال صغيرة لا تزيد  
على قيراطين !!

وسأله فوما مرة ، عندما كان اجنات صافى المزاج :

— لماذا تقسو على وتعاملنى معاملة خسنة هكذا ؟

— لأنك لا تحتلم أن يوجه أبوك اليك انتقاداً ، فأنت دائماً  
تجادل وترد وتسخف فى المعارضة .

— لكنك تظلمنى\* ، فأنا لم أكن قط أردأ مما تعودت أن أكون .

وهل تظن أنني لا ألاحظ كيف يسلك الشبان الذين هم في سنى .  
- انه لا يضرك أن ينالك شيء من الزجر من حين إلى آخر ٠٠٠  
نم أنا أفعل هذا لأني ألاحظ أن فيك شيئاً لا يعجبني ٠٠ أما ما  
هذا الشيء ، فلست أدري ٠٠٠ الا أنني أراه رأى العين وهو لا بد  
سيلحق بك الضرر .

وقد أسلم هذا الكلام فوما للتفكير . فهو نفسه كان يدرك وجود  
خلة فيه تميزه من سائر أقرانه الذين في سنه ، الا أنه لم يكن يعرف  
ما هي ؟ لقد بدأ يراقب نفسه في غمرة من السك .

وكان يهوى وجوده وسط الضجيج والصخب في البورصة ،  
والاختلاط بكبار رجال الأعمال ممن يعقدون الصفقات التجارية التي  
تبلغ آلاف آلاف الروبلات ، وكانت تخدعه ألوان الملق التي كان  
يبدئها له من هم أقل شأنًا من التجار حينما يخاطبونه بهذه اللهجة  
المملوءة بالاحترام المصطنع ، منادين اياه : فوما جوردييف . وكان  
كلما عهد اليه أبوه بمهمة من مهام العمل ليقوم بها بنفسه يخامر  
الشعور بالفخر ، وتشيع فيه الكبرياء ، ولا سيما اذا وجه اليه  
أبوه كلمة ثناء لا يقصد بها الا أن يتهمك بها عليه . وكان يتشوف  
الى أن ينظر الناس اليه نظرتهم الى رجل شب عن الطوق ، نظرة  
فيها من احترام رجال الأعمال ما فيها ٠٠٠ الا أنه كان لا يزال  
عزوفًا عن الخلق ، وراغبًا عن عقد أواصر الصداقة مع أحد منهم .  
بالرغم من كثرة من يلقاهم من أبناء التجار ممن هم في سنه ٠٠٠ لقد  
كانوا يدعون على الدوام لمشاطرتهم في عريباتهم ٠٠ لكنه كان  
يرفض دعواتهم تلك في الحال . لقد كان ربما يعتذر بقوله مازحا :

- اننى أخشى اذا كشف أبواؤكم شقاواتكم أن يدبغوا لكم ظهوركم  
بالسياط ٠٠ كما أخشى أنا أن « ينتش » أبى أذنى !

انه لم يكن يحب هذه الطريقة التي يعربدوها ويلتدون ويأثون  
من وراء ظهور آبائهم ٠٠ كان يسرقوا النقود من صناديق هؤلاء

الآباء ، أو كأن يفترضوا الأموال بأرباح فاحشة ولا مجال طويلة .  
وكانوا هم يكرهون فوما لما كان يبيديه من ذلك التحفظ والبعد عنهم .  
هذا التحفظ الذى كانوا يستنتجون منه معنى من معانى الكبير الذى  
بسخطهم ويحز فى صدورهم .

ولقد كان فوما لا يفتأ يفكر فى بيلاجيا . . . وكان هذا فى أول  
الأمر يجعله يتشهاها . . . الا أنه أخذ ينساها بمضى الزمن ، وأخذت  
صورتها تتلاشى من خياله . . . حتى لقد كان طيفها يفيض ليحل  
محلها ، من حيث لا يدري ، طيف صوفيا بافلوفنا . . . تلك المرأة  
ذات الجسم النحيل والوجه الملائكى . لقد كانت تأتى كل يوم أحد  
تقريبا الى والده حاجة من الحاجات ، التى تدور كلها حول بناء ملجأ  
المشردين . وكان فوما يشعر فى حضرتها بالارتباك ، وبأنه أخرق  
سمح ، وأنه بالنسبة الى حجمها الضئيل مخلوق هائل ضخم .  
وكان ربما اصطبغ وجهه بحمرة الحجل كلما التقت عيناه وعيناها  
اللطيفتان . وقد لاحظ أن عينيها هاتين تشتد زرقتهما كلما رنت  
اليه ، وأن شفرتها العليا ترتجف وترتفع قليلا ، لتبدو من تحتها  
بناياها الرقاق البيض . . . وكان هذا يخيفه . . . وقد لاحظ أبوه  
نلك الطريقة التى كان ينظر بها فوما الى صوفيا ، فقال له يوما :

- يحسن ألا تطيل النظر الى ذلك الوجه . . . انه أشبه بجنوة  
من فحم البتولا . . . ظاهره ناعم خال من اللسع والأذى ، وباطنه  
. . . أو . . . ممتلئ نارا وسعيرا !

ان صوفيا لم تكن تثير فى فوما أية رغبة جسدية . . . وهى لم  
تكن تشبه بيلاجيا فى شيء قط . ولم يكن فى وسع فوما أن  
يفهمها . لقد كان يعلم أن الناس يتحدثون عنها ويرسلون ألسنتهم  
فيها ، غير أنه لم يكن يصدق من أقوالهم شيئا . ولقد تغير رأيه هذا  
عندما لمحها يوما راكبة فى عربة الى جانب رجل ضخم الجثة ، وعلى  
رأسه قبة رمادية وخصلات شعره الطويل مرسل على كتفيه .

ووجهه أحمر منتفخ كالبالون ، وليس فى وجهه أثر للحية ، وكان يبدو فى أعين الناس جميعا كأنه امرأة فى ثياب رجل . وقيل لفيوما أن هذا الرجل هو زوجها ، وقد ملأه هذا النبأ بانفعالات سوداء متناقضة : لقد بدا له أن يهين المهندس ويشتمه ، لكنه لم يسعه الا أن يحسده فى الوقت نفسه ، وأن يحترمه أيضا ٠٠٠ ولقد كانت صوقيا بأفولفونا تبدو بجانبه أقل جمالا وأيسر على أيدي المتناولين ! ومن أجل هذا أحس فوما بالرثاء لها ، الا أنه راح يفكر فى أعماق نفسه ، وفى شيء من الاقتناع ، فى أنها تكرهه ولا بد - أن يقبلها هذا الرجل !

وفوق هذا كله ٠٠ وأكثر منه ٠٠ ما كان يملأ صدره أحيانا من الاحساس المؤلم المضنى بالفراغ الذى لم يكن من الممكن أن تملأه انطباعات الحاضر ولا ذكريات الماضى ٠٠٠ الفراغ الذى كان يبتلع كل شيء ٠٠ البورصة ، والعمل ، وتفكيره فى صوقيا . لقد كان هذا شيئا مقلقا مربكا . لقد كان يشك أن فى أعماق هذا الفراغ قوة ما تكمن له ٠٠٠ عدو يتربص به الدوائر ٠٠٠ غير معروف الشكل ٠٠٠ الا أنه مع ذلك يحاول فى اصرار وفى ثبات أن يفرض نفسه ويؤكد ذاته .

وكان اجنات فى الوقت نفسه لم يتغير ظاهره الا قليلا ، لكنه ازداد قلقا وتجهما ، وكان يشكو من صحته كثيرا ، وكان لا ينى يقول :

- اننى لم أعد أستطيع النوم ، بعد أن كنت معتادا الاستغراق فيه لدرجة انك كان يمكنك أن تسلخنى حيا ، فلا أفتح عيني ٠٠٠ اننى فى هذه الايام لا أنفك أتقلب طول الليل من جنب الى جنب ٠٠ دون أن تزور عيني سنة من النوم الا فى الصباح ٠٠٠ ثم هذا قلبى الذى لم يعد ينبض نبضا منتظما ٠٠٠ فهو حينما يسرع فى دقاته : تك تك تك ٠٠ تم اذا هو حينما آخر يوشك أن يقف حتى يخيل الى



لأنه لن تمضى دقيقة واحدة حتى يكون قد غاص فى وهدة ما ، عميقة  
مظلمة . آه يا اله السموات ! ارحم عبدك البائس الآثم !

وربما أدار عينيه اللتين فقدتا بريقهما الحاد الجميل ، وهو يرسل  
زفرات التوبة والانابة

وقد أنشأ مرة يقول فى صوت حزين ، ولكن فى صبر وتسليم  
- ان الموت مختبئ فى ركن ما .. ينتظر أن يحين حينى !  
وقد صدق .. فقد أتاه فجعله حطاما !

وحدث هذا فى باكورة يوم من شهر أغسطس . حينما كان فوما  
مستغرقا فى نومه ، فاذا أحدهم ممسك بكتفه يهزه هزا عنيفا ، واذا  
صوت أجس يقول له :

- قم .. استيقظ !

وفتح فوما عينيه ليرى والده جالسا على كرسى بجانب السرير ،  
مكررا فى صوت منقبض : « قم .. قم »  
لقد كانت الشمس قد بادرت بالشرق ، وكانت أشعتها المتساقطة  
على قميص اجنات الكتانى لا تزال وردية اللون .  
وقال فوما وهو يتثائب ويشد عضلاته :

- انبأ لا تزال فى الصباح الباكر !

- أجل .. لكنك ستجد من الوقت للنوم ما فيه الكفاية فيما بعد  
وفال فوما وهو يتأود تحت الغطاء :

- أتريد شيئا ؟

فقال الرجل متعجبا ، وفى صوت الذى يرجو :

- انهض يا بنى .. أرجوك .. لو لم أكن فى حاجة اليك ما  
أيفظتك .

ونظر فوما في وجه أبيه فوجده شاحبا ممتعنا ، فقال :

- أريض أنت ؟ هل أرسل الى الدكتور ؟

وأجابه اجنات منكرا :

- الدكتور ٠٠٠ اننى لست طفلا بعد ٠٠٠ لست بحاجة لأز

يقول لى الطبيب ٠٠٠

- ماذا ؟

- أنا أعرف كل شىء ٠٠

وقالها الرجل العجوز بلهجة غريبة غامضة ، وعيناه ترسلان

نظرات غريبة فى جوانب الغرفة ٠٠٠ فهب فوما يلبس ثيابه .

وقال الرجل نانية بصوت خفيض ، ورأسه منكس الى صدره .

- اننى أخشى أن أتفس ٠٠٠ وأنا أشعر اننى اذا تنفست نعد

عميقا فان قلبى سينفجر ٠٠٠ اليوم الأحد ٠٠٠ اذهب فأحص

القسيس بمجرد انتهاء الصلاة .

وقال فوما وهو يضحك ضحكة فيها استرحام وفيها استغفار :

- وفيم تفكر يا أبى ؟

- لا شىء . لا شىء . هيا اغتسل وإخرج الى الحديقة ؛ لعد

أخبرتهم أن يأخذوا غلاية الشاي الى هناك ٠٠٠ وسنشرب الشاي و

الصباح الطلق ٠٠٠ أريد شاي ٠٠ شاي ساخنا ثقيلًا .

وهب الرجل من مجلسه ، وراح يتمايل فى الغرفة حافى القدمين

حتى خرج ، وبينما كان فوما ينظر اليه وهو ذاهب أحس بقلبه

تسرى فيه رعدة باردة من الرعب . واغتسل فى سرعة ، ثم اذهب

الى الحديقة .

ووجد أباه جالسا في كرسي كبير من خشب السنديان تحت شجرة  
تفاح كبيرة تتخلل أغصانها أشعة الشمس ، فتنتشر منها آراد رفيعة  
على فميص اجنات . لقد كان السكون شاملا في الحديقة حتى لقد  
انزعج فوما وهو يمس بعض الأغصان فتحدث هفيفا خفيفا . وكانت  
الغلاية تكرر فوق منضدتها كما تكرر قطة شبعانة ، وقد انطلقت  
من بزوزها . حزمة طويلة من البخار ، راحت تندفع في الهواء .  
ولقد كانت كركرة هذه الغلاية البخارية الصفراء ، البراقة المزججة ،  
في تلك الهدأة الصامتة وسط الحديقة الخضراء التي جادها الغيت  
طوال الليل أشبه بتيء دخيل طفيلي . . . . . لقد كانت نغمة ناشزة ،  
لا تتفق هي والوقت ولا المكان ولا الشعور الذي كان مستوليا على فوما  
وهو محدد في أبيه العجوز المريض المتشح بذلك القميص الأبيض ،  
وهو مكوم تحت تلك الظلة من الغصون الخضراء التي يتخللها ثمر  
التفاح في رقة واحتشام .

وقال له أبوه : - اجلس .

ويجيبه فوما ، وهو يجلس قبالة الرجل في رهبة : « ألم يكن من  
الجبر استدعاء الدكتور ؟ »

ولكن اجنات يقول : « لا لا . . . اني أشعر الآن بتحسن وأنا هنا  
في هذا الهواء . وربما أشعر بتحسن أكثر اذا تناولت شيئا من  
الشاي » .

وكان يقول هذا وهو يصب لنفسه فنجالا من الشاي ، وكان  
فوما يلاحظ أن يد أبيه ترتعش وهي تفرغ الشاي . . .

وسحب فوما فنجاله دون أن يتكلم ، ثم مال عليه ليشرب ، وهو  
يسمع بكل ما في قلبه من هم وحزن ، أنفاس أبيه تسرع وتتشرج  
وفعجة ، وقع شيء على المنضدة بشدة وقوة ، حتى لقد اهتزت

الفناجيل والأواني اهتزازا عنيفا

وذعر فوما ، ورفع رأسه ليرى أباه يرسل من عينيه نظرة مرعبا وهو يقول :

- تفاحة ملعونة سقطت من الشجرة ، فالى الشيطان .. لقا  
كانت أشبه بطلقة مدفع ! اه !

واقترح فوما على أبيه أن يضع شيئا من الشراب على الشاي  
فقال له :

- بل هو أحسن بحالته هذه

ثم انبثقت فتى سكون الحديقة سقسقة سرب من العصافير فشقه  
الصمت الموحش بجرسها الجميل ... فلما ابتعد السرب عا  
السكون الوقور فغمر هذا الجمال الناضج كله ، الا أن عيني اجنار  
كانتا لا تزالان مغشائين بالرعب .

ثم راح يصلب ، ويصلى لله بصوت مكبوت : - يا اله السموات  
... ها هي ذى .. الساعة الأخيرة .. قد دنت .

وهمس فوما يقول :

- ما هذا الكلام يا أبى !

- عندما تفرغ من شايك ، اذهب الى القسيس ، ثم الى  
اشبينك .

- سأذهب حالا .

- انهم سيدقون الأجراس للصلاة فى لحظات .. وعليه فلن تجد  
القسيس .. ولا داعى للعجلة ... وربما مرت هذه الأزمة ...

نم أخذ فى ارتشاف الشاي من فنجاله .

- لشد ما كنت أتمنى أن أعيش عاما آخر أو عامين ... فأنت

لا تزال صغيرا ٠٠ وأنا مسنق عليك ٠٠٠ وأوصيك بالتحرف والحزم  
٠٠٠ ولا تطمع فيما ليس لك ٠ ولكن احرص على ما هو لك ٠

وكان يجد صعوبة في الكلام فمسح بيده على صدره ، ثم قال :

— واياك والثقة بالناس ٠٠٠ ولا تنتظر منهم أى خير ٠٠٠ وكلنا  
نعيش لناخذ لا لنعطى ٠٠٠ آه ٠٠ يا الهى ٠٠ ارحم عبدك الاثم  
وهب له المغفرة !

ثم جاء صوت ناقوس من بعيد فشق السكون المخيم ، وهنا صلب  
اجنات وصلب فوما ثلاث مرات ٠

وتلا رنين هذا الصوت النحاسى الأول ، رنين ثان ، فتالت ، ثم  
جاءت أصوات النواقيس تترى من كل مكان ، بأنغامها الموزونة  
البيدة ٠

وقال اجنات وهو يصغى الى جلجلة الأجراس :

— انهم يدقون للصلاة ٠٠ فهل تستطيع أن تميز هذه الأضواء  
المختلفة ؟

وقال فوما : — كلا ٠٠

فقال اجنات . — اسمع ٠٠ هذا الرنين العميق ٠٠ انه الناقوس  
الذى أهدها بيوتر دمتر يفتش فياجين الى كنيسة القديس نيقولا ٠٠  
ثم هذا ٠٠ اسمع ٠٠٠ هذا الرنين الأجلش ٠٠ انه ناقوس كنيسة  
القديس براسكوفيا ٠

لقد كان الهواء يتخطر بتموجات الأجراس المغنية التي كانت  
تتلاشى فى زرقاء السماء الصافية ٠٠ ولاحظ فوما وهو ينظر فى وجه  
أبيه أن القنامة التي كانت تتغشاه قد ذهبته ، وحل محلها نور  
جديد ينبعث من عينيه ٠

الا أنه اصطيغ فجأة بلون أحمر قان ٠٠٠ تم جحظت عيناه  
بحوظا شنديدا حتى لقد كانتا على وشك أن تتبا من محاجرهما ٠٠  
تم ففر فاه كالمشده ، تم أرسل آهة غريبة من ملء حلقه هكذا .

- ج . ج . ج - آخ !

ومال رأسه عقب ذلك الى احدى كتفيه ، تم اذا جسمه يساقط من  
فوق كرسيه ، كأنما كانت الأرض تتشبت بحقها فى أن تسنرده  
اليها ٠٠٠ ومضت ثوان وفوما يحدق فيه بصره فى رعب ودهشه .  
دون أن يستطيع كلاما أو حراكا ٠٠٠ ثم أسرع الى جانبيه ورفع  
رأسه من فوق الأرض ، وراح يحدق فى عينيه ٠٠٠ لقد كانتا  
جامدتين غائمتين ، شديدتى الاتشاع ، وليس فيهما أى تعبير على  
الاطلاق - لا ألم ٠٠ ولا خوف ٠٠ ولا بهجة ٠ ونظر فوما حواليه ٠٠  
لقد كانت الحديقة خالية شأنها من قبل ، وكان الهواء لا يزال يردد  
رنين الأجراس ، فارتعشت يدا فوما ، وترك رأس أبيه يهوى على  
الأرض فحبطته خبطة هينة ، وانبثق شؤبوب رفيع من دم لزج من  
أحد مجانبى الفم على صفحة الحد الداكن ٠

وراح فوما يخبط صدره ، ويرسل صرخة مفزوعة وهو يركع الى  
جنب أبيه ٠٠ لقد جعله الرعب يرتجف ارتجافا ٠٠٠ وأخذ ينظر فى  
الحديقة بعينيه المحمومتين عسى أن يجد أحدا ٠٠



## الفصل الرابع

● لشد ما صعق فوما بموت أبيه ! لقد اعتراه احساس غريب .. احساس الذى يشعر كأنما روحه قد ملاءها الصمت . . . الصمت الثقيل الراسى الذى يبتلع جميع أصدقاء الحياة - لقد كان من يعرفهم من الناس يحومون حوله .. يجيئون وينصرفون .. وقد يتكلمون اليه .. ثم يجيبهم .. لكن كلامهم لا يترك فيه أثرا .. أى أثر .. لقد كان هذا الكلام يهوى الى الهاوية التى لا قرار لها .. هاويه الصمت الذى يملأ روحه . انه لم يكن يبكى ولا يحزن ولا يفكر فى أى شئ . . . لقد كان فيما اعتراه من شحوب واكتئاب وتجهم ، يركز جميع قواه فى الاصفاء الى هذا الصمت الذى أحمده جميع مشاعره ، وطرح للريح قلبه ، وأمسك بعقله كالذى يقبض عليه فى وضیحة !

واستقل ماياكين بالاشراف على الجناز . وكان وقع عقبي حذاءه بسلم وهو يطرطق بصوت عال وهو يهرع بنشاط من غرفة الى أخرى ، صائحا بالخدم كما لو كان سيدهم ، ويربت على ظهر فوما كأنما يقول له معزيا :

مالك هكذا كأنما تحولت حجرا يا بنى ؟ لقد كان أبوك رجلا شيخا طاعنا فى السن ، ترهل لحمه . . . والموت هو نهاية كل حى ، ولا مهرب منه ، وهذا هو الذى يجعل واجب كل منا أن يحافظ على حيويته بقدر مستطاعه فى هذه الدنيا . ولن تستطيع أن تردده الى الحياة بطول بكائك عليه ، ثم هو ليس فى حاجة الى أحزانك ، لأنه

مكتوب : « لا بد من يوم يجيء فيه ملك الموت فينزع الروح من الجسد ، وحينئذ تنسى كل المعارف والآقارب ، وبالاختصار ، لقد أصبح سواء عنده أضحكت أم بكيت . ومهمة الأحياء أن يحافظوا على الحياة ، فتجلد وسر عن نفسك ، فهذا هو العمل الانساني الواجب عمله ، وستشعر بحال أحسن فيما بعد ! »

الا أن هذا الكلام أيضا لم يكن له أى أثر ، لا فى عقل فوما ، ولا فى قلبه .

لقد شعر بشيء من الانتعاش يوم الجناز بفضل الحاح اشبيينه الذى لم يدع وسيلة من وسائله الطريفة لايقاظ روحه المعنوية المنسحقه الا اتبعها .

ولقد كان النهار يلوح كثيبا غائما ٠٠٠ وكان آلاف من المشيعين يسعرون وراء النعش فى ضبابية من العثير الذى تنيره أقدامهم . وكانت ملابس رجال الدين تتلأأ بما عليها من الذهب والقصب ، ووسوشة الأقدام تنتشر فى الموكب البطيء فتمتزج بأصوات الموسيقى الحزينة التى تصدح بها الفرقة الأسقفية . وكان الناس يتدافعون حول فوما من يمين وشمال ومن خلف ٠٠٠ الا أنه لم يكن يحس بشيء مما حوله وهو يخطو خطواته الواثبة الا ما كان يتخايل فى عينيه من منظر رأس أبيه الأشيب ، وأصوات تلك الموسيقى التى كانت تجد لها أصداء حزينة بين جوانحه ٠٠٠ وكان ماياكين ، الذى كان يلازمه دائما ، لا ينفك يهمس فى أذنه قائلا :

- انظر كم من الناس هرعوا لتشييع الجنازة ! آلاف وآلاف ! لقد أقبل المحافظ بنفسه ليشتيع أباك الى مقره الأخير ، والعمدة ، وجميع أعضاء المجلس تقريبا ، ووراءك ( انظر بعينك - انظر ) صوفيا بافلوفنا ! ان البلد كلها خرجت لتكريم اجنات .

ولم يكن فوما يعير ثرثرة ماياكين أى التفات أول الأمر ، لكنه



ما كاد يردد اسم صوفيا بافلوفنا حتى أدار رأسه فى حركة غير شعورية ، لكنه رأى المحافظ . وقد مست قلبه قطرة ضئيلة من الانشراح حينما رأى تلك الشخصية الفخيمة ، وعلى كتفه هذا الوشاح اللامع ، ثم تلك النياشين كلها التى تحلى صدره . ماشيا وراء نعش أبيه بوجهه الرصين الرزين ، وعليه كل تلك المهابة والوقار .

وغمغم ماياكين وهو يشنف بأنفه شنفات خفيفة ، مخاطبا فوما مرة أخرى :

- ماشاء الله ! خمسة وسبعون ألف روبل ! ان مبلغا بهذه الضخامة جدير بالا يجتذب من المشيعين أقل من هذا العدد ! همل سمعت ما يقال من أن سونيا ستضع حجر أساس الملجأ بمجرد انتهاء الاربعين على وفاة والدك !

تم أدار فوما رأسه مرة أخرى ، ولقيت عيناه هذه المرة عيسى صوفيا بافلوفنا ، لقد استطاعت النظرة الرقيقة التى رسقته بها أن نبتعت زفرة من أعمق أغوار قلبه ، تحس بعدها فى الحال . كأنما تسربت شعاعه من الضوء الدافئ الى أطواء روحه فأذابت شيئا هنالك . غير أنه أدرك كذلك أن من غير اللائق أن يظل ينظر حواله هكذا !

وفى الكنيسة شعر فوما كأن قلبه ينسحق ويتحطم من أثر هذه المهابة الحزينة والحشوع الصامت الذى كان يخيم على الصلاة ، وعندما قال له القسيس هذه الكلمات التى تزلزل النفس : « تعال يا بنى .. وقبل أباك قبلتك الأخيرة » انفرجت شفثاه عن زفرة مكروبة جعلت الجمهور يترنج من وقع مثل هذا الحزن الاليم .

وكان فوما هو أيضا يترنج من هول الموقف ، فأمسك به اشيبينه وتقدم به نحو النعش وهو يقول له كلمات كلها به .. وحشوها رعونة وقلة ذوق :

— قبله قبلة أخرى .. قبل والد ... ك .. المر .. ح .. وم ..  
قبله ، يا فوما قبله .. قبله ، قبل أن يوسد التراب ويوضع من فوقه  
الصفاح ، مقبلا بين الموتى ، فى ظلام القبر !!

وانحنى فوما ليقبل والده .. لكنه لم يكد يمس جبينه بشفتيه  
حتى جفل الى الوراء خائفا يزلزله الرعب ، مما جعل ماياكين يقول  
له بصوت مكتوم :

— خذ بالك .. لقد كدت توقئنى على الأرض ! وكانت هذه  
الكلمات البسيطة التى قالها ماياكين فى غير وعى أجدى على فوما من  
الذراع التى كانت تسنده .. فقد نبهت منه ما كان غافلا ،

وكانت صيغة الصلاة تردد هذا التوسل بلسان اجنات : « أيها  
الاصدقاء والاخوة .. ابكوا لى .. أنا ، هذا المسجى أمامكم ، محروما  
من النور .. محروما من الهواء » الا أن فوما لم يعرف الى البكاء من  
سبيل . لقد استولى على نفسه الهلع من منظر هذا الوجه .. وجه  
أبيه المتورم الممتقع . وقد نفعه هذا الهلع ، اذ أفاقه من تلك الغيبوبة  
التى غرق فيها فى أثناء ما وجهته اليه الكنيسة من تلك الندبة  
الطويلة . لقد كان الناس يحدقون به ، ويوجهون اليه كلمات العزاء  
والرثاء ، فأحس أنهم يحبونه ويرأفون له ، الا أن اشبينه همس فى  
أذنه يقول : « انظر كيف يتزلفون لك ويتملقونك ! لقد سُم الفيران  
رائحة الجبن ! »

ولقد وقعت هذه الكلمات موقع المقت من نفس فوما ، الا أنها  
أفادته على كل حال ، فقد جعلته يستجيب لمن يكلمونه بطريقة ما .

وعندما كانوا ينشدون أنشودة الراحة الابدية ، فى المقبرة .  
بكى فوما من جديد ، فأمسك اشبينه بذراعه مرة أخرى .. وعندما  
كانا خارجين من الجبانة أخذ يقول له مشجعا :

• والله انك لولد خرع ! أتظن أن وفاة أبيك شىء هين على ؟ اننى

أنا الشخص الوحيد الذى يقدره قدره • كما كنت أنت ولده  
الوحيد •••• ولكن هأنذا •• لا أبكى •• لقد كنت أنا وهو أشبه  
بأخوين شقيقين ما يقرب من ثلاثين عاما •• لا يتكلم بعضنا الا الى بعض.  
ولا تفكر الا فى نفسنا ، ولا نشكو ههنا الا الى نفسنا ••• انك  
لست الا غلاما صغيرا •• وماذا تعرف أنت من أمر الحزن ؟ ان  
حياتك كلها لا تزال فسيحة المدى أمامك ، ولسوف تحفل بجميع  
ألوان الصداقات ، أما أنا •• فرجل عجوز ••• تركنى أبوك وحدى  
كأحد الشحاذين ، بعد أن دفنت الصديق الحميم الوحيد الذى كان  
لى ••• وأحسب أن الزمان قد تخلى عنى ، ولن أجد صديقا آخر من  
بعده ••»

وأخذ صوت الرجل يتحشرج ، ويصبح صريحا مؤلما ، وأخذت  
عضلات وجهه تتقلص ، وشفته تتشران وترجفان ، وقسمات خديه  
تزداد عمقا ، ويجرى فيهما نثار من الدموع التى تعتصرها محاجر  
عينيه •• وبدت عليه حال من الهم والأسى حركت الشجون فى قلب  
فوما ، حتى لقد وقف فأخذه فى ذراعيه ، وجعل يضمه الى صدره ،  
فى رثاء وحنان ، ضم القوى الشجى ، للضعيف الاسيف •• وهو  
يكثر من القول له :

— لا تبك أيها السيد الوالد •• لا تبك •• لا تبك أيها الوالد  
العزيز ••

فقال ماياكين بصوت ضعيف وهو يزفر زفرة عميقة : — هذا  
أحسن ! ثم لم يلبث أن عاد الى حالته السابقة •• الرجل العجوز  
الداهية •• صلب العود !

ثم أخذ يسر الى فوما وهو جالس بجانبه فى العربة ، اذ هما عائدان  
الى المنزل :

— لا يخلق بك أن تنفطر من البكاء ، وتستسلم للحزن هكذا ••  
تماسك •• فانت الآن القائد •• وواجب القائد فى أثناء المعركة أن

يفود جنوده بشجاعة ٠٠٠ وجنودك هي الروبلات ، ولديك منها  
جيش ضخم العدد ٠٠ فهيا ٠٠ أرنا المعدن الذى صاغك الله منه .  
ودهش فوما للسرعة التى استعاد بها اشيبينه حالته الاولى ٠٠٠  
ومن لم فقد كانت كلماته هذه تقع من مسامع الشاب موقع هذا  
الحصى والصفاح والحجارة التى كانوا يلقونها على نعث ابيه .  
- ألم يحدث أن والدك قال لك مرة اننى رجل رقيق رشيق ويجب  
أن نستمع الى نصائحي ؟  
- حصل !

- اذن ٠٠ فيجب أن تستمع لما أقول ٠٠٠ فنحن اذا ربطنا بين  
ذكائى وبين قوتك الشابة المتوثبة أحرزنا نصرا كبيرا ٠٠ أنت ٠٠  
وأنا ٠ لقد كان أبوك رجلا ضخم الجسم ، لكنه كان قصير النظر ،  
وكان قلما يعنى بالاستماع الى نصائحي ٠٠٠ وهو مدين بما ناله  
من نجاح الى قلبه أكثر مما هو مدين به الى مخه ٠٠٠ ولكنك ٠٠  
يبدو أنك ستكون شخصا عظيما مرموق المكانة يوما ما ٠٠٠ قتعال  
فعش معنا ٠٠٠ انك لن يعود عليك من بقائك وحدك فى هذا البيت  
الا الكرب والفرع وشغل البال .  
- ولكن عمى ٠٠ موجودة .

- عمك ! ه ٠٠ هذه المرأة المريضة المحطمة ! ان ساعاتها هي  
أيضا معدودة فى هذه الدنيا !  
وقال له فوما متوسلا :  
- لا تقل ذلك . أرجوك !

- بل ٠٠ سأقوله وأقوله . ولكن لماذا تخاف الموت ؟ انك  
لست امرأة عجوزا حيزبونا . فعش بلا خوف ، لتقوم بالعمل الذى  
خلقت له . وقد وجد الانسان لتنظيم هذه الحياة . والانسان رأس  
مال . وهكذا الروبل ! انه يجتمع من دراهم وكوبكات صغيرة لا قيمه  
لها ، جمعنا مادتها من تراب الأرض ، كما هو مكتوب . تم يدور هذا.

الروبل فى عمل من الأعمال ، وفى أثناء ذلك يمزج بالعرف والدموع ، كما يمزج بهما الزبد والسمن ، وتبدو بعد ذلك أمارات القلوب والعقول ٠٠٠ ثم تراه وقد بدأ ينمو ٠٠٠ فيرتفع مرة الى فوق ، وينحط تارة الى تحت ٠٠٠ وقبل أن تعرف ماذا صار ، تكون قيمته قد أصبحت خمسة كوبكات ، ثم خمسين ٠٠٠ ثم ٠٠ مائة روبل ! وبعض الروبلات التى تنزل الى ميدان العمل على هذا النحو ٠٠ تبلغ قيمتها بعد حين ما لا يعد ولا يحصى ٠٠٠ والروبل ما دام قد نزل الى ميدانه ، أصبح واجبه أن يعود لصاحبه بالريح المنسود ٠٠٠ والحياة تعرف كم يساوى كل منا ٠٠٠ ثم هي لا تدعونا الى العمل قبل أن يحين أوانه . والرجل العاقل يجب ألا يعمل شيئاً يجلب عليه الخسارة ٠٠٠ أسمع ؟

٠ أجل -

- هل تفهم أى شىء ؟

- كل شىء !

فقبع ماياكين ، وقال فى ريبة : « لعل وعسى ! »

- أنا أعرف فعلا ٠٠ ولكن الذى لم أعرفه فقط ٠٠ هو ٠٠ لماذا كتب الموت على الناس ؟

ونظر اليه ماياكين فى حنان ، وأخذ يقول وهو يبيل شففته بلسانه :

- هذا سؤال يجب ألا يوجهه رجل عاقل الى نفسه . ان الرجل العاقل يرى أنه اذا كان هناك نهر من الانهار ، فلا بد له من أن يصب فى مكان ما ، فاذا لم يصب فسيحدث مستنقعا !  
وقال له فوما منقبضا :

- انك لا تزيد على أنك تستهزىء بى ٠٠٠ فالبحر لا يصب فى  
أى مكان !

- ولكن البحر هو المكان الذى تلتقى فيه جميع الا'نهـار ٠٠٠ به  
لا تنس ما يهب فى البحر من عواصف ٠٠ وهذا هو ما يحدث  
بالضبط فى بحر الحياة الذى تثيره العواطف الانسانية وتجعله  
لجيا عاصفا ٠ والموت هو الذى يعيد الى أمواهه نقاءها ، ويحافظ عليه  
من أن يصبح راكدا أسنا ٠ ولا ضير فى أن يموت كثير من الناس ،  
فالموجودون على قيد الحياة أكثر على الدوام مما كانوا من قبل !

- أحسب أن ليس ما يعزىنى عن أبى ٠٠ وقد مات !

- ولسوف تموت أنت أيضا يوما من الايام !

وقال فوما وهو يضحك ضحكة مريرة :

- اذن فما الفرق فى نظرى بين أن يكون الذين على قيد الحياة

أكثر دائما ممن كانوا أحياء من قبل ؟

وهنا ٠٠ أرسل الرجل زفرة ٠٠ ثم قال :

- لا فرق فى ذلك أبدا فى نظر أى انسان ٠ وأحسب أن كلامك

هذا هو ما يقوله بنطلونك أيضا اذ يسأل اخوانه البناطيل :

ما الفرق الذى يعود علينا من وجود ملابس أخرى كثيرة جدا فى هذه

الدنيا ؟ ٠٠ ولكنك لا تعير ما تقوله البنطلونات أى اهتمام - انما

أنت تخلعها عن نفسك ، ثم تقذف بها من حالى !

ونظر فوما الى الرجل نظرة تعنيف وتثريب ، الا أنه حينما رآه

يضحك أحس نحوه بالاعجاب والاحترام ، ثم راح يسأله :

- ألسنت تخشى الموت حقيقة أيها الأب ؟

وأجابه الرجل العجوز بلهجة لاذعة :

- ان أشد ما أخشاه يا بنى هم المغفلون ٠٠٠ أما ماذا أقصد

فاستمع : « اذا أعطاك أحد المغفلين عسلا ، فابصق به فى وجهه ٠

أما اذا سقاك أحد الحكماء سما ، فاشربه ، والقنفذ الذى لا ينشر ابره

للدفاع عن نفسه هو قنفذ مريض القلب ! »

وقد آذى فوما وأغضبه ما أحس في كلام ماياكين من استخفافه .  
فقال له غامزا :

— دائما تتكلم بالأحاجي والفوازير !

فانفجر فيه الرجل قائلا :

— ماذا تقول؟! ان كل انسان يتكلم بالاسلوب الذى تعود . هل  
تجد خشونة فى كلامى ؟ أهذا هو ما تعنى ؟  
لكن فوما لم يجب .

— أما انك لشخص ظريف ! تذكر هذا المثل : « ان الذى يحبك  
هو الذى يعلمك . . فلا تنس هذا أبدا : ثم دعك من التفكير فى  
الموت . فالحماسة كل الحماسة أن يستغرق الانسان كل الاستغراق فى  
التفكير فى ذلك . لقد أنعم سفر الجامعة النظر فى موضوع الموت طويلا ،  
وأطال الكلام فيه كثيرا . . . ثم انتهى من ذلك كله الى أن الكلب الحى  
أفضل من الأسد الميت ! »

ووصلا الى المنزل . وكانت صفوف من العربات متراصة فى  
الشارع الذى فيه بيت فوما ، وكانت أصوات عالية كثيرة تنطلق من  
النوافذ المفتحة . ولم يكد فوما يخطو عتبة الباب حتى أمسك أحدهم  
بذراعه واتجه به الى مائدة حافلة بالطعام والشراب . . وكان الجميع  
يحثونه لياكل شيئا . وكانت الغرفة تضج بالاحاديث كأنها سوق ،  
وكانت مزدحمة وحمئة من كثرة ما ينطلق فيها من الانفاس . ودون  
أن ينبس فوما بكلمة ، تنساول كوبا من شراب الفودكا وألقى به  
فى لهاته . ثم أتبعه ثانية وثالثة . . وكان كل من حوله يمضغ  
ويتمطق . . وكان هو يستمع الى بقبة الفودكا وهم يفرغونها ،  
وقرع الكئوس وهم يهمون بها . . . وكانوا لا يستحون أن يعلقوا  
على السمك ، وينقدوا العازف على الكمان المنفرد فى جوقة الاسقف ،  
ثم يعودوا الى التعليق على السمك من جديد . . . ثم يقولوا ان  
العمدة كان ينوى القاء خطبة فى الجناز ، الا أنه خاف — بعد الخطبة

الرأعة التي ألقاها الاسقف ، أن يتكلم بشيء حتى لا يفضح نفسه ،  
ويضحك الناس عليه !

ويقول بعض الأكلين بصوت مختلط بلعاب الأكل :

— وهذا هو ما كان من عادة المرحوم أن يفعل • لقد كان يقطع  
القطعة من السالمون ثم يرش عليها مقدارا كبيرا من الفلفل ثم يأخذ  
قطعة أخرى فيضعها فوق هذه ثم يرسلها في حلقومه لتلاحق الزجاجة  
من الفودكا !

فيرد عليه بعضهم بصوت هادر :

— اذن هلم نحنذو حنذوه

وكان صدر فوما يكاه ينشق بالغثيان من منظر هذه الشفاه  
الملوثة والأشداق التي تلتهم الطعام الدسم ، وقد شعر برغبة طارئة  
في أن يصيح بهؤلاء الانذال ، وأن يطردهم جميعا ، أولئك المحدثين  
الذين كان بروزهم في المجتمع قد ملاءه بالحلق عليهم والكره لهم •  
ولاحظ ذلك ماياكين الذي أحس فوما فجأة أنه بجانبه ، فقال  
له :

— أوه •• حيلك ! كن أكثر لطفا وبشاشة •• ثم •• ثرثر معهم  
يا مولانا !

فرد عليه فوما بصوت مرتفع فيه حدة وغضب :

— ما معنى افراطهم في الشراب هكذا ؟ أيطنون أنهم في حان !

— ش ششمو !

وقالها ماياكين في هلع ، ناظرا في سرعة البرق فيمن حوله ، وعلى  
فمه ابتسامة استعطاف •

ولكن •• لا فائدة •• لقد سبق السيف العنذل كما يقولون •••  
فلقد سمع حضراتهم فوما ، وعند ذلك سكنت الأصوات ، وانقطع  
حديث القوم ، وبدا القلق على بعض الأضياف بصورة واضحة ،



يوضع آخرون سكاكينهم وشوكهم وعلى وجوههم أمارات الاستياء ،  
ثم غادروا المائدة ، ونظر بعضهم الى فوما شزرا •  
وكان فوما ، الذى كان ساكنا يتحرق من الغيظ ، يقابل نظراتهم  
بلا أدنى مبالاة •

وهب ماياكين يهدىء نائرتهم ، ويجرى بينهم كما تنطلق الشرارة  
بوسط الرماد :

- اجلسوا اجلسوا •• تفضلوا بالبقلاوة ستقدم الآن !

أما فوما فقد هز كتفيه ، ثم أخذ طريقه الى الباب • قائلا :

- ليست بى حاجة الى طعام !

وسمع بعض كلمات غير لائقة من أحدهم ، كما سمع اشيبينه  
يحاول تفسيرها بقوله :

- انه حزنه يا سادة ••• ثم لا تنسوا أن اجنات كان كل شيء  
بالنسبة له •• كل شيء !

وخرج فوما الى الحديقة حيث جلس فى المكان الذى توفى أبوه  
فيه ، وكان الحزن والوحشة يجثمان بكلكنهما على صدره ، فك  
ياقة قميصه ، ووضع مرفقه على المنضدة ، وجلس بلا حراك ، ورأسه  
مسند على راحتيه • وكان مطر لطيف ينهمر ، فكانت أغصان التفاحة  
تمرمر فى صوت حزين وقطرات المطر تتساقط من فوقها • وظل  
جالسا ثم وقتا طويلا وهو يلاحظ المطر ينزل من فوق الاوراق على  
المنضدة • وكان يشعر كأنما رأسه يملؤه صراخ من الفودكا التى  
شربها ، وكأنما بنفسه غثيان من أولئك النهمين ، وكانت الأفكار  
الغامضة المبهمة تدخل فى رأسه ثم تخرج منه ، ونظر الى صلعة  
اشيبينه بتاجها الصغير الفضى من ذلك الشعر الاشيب ، ووجهه المعتم  
المربد الذى يشبه عجائز الايقونات •• ذلك الوجه الذى كان ،  
بفمه الأهمم الخالى من الاسنان ، وابتسامته الحبيثة المحتملة ، يثير  
الكراهية والاشمئزاز فى نفس فوما ، ويزيد فيها الشعور

بالوحشة والانقباض ... ثم أخذ يستذكر عيني صوفيا بافلوفنا اللطيفتين ، وقوامها الصغير المعتدل ، وجعل يضع في خياله الى جانبها ... ولسبب ما .. ليوبا ماياكين بجسمها الطويل البديع ، وخدمتها الموردين ، وعينيها الضاحكتين ، وضفيرتها الغزيرة. النحاسية ... لقد كان الهواء مملوءا بالأصوات الكثيبة الموحشة ، والسماء كأنها تبكي وتنثر دموعها الباردة على أغصان الشجر ، وكان الظلام والبرد يملآن قلب فوما ، وكان شعور مخيف بأنه وحده في هذه الدنيا يستولى على نفسه ... حتى لقد أخذ يسائل نفسه هذا السؤال : ترى .. كيف يمكن الاستمرار على هذا المنوال في تلك الحياة ؟

وكان المطر قد بلل ملابسه ، فلما أحس انه يرجف من البرد أوى الى المنزل .

\* \* \*

لقد كانت الحياة تأخذ بتلابيبه من كل مكان ، حتى لم تكن تترك له فرصة التفكير في شئونه الخاصة . وفي اليوم الاربعين لوفاة والده ارتدى أحسن ما عنده من ثياب ثم ركب الى حيث حفلة ارساء حجر الاساس للمجا الفقراء المشردين ، وكانت صوفيا بافلوفنا قد أرسلت اليه قبل ذلك بيوم واحد خطابا تخبره فيه أنه أنتخب عضوا في لجنة الاشراف على عمليات البناء ، كما أنه أنتخب أيضا عضو شرف في جماعة الاعمال الخيرية التي كانت هي رئيستها . وقد سره هذا كثيرا ، وشغل باله أيما شغل ذلك الدور الذي كان عليه أن يقوم به في احتفال اليوم . وحاول التفكير فيما عسى أن يكون ذلك الدور ، وجعل يفكر في هذا وهو راكب الى مكان الحفل ، وفي كيفية السلوك ثمة ، حتى لا يكشف نفسه بتصرف لا يكون لائقا .  
ولمحه ماياكين فناداه وهو مسرع فوق الرصيف :  
- أوه .. أنت هنا .. صبرك صبرك .

واستندار فوما فوجد اشبينه وقد حمل مظلة ضخمة فى كلتها يديه ، وعلى رأسه قبعة كبيرة ، وعليه معطف ضاف ذو ياقة من الفراء ، وقد استطال حتى عقبه . وقال الرجل وهو يثب الى العربة بلا استئذان ، فى رشاقة القروود :

— خذنى معك خذنى ! أقول لك الحق لقد كنت فى انتظارك . . .  
وما كنت أشك فى أن هذا هو ميعاد حضورك .

— اذن أنت ذاهب الى هناك !

— طبعا ، فأنا أريد أن أرى كيف يحفرون لنقود أعز أصدقائى فى التراب ! وهنا رمقه فوما بنظرة من طرف عينه ، ولم يتكلم . ولكن الرجل راح يسأله :

— لماذا تنظر الى هكذا ؟! أظنك سوف تسلك أنت أيضا سبيل الحيرات !!

وسأله فوما ببرود :

— وماذا تعنى ؟

— لقد قرأت فى تذكرة الدعوة أنهم قد أنتخبوك عضوا فى الهيئة المشرفة على بناء ذلك الملجأ ، وعضو شرف فى جمعية الست سونيا كذلك . . . وهى عضوية ستخرم جيبك ان شاء الله !

وزفر وهو يقول ذلك . ولكن فوما أجابه :

— أحسب أنها لن تجعل منى أحد فقرائها المشردين !

فكان رد الرجل الداهية :

— لا أستطيع أن أحرز ذلك ، ولكن النى أستطيع أن أحرزه هو . ان عمل الحيرات عمل كله حماقة ، بل ليس عملا على الاطلاق ، ولا يزيد على كونه تضييعا للوقت .

وسأله فوما متحديا :

- كأنك تعتقد أن مد يد المعونة للمحتاجين عمل ضار ؟

فتبسّم ماياكين ابتسامة صفراء وقال :

- آه منك يا ٠٠ رأس الكرنبية ! تعال وشرفني بالزيارة ، وسأفتح عينيك على هذا كله ٠٠٠ انك في حاجة الى النصيحة ٠٠ فهل تأتي ؟

- سأفعل

- عال ! وبهذه المناسبة ، يجب أن تشمخ بأنفك في هذا الاحتفال ، وعليك بالجلوس في صدر المجلس ٠٠ وأحسب أنك ٠٠ لو لم أنبهك ، الى ذلك ٠٠ كنت عساک تختبئ خلف ظهر واحد من الناس !

وقال فوما مستاء :

- وماذا كان يدعوني الى الاختباء ؟

- لك حق ٠٠ اذ ماذا يدعوك الى الاختباء ؟ ٠٠ ان الذي أقصده ، هو أن أباك هو الذي تبرع بالنقود لذلك المشروع ٠٠ ولا بد لك من الارتفاع الى مناط الكرامة بوصفك وريثا له : والكرامة شيء ثمين ، كالنقود تماما . والتاجر الذي يحافظ على كرامته يقابل بالحفاوة في كل مكان ، وتفتح له الابواب حينما حل ٠٠٠ ومن ثم فيجب أن تبرز ، ويكون لك مكان الصدارة في هذا الاحتفال ٠٠ فلتجلس في الصف الاول ، حيث يمكن أن يراك كل انسان ، ويمكنك بذلك اذا تبرعت ولو بخمسة كوبكات ، أن تكسب روبلا بدلا منها . فمن الحماقة اذن أن تتوارى ٠٠ وتخفي نفسك .

وعندما وصلت عربية فوما كان صدور أعيان المدينة قد وصلوا الى مكان الاحتفال ، وكان كثير من الاهالي قد ازدحموا حول أكوام الاخشاب والطوب ومواد البناء ، وكان الاسقف والمحافظ والرؤوس

من أهالى المدينة وأعضاء الحكومة المحلية ومعهم زوجاتهم فى أبهى  
ملابسهم يكونون حشدا رائعا مختلف الالوان وهم وقوف يشاهدون  
رجلين من البنائين يعدون الحجارة ويجهزون مونة البناء ، وقد انضم  
ماياكين وفوما الى هذه الجماعة .

وهمس ماياكين فى أذنه قائلا :

— لا تكن خجولا . . . فالذى يخجل على المائدة . . يموت جوعا ،  
والطيور الزاهية هى عادة أضعف الطيور .

وفى صوت مرح ، كله احترام مع ذاك ، أخذ يحيى المحافظ ، قبل  
أن يحيى الاسقف .

— كيف صحتك يا صاحب السعادة . . . نهارك سعيد يا صاحب  
النيافة !

وحياه المحافظ بتحية ودية قائلا :

— آه يا كوف تاراذوفتش !

وبينما كان يقبض على يد ماياكين ويهزها هزا ، كان هذا يميل  
تحو الاسقف . لكن المحافظ استمر قائلا : « كيف الأحوال أيها  
الرجل العجوز العمر الذى لا يعرف الموت إليه سبيلا ؟ »

ويجيبه ماياكين :

— عظيم جدا . . شكرا لك يا صاحب السعادة

ولمح صوفيا فحيها هذه التحية السريعة :

— مساء الخير . . صوفيا بافلوفنا

ثم زاغ كالنحلة وسط الزحام ، حيث استطاع فى خلال دقيقة أن  
يحيى القاضى والنائب العام والعمدة . . . وفى الواقع لقد تبادل

التحيةة وكل شخص من الاشخاص الذين هم فى نظره جديرون  
بالتحيةة . . ولم يكن هناك عدد كبير من هذا النوع . لقد كان يبتسم  
ويمزح ويجعل نفسه موضع الرعاية وجذب الانظار . أما فوما فكان  
يقف خلفه مهورا يسترق النظر الى الاشرطة الذهبية والملابس  
النفيسة التى ترف من حوله ، وهو يحسد اشبيته على نشاطه  
وجراته ، أسفا على خور عزيمته هو نفسه وتهافته أمام الملاء ، ثم  
ازدياد هذا الحور وذاك التهافت حينما أدرك أنه لا شىء فى الواقع . .  
وهنا أمسك ماياكين بيده فى الحال ثم قدمه للمحافظ قائلا :

— اسمح لى يا صاحب السعادة بأن أقدم لك ابنى الروحى ،  
فوما ، الابن الوحيد للمرحوم اجنات .

وحيا المحافظ فوما وهو يقول :

— آه . . . سعيد لرؤيتك يا فوما ، وأشاطرك الـأحزان من كل  
قلبى يا بنى الصغير .

ثم شد على يده ، وقد توقف عن الكلام قليلا ، ثم عاد يقول :

— من أكبر النكبات أن يفقد الانسان أباه

وانتظر أن يرد تحيته ، لكنه لم يفعل ، ومن ثم ، التفت المحافظ  
الى ماياكين يقول : كم كان خطابك رائعاً فى المجلس بالامس .  
رائعاً . . . وفى منتهى الابداع . . . يا كوف تاراذوفتش . ان هؤلاء  
الناس لا يعرفون حاجات السكان الحقيقية .

— وعلاوة على ذلك يا صاحب السعادة . انهم لا يملكون رأس  
المال . . وبعبارة أخرى ، أرى أنه يجب على المدينة أن تضم مالها  
هى أيضا .

— تمام . تمام . هذا حق .

— ان الاعتدال بلا شك خصلة ممدوحة . وشرب الخمر شىء  
سيئ . وأنا أوافق على ذلك . وأنا نفسى لا أذوق الخمر ، وأكره من

يشربونها - ولكن لماذا ننشئ دور الكتب وصلات القراءة العامة  
ما دام الجمهور ... أعنى العوام ... لا يعرفون القراءة ؟  
ووافق المحافظ فى زفرة تشبه قباع الخنازير .

- أما اذا سألتنى عن رأيى ، فهو أن تأخذوا هذه النقود وتضعوها  
فى مشروعات صناعية . وسيكون فى هذا المبلغ الكفاية اذا سرتهم فى  
ذلك على مستوى ضيق . واذا لم يكف فلتكتبسوا الى سنت  
بترسبرج (١) ترسل لكم مبلغا آخر ولا تضيف المدينة شيئا من  
مالها ، وتشغل أموالها فيما هو أجدى .

- تمام ... ولكن كيف صاح هؤلاء الأحرار فى وجهك !  
- انهم لا يصلحون الا لهذا ... للصياح ! يا صاحب السعادة  
وهنا ننحج القسيس من داخل الكنيسة ، وكان هذا يعنى ابتداء  
صلاة التدشين .

وأقبلت صوفيا بأفلوفنا وحيث فوما ، وقالت له بصوت ناعم  
حزين :

- لقد كاد قلبى يتفطر وأنا أنظر الى وجهك يوم الجناز ... لقد  
كنت أدرك كم كنت تقاسى !  
وكانت كلماتها بردا على قلب فوما .

- لشد ما هزنى بكأوك ... فوا رحمتا لك يا بنى الصغير ...  
واسمع لى أن أخطابك هكذا فقد أصبحت أنا امرأة عجوزا بالفعل .  
وأجابها فوما مشدوها :  
- أنت ؟

وسألته وهى تنظر فى وجهه بلا تكلف :

- ألا تصدقنى ؟

---

(١) لينينجراد الان .

ونكس فوما رأسه ولم يتكلم • فقالت له صوفيا :

- اذن فانت لا تصدقنى • ألسنت امرأة عجوزا ؟

وأجابها وكأنه يحتج بصوت منخفض :

- أصدقك وان كان هذا ليس صحيحا

- ما الذى ليس صحيحا •• هل هو أنك تصدقنى ؟

فقال فوما وقد استولى عليه الخجل الشديد :

- لا لا •• ليس هذا •• ولكن هو أنك •• هو أنك •• معذرة

•• فأنا لا أستطيع التعبير ، اذ لبست واحدا ممن تعرفين من هذا  
الشباب المتعلمين •

وهنا أسرع صوفيا الى الجواب التالى وكأنما أرادت به أن ترد

عنه عادية هذا الشعور :

- ليس هذا شيئا يستدعى الخجل على الاطلاق •• فانت.

لا تزال شابا يافعا ، وأى شخص يستطيع أن يحصل على التعليم الذى

يريد ••• الا أنه يوجد من الناس من لا يحتاجون الى تعليم • بل قد

يضرهم التعليم ولا ينفعهم - أناس أنقياء القلوب •• أطهار أبرار

أصفياء النية كالاطفال تماما • وأنت واحد من هؤلاء •• أو كذلك

•• أليس كذلك ؟

فأنى لفوما الاجابة على ذلك ؟

انه لم يزد على أن قال : - شكرا

ولاحظ أن كلماته قد ابتعثت بريقا مرحا فى عينى صوفيا

بافلوفنا ، فأحس بأنه كان شديد البله والحماقة •• مما جعله يثور

فى أعماقه على نفسه • ومن ثم استدرك يقول :



- اذن فهذا هو رأيك فى ! اننى أقول ما أعتقد .. ولم أتعود  
الرياء والتظاهر ... وعندما أرى شيئاً مثيراً للضحك، فانى أضحك  
من كل قلبى . ولم أرزق المقدرة على اخفاء ما فى نفسى .  
: - حيلك حيلك ! ما الداعى لأن تقول هذا كله ؟

وكانت تكلمه كأنها تلومه وتعتب عليه .. وبينما كانت تصلح  
« كسر جونلتها » تصادف أن مست بيدها يد فوما التى كان يحمل بها  
قبعته .. فنظر فوما الى يده نظرة تفيض بالحنجىل .. وبالسعادة.  
أيضا .

وسألته صوفيا :

- أرجو أن تشرف البوفيه .. أليس كذلك ؟

- بلى .

- وأن تشرف الاجتماع الذى سينعقد غدا فى منزلى ؟

- بكل تأكيد !

- وأن تنزل بزيارتى كلما سمحت لك الفرص بذلك ...  
وبدون أى تكليف !

- أو .. شكرا لله .. ان شاء الله !

- بل أنا التى يجب أن أشكرك على هذا الوعد .

ثم لزمنا الصمت بعد ذلك كلاهما ... وجاء صوت القسيس فى  
وقار وخشوع من بعيد وهو يبارك بيده أرض الملجأ ، ويدعو دعاءه  
قائلا :

« ... ونسأل الله ألا يصيب هذه المؤسسة بريح أو فيضان أو  
طاعون .. والأيقع بساكنيها أى شر أو أذى ! »

وقالت له صوفيا :

— لله ما أجمل صلواتنا وأحفلها بالمعاني ! ألا ترى ذلك ؟

ولم يزد على أن قال لها : « بلى » وقد عاوده حياؤه مرة أخرى . .  
لأنه لم يفهم ماذا كانت تقول له

وقال ما ياكين هامسا في أذن العمدة الذي يقف قريبا من فوما :

— انهم دائما يأخذون الجانب الذي يكون ضد مصالحنا نحن  
التجار . وماذا يهمهم ؟ ان كل ما يحرصون عليه هو أن ينالوا ثناء  
الصحافة . وهم قلما يتعمقون معاني الاشياء . . ولا يعنون الا  
بالمظهر ، ولا يعملون على تحسين الحياة نفسها أبدا . الصحافة  
والسويد ! هذان هما القاعدتان اللتان يقيسون كل شيء بهما !  
فصاحبنا الدكتور ظل يضرب طول النهار أمس على وتر السويد . .  
ولم يفتأ يقول ان التعليم العام ، بل كل شيء آخر ، على أحسن  
ما يرام . ولكن . . . ما تلك السويد اذا وقفت على حقائق  
الاشياء فيها ؟ اه ؟ . . ان كل ما نعرفه عن تقدم السويد التي  
يطنطنون بها هو القفزات والكبريت . . . ومهما يكن ، فنحن غير  
السويد ، ولا يمكن أن تكون السويد نموذجا لنا . ولا بد لنا من أن  
يكون لنا أسلوينا الخاص في كل شئونا . أليس كذلك ؟

وهنا ، كان الكاهن قد مال برأسه الى الخلف وهو يقول :

« فالراحة الأبدية لروح ذلك الذي أنشأ هذه المؤسسة الخيرية »

وقد انتفض فوما عندما صافح أذنيه هذا الدعاء ، غير أن اشبينه  
تنبه الى ذلك فشمده من كفه على الفور وقال له :

— هل ستذهب الى البوفيه ؟

ثم مست يده مرة أخرى تلك اليد الدافئة الناعمة البضة . . يد  
صوفيا بافلوفنا .

لقد كان البوفيه محنة شقى بها فوما ٠٠٠ فلاؤل مرة فى حياته .  
يجد نفسه فى طبقة راقية ٠ وكان يدرك أن هؤلاء الناس يأكلون  
ويتحدثون ويفعلون كل شىء آخر أحسن مما يستطيع هو أن يفعله ،  
وأن المائدة لم تكن هى التى تفصل بينه وبين صوفيا بافلوفنا التى  
تصادف أنها كانت تجلس قبالته تماما ٠٠ بل كان يفصله عنها جبل  
حقيقى ، جبل بأكمله ٠ وكان يجلس فى المقعد الذى يليهسكرتيرالجماعة .  
التى أنتخب فيها فوما عضو شرف . وكان كاتبها حدث السن فى المحكمة ،  
وكان يحمل هذا الاسم الغريب : أوتشيشيف ٠ وكأنما أراد أن  
يجعل اسمه أشد غرابة ، فلم يكن ينقطع عن السرعة بصوته  
الرفيع العالى - أضف الى ذلك منظره العام الأشد غرابة ٠٠٠ اذ  
كأن قصيرا سميئا مستدير الوجه ، فاذا تذكرت صوته خارجا من  
هذا الرأس العجيب خيل اليك أنه جرس ٠٠٠ جرس آدمى !

اسمع اليه يتملق السيدة صوفيا بهذا الكلام السمج :

- ان أعظم ما يحق لمجتمعنا أن يفخر به هو راعيته ، صوفيا  
بافلوفنا ٠ وأهم عمل يمكنه أن يقوم به هو أن يقدم لها التشركات  
التى ترتضيها ، وأحسن طريقة تقدم بها هذه التشركات هى عبادتها  
وتوقيرها فى سكون وفى صمت ٠٠٠ وهكذا نرى أيها السادة أننا  
فى الحقيقة لسنا أعضاء فى جمعية مكرسة لقضية الحى ٠٠٠ بل فى  
جمعية من طيور أبى قردان فى خدمة سيدتنا المعبودة صوفيا .  
بافلوفنا ٠

وكان فوما يستمتع الى هذا الهذيان ، وهو ينظر الى صوفيا .  
مستغرقة فى حديث خاطر بينها وبين رئيس البوليس ٠ وكان يحيب .  
عما يوجهه اليه جاره من أسئلة باجابات خاطفة ، متظاهرا بالانهماك  
فى طعامه ، وهو فى الحقيقة يتمنى لو انتهى هذا الاحتفال ، وانفرط .  
عقده ، فقد كان يحس كأنما جميع عيون القوم متجهة نحوه ٠٠٠  
وأن كل انسان قد لمس فيه البله والسخف ، وأنه شىء تافه .  
لا يستأهل الا الزراية والاحتقار ٠

وكان ماياكين يلوح بشوكته فى الهواء ، ويلعب أسارير وجهه وهو يشرح أمرا ما للعمدة ذى الوجه الأحمر الاثسيب الرأس الذى لا رقبة له ! وكان العمدة يحملق فيه بعينه كما يحملق العجل ، وهو ينقر بأبهامه على المائدة من وقت الى آخر ، كأنما نقره هذا هو علامة بالموافقة على ما يقول محدثه • وكانت الاحاديث المرحه ، والضحك المتواصل يطبقان على ما يقوله ماياكين ، فلم يكن فوما يميز كلمة واحدة منه ، وبخاصة أن سرسعة السكرتير الفصيح كانت تظن فى أذنيه طول الوقت •

ثم قال السكرتير أخيرا بلهجته السمجة :

- انظر •• ان الكاهن يأخذ نفسا طويلا ••• وهو موشك أن يصل على روح المرحوم اجنات مانفييفتش !

وسأل فوما بصوت خافت :

- ألا أستطيع الانصراف ؟

- ولم لا ؟ ان الناس سيفهمون

- كان صوت الكاهن قد طغى على الاصوات الاخرى •• أو قل •• انه قد نسخها جميعا ، فراح هرؤلاء التجار ينظرون فى اعجاب الى ذلك الفم الكبير المغفور الذى كانت تتدفق منه مقاطع الكلمات الرنانة ••• وانتهر فوما هذه الفرصة ، فغادر الغرفة •

ولم تمض دقيقة حتى كان متكئا بظهره على مسند عربته ، وهو يشهق كالذى أتاه الفرج بعد الضيق ، ويحدث نفسه بأن مجتمع هرؤلاء الناس ليس مجتمعه • فقد أدرك أنهم قوم متكلفون ، فكره أناقتهم وتباهيهم ، وكره وجوههم ، وابتساماتهم وأحاديثهم • الا أن ما كانوا يبدونه من حرية وثقة بالنفس ، وقدرتهم على التحدث فى أى موضوع ، وملابسهم الجميلة الانيقة - كل هذا أثار فى نفسه

تأحاسيس يختلط فيها الحسد والاحترام . وقد آلمه وأحزنه ما لمسهُ  
عفى نفسه من عدم القدرة على التعبير عما فى خاطره بهذه الطلاقة التى  
كانوا يعبرون بها عما فى أنفسهم ، وفى أى موضوع يشاءون .  
وذكر أن ليوبا ماياكين كانت طالما تستهزئ به من أجل ذلك .

لقد كان فوما لا يميل الى ابنة ماياكين ، ولم يكده يعلم من أبيه أن  
والدها يريد تزويجها منه حتى امتنع من مقابلتها اطلاقا . الا أنه منذ  
أن توفى أبوه لم ينقطع عن زيارة آل ماياكين يوميا .

وقالت له ليوبا مرة :

- أتعلم يا فوما أنك لا تبدو عليك أية أمانة تدل على أنك ابن  
تاجر ؟ .

ورد عليها بمثل لهجتها قائلا :

- وأنت أيضا لا يبدو عليك أنك ابنة تاجر .

ولم يكن يعلم هل قالت له ما قالت وهى تعتمد جرح مشاعره أو  
لم تعتمد ، بدليل أنها قالت له : حمدا لله ! ثم أولته ابتسامة حلوة  
تفيض ودا ، حتى لقد سألها :

- لماذا أنت مسرورة ؟

- لأننا لا نشبه والدينا

وقد نظر إليها فوما متعجبا حينما قالت ذلك ، وأدركت هى هذا  
فقالت له بصوت خافت :

- اصمدقنى القول يا فوما . . أنت لا تحب والدى ، أليس  
كذلك ؟

فأجابها فوما بصراحة : - ليس كثيرا !

فقالت له :

- أوه ٠٠ اننى لا أحبه بالمرة !

- ولماذا ؟

- أوه ٠٠ لأسباب كثيرة مختلفة ، وحينما يتسع ادراكك للامور أكثر مما هو الآن ، ستفهم كل شيء . لقد كان أبوك خيرا من أبى .

وشاع الكبر فى أعطاف فوما وقال :

- أجل ، لقد كان خيرا بكثير .

وكان من نتيجة هذا الاعتراف أن بدأ كل منهما يميل الى صاحبه ، ثم تطور هذا الميل يوما بعد يوم حتى أصبح أقرب الى لون غير عادى من الصداقة .

لقد كانت ليوبا فى سن فوما نفسها ، الا أن ميلها اليه كان أشبه بميل بنت كبيرة الى ولد صغير . لقد كانت تتحدث اليه بلهجة استعلاء ، وكانت طالما تهكم عليه . وكانت تستعمل فى حديثها اليه على الدوام عبارات لم يكن معتادا سماعها ، وكانت تنطق هذه العبارات بلهجة خاصة فيها سمة التأكيد ، والاقتناع الواضح . وكانت تحب أن تتحدث اليه وبخاصة عن أخيها تاراس ، الذى ، وان لم تره قط ، كانت تصوره فى ألوان وأضواء تدنيه من لصوص الحرافات الشجعان الشرفاء فى حكايات العمه آنفيسا . وكان فوما اذا شكها اليها من والدها أجابته قائلة :

- ستكون أنت نفسك يوما ما هذا الهولة الوحش الذى هو أبى !

ولم يكن يسره أن يسمع ما تقوله من ذاك عن أبيها ، بل كان هذا يضايقه منها ، الا أنها كانت تبدو فى بعض الظروف بسيطة ساذجة ، صريحة ، بل لطيفة فيأضلة الود . وكان هو يستجيب لذلك فيفتح لها أبواب قلبه ، وطالما كانا يجلسان معا ينفض كل منهما لصاحبه أخص أفكاره وخفايا مشاعره .

لقد كانا يتحدنان في صراحة وفي اخلاص ، الا أن فوما كان يشعر أن أفكار ليوبا لم تكن مما يمكن الموافقه عليه ، بل كانت مما يجلب الضرر لها . وفي الوقت نفسه كان يلاحظ أن أحاديثه المهوشة العرجاء لم تكن تسرها على الاطلاق ، وأنها لم تكن تفهمه قط . وبالرغم من كل هذه الاحاديث الطويلة بينهما لم يزدد بعضهما الا تبرما ببعض وقلّة رضاً . لقد كان يخيل اليه ان حائطا لاتراه الانظار يفصل بينهما ، ولم يكن أى منهما يجرؤ على أن يمس هذا الحائط ، أو أن يعترف حتى بوجوده . وهكذا استمرا في هذه المحادثات العقيمة ، وكل منهم مدرك ادراكا مبهما لما يتسم به الآخر من تلك السمات التي كانت أخرى بأن تقرب مسافة الخلف بينهما .

لقد ذهب فوما بعد عودته من الحفلة الى منزل اشبينه فوجد ليوبا وحدها . وبمجرد أن دخلت الغرفة لاحظ أنها اما متوعكة ، أو مشغولة البال بأمر ما ، فقد كانت عيناها محمرتين ، وحولهما دوائر داكنة .

وقالت مجيبة بابتسامة خفيفة ، وهي تشد سألها الصوفى حول كتفيها :

- يسرنى أنك جئت . لقد كنت أشعر بوحشة ، ولم أكن أحس برغبة فى الذهاب الى أى مكان . أتشرب شايا ؟

- أجل . ولكن . . ماذا ؟ ألا تشعيرين بصحة جيدة ؟

وقالت وكأنما تتجاهل سؤاله :

- تفضل فى غرفة الطعام . سأخبرهم بايقاد غلاية الشاي .  
ودخل فوما الى غرفة ضيقة لها نافذتان تطلان على حديقة أمامية . وكان بين النافذتين مائدة بيضية حولها كراسى من ( الدقة ) القديمة منجدة بالجلد ، وعلى الحائط ساعة قديمة فى صندوق زجاجى طويل ، وفى أحد أركان الغرفة دولا ب صينى مملوء بالأدوات الفضية .

وسألته وهي تدخل الغرفة :

- أعائد من الحفلة ؟

فأجابها فوما بايماة

وعادت فسألته بأسلوب عال :

- حسن .. وكيف كانت ؟

فأجابها بضحكة خفيفة :

- شنيعة ! لقد كنت أجلس هناك على أحر من الجمر ، بل على أشد من وخز الابر . لقد كانوا جميعا أشبه بالطواويس ، أما أنا .. فكنت بالبومة أشبه .

ولم تعلق ليوبا بكلمة .. بل كانت ماضية في اعداد أدوات الشاي . ولما لاحظ أنها تنظر الى وجهه المكتئب راح يسألها :

- ما الذى يجعلك تبدين كئيبه منقبضة هكذا ؟

وخطت منه خطوة مغرية ثم أخذت تقول له فى ألم وانسراح معا :

- آه يا فوما لو علمت أى كتاب فرغت من قراءته الآن فقط ! وآه لو كنت تستطيع أن تفهمه !؟

وضحك فوما ثم قال :

- انه يكون ولا بد كتابا عجيبا ما دام قد راقك الى هذا الحد !

- لقد ظللت طول الليل أقرؤه .. ولم يغمض لى طرف لحظة واحدة . وأنت اذا قدر لك أن تقرأ كهذا فكأنما تتفتح لك أبواب عالم جديد لم يكن لك به عهد من قبل .. ان الناس فى هذا الكتاب يختلفون عنا ، وما يقولونه مختلف عما نقول .. كل ما فيه مختلف .. كل ما فيه .. الحياة نفسها مختلفة .



وأجابها فوما فى لهجة المنكر المستهزىء :

- اننى لا أحب مثل هذا الهراء . . انهم يزخرفون أمثال هذه الكتب ليتغفلوكم بها . . . وشأنهم فى هذا شأنهم فى المسرح، حيث يظهرون التجار كشرذمة من الحمقى والمغفلين ، فهل هم حقيقة من الغباوة بهذا الحد الذى يظهرونهم فيه ؟ كلا بالطبع . . . واليك بالدك مثلاً !

وتجيبه ليوبا متحدية :

- ان المسرح لا يقل عن كونه مدرسة يا فوما . . . وكم من التجار من هم كما صورهم المسرح . وكيف يمكن أن يتغفلك الكتاب ؟  
- كما تفعل بنا الاساطير . . وليس منها ما هو صحيح .

- أنت مخطيء . وأنت لم تقرأ كتابا ما ، فكيف يمكن أن تحكم هذا الحكم عليها ، بالعكس فالكتب هى الشئ الصحيح . انها تعلم الناس كيف ينبغى لهم أن يعيشوا .

وقال فوما وهو يلوح بيده مستهزئاً :

- يا سلام ! لتسقط كتبكم ! انها لا يمكن أن تعلمكم شيئاً . . . واليك والدك . . انه لم يقرأ كتاباً طوال حياته . . ولكن أنظرى كم هو شخص ماهر . . . لقد كنت أحسنه وأنا أنظر اليه فى الحفلة اليوم . . . ما كان أرشق أسلوبه فى لقاء الناس ! انه دائماً يعرف ما ينبغى أن يقال . وما ينبغى أن يفعل . . . وأينما حل فكأنه فى بيته . . . ورأى الناس فيه جميعاً أنه رجل لا يعجز عن الوصول الى ما يريد .

وتعترض ليوبا قائلة :

- ولكن ماذا يريد ؟ لا شئ . الا المال . . ان من الناس من يريدون السعادة - السعادة لكل من فى الدنيا ، ومن أجل هذا تراهم

يرغبون فى العمل ، وفى المقاساة ، بل فى التضحية بأنفسهم اذا لزم الامر . فهل تستطيع أن تقارن بين أبى وبين هؤلاء ؟

- وفيهم المقارنة ؟ ان أباك يرغب فى شىء ، وهم يرغبون فى أشياء أخرى .

- انهم لا يحبون أى شىء !

- ماذا تعنين ؟

- انهم يريدون تغيير كل شىء !

ويجبها فوما مدركا ما تعنيه تماما !

- لا بد أن يكون لهم غرض وراء هذا ، ولا شك فى أن لهم هدفا يسعون اليه .

وتعيد ليوبا ما سبق أن قالته فى عنف واصرار :

- السعادة لكل انسان .

ويهز فوما يده هو أيضا ويقول :

- هذا ما لا أستطيع أن أهضمه . من ذا الذى يعنيه أمرى سعدت أو شقيت ؟ فضلا عن هذا ، كيف يستطيعون معرفة ما يجعلنى سعيدا ، اذا كنت أنا لا أستطيع معرفة ذلك - لكن - كان يجب أن ترى الى هؤلاء الآخرين . . . أولئك الناس الذين كانوا فى الحفلة اليوم !

وتقول ليوبا مستهزئة :

- هؤلاء ليسوا ناسا

- أنا لا أعرف ماذا يمكنك أن تسميهم ، ولكن الواضح أنهم يعرفون مركزهم فى الحياة . . . انهم قوم يفيضون حيوية ونشاطا وثقة بأنفسهم

وتجيبه ليوبا متعجبة وكأنما أدركتها خيبة الرجاء :

- أوه فوما ٠٠ انك لا تفهم شيئاً ٠٠٠ وكل شيء لديك سواء ،  
انك كسول كسلا شنيعاً !

- وهكذا تعودين الى رأيك القديم من جديد ! فأنت لا تزالين  
تقرين أننى لا خبرة لى بأمور هذه الحياة ، لأننى لم أتمرس بها بعد !

وهنا تقول له ليوبا مؤمنة :

- انك لا تزيد على أن تكون انسانا ذا رأس فارغ !

ويحتج فوما بأسلوب هادئ :

- وكيف تعرفين ماذا فى رأسى ؟

وتهز كتفيها وهى تقول له :

- انك ليس لديك ما تفكر فيه .

- بل لدى ما أفكر فيه . اننى أعيش فى هذه الحياة وحدى لشيء  
واحد ، وكان لا بد أن أعيش لشيء آخر . وأنا لا يمكن أن أظل  
عائشاً بالحالة التى أعيش فيها الآن . وأنا أعرف هذا معرفة تامة  
٠٠ اننى لا أريد أن أكون أضحوكة يتلهى الناس بها . وأنا لا أعرف  
كيف أتحدث الى الناس ، بل لا أعرف كيف أفكر .

وتجيبه ليوبا وهى تمشى فى الغرفة :

- فيجب أن تقرأ ، ويجب أن تدرس .

ويقول لها فوما دون أن ينظر اليها ، وكأنما كان يتحدث الى  
نفسه :

- ان ثم شيئاً يضطرب فى أعماق نفسى ، لكننى لست أفهم  
ما هو . . . وأحسب أن ما يتحدث به والدك الى شيء معقول ، الا أنه

لا يرضيني الى حد ما ٠٠٠ وأشعر أن أولئك الآخرين أطف منه  
وأظرف .

- تعنى أولئك الارستقراطيين !

- أجل

وتختلج شفتنا ليوبا ، ويبدو عليهما الاشمئزاز ، وتقول :

- اذن ٠٠ فأنت من ذلك الصنف نفسه ٠٠ منهم ! يا للعار !  
كيف تسمى هؤلاء ناسا ؟ أتحسب أن لهم قلوبا يحسون بها !

- وماذا تعرفين عنهم ؟ انك لم تجلسي الى أحد منهم قط !

- لقد قرأت عنهم .

وقطع عليهما حديثهما مجيء الخادمة ومعها الفلاية . وشرعت.  
ليوبا فى عمل الشاى دون أن تنطق بكلمة . وكان فوما وهو يلاحظها  
متجها بأفكاره كلها نحو صوفيا بافلوفنا . متمنيا لو كان فى قدرته .  
أن يتحدث اليها .

وحيثما فرغت ليوبا من عمل الشاى ، انطلقت تقول فى استغراق .  
وتأمل :

- انى لا يكاد يمر على يوم حتى يتضح لى أن الحياة شىء شاق .  
مرير . فأنا مثلاً ٠٠ ماذا يكون من أمرى ؟ أتزوج ؟! ومن ؟!  
تاجرا يقضى وقته كله فى سرقة الناس ، وفى السكر ، وفى لعب .  
الورق ؟ كلا ٠٠ ان هذا لن يكون أبدا ! - انى أريد أن أكون  
شخصية ! - وأنا بالفعل شخصية ، ولو لسبب واحد ، وهو أنى  
أدرك مدى ما فى الحياة من بشاعة وشناعة . هل أصل دراستى ؟  
كانهم يحسبون أن أبى سيسمح لى بذلك ! هل أهرب ؟ لست أجد  
الشجاعة ! فليت شعرى ، ماذا على أن أفعل ؟

تم قبضت باحدى يديها على الاخرى بحالة عصبية ، ونكست  
رأسها

- آه لو عرفت مقدار ما أمقت هؤلاء الناس وأزدرهم ! انك  
لا تجد فيهم واحدا .. واحدا فحسب .. فيه أثارة من الحياة .  
لقد طرد أبى من هنا كل مخلوق بعد وفاة والدنى ... وسافرت جميع  
صديقاتى لمواصلة الدرس - ومن هؤلاء أعزهن جميعا على نفسى ..  
صديقتى ليلى ، التى لا تنى تكتب الى ، توصينى بقراءة الكتب .  
ولكن .. هأنذا أقرأ ، وأقرأ ، ولا أنقطع عن القراءة .

وانشأت ليوبا تزفر زفرات يائسة ، ثم عادت تقول بعد قليل :

- ان الكتب لا تبتك بما تهفو، نفسك الى معرفته ... وأنا  
نفسى لا أفهم الكثير مما تقدمه لنا .. ثم انه مما يبعث الملل فى  
النفس ألا تفعل شيئا الا أن تقرأ وأنت وحدك ولا سمير لك . انى  
فى حاجة الى سمير أتحدث اليه ويتحدث الى .. ولكن .. أين هو ؟  
لا أحد ! لشد ما مللت هذه الحياة ! ان الانسان لا يحيا الا حياة  
واحدة .. ولقد بدأت زهرة حياتى منذ حين ، الا أن الرجل الملائم  
لما يأت بعد . فما يا ترى هذا الهدف الذى أعمش من أجله ؟ ..  
لعمري ان هذه الحياة التى أحيها سجن .. سجن !

وكان فوما يحدق بعينيه فى أصابعه وهو ينصت اليها . لقد  
كان يلمس بلواها .. الا أنه لم يكن يدرك من أمرها شيئا . ولم  
يفتح الله عليه بشئ يقوله لها ، بعد أن فرغت من كلامها ، والتعاسة  
تكاد تسحقها ، الا أن قال لها فى لهجة أشبه بالتأنيب :

- أرايت ؟ انك أنت نفسك تعترفين بأن الكتب لا تستطيع أن  
تمدك بشئ من المعونة ، ومع ذلك ، فأنت لا تنفكين توصينى  
بقراءتها ..

ولم تملك ليوبا الا أن ترمقه بنظرة سُزراء ، والغضب ينقدح من عينيها :

— آه لو كان فى وسعك أن تتذوق شيئاً من الآلام التى أعانيها  
٠٠٠ وآه لو كان قد كتب عليك أن تسهر الليالى ، كما أسهر ،  
يضنيك الفكر ، ويؤرق عينيك شغل البال ! وآه لو كنت منلى  
تتقزز من كل شيء ، كما أتقزز ، وتغشى من كل شيء ، حتى من  
نفسك ! يا لله ! لشد ما أمقتكم جميعاً ! بل لشد ما أمقتك !

لقد كان وجهها يلتهب من الغضب ، وكانت نظراتها اليه مملوءة  
بالحقد ، وكلماتها له فياضة بالضغينة، حتى لقد ذهل ذهولاً شديداً،  
وسقط فى يديه فلم يدر ماذا يصنع ، بالرغم مما قدمت اليه من  
اساءة . لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تكلمه فيها ليوبا بهذه  
الطريقة .

وسألها فوما واجما :

— ماذا ؟ ما الذى جرى لك ؟

، وردت عليه وهى تزوم بغل :

— أجل . . أنا أمقتك . . أمقتك أنت بالذات . . أنت ؟ من  
أنت ؟ ومن عسى أن تكون ؟ شخص خرع لا يعرف شيئاً فى الوجود !  
ما الدور الذى سوف تؤديه فى هذه الحياة ؟ وماذا فى وسعك أن  
تقدم من خير للآخرين ؟

وأجابها فوما وهو يتعمد اغاظتها ، وتأجيج نيران غضبها :

— اننى لن أقدم اليهم شيئاً . . ولماذا لا يحصلون على ما يحتاجون  
اليه بأنفسهم ؟

لقد كان استذناؤها له من القوة والشدة بحيث لم يسعه الا أن  
يستمع اليها ، فتقدم بكرسيه خطوة منها ، لكنها نفرت وابتعدت

عنه محنقة مغضبة ، ورفضت أن تقول كلمة أخرى .

وكانت الدنيا لا تزال نورا في الخارج ، وكانت أشعة شمس الاصيل تنعكس على أفنان أشجار الزيزفون القريبة من النافذة ، الا أن الغرفة كانت معتمة مع ذلك . وكان بندول الساعة النحاسي الاغْبش ربما تبدى في كل ثانية من خلال زجاج صندوقه وهو يجيء ويروح في دقات ضعيفة وانية . وعندئذ وقفت ليوبا لتضئ اللمبة المعلقة في السقف أعلى المنضدة ، وكان وجهها يبدو شاحبا ممتعا في وهج النور المفاجيء .

وقال لها فوما وهو يكبح جماح نفسه :

- لقد وجهت الى حملة من التعنيف الشديد ، ولكنى لست أدري لماذا !

فأجابته ليوبا وهى تتعمد المشاكسة :

- لا أريد أن أكلمك !

- لك هذا . . . ولكنى ما زلت أسألك ماذا فعلت ؟

- ألا تستطيع أن تلاحظ أنني أكاد أغص بريقى ؟ أكاد أختنق ! أى حياة هذه الحياة التى أحيهاها ! من أنا ؟ ان أبى رجل عاجز يعتمد فى الحياة على غيره ، وهو يحتفظ بى لا باشر له شئون المنزل . . . . فإذا انتهى ذلك الدور من حياتى ، بدأ الدور الثانى وذلك حينما أتزوج . . . . ومن ثم يكون واجبى أن أرعى شئون منزل آخر .

- ولكن . . . ما شأنى وهذا كله ؟

- انك لست أفضل من هؤلاء جميعا

- ولكن . . . أى شىء تأخذينه على ؟

- انك يجب أن ترغب فى أن تكون أحسن مما أنت الآن

- ولكنى أرغب فى ذلك وأتمناه .

وكانت على وشك أن ترد عليه لولا رنين جرس الباب ...  
فارتمت فوق كرسيها وهى تقول عندما لمحت والدها :

- ابنى

وقال فوما :

- لم يكن ظريفا مجيئه سريعا هكذا .. فلقد كنت أود أن أسمع  
ما عسى أن تقولى أكثر مما قلت .. بل كنت أتلهف الى ذلك .

وراح ماياكين يقول بمجرد ظهوره فى الغرفة :

- آه يا طفلى العزيزين ... أيها القمريان الحبيبان ! أتشربان  
الشاى ؟ أفرغى لى كوبا يا ليوبا .

وجلس الى جوار فوما وهو يدعك يديه ، ويبتسم مبتهجا

وتساءل وهو يرسل بزغدة ظريفة الى أضلاع فوما :

- وفيم كنتما تهدلان يا ترى !

وأسرعت ليوبا تقول :

- فى لا شىء على الاطلاق .

وقال لها أبوها وهو يلوى بوزه :

- أنا لا أسألك ... فألجمى لسانك ، وعليك بشئون الستات  
فقط ! و ...

وقاطعه فوما بقوله :

- لقد كنت أحدثها عن المأدبة ، عن الحفلة ...



- عال عال ٠٠ والآن جاء دورى فى الكلام عن المأدبة ٠٠٠ لقد كنت لا أنقل عينى عنك يا فوما ٠٠٠ ولا مفر لى من أن أقول لك انك لم تكن تدرى كيف تتصرف وعبس فوما وهو يقول :

- أتظن ذلك ؟

- أجل ٠٠ أظن هذا ٠٠٠ انك لم تكن تدرى كيف يسلك الناس فى هذه المناسبات ، فمثلا ٠٠ لقد كلمك المحافظ ، لكنك لم ترد عليه بكلمة .

- وماذا كان على أن أقول له ؟ لقد قال ان فقد الانسان أباه كارتة ٠٠٠ وهذا شىء لم أكن أجهله ، فماذا كان فى وسعى أن أقول ؟

- كان فى وسعك أن تقول : ما دام الله سبحانه قد أراد أن يصيبنا بهذا يا صاحب السعادة ، فنحن لا نملك الا التسليم بما أراد الله ! ٠٠ أو شيئاً من هذا القبيل . ان الحكام يحبون من يحتمل الامور فى صمت يا بنى !

وضحك فوما ثم قال :

- وهل كان الواجب يقتضىنى أن أنظر اليه كما تنظر النعجة ؟

- لقد كانت نظراتك كنظرات النعجة بما فيه الكفاية ٠٠ وهذا هو ما يجب ألا تكون . والواجب أن تكون لا نعجة ولا ذئبا ٠٠ ولكن ٠٠ بين بين ٠٠٠ فمرة هذه ٠٠ ومرة ذلك - فكنت تقول له مثلا ! انك والدنا العزيز يا صاحب السعادة ، ونحن أبناؤك الأعمزة ٠٠٠ وكان هذا يكسبك عطفه التام قبل أن تظن أنت الى ذلك .

- وما قيمة أن يعطف على ؟

- قد ينفك هذا فى حينه يا بنى . . . انك تستطيع أن تنتفع على  
الدوام بصلمتك بالحكام يا فوما .  
وهنا تقول ليوبا مشبذة :

- ماذا تحاول أن تجعل منه يا بابا ؟  
- وماذا تظنين أنت ؟  
- متزلف !

- غلط أيتها العلامة الحماء . . . بل هى السياسة والدبلوماسية  
التي أعلمه ايها . . . وليس التزلف . . . الدبلوماسية التي تعلم  
الانسان كيف يظفر فى هذه الحياة . ولكن . . . اسمعى . . . الا فضل  
أن تتركينا . . . هلمى . . . اغربى عن وجهى أيتها الشيطانة . . .  
وأعدى لنا شيئاً نأكله . . . هيا . . . هيا . . .

ونهدت ليوبا مسرعة ، وألقت الفوطه التي كانت فى يدها على  
مسند أحد الكراسى ، ثم خرجت ، وكان أبوها يوارب عينيه ، وينفر  
على المنضدة ، وهو يتبعها بعينه.

- وعلى هذا يا فوما ، فلسوف ألقنك درساً . . . انى سأعلمك  
علم الفلسفة الحق المتوقع به ، وأنت اذا تفهمته فلسوف تشق  
طريقك فى الحياة دون أن تقع فى أى خطأ

ورفع فوما عينيه ليرى الأسارير التي تلعب بحركة عجيبة فوق  
جبين اشبينه ، والتي كانت تذكره بسطور من الكتابة السلافية

- فأول ما يجب عليك معرفته يا فوما ، أنه لا بد لك ، اذا قدر لك  
العيش فى هذه الحياة ، أن تكون لك فكرة عن كل ما يدور حولك من  
أمورها . لماذا ؟ لكيلا يترتب على جهلك بهذه الامور ما يسوءك ،  
وما قد يسوء غيرك أيضا . ثم يجب أن تعلم بعد هذا أن كل شيء  
يفعله الانسان له ناحيتان . ناحيته الخارجية التي تقع عليها عيون

الناس ، وهى الناحية الزائفة التى لا قيمة لها ، ثم الناحية الداخلية-  
المسنرة التى لا تراها الأعين ٠٠٠ وهذه هى الناحية الحقيقية .  
وهذه هى الناحية الهامة التى يجب أن تعنى بها اذا أردت أن تقف  
على حقائق الأنبياء . ولنضرب مثالا لذلك بهذه الملاجىء ، والمنشآت  
العملية وغيرها وغيرها من المؤسسات الخيرية ٠٠٠ هل يمكنك أن  
تعجز لماذا أقيمت ؟

ويجيبه فوما فى فتور :

- ولماذا أحزر ؟ ان كل انسان يعرف لماذا أنشئت ٠٠ ألم تنشأ.  
للفقراء والعجزة ؟

- آه يا صديقى ! يحدث أحيانا أن يعرف الناس أن فلانا وغد-  
خسيس ، ومع ذلك لا ينادونه الا بحضرة السيد المحترم ، بدلا من  
مناداته بما يستحق من ألقاب التحقير ؟  
- لست أدري ماذا تقصد ؟

- أقصد هذا بالذات ٠٠ فأنت تقول ان هذه الملاجىء والمنشآت  
للفقراء والمشردين والشحاذين - وبعبارة أخرى لتنفيذ تعليمات-  
المسيح ٠٠٠ حسن جدا ٠٠٠ وأنا أسألك عن الشحاذين من هم ،  
وما هم ؟ ان الشحاذ هو ذلك الرجل الذى هدفه من الحياة هو أنه  
بذكرنا بالسيد المسيح - انه حبيب المسيح ٠٠ انه هذا الجرس  
الذى لا تفتأ السموات تصلصل به لكى توظف ضمائرنا ٠٠ لكى  
تحرك ما خمد من لحمنا الشبعان البشم ٠٠٠ انه يقف تحت نوافذنا  
ولا ينفك يصيح : « لقمه لله يا أسيادى ! » وهذه الصيحة تذكرنا  
بالله فعلا ، وبالطريقة التى علمنا بها كيف يساعد أحدنا أخاه . الا  
أن الناس قد نظموا الحياة بطريقة أصبح من المستحيل عليهم بمقتضاها  
أن يتبعوا تعاليم الله ٠٠٠ وبهذا لم يعد ثم متسع لهذه التعاليم فى  
حياتنا التى نحياها وفقا للمنوال الذى رسمناه . اننا لم نصلبه

المسيح مرة واحدة فحسب ، بل لقد صلبناه مئات الآلاف من المرات  
٠٠ ومع هذا فنحن لا نستطيع التخلص منه طالما أحبأوه ، هؤلاء  
الشحاذون ، لا ينفكون يجوبون الشوارع ، هاتفين باسمه ،  
ليذكرونا به ٠٠٠ تم اهتدينا آخر الأمر الى وسيلة طيبة تخلصنا من  
هذا الكرب ٠٠٠ لقد قر رأينا على أن نحشد هؤلاء الشحاذين في دور  
خاصة ، تمنعهم من الضرب فى الشوارع ، وايفاظ ضمائرنا .  
وما كاد فوما يسمع ذلك حتى قال للرجل وهو يحدق فيه  
عينية :

- فكرة عظيمة !

ويجيبه ماياكين وقد زوى ما بين عينيه الصغيرتين ، وبريق الانتصار  
يلمع فيهما :

- هل فهمت !

ويسأله فوما وقد بدا عليه القلق :

- وكيف غاب هذا عن والدى ؟

- ولكن ٠٠ صبرك ! دعنى أكمل حديثى - فالأتى منه أدهى  
وأمر ٠ لقد فكرنا فى مشروعات مختلفة من المنتسآت نقيمها لهم  
لنسجنهم فيها ٠٠٠ حتى اذا حشدناهم ثم جئنا لهم بأعمال  
يقومون بها ٠٠٠ هؤلاء العجزة الطاعنون فى السن ٠٠٠ العميان  
الصم ٠ المقعدون ٠٠٠ وفعلنا ذلك لكى ينتجوا أشياء تدر ربحا يعوضنا  
مما نفق فى سبيل المحافظة عليهم ٠٠٠ وبهذا لم يعد ثم مجال  
لإعطائهم زكاة وصدقات ، من يوم أن نظفنا من أسماهم الطرقات ،  
ومن هنا لم تعد أنظارنا تقع على مشاهد بؤسهم وتعاستهم ٠٠٠  
وأصبح يبدو لنا أن الناس فى أطراف الدنيا جميعا يلبسون النعال  
ويقتنون الملابس ويطعمون ويشربون بما فيه الكفاية ٠ فهذا اذن هو  
ما أقيمت تلك المنشآت من أجله - لحجب الحقائق عن الأنظار !  
لابعاد السيد المسيح من حياتنا ٠٠٠ فهل رأيت ؟

ويجيبه فوما مأخوذاً مبهوتا من طريقة اشبينه البارعة في سوق  
الحجج :

ن ٠٠٠ ع ٠٠٠ م !

ويسارع ماياكين بقوله ، وهو يلوح بيديه في الهواء :

— وليس هذا هو كل ما هنالك . اننا لم ننزح كل ما في الغدير  
من ماء بعد .

لقد كانت أسارير جبينه ترتجف ، وكان أنفه الطويل الذي ينسبه  
منقار الصقر ينتفض ويختلج ، وصوته مشوبا بفرحة جبينة :

— ولننظر الآن الى المسألة من وجهة أخرى . فمن الذين يسهمون  
أكثر من غيرهم في اقامة هذه الدور والملاجئ وسائر المنشآت الخيرية  
الأخرى ؟ الأغنياء بالطبع . . أعنى التجار . . . حسن جدا . .  
ومن الذى يصدر الأوامر ويقرر ما يجب أن يتبع في التنفيذ ؟ لسنا  
نحن طبعا ! بل هم . . الذوات ، وأولاد الأعيان ، وموظفو الحكومة  
ومن اليهم . . . انهم ، أولئك الذين يقنون القوانين ويؤسسون  
الصحف ويصنعون العلم ! انهم هؤلاء الذين كانوا يملكون الاراضى  
يوما ما . . . فلما اهتزت الاراضى تحت أقدامهم ، ثم طارت منهم ،  
اضطروا الى التوظف . . . ولكن . . . من أقوى طبقة فى الشعب  
اليوم ؟ أليس التجار هم القوة الحقيقية الفعالة فى البلاد الآن ،  
لأنهم يملكون الملايين ؟ أليس الأمر كذلك ؟

ورد فوما بالايجاب ، وهو أشد ما يكون شوقا الى النتيجة التى  
كانت قد بدت تباشيرها فى عيني ماياكين بالفعل .

ومضى الرجل يقول بلهجة المطمئن الواثق :

— اذن فاستمع لما أقول ، وحاول أن تفهمه جيدا . اننا نحن  
التجار لسنا الذين جعلنا الحياة ما هى عليه الآن . . ونحن الى هذه

الأيام لم يكن لنا رأى فى تكييفها ٠٠٠ ولم يكن فى مقدورنا أن ندخل فى تدبير أمورها بصغيرة أو كبيرة ٠٠٠ انهم هم هؤلاء الآخرون الذين جعلوا الحياة ما هى الآن ٠ انهم هم الذين خلقوا هذه الطبقة من الشحاذين والعجزة والمقعدين ومن لا يصلحون لشيء ٠ انهم هم الذين لطخوا الحياة بهذا القدر ٠٠٠ واذا حق للعدالة أن تأخذ مجراها ، فالواجب يقتضى أن يتولوا هم تنظيفها ٠٠٠ ومع هذا فنحن الذين نتولى عملية التنظيف ٠٠٠ نحن الذين نتبرع بالمال للفقراء ، ونحن الذين نتولاهم بالرعاية ٠ وما الداعى الى ذلك ؟ ما الداعى الذى يلزمنا أن نرفع ثياب غيرنا ، ما دمنا لم تكن نحن الذين مزقناها ٠ ما الداعى الذى يلزمنا ترميم بيت غيرنا ما دمنا لا نعيش فيه ؟ أليس من الأسلم ، والأحكم أن نقف جانبا فى الوقت الحاضر ، لنشاهد الحشرات والهومام تجتاح غيرنا من هؤلاء السادة ، والعلية الأعيان ؟ انهم لا شك سيعجزون عن مدافعتها ، لأنهم لا يملكون وسائل المدافعة ، وعند ذلك سيهرعون الينا ويسألوننا العون ، قائلين لنا متوسلين : « نضرع اليكم بعامل الرأفة أن تخفوا لنجدتنا » تم نجيبهم نحن : « اذن فاتركوا لنا الحرية فى تنظيم الأمور واقامتها بحسب ما نراه موافقا ٠ اتركوا لنا الفرصة لنقول كيف يجب أن تنظم الحياة » وبمجرد أن يعطونا هذه الفرصة ، فلسوف نتخلص من القدر ومن الهوام فى غمضة عين ، وسيرى صاحب الملاله القيصر بملء عينيه من رعاياه المخلصون ، وما كانوا ينظرون عليه من الحكمة والسداد وهم منزوون لا يقدررون على شيء ! فهل رأيت ؟ »

وقال فوما متعجبا :

... هذا شيء لا تصعب رؤيته !

وحیما كان ما ياكين يتحدث عن الموظفين تراءت لعينى فوما وليمة الحفلة بمن حولها من تلك الوجود ، ولا سيما وجه ذلك السكرتير

النشيط البحبوح ! ثم خطر لفوما أن هذا السكرتير، الكرة، العجيب الشكل ربما لا يزيد إيراده في العام عن ألف روبل ، على حين إيراد فوما يزيد على ألف ألف ٠٠٠ ومع ذلك فالسكرتير يشعر بالسعادة وببهجة الحياة في حين يشعر فوما على الدوام بالضيق والقلق وغربة النفس . وقد ضاعف هذا التباين بين حالته وحالة السكرتير مما حدثه عنه ما ياكين منذ لحظة ، وأثار عاصفة من الأفكار في رأسه ، الا أنه لم ينجح الا في الامساك بفكرة واحدة منها وصياغتها في السؤال التالي :

- قل لي ٠٠ ولنتترك كل هذا اللف والدوران ٠٠ هل نحن لا نعمل في هذه الحياة الا للحصول على المال ؟ وما فائدة المال اذا لم يمنحك القوة والسلطان ؟

ولم يزد الرجل على أن قال متعجبا : - آها ! ٠٠ وهو يزم أجفان عينيه ٠٠٠ وعاد فوما يسأله :

- وكيف لم يفظن والدى الى ذلك ؟ هل نهته اليه ؟

- لقد ظللت عشرين عاما أنبهه الى ذلك

- وماذا كان رأيه ؟

- كان كلامي يذهب أدراج الرياح دائما ٠٠ لقد كان مخه ثخيناً : سيدك الوالد عليه رحمة الله ! لقد كان رجلاً رقيق القلب فياض المشاعر ٠٠٠ أما عقله ٠٠ فقد كان كأنه في بئر من شدة عمقه ! هم ! لقد أندب في هذه الغلظة الفاحشة ، ووا أسفاه على تلك النقود ! - أنا لا يهمنى خسارة النقود !

- طبعاً ٠٠ ولكن حاول أولاً أن تبيع عشر هذا المبلغ ، ثم تعال فحدثني : هل كان هذا المبلغ يهكم أو لا يهكم .

وهنا يسمع صوت ليوبا وهي بالبواب :

— هل أدخل ؟

ويأذن لها أبوها ، فتدخل وتقول :

— هل أنتما على استعداد لتناول العشاء ؟

ويقول لها أبوها : — هيا .. أعديه

وتذهب الى دولاب الفضية ، وتشرع فى تنظيم الاطباق ، على حين  
كان أبوها يمضغ شفثيه وهو ينظر اليها ، ثم اذا هو يضرب فوما  
فحجاة فوق ركبتيه ويقول :

— فهذا هو الموضوع يا بنى العزيز ، فتدبره ، وفكر فيه جيدا .  
ويجيب فوما بابتسامة ، ثم يتحدث الى نفسه قائلا :

— يا له من رجل ذكى حاذق .. أذكى مما كان والدى نفسه !

ثم اذا صوت آخر فى أعماقه يقول :

— أذكى .. ربما .. ولكن والدى كان أحسن وأطيب قلبا !





## الفصل الخامس

ه واستمر فوما على هذا الاتجاه المزدوج نحو اشبينه ٠٠٠ فكان يصغى اليه بمنتهى الاهتمام وفي تشوف شديد وهو يشرح آراءه ، الا أنه كان يزداد له بغضا وكراهية . وكان ماياكين يثير في نفسه احساسا أقرب الى أن يكون خوفا ، بل أقرب الى أن يكون اشمئزا مادبا . وكان هذا يحدث عادة حينما يقع شيء يسر الرجل ويجعله يضحك ، فكانت أساريه تتراقص ، محدثة تغييرا مستمرا في تعبيرات وجهه ، وكانت شفتاه النحيلتان الجافتان تبرزان الى الامام فتتحولان الى تكشيرة تنفرج عن أسنانه اللطخة بالسواد ، وكانت لحيته الحمراء تتوهج كما يتوهج اللهب ، وكان صوت ضحكه أشبه باحتكاك مفاصل باب علاها الصدا ! وكان فوما يعجز أحيانا عن ضبط مشاعر الكراهية له ، فتراه يشتمد عليه ويخاشنه . . الا أن الرجل العجوز الداهية يتجاهل غلظة الشاب ، ويظل يتابع بنظراته جميع حركاته . . بل كان يهمل دكانه ، ويكرس جميع وقته لاشغال فوما جوردييف الملاحية ، ومن ثم فقد كان فوما يجد متسعا من الوقت يقضيه بعيدا عن متاعب العمل . وقد ازدهرت أعمال فوما أيما ازدهار بفضل نفوذ ماياكين ومركزه في المدينة ، وصلاته الكبيرة في جميع أطراف اقليم الفولجا . ولكن هذه الغيرة التي كان يبديها ماياكين في ذلك كله قوت اعتقاد فوما في أن مضبدها هو ما يقصده ما ياكين من تزويجه ابنته ليوبا ، وكان هذا الشعور يزيده كراهية له . . أشد الكراهية .

لقد كان مغرما بليوبا حقا ، الا أنه كان يعدها خطرا أى خطر . وكانت لا تزال بنتا لم تتزوج بعد ، الا أن أباهما لم يكن يبدي رغبة فى تزويجها ، ولم يكن يقيم الحفلات بيتغى بها اظهارها ، بل له يكن يدعو الشباب لزيارته ، ولم يكن يسمح لها بالخروج من المنزل . ولقد تزوج جميع أترابها . وقد ذهل فوما لما كانت تقول لسيوبا ، الا أنه كان يصغى اليها بالاهتمام الذى كان يصغى با الى أبيها . لقد كانت تتحدث عن أخيها تاراس بلهجة حبيبة وفي شوق زائد ، حتى لقد كان فوما يحسب أنها تتخذ من اسم أخيها ستارا لشخص آخر ، لعله ييزهوف ، ذلك الشاب الذى كانت قد حدثته يوما أنه اضطر الى ترك الجامعة ، والى مغادرة موسسكو لسبب من الأسباب . ولقد كانت ليوبا على قدر كبير من السنداجا والرفاة مما كان موضع تقدير فوما . وكان ما تقوله له يثير في عاطفة الرثاء لها والعطف عليها فى كثير من الأحيان وكان يخيل اليها أنها تقع فيما يشبه الغيبوبة وهى تنفض اليه بذات نفسها .

ولقد انتشرت أنباء ما صدر من فوما فى وليمة جناز أبيه بسرعة البرق بين طبقة التجار ، وقد نال ذلك من سمعته مما عاد عليها بأذى كبير . وكان يلاحظ أن زملاءه فى البورصة ينظرون اليه بشيء من الامتعاض ، واذا كلموه كلموه بلهجة خاصة . . . وقد سمع أحدهم مرة يقول دبر ظهره ، وبصوت مرتفع فيه غطرسة واستهزاء : « هذا اللوح المخنت ! » ولم يلتفت ليرى من قائل هذه العبارة ، لكنه لم يعد يعجب بأحد من هؤلاء الاغنياء بعد ذلك قط ، وهم الذين كان يرتحف قبل ذلك اذا كان فى حضرتهم . لطالما كانوا يلقفون الاذون الرابحة من بين يديه . . . ولم يغب عنه أنهم لا يتورعون عن عمل ذلك فى المستقبل ، فهمم الوحيد هو الحصول على الارباح ، والحصول عليها بشراهة ، وقد كاتوا دائما ، فى سبيل المال ، على استعداد تام لغش بعضهم بعضا ، وفى أى وقت . وعندما أخبر اشبينه برأيه هذا فيهم قال له :

- وماذا تنتظر منهم غير هذا ؟ ان التجارة مثل الحرب ، عمل كله مغامرة • فهم يقتتلون فى سبيل الأرباح ••• وأرباحهم هى أناجيلهم •

وقال فوما :

- انى أمقت التجارة •  
فأجابه الرجل :

- ان فى التجارة أشياء أمقتها أنا أيضا - ومن ذلك الخداع الذى يجاوز الحد • الا أنك لا يمكن أن تكون صريحا ، ومن يلبون على المكشوف اذا كان الأمر متعلقا بالتجارة ••• انك ينبغي أن تكون دبلوماسيا ، فاذا تكلمت مع شخص ما فى شأن من الشؤون التجارية ، وجب عليك أن تحمل نقودك فى احدى يديك ، وسكينك فى اليد الأخرى •

وعلق فوما على ذلك فى تفكير وترو :

- وهذا أيضا شىء لا يليق

- الشىء الذى يليق يأتى فيما بعد ، وذلك عندما تفوز بالغنم فى الصفقة • ان شريعة الحياة يا فوما يا ولدى شىء فى منتهى البساطة : انك ان لم تعض ، فانبطح على الأرض لتطأك أقدام الناس •

وكشر الرجل قليلا فبدت أسنانه المملطخة بالسواد ، وهنا جعل فوما يوسوس الى نفسه :

- أوه ! انك ، ولا بد ، قد عضضت ونهشت بما فيه الكفاية فى حياتك الطويلة !

ثم خاطب صاحب تلك الأسنان فقال :

- أليس ثم طريقة خير من هذه ؟ هل هذه هى الطريقة الوحيدة ؟

- وأى طريقة أخرى يمكن أن تكون هنالك ؟ ان كل انسان يريد

أن ينتفع من حياته على أحسن وجه ! وما معنى أن ينتفع على أحسن

وجه ؟ معنى ذلك السُّبُق فى الحلبه ، والارتفاع أكثر مما يرتفع الآخرون . ان كل انسان يحاول أن ينال مكان الصدارة لنفسه . . . فبعضهم يسلك الى ذلك سبيلا ، ويسلك بعضهم سبيلا آخر ، الا أن كلا منهم يحاول أن يحلق فوق منافسيه كما يحلق البرج الشامخ ، لكى يراه الجميع . . . فهذا هو ما خلق الانسان من أجله . . . أن يسمو الى المكان اللائق به فى الحياة . . . انك تجد ذلك فى سفر أيوب نفسه : « . . . الانسان مولود للمشقة ، كما أن الجوارح لارتفاع الجناح » والأطفال أنفسهم يحاولون أن يبد بعضهم بعضاً فى حلبة ألعابهم ، وكل لعبة يمكن أن تكسب ، وهذا هو الذى يجعلها شيئاً ممتعاً . فهل هذا مفهوم ؟ »

- نعم . . مفهوم

- ولكن الذى أنت فى حاجة اليه هو أن تحس هذا ، فالفهم وحده لا يجديك نفعاً . . انك لا بد أن تريد . . وأن تريد من كل قلبك . . . وحينئذ تصبح الجبال وكأنها تلال قميئة تحت رجلك ، والبحار وكأنها أوشال ضحلة لا عمق لها . . أوه . . اننى عندما كنت فى سنك ، كنت أتقن لعبة الحياة والعمل أيما اتقان . . . أما أنت . . . فهأنت ذا لا تزال تفكر فى كيف تبدأ الحياة ، وقد بلغت من عمرك ما بلغت !

وبالضرب على هذا الوتر يوماً بعد يوم استطاع الرجل الدهيئة أن يصل الى الهدف الذى أراد . . فقد استقر رأى فوما على الغاية التى يعمل لها فى هذه الحياة . . وهو لم ينفك يقول لنفسه : انك لا بد أن تكون خيراً من الآخرين . . ولقد استقرت فى أعماق نفسه بوادر الطمع التى زرعها فيه والده الروحى ماياكين . . استقرت فى أعماقه ، الا أنها لم تملأها تماماً ، لأن صلواته بصوفيا بافلوفنا سارت فى الطريق المقدر لها . . لقد كان منجذباً اليها بصورة لا يمكن مقاومتها ، وكان مشوقاً الى رؤيتها على الدوام ، لكنه كان اذا جلس اليها استولى

عليه الارتباك والحجل واستغلاق الذهن . وكان يعزف هذا في نفسه ويقاسى منه كثيرا . وكان كثير التردد على منزلها ، الا أنه كان لا يجدها وحدها الا نادرا ، وكان الفتيان المتأنفون يحومون حولها كما يحوم الذباب على قطعة من الحلوى . وكانوا يغنون لها ويضاحكونها ويتكلمون معها بالفرنسية ، على حين كان هو يجلس صامتا مبهوتا ، تكاد تشق مرارته الكراهية والحسد . وكان ربما جلس الساعات الطوال في هذه الحالة في أحد أركان صالونها الفخم المؤث بأجمل الاثاث . وكان يشعر بالحذر يدب في قدميه وهو جالس ينظر اليها في هم واكتئاب .

وكانت تلقى نحوه بنظرات وابتسامات رقيقة وهي تتحرك خفيفة رشيقية جيئة وذهابا فوق السجادة الثمينة اللينة بين المعجبين المعطرين الذين كانوا ينسلون من حولها برشاقة انسلال الشعابين ، بين المناضد والكراسى والسواتر الكثيرة والتحف المنتشرة انتشارا فنيا بارعا وان بدت أنها موضوعة وضعا خاليا من العناية ، فيه من الخطر عليها بقدر ما تتعرض له من الخطر من السيد فوما . لقد كان اذا دخل الحجرة لم تقو السجادة على تخفيف صوت خطواته ، وكانت التحف تعلق بمعطفه الرحب فتهسوى من مواضعها على الأرض . وكان بالقرب من البيانو تمثال من البرونز لبحار موشك أن يلقي في البحر بعجلة نجاة محلاة بسلوك رقيقة لا تدرى كيف اشتبكت بشعر فوما ، مما جعل صوفيا بافلوفنا هي وأصدقائها يضحكون ضحكا شديدا ، في حين كان فوما تتناوبه الحرارة والبرودة على التوالي .

ولم يعد فوما يحس بغير القلق كلما جلس هو وصوفيا على انفراد . لقد كانت تحييه بابتسامة رقيقة ، ثم تنطوى على نفسها كالقطة في أحد أركان الأريكة قبل أن تكلمه ، وعندئذ تشرع نحوه عينيها الظليلتين اللتين يشع منهما ذلك البريق الجائع !

همست اليه مرة وهي تمط كلماتها مطا موسيقيا رشيقا :  
- لشد ما أحب أن أتحدث اليك أنت - لقد ضقت ذرعا بجميع  
هؤلاء الاخيرين ٠٠٠ أولئك الاغبياء ، العاديين ، التافهين - أما  
أنت فلا تزال ناضرا غض الاهداب ٠٠ مخلصا طاهر القلب ٠٠ ويبدو  
أنك تضيق بهم مثل ٠٠ هه !

وانطلق فوما يقول :

- انى أمقتهم :

فسألته صوفيا :

- وأنا؟؟

وزوى. فوما وجهه وهو يقول :

- أنت دائما تسأليننى هذا السؤال !

- وهل من الصعب عليك أن تجيب ؟

- ليس صعبا ٠٠ ولكن ٠٠ ما الفائدة ؟

- أريد أن أعرف !

وأجابها فوما مكتتبا :

- أنك تعبتين بى ٠٠ هذا هو كل شيء !

- أعبت بك ؟ ما معنى هذا ؟

وقد سألت سؤالها هذا فى نغمة مندهلة ، وهي تفتح عينيها  
الكبيرتين ، وقد بدت فى وجهها براءة الملائكة ، مما جعله يؤمن  
بإخلاصها . فأجابها بحرارة :

- انى أحبك ، أحبك من صميم قلبى ! وكيف يمكن ألا أحبك !

ثم أردف يقول فى رقة وحزن :

- ولكن هذا لا يعنى شيئا بالنسبة اليك !

وتجيبه صوفيا بافلوفنا مسرورة وهي تبعد عنه قليلا قليلا :

- هانت ذا تقولها مرة أخرى ! انى تذلنى الطريقة التى تقولها

سُبحا • انها دائما تحمل رنة الشباب ! وفيها من الاغراء ما فيها :  
لأتحب أن تقبل يدي !؟

وينحنى فى سرعة البرق ، ويتناول يدها النحيلة الجميلة ، ليطبع  
عليها قبلة طويلة •• طويلة •• تفيض حماسة ، حتى لتنزعهما  
صوفيا آخر الأمر وهى تبتسم ، غير متأثرة بحماسته • ثم جلست  
ترمقه وتحقق فيه كأنه إحدى العجائب ، وعيناها تتألقان بتلك  
الطريقة الخاصة التى كانت تبلبل فوما دائما وتحيره •

وقالت له متعجبة :

— لله ما أوفر قوتك وأتم صحتك وأطهر قلبك ! لماذا كنتم أيها  
التجار طبقة وحدكم ، جيسلا طاهر القلب لم تتلف روحه ، لكم  
تقاليدكم الغذة ، وقواكم الجسمية والروحينة العظيمة ؟ فهأنت ذا  
مثلا •• انك جوهره صافية ! وآه لو أتيج لى أن أجلوك !

وكانت كلما قالت : أنت أو أنتم ، أو أنتم أيها التجار ، أحس  
فوما كأنها تنتقى الالفاظ التى من شأنها أن تباعد بينها وبينه •  
وكان هذا يؤلمه ويحزنه ، ولم يكن يجيب بشيء ، بل يجلس صامتا ،  
ويرقب جسمها النحيل الرقيق الذى هو الى أجسام العذارى أقرب  
منه الى أجسام السيدات •• جسمها النضر كالزهرة الفيحاء ، والذى  
تكسوه بطريقة نادرة وذوق غير عادى • لقد كان فى بعض الأحيان  
يشعر برغبة طاغية عاتية تغريه بأن يتلقفها بين يديه ليطبع على فمها  
قبلة ، الا أن جمالها ورقتها كانا يخيفانه •• ويلقيان فى روعه أن  
هذا العمل ربما ألما ، على حين كان صوتها اللطيف ، ونظراتها  
الصفافية ، الحريضة الحذرة مع ذلك ، كفيلة بأن تكبح جماح عاطفته  
الجياشة الثائرة • لقد كان يخيل اليه أنها تنظر الى أعماق أغوار  
نفسه ، وتقرأ أدق أفكاره • وكانت هذه الفورات العاطفية لا تقع  
الا فى النادر ، اذ كان حبه لصوفيا بافلوفنا حبا أشبه بالعبادة —

كان كل ما فيها يروقه ويشير اعجابه - جمالها ، كلامها ، ملابسها . . .  
ولم تكن عبادته اياها هي كل ما هنالك . . . فقد كان يؤلمه ويجرح  
كبرياءه ما يعلم من وجود هذه الفجوة الكبيرة بينه وبينها . . . لقد  
كانت أرفع منه تفكيراً ، وأوسع أفقاً ، وأقدر في كل شيء !

ثم تطورت العلاقات بينهما بسرعة كبيرة . . . ولم يكدهم يخلو اليها  
مرتين أو ثلاثاً حتى كانت قد استعبدته . استعباداً وأسرت فؤاده  
أسراً تاماً ، ومن ثم بدأ يتعذب عذابه الأليم العظيم . ولم يكن  
خافياً أنها كانت تجده لذة في فرض سلطانها على شاب قوى سليم  
البنية مثل فوما ، وفي إثارة الوحش السابك في صميمه تم  
ترويضه واخضاعه بمجرد كلمة أو نظرة . . . لقد كانت هذه المعاناة  
تلذها لأنها كانت على يقين من سلطانها . . . وحينما كان ينصرف من  
عندها كان يخامرته شيء من توفز الأعصاب ، ويشعر بالسخط  
عليها وبالغضب على نفسه ، الا أنه لم يكن يصبر على لقاءها أكثر من  
يوم أو يومين ، ثم يعود اليها ليتلقى مزيداً من الألم .

قال لها يوماً والحجل آخذ بزمامه :

- صوفيا بافلوفنا . . . ألم تنجبي . . . يوماً ما . . . أطفالاً ؟

كلا !

- هذا هو ما كنت أعتقد .

وقد قال هذا متهللاً جلدان .

وقالت له وهي تنظر اليه كأنه طفل برىء حدث :

- وماذا جعلك تعتقد ذلك ؟ ولماذا أردت أن تعرف هل كنت قد

أنجبت أطفالاً أو لم أنجب ؟

وشاعت حمرة الحجل في وجه فوما وغض عينيه . وغار صوته ،

وأخذ يتكلم وكان كل كلمة تزن قنطاراً ، وكأنه ينزع كلامه هذه

الثقيل من الأرض نزعاً .



- لأنه حدث ذات مرة أن امرأة ٠٠٠ أقصد ٠٠٠ امرأة ٠٠٠ لهمة  
أولاد ٠٠٠ لم تكن عيناها ٠٠٠ مثل عينيك !

- لم تكونا مثل عيني ٠٠٠ فماذا كانتا اذن ؟  
فقال بلهفة وعلى عجل :

- كانتا جريئتين ٠٠٠ ولا تشعران بخجل !

وأرسلت صوفيا بافلوفنا ضحكتها الفضية ، ورفع فوما عينيه ثم  
ضحك هو أيضا

وقال مستغفرا :

- معذرة ! ربما أكون قد قلت شيئا ٠٠٠ شيئا لا يليق !

- أوه ٠٠ أبدا أبدا ٠٠ انك لست ممن يقولون شيئا غير لائق.  
٠٠ انك ولد طيب القلب ٠٠ لطيف ، وعلى هذا : فهل عيناي جريئتان  
لا تعرفان الحجل ؟

وأجابها هامسا والسعادة تغمر قلبه ، وعيناه تلمعان :

- ان عينيك عينا ملك

ونظرت اليه هذه المرة كما لم تنظر اليه من قبل قط ٠٠ لقد  
نظرت اليه نظرة تفيض أمومة ٠٠٠ نظرة يغشاها الحزن ٠٠٠ لقد  
كان حبها له يوشيه الاشفاق عليه والرثاء من أجله .

وصرفت عينيها عنه وهى تهتم بالوقوف ، قائلة له :

- اذهب الآن يا عزيزى ٠٠ فأنا متعبة ، وأريد أن أستريح .

وانصرف فوما طائعا ممثلا .

وظلت فترة من الزمان بعد هذا تلزم التحفظ والجد فى حديثها  
اليه ، كأنما كانت ترأف به وترثى لحاله ٠٠ غير أن هذا لم يستمر

طويلاً . . . فقد عادت من جديد الى معايشته ولعبها به ، كما تلعب  
!لقطة بالفأر .

ولم يكن فى مستطاع فوما أن يخفى علاقته بصوفيا بافلوفنا عن  
اشبينه ، الذى قال له مرة ، وهو يرمقه بعينى ثعلب :

- فوما ! تحسس رأسك لحظة بعد لحظة يا بنى لتتيقن أنه  
لا يزال فى مكانه . . . ولم يطير !

وسأله فوما :

- ماذا تعنى ؟

- سونيا ! . . انك تقضى كثيرا من وقتك عندها

فسأله فوما بجفاء :

- وما شأنك أنت وهذا ؟ وبأى حق تدعوها سونيا ؟

- لا شأن لى . . . ولا يضيرنى مطلقا اذا هى التهمتكَ التهاما . .  
أما دعائى لها سونيا . . فهذا هو اسمها كما يعلم الناس جميعا . .  
وكما يعلمون أيضا أنها تحب أن يقوم الناس بما لديها من أعمال  
دنسة بالنيابة عنها .

ويجيبه فوما مقطبا وقد وضع يديه فى جيوب معطفه :

- انها امرأة ماهرة . . على قسط حسن من التعليم .

- ماهرة ، ما فى ذلك شك ولا ينكر هذا أحد ، ومتعلمة تعليما  
حسنا أيضا . وهى لا بد سوف تلقنك أنت دروسا . . . كما سوف  
يلقنك دروسا هؤلاء البلطجية الصائعون الذين يلزمونها ويحومون  
حولها !

وقال فوما كالذى يرد الالهانة ، منكرا ما يعتقدوه هو شخصيا فى  
-غورة غضبه :

- انهم ليسوا بلطجية ولا صائعين ٠٠٠ وسوف أتعلم الكثير منهم ٠٠٠ ما الذى أعرفه أنا ؟ لا الكلام ٠٠ ولا أساليب الاجتماع ٠٠ ان أحدا لم يعلمنى شيئا مطلقا ٠ وهم يتناقشون فى جميع الامور فى منزلها ، وكل منهم يدلى برأيه ٠٠٠ اننى عزمت على أن أصنع من نفسى شيئا ، فلا تحاول أن تقف فى سبيلى ٠

- ماشاء الله ! اسمعوا يا عالم هذا الانسان ماذا يقول ! كلام أثقل من الهم على القلب ! عال ! تصنع من نفسك شيئا ٠٠٠ ولكنك اذا أردت أن تفعل ذلك فخير لك أن تنقطع له فى حان أو خمارة ٠٠ على الأقل تجد هناك أناسا خيرا ممن تجدهم عند سونيا ٠ انها فكرة طيبة أن تتعلم كيف تقدر الناس حق قدرهم ، أيها الرجل الصغير - أن تعرف قيمة هذا وقيمة ذاك ، الصالح منهم والطالح ٠٠ ولنضرب لذلك مثلا ٠٠ سونيا نفسها ٠٠ ترى ؟ ماذا عسى هذه السيدة الشابة أن تكون ؟ حشرة ! فراشة جميلة اللون تزين الحقول ٠٠ لا أكثر ولا أقل !

وأحفظ فوما هذا الكلام الجارح عن سونيا فصر بأسنانه ، ووضع يديه الى قاع جيوبه بحركة عصبية ٠٠٠ وخرج :

ولم تمض مدة حتى أثار ماياكين موضوع صوفيا بافلوفنا مرة ثانية ، وكان هو وفوما راكبين فى زلاقة واسعة ، وهما يتحدثان حديثا أخويا عن شئون العمل ، وذلك فى عودتهما من جولة تفتيشية على المراكب والصنادل الراسية فى أحد الحلجان منتظرة انتهاء فصل الثلوج ٠ لقد كان الشهر شهر مارس ٠٠ وكان الماء ينسرب من تحت طارات الزلاقة ، وأوشك الجليد أن يتلاشى كله ، والشمس ترسل دفئا بديعا ينتشر فى السماء الصافية ٠

وحول ماياكين حديثه عن شئون العمل فجأة ليقول :

- أحسب أنه لن تمضى دقيقة واحدة على وصولك الى المنزل حتى

تنطلق فى الحال الى منزل صديقتك ! اياها . . . أليس كذلك ؟

ويجيبه فوما مشدوها : منحرف المزاج :

- طبعا !

ويسأله ماياكين بلهجة مهذبة :

- هم ! . . . أتكثر من تقديم الهدايا اليها ؟

ويجيب فوما متعجبا :

- هدايا ؟ . . . ولماذا أقدم اليها هدايا ؟

- لا هدايا ؟ . . . ماشاء الله ! أتقصد أنها تصادقك لغير شىء ؟ مر

أجل الحب . . . والحب فقط ؟

ويصطبغ وجه فوما بحمرة الحجل وحمرة الغضب ، ويقول :

- انك رجل عجوز . . . الا أنك تقول أشياء تخجل من سماعها

ثم زاد محتجا :

- كأنك تعنى أنها ترتكب مثل هذه الأشياء ال . . . كأن فر

وسعها أن . . . !

ومصمص ماياكين ثم قال وهو ينفث وينفخ ويصق :

- يا أمير المغفلين ، ويا سيد الحمقى ! نفو ! لقد رحض جميع

الحلاليف من ذلك الحوض . . . والآن . . . وبعد أن لم يبق فيه الا

ما سأل من أنوفهم ومن مخلفاتهم . . . يأتى حضرة المغفل الكبير

ويشرع فى عبادته ، والسجود بين يديه ، من بين الأصنام الملعونة

كلها !! اسمع ! اذهب اليها الآن فى الحال وقل لها فى غير لف ولا

دوران : انى أريد أن أكون حبيبك ، وأنا لا أزال صغير السن بعد ،

خلك حياتى وما أملك ! وكيسى وما فيه !

وقال فوما مقطبا مندرا :

- يا سيدى الوالد ، اننى لا أصدق هذه الاشياء ٠٠٠ ولو أن  
أحدًا غيرك ٠٠٠

وأدركه الشيخ وهو يزوم ويلقى بيديه فى الهواء فقال مولولا :

- ومن غيرى يهمة أمرك ويحرص على مصالحك ؟ هل صحيح أنها  
ظلت الشتاء بطوله مستولية عليك، وتقودك من منخرك ! ٠٠ فيالك  
من منخر ، ويا لها من حية رقطاع !

لقد كان الرجل فى منتهى الاستياء ، وكان فى صوته سورة من  
الغضب ولفحة من الغم ، بل لقد كانت عيناه شرقتين بالدمع ٠ لقد  
كان فى حال لم يره فوما فى مثلها من قبل ، حتى أرغمه هذا على أن  
يلزم الصمت ٠

- انها ستجر عليك الخراب ٠٠٠ هذه البغي الباطية !

وجعلت عينه تطرف بسرعة ، وشفثاه تختلجان وهو يحمل على  
صوفيا بافلوفنا حملته الشعواء وبتعبيراته المخزية المخجلة التى كانت  
تتخللها صرخات الغضب وصيحات الاستياء ٠

وأدرك فوما أن الرجل كان صادقاً فى كل ما يقوله عنها ، ومن  
ثم شعر بعبء ثقيل من الهم يجثم على صدره

ثم راح يغمغم مهموما يائسا وهو يزوى وجهه عن الرجل :

- حسن ٠٠ حسن جدا ٠٠٠ فى هذا الكفاية يا سيدى الوالد !  
فصاح به ماياكين :

- ان ما يلزمك هو الزواج ٠٠ والزواج بمنتهى السرعة

وتوسل اليه فوما يقول :

- كفى بالله عليك كفى !

ونظر اليه الشيخ ولم ينطق بكلمة ٠ وشحب وجه فوما ، وكان

من السهل ادراك ما ينطوى عليه من ألم مريض ، من شفثيه المغفورتين  
ونظراته المعذبة

لقد كانت الحقول ممتدة عن يمين وشمال وعليها بقايا أسمال م  
سراييل الشتاء • وكانت الاغربة السحيم تثب وتتطاير رشية  
طليقة فوق قطع الأرض السمراء التي ذاب من فوقها الثلج • وكار  
الماء يخر خريرا لطيفا تحت طارات الزلاقة ، على حين كانت قطع م  
الثلج ملوثة بالوحل تنتشر من حوافر الحيل  
وراح ماياكين يزوم فجأة وهو يصير بأسنانه :

- يا للانسان فى شبابه من جحش لا يفقه شيئا ! كلما نظرا  
رزور ، حسبه أحد النسور ! فواخيبتاه ، وألف ألف خيبتاه !  
وقال له فوما مخاشنا :

- كفى كلاما بالاحاجى والالغاز •

- وبماذا نتكلم الا فى هذا ؟ كل شيء واضح • البنات قشه  
• والنساء •• شرش ! وفى امكانك أن تمسك النساء ، أما البنات  
•• فيزغن منك كما يزوغ الزئبق ! وبعبارة أخرى يمكنك أن تذهب  
الى سونيا اذا لم تستطع أن تعيش بدونها •• ثم قل لها فى وجه  
كذا وكذا ••• ثم ••• كذا وكذا ! مالك مقطب الجبين هكذا ؟ فى  
تفكر أيها المغفل ؟ ما الداعى الى كل هذا العبوس ؟

وقال له فوما فى هدوء :

- أنت لا تفهم !

- أنا لا أفهم ؟ •• بل أنا فاهم كل شيء !

- القلب •• الانسان له قلب !

ويزوى ماياكين عينيه ثم يقول :

- واذا كان الانسان له قلب ، فلن يكون فى رأسه مخ !

## الفصل السادس

م ولم يكذ فوما يصل الى منزله حتى كان طائف من الغضب المؤلم النزاع الى الانتقام يعصف به عصفا . لقد كان يحبوه شوق طاغ الى تحقير صوفيا بافلوفنا وصب الاهدانات على راسها ، وهامو ذا يذرع حجرات منزله الحالية جيئة وذهابا مدة ساعات تباعا ، وقد علا وجهه الوجوم والاكتئاب ، وأسنانه تصر صريرا شديدا ، ويده عائرتان في جيوبه ، ورأسه منتشر كراس الصل ، والغيط يملأ صدره ويكاد يشق مرارته ، وقدماه تدقان الأرض دقا كأنهما مطرقتان يسحق بهما غيظه .

— الساقطة . . . فى زى الملائكة !

يقول ذلك . . . تم يراوده الأمل أحيانا فيقول بصوت خافت :

— ومن يدري ؟ فقد يكون هذا كله وشايات ومحض افتراء !

لكنه لا يكاد يذكر تلك القوة التى كان يتكلم بها اشيبينه عنها واللهجة الفائرة التى كان يؤكدها بها ما يقول ، حتى تعود أسنانه الى صريها ، ويعود رأسه الى الانتشار أشد مما كان .

وقد خيل لفوما أن صوفيا بافلوفنا قد أصبحت ، بعد الذى رُماها به ماياكين ولووث به سمعتها ، سهلة المنال ، وسرعان ما سر هو بذلك . ومضت أيام طويلة كان العمل يستغرقه استعدادا لبده موسم الملاحه ، وانتفع فوما بهذا ، فقد هدأت سورتة بتفرغه الى أعماله ، وخفت حدة المرارة التى كان يشعر بها نحو صوفيا كأمراه ،

لأسفه عليها ككائن بشرى ، وشحذت فكرة أنها أصبحت سهلة المثال من رغبته فيها . ثم انتهى شيئا فسيئا ، ومن حيث لا يتسعر ، الى أن من واجبه أن يذهب اليها ، وأن يطلب اليها صراحة ما يريد منها ، من غير محاوراة ولا مداورة .

وكانت وصيفة صوفيا قد تعودت زيارته لسيدتها ، فلما أفيل هذه المرة ، وسألها : هل سيدتها موجودة ، أشارت الى الصالون قائلة :

- تفضل الى الصالون . . ان سمحت

وخذلته سجاعته لحظة ، لكنه حينما لمح نفسه فى المرأة ، بجسمه السمهرى فى بزته القصيرة ، وبوجهه الجاد ذى الاطار من تلك اللحمه السوداء المعجدة ، وبعينيه الكبيرتين السمراوين ، شد كتفيه ، وانفتل فى اعتداد كبير داخل الصالون

وانسابت موسيقى وترية فى أذنيه . . موسيقى ذات أصوات غريبة تشبه ضحكا هادئا مكتئبا ، أصوات فيها حنين وفيها توسل يجعلها تتدفق فى قرارة القلوب غير مستأذنة ، وان كانت تثير فى نفس فوما الهواجس ، وتوحى بضالة الامل فى تحقيق آماله . لقد كان لا يحب الاصغاء الى الموسيقى لما تثيره فى نفسه من الهم والشجن . وعندما كان الدولاب الموسيقى فى الحان يرسل بعض النغمات المحزنة كان فوما يشعر بالكآبة والانقباض وضيق الصدر فكان يطلب اغلاقه أو يقوم فيخلفه بنفسه ، لأنه لا يطيق موسيقاه الصامتة المتوسلة المبتهلة المملوءة بالدموع والأحزان . . . وبعد . . . فقد رأى نفسه يذلف داخل الصالون ، وكأن يدا مجهولة تدفعه اليه دون رغبة منه .

وكان باب الصالون محجوبا بشبكة من حبال خرز ملون تؤلف رسما لزهرة غريبة الشكل وقد تحركت حبال الخرز برشاقة وهى تنتشر من حولها احياء عجيبا بأن الهواء كله مملوء بأشباح زهور



باهته ، وكانت شفافية الشبكة تتيح للانسان رؤية ما فى داخل الغرفة . . . . وكانت صوفيا بافلوفنا جالسة على أريكتها المحببة بعزف على الماندولين ، وعلى الحائط مظلة يابانية كبيرة تكون عريشا بلونا فوق جسم صوفيا النحيل المظلل ، الذى كان مغمورا فى وهج نافىء ينسكب من مصباح طويل برونزى مغطى بأباجور أحمر . كانت أنغام حبال الخرز الناعمة تنتشر منتشية مرتعشة فى ضوء لغسق المعطر الذى كان يملأ الغرفة الصغيرة . وكانت صوفيا فى هذه اللحظة قد وضعت الماندولين فوق ركبتها ، ثم مدت يدها مست بها حبال الخرز وهى ذاهلة شاردة اللب على حين ذهب عيناها حملقان فى فراغ الغرفة .

وعندما وقعت عليها عينا فوما ، لاحظ أنها لا تبدو جميلة رائعة لجمال وهى جالسة وحدها ، كما تبدو جميلة ساحرة الجمال وهى بين الناس . . . . فقد كان وجهها أكثر رزانة ووقارا . وكانت تبدو كبر سنا ، وقد حلت سيماء الضجر والسامة محل النظرة اللطيفة ذات الحفر فى عينيها ، وكان فى أعضائها ارتخاء ووناء ، كأنها تريد أن تقف فلا تستطيع

وسعل فوما سعلة خفيفة . . . فأفاقت صوفيا ، ونادت :  
- من ؟

واهتزت يدها فوق حبال الخرز فأحدثت هذه صوتا منبها وأجابها فوما وهو يفرق حبال الخرز جانبا :  
- أنا !

- أوه . . ! انك لم تحدث أى صوت وأنت داخل . . . . سعيدة برؤيتك . اجلس . ما الذى منعك من زيارتي كل هذه المدة ؟ ومدت احدى يديها نحوه ، وأشارت بالأخرى الى كرسي صغير جانبها . . . . وقد نفخته عيناها بنظرة سعيدة وقال فوما فى عجلة مبالغ فيها وهو يسحب الكرسي قريبا من لكنية :

- كنت في جولة تفتيشية على سفننا الراسبية في الخليج  
- أو لا يزال قدر كبير من اللثوج في الحقول ؟

- لا يزال مقدار كبير منها ، الا أنها تذوب بسرعة ٠٠ والطره  
مملوءة بالبرك ٠ ثم نظر إليها وراح يبتسم ، ولا بد أنها لاحظت  
سلوكه غير عادى ، وان ابتسامته تحمل معنى جديدا ، بدليل  
أعادت ترتيب ثنايا جونلتها ، ثم أشاحت بعيدا عنه ٠٠ وال  
عيناهما ٠٠ ولكن صوفيا بافلوفنا أغضت قليلا ..  
نم تمتت وهى تحدق فى خاتم فوق خنصرها :

- اذن فالثلوج تذوب !

وأجابها فوما وهو ينظر الى مقدمة حدائه :

- أجل ٠٠ والنهريات ومسائل الماء فى كل مكان ٠

- ما أجمل هذا ! ان ذلك يعنى أن الربيع على الأبواب ٠  
- وأنه أصبح وشيكا ٠

ورددت صوفيا بصوت ناعم كأنها تختبر مقاطع كلماتها :  
- الربيع ٠٠ يدنو !

ويقول فوما وهو يتضحك ويدعك يديه بخفة ونشاط :

- الربيع ٠٠ فصل الحب ٠٠ وموسم الذين يحاولون أن  
فيه !

وتسأله صوفيا بجفاء :

- وهل أنت موشك أن تطب ؟

- أو ٠٠ كلا ٠٠ فقد حدث هذا منذ زمن بعيد ٠٠ وأنا  
غارق فى الحب بالفعل الى آخر لحظة من حياتي  
ورشقته بنظرة خاطفة ، ثم قالت وهى مستغرقة فى تفكيره  
وقد بدأت تعزف على الماندولين من جديد :

ما أسعد حظك أن تكون هذه أولى تجاربك فى الحياة ! وأن يكون  
قلب قوى جرىء خال من الأشباح التى تكمن فى جوانبه !  
ناداها فوما بصوت رقيق :  
صوفيا بافلوفنا !  
ومنعته من الكلام بايماء رقيقة وهى تقول :

انتظر يا ولدى العزيز . فأنا أريد أن أذكر لك اليوم شيئا .  
لطيفا . ان ثم لحظات تمر بالانسان الذى عرف الكثير من  
بب الحياة ، تجعله ينظر فى حنايا قلبه فيجد فيها أشياء لم  
ينتظر أن يجدها هناك مطلقا . . . . أشياء موهلة فى القدم ، أشياء  
عليها النسيان أذياته منذ عهد بعيد ، لطول ما اندست فى أعرق  
القلب سنوات وسنوات . . . . الا أنها لم تفقد أريج الشباب  
هذا الزمن . وحينما تغمرها الذاكرة بضوئها ، يشعر الانسان  
ملا رثيته بجرعة طويلة من نسيم الصباح المنعش ، صباح  
!

وهنا . . . . راحت الأوتار تتنهد وترتعش تحت أصابعها ، وأخذت  
صوات المنطلقة من الماندولين ، وترنيمات صوتها وهى تتكلم ،  
تعب بمشاعره وأحاسيسه . . . . وأخذ ينصت فارغ انصبر وهو  
بفهم كلمة واحدة مما تقول . مما جعله يهمس فى قرارة نفسه :  
ستمرى ! تكلمى ! وان لم أعد أو من بشيء مما تقولين بعند !  
أن ما كان يهمس به هو قراره الأخير الذى لن يثنى .  
وفد ساءه ذلك . وشعر بالأسف يغم نفسه لأنه لم يكن  
يستطيع أن يصغى الى صوفيا بالثقة التى كان يصغى اليها من قبل  
وسألته صوفيا :

- هل فكرت يوما فى أسلوب الحياة التى يجب أن تحياها ؟  
قال وهو يضحك ضحكة صغيرة :

- أراني أحيانا أفكر فيها ٠٠٠ ولكن هذا لا يستغرق منى وقتنا طويلا ٠٠٠ فليس عندى وقت كاف للتفكير فى ذلك ٠ ثم ٠٠ ماذا هنالك يستحق التفكير اذا أردت الحقيقة ؟ أجيلى عينيك فيما حولك، تم انظرى كيف يعيش الآخرون ، وانسجى على منوالهم ٠

- أو ٠٠ أو ! احذر أن تفعل هذا ، بل ارفق بنفسك ، ولا تنس أنك شخص ٠٠ شخص ظريف ! وفيك شىء يختلف عما فى هؤلاء الناس ، وان كنت لا أعرف ما هو ، غير أننى أحسه وأشعر به ولشد ما أخشى أن تكتشف أن الحياة فى هذه الدنيا ليست شىء هينا ٠٠ وأنا على يقين أنك لن تسلك فيها سبيل أبناء طبقتك ٠ ا من المحال أن ترضى عن حياة ينفقونها بأكملها فى جمع المال ٠٠ أ ٠٠ كلا ! ان ثم شىئا آخر أنت بحاجة اليه ٠٠ أليس كذلك ؟

وكانت تتكلم بسرعة وطلاقة ، وكانت عيناها ترسلان بنظرة فيو رعب وفيها انزعاج ٠ وكان فوما ينظر اليها وهو يتساءل فيما بين وبين نفسه : « ترى ؟ الام ترمى ؟

ودلفت صوفيا قريبا منه ، ثم جعلت تحديق فى عينيه، وهى تحده :

- بل اتخذ لك مثالا آخر تحتذيه فى بناء حياتك ، فأنت صنف وقوى و ٠٠٠ طيب ٠

وأجابها فوما وقد لمس ما يعرفه من ارتباك ، وما ينساب قلبه ، دق عفيف :

- ان كنت طيبا حقا ، وجب أن يكون الآخرون طيبين !  
وتقول له صوفيا محزونة :

- ان الصالحين من الناس يعاملون دائما بأسوأ مما يعامل !  
الطالحون فى هذه الدنيا !

بم انطلقت الأنغام من تحت أصابعها مرة أخرى • وخيل الى فوما  
أنه ان لم يصارح لها بما جاء من أجله ، فلن يجرز على مصارحتها به  
بعد ذلك •

وتوكل على الله •• وتوسل اليه أن يعينه، ثم أخذ يغالب الاحساس  
المكبوت في صدره ، وقذف بنفسه في اللجة وهو يقول :

- صوفيا بافلوفنا ! كفاية من هذا ! لقد آن لى أن أصارح لك •  
لقد جئت بخاصة لكي أقول لك : كفاية من هذا ! لقد آن لك أن  
تكوني شريفة معى •• صريحة وشريفة ! لقد اتبعت معى أول الأمر  
كل الطرق التى تجعلني أحبك ، والآن •• هأنت تشيحين عنى -  
- وأنا لا أفهم الذى تقولين - فعقلى عقل مظلم ، الا أننى أشعر  
أنك تريدين الاختباء منى ••• وأحسب أنك قد عرفت الآن الغرض  
من مجيئى

وكانت عيناه تبرقان ، وكان طابق صوته يرتفع مع كل كلمة ،  
ويزيد حرارة •

وقاطعته بصوت فيه رنين النذير ، وهى تتقدم خطوة نحوه :

- أوه •• لا تزد

- أو •• لا ! وما دمت قد بدأت الكلام •• فسوف أقول كل  
شئ

- وأنا أعرف ما تريد أن تقول •

ويجيبها فوما مهددا ، وهو يهم واقفا :

- بل أنت لا تعرفين كل شئ •• لكنى •• أنا •• أعرف عنك  
كل شئ •• كل شئ !

وتسأله صوفيا وهى متمالكة كل أعصابها :

— أحقا ؟ اذا كان ذلك فهو خير لى  
ونهضت واقفة هى أيضا ، وكأنها تهتم بالانصراف ، غير أنها عادت  
الى جلستها الاولى بعد لحظة من التفكير ، وقد توجهت وجهها وقطب .  
وانطبقت شففتها ، وغضت عينيها ، حتى لم يكن فى مستطاع  
فوما أن يميز ما تنطويان عليه . لقد خيل اليه حينما قال لها انه  
يعرف عنها كل شىء أنها سوف تنزعج وتخجل ، وتشفق من الخطر  
الذى يتهددها ، ثم ترتبك ، وتسأله الصبح والمغفرة لمعابثها اياه  
واستغفاله لها ، فلا يسعه الا أن يأخذها ملء ذراعيه ويعفو عنها . .  
الا أن هذا لم يحدث . . . . . والذى حدث هو أنه الذى ارتبك بالفعل  
عند مرآه برودها ورباطة جأشها ، فوقف يحدق فيها ويبحث عن  
كلمة يقولها فلا يجد .

وعادت تكرر ما قالته فى جفاء وبجنان ثابت :

— خير لى أن تعرف عنى كل شىء . . . . . وعلى هذا فأنت تعرفه  
جميعا ، أليس كذلك ؟ وبالطبع أنت تعرف عنى ما لا يسر ، كما  
لا يمكن أن يكون شيئا آخر . . . على أننى أفهم . . . . . فلقد كنت أعبت  
بك . . . . . ولكن . . . لا . . . فلن أحاول أن أعذر بشىء !

وجلست لا تتكلم بشىء ، ثم أمسكت برأسها فجأة ، وراحت  
تثبت دبابيس شعرها . وترسلها فيه ارسالا .

وزفر فوما زفرة عميقة . . . لقد قضت كلمات صوفيا الاخيرة على  
ذلك الأمل الذى بدت بوادره فى نفسه . . . الأمل الذى لم يشعر  
به الا بعد أن صار لا شىء .

وهز رأسه ، تم انطلق يقول بمرارة ، وفى جفاء وغلظة :

— يا طالما كنت أنظر اليك فأقول لنفسى : انها جميلة ووديعه  
كالحمامة . . . وهأنت الآن تعترفين أنك كنت تعبتين بى ، فويل  
منك !

وقالت له صوفيا وعلى شفيتها ابتسامة خفيفة :  
- لله ما أظرفك ! والله أنت من شخص مسل !

وتحقق وهو ينظر اليها أنها جردته من جميع أسلحته بهذه الرقة  
كانت تقطر من كلماتها ، وذلك الحزن الذي كان يغشى  
تسامنها . فيا لله ما أعجب ما ذابت تلوج الحباثت التي كانت تنطوى  
بيها جوانحه ، في الأشفعة الدافئة التي كانت تنسكب من عينيها !  
كانت تبدو جميلة نحيلة لا حول لها ولا قوة حتى لكانها طفل .  
لقد ظلت تبتسم وتتكلم بهذه الطريقة اللطيفة المنقعة . . . الا أنه  
يصغ الى ما كانت تقول . بل قاطعها بقوله :

- لقد جئت الى هنا مصمما على ألا تأخذني بك رحمة . ولقد  
أقول لنفسي : لا بد أن أصارح لها بما أعتقد فيها ، الا أنني لم  
قل لك شيئا . ولن أقول لك شيئا . . لانني لا أجد في الشجاعة  
للزمنة لذلك . انك تلقين علي بما يشبه تعاويد السحر . . . فيا لله !  
إذا قدر لي أن ألقاك ؟ وأي الوشائج تربطني اليك ؟ . . عن اذنك . .  
آن لي أن أنصرف .

ولكن صوفيا قالت له في لهجة خاطفة وقد مدت اليه يدها :  
- بل انتظر . . . فلم يحزن الا وان للانصراف بعد . . قل لي . .  
ما الذي يدفعك الى كل هذه . . . هذه الحشونة ؟ أرجوك ألا تحنق  
علي . . . انني لست الانسانة الجديرة بك . . . انك في حاجة الى  
صنف آخر من النساء . . . انك في حاجة الى امرأة لها سناجكتك  
وسلامة بنيتك . . امرأة مرحة جريئة القلب . . أما أنا . . فامرأة  
عجوز بلغت من الكبر عتيا . . كل ما عمله هو أن تجلس ليتولاهما  
الوجوم والاكتئاب . ان حياتي أتعبس حياة وأشهدا فراغا - فراغ  
موحش يثير الحسرة والغم . انه لا أمر مرعب يشق على النفس أن  
يجلس انسان تعود أن يجيا حياة مرحة كلها نشاط وكلها حركة ،  
ولا يجد شيئا يثير فيه المرح بعد . فاذا رأيته يضحك فلا تظنن أنه

هو الذى يضحك ، بل الحياة هى التى تضحك عليه !! أما عن الناس .. فآه منهم .. أصخ الى يا عزيزى كأنك تصيخ الى أمك .. انى أرجوك وأتوسل اليك ألا تصغى الى شىء مطلقا الا الى ما يلميه عليك قلبك . عش وفقا لما يرسم لك هو .. لأن الناس لا يعلمون نسيثا ، وهم لا يستطيعون أن يزوجوا اليك أية نصيحة حق ، فلا تصخ اليهم .

لقد كانت كلماتها ، من أتر ما كانت تبذله من جهد لكى تجعل ما تقوله واضحا بسيطا بقدر المستطاع تندفع فى سبيل سريع متقطع . ولم تغادر شفقتها قط تلك الابتسامة الحزينة النائحة .

- ان الحياة صارمة ذات قلب من حجر . وهى تصر على أن يخضع الناس جميعا لما تريد ، ولا يستطيع أن يتحداها ويفلت من عقابها الا الاقوياء . بل انهم لا يستطيعون ذلك أيضا ! أواه .. لو أنك فقط تدرك مبلغ ما فى العيش فى هذا العالم من عناء ! انه يجعل الانسان يفزع حتى من نفسه هو ! انه يصبح شخصية مزدوجة .. قاضيا وحكما .. يتهم نفسه دائما ويدافع عنه أبدا ! ولكى يهرب من الجلوة الى نفسه تراه يرغب فى تزجيا وقته ، ليلا ونهارا ، مع من يكرههم ويزدريهم .. مع من تتقرز منهم نفسه !!

ورفع فوما رأسه ، وكان صوته ينطوى على الدهش والريب فيما قالتة صوفيا .. وهو يجيها :

- لست أدري ما الذى يجعلك تتكلمين مثل هذا الكلام ؟ والعجيب أن ليوبا تقول هذا الكلام نفسه !

- ومن ليوبا ؟ وماذا تقول ؟

- أختى الروحية .. انها تقول ما تقولين - وهى دائمة الشكوى من الحياة .. وتقول ان من المحال مواصلة الحياة !

- يا للسعادة أن يكون هذا هو رأيها ، وأن تتكلم هى أيضا فى هذه الامور !



- سعادة ؟ انها سعادة غريبة تلك التى تجعل الانسان يجار  
ويضج بالشكوى !

- بل أصخ لما تقول . ان فى الشكوى لحكمة عظيمة .. والحكمة  
هى .. الألم !

لقد كان فوما وهو يصغى الى هذا الكلام العجيب يحدق عينيه  
مرتبكا . وكانت الغرفة العادية تبدو مختلفة اليوم ، وان كانت  
خاصة كعادتها بالاثاث الكثير ، وعلى جدرانها نفس الرفوف والصور ،  
مزدانة بالاشياء البديعة والطرف الرائعة التى كانت تزدان بها من  
قبل . وكان وهج المصباح الأحمر داكنا مرتعشا ، وكان كل شيء  
نغشيه الكتابة وفى كل ركن ، وفى كل مكان كان يرى بريق هذا  
الاطار المذهب ، وللاء تلك الطرفة الصينية اللامعة ، والستائر  
التمينة الضافية مرخاة بلا حراك على الأبواب والنوافذ . لقد شعر  
فوما بالضيق من هذا كله .. ووجد نفسه غرقا فى بحر من الحيرة  
.. لقد استشعر قلبه الاسف لهذنه المرأة ... وفى هذه اللحظة  
نفسها حاجته بقولها :

- أنت مصغ لما أقول ؟ اننى أود أن أكون لك أختا ! بل .. أما !  
اننى لم أشعر نحو أحد قط بما أشعر به نحوك من الشفقة والمحبة  
والحنان ... ومع هذا .. فأنت تنظر الى نظرات كلهما عداوة  
وبغضاء . هل تصدقنى أو لا تصدقنى ؟

وأجابها متنهدا :

- لست أدرى .. فقد كنت أصدقك من قبل !

فسأله بسرعة :

- والآن ؟

فقال :

- الآن .. يحسن أن انصرف .. اننى لا أفهم شيئا .. اننى  
لا أفهم حتى نفسى !

لقد كنت أعرف ما كنت أريد أن أقوله عندما جئت الى هنا .  
الا أن كل شيء اختلط على . . . لقد أثرتنى ، بل نخستنى . . .  
والآن تريد أن تكونى أمى . . . وبعبارة أخرى . . . تفضل . . من  
عير مطرود !

وتقول له صوفيا بصوت لطيف :

- ولكن ! ألا ترى أننى أشعر بالرتاء لك ، والشفقة عليك ؟

لقد ازداد سخط فوما عليها . . وكان كلما تكلم أكثر ، زاد من  
سجريته بها. وازرائه عليها . وكان لا ينفك يشد كتفيه ، كأنهما  
مصعدتان بأغلال وسلاسل يريد أن ينثرها عنهما .

- تشعريين بالرتاء لى ؟ عجباً . . بل لا أريد أن تشعري لى بأى  
شئ ! آه لو كنت فقط أستطيع التعبير عما يجول فى خاطرى ! اذن  
. . لا تخبرتك عما أعرفه عنك ! انك لم تنصفى فى معاملتك لى .  
ما الذى دفعك الى اثاره مشاعرى ؟ أكنت تتخذين منى لعبة تلهين  
بها ؟

وتجيبه ببساطة ، وكأنها تشعر بذنبها :

- لقد كنت أريدك الى جانبى . . . قريبا منى .

لكنه لم يسمع ما قالت . وشرع هو يصل كلامه فقال :

- وعندما بلغت علاقتنا ذروتها ، اذا بك تخافين ، وتقيمين بيننا  
سدا ، واذا بك تبدئين دور الاسف والرتاء ، وتقولين ان الحياة هى  
الملومة . . . ولست أدرى ما الذى يجعلك تلقين بالتبعة على الحياة ؟  
ما الحياة ؟ ان الناس هم الحياة . وخارج الناس ليس ثم حياة  
مطلقا . لكنك تخرعين نوعا من الناطور أو ما يسمونه خيال المزرعة  
الذى يذود الطير عن المزروعات . . . وما ذاك ! الا لتخدعى غيرك  
وتتلمسى الأعدار لنفسك . . . فأنت تلذين بكل ما تشتهين ،  
وتنصين للناس شرك الماخاتلة والحداع من كل لون ، ثم تصيحين

بعد ذلك : يا لها من حياة خبيثة ! من حياة قاسية ظالمة ! فماذا جعلها خبيثة وقاسية ، ان لم تكونى أنت ؟ وأنت حينما تخفين نبتك وراء هذه الشكاوى كلها ، توقعين الربكة والاضطراب فى نفوس الآخرين • لماذا تريدان أن أسلك سبيل العوج لا لشيء الا لأنك سلكتها وترديت فيها ؟ أكنت تتشهن الانتقام لنفسك من الناس ، أم ماذا ؟ أم تقولين على وعلى أعدائى ؟ أليس كذلك ؟ يا للعار ! لقد جعلك الله جميلة كالملائكة ••• ولكن ••• أين قلبك ؟!

لقد كان يقف فى مواجهتها وجسمه يرتجف، وهو ينظر اليها من رأسها الى قدميها بنظرة كلها اتهام وكلها تأنيم •• والكلمات تتدفق من فيه دون أن يمنعها مانع أو يصدها ارتباك •• وكان يتكلم بلهجة هادئة الا أنها لهجة قوية •• وقد سره هذا وأثلج قلبه • ورفعت صوفيا رأسها ثم حدقت فيه بعينيها الواسعتين النفاذتين •• وقد اختلجت شفتاها وتعقدت الحطوط العميقة فى طرفى فيها • وعاد يقول ملوحا بيده : اذا كانت المرأة جميلة كان من الواجب أن تكون عيشتها جميلة أيضا

تم ختم كلامه بهذه التحية السريعة : وداعا •

فحيثه صوفيا بتحيطه ، وانقلب على عقبيه دون أن يمد اليها يده •• الا أنه لم يكذب يبلغ الباب حتى أحس نحوها باحساس من الأسف والتوجع ، فاستدار ، ورآها واقفة فى ركن الغرفة منكسة الرأس ، ويدها مرتختان على وسطها •

وأيقن أن من قلة الذوق أن ينصرف هكذا •• من غير كلمة أخرى يوجهها اليها ، ومن ثم فقد تمت فى هم شديد ، وبدون أن يجرح كبريائه :

— معذرة ان كنت قد آذيت احساسك . . . . وعلى كل . . . فانا . .  
أحبك !

وهنا . . زفر زفرة عميقة . . . فلم يسع صوفيا الا أن تضحك  
ضحكة غريبة ، وتقول :

— كلا . . . انك لم تجرح احساسى

فأجابها فوما وهو يكاد يسيل رقة :

— اذن . . . فوداعا !

وتمتمت المرأة :

— وداعا

وفرق فوما حبال الحرز ، فخشخششت ، ومست صفحة خديه .  
فسرت فيهما رعشة من برودة الحب . . . ثم مضى وقلبه مثقل  
بالهموم ، وكأنه قد صيد فى شبكة مهما كانت ناعمة فانه لا فكاك  
له منها !

• وكان الليل قد أرخى سدوله عند ذلك ، وكان القمر يسكب أضواءه  
على الصقيع الذى يغطى البرك بغشاء رقيق فضى من الجمد . وكان وهو  
يخطو فوق الرصيف يضرب الجليد بعصاه فيفتته ، وكانما كان الجليد  
يشعر بالآلم لذلك . وكانت المنازل تلقى ظلالها فى عرض الطريق ،  
والأشجار تطرح على الأرض الثلوجة برسوم غريبة أشبه بأصابع  
نحيلة مغروسة فى هذا الأديم المتجمد .

— ترى ! ماذا عساها تصنع الآن !

بهذا كان يحدث فوما نفسه ، وهو يرصد صوفيا بعين خياله  
راقفة وحدها فى الظلال المحمرة التى يلقبها المصباح فى تلك الغرفة  
المكتظة بالآثاث .

وقال لنفسه فى اصرار : « ان أحسن ما أستطيع عمله هو ان  
انسأها ! ولكن ٠٠ لقد كان من المستحيل عليه أن ينسأها ٠ فلقد  
كانت تفرض نفسها فرضا على ذاكرته ، فتثير الرأفة فى قلبه مرة ،  
ثم تثير السخط عليها مرات ٠٠ بل الغضب والحقد ! وكانت صورتها  
رسيقة حية بحيث لم يكن من الممكن أن يغمض عنها عين خياله ،  
مهما كان حمل أفكاره ثقيلًا فادحا ٠٠ حتى لكان يخيل اليه أنه  
يحملها بجسمها وهيكلها بين طيات قلبه ٠ ورأى عربة تقترب ،  
وعجلاتها تصدع سكون الليل وهي تدرج على البلاط المرصوف ،  
وتنشق فوق الثلوج ٠ وكان السائق وزبونه يميدان ويتمايلان  
مع حركة العربة ، وكل منهما قد انبنى بجسمه الى الأمام انثناء  
سديدا ٠ وكانا ٠٠٠ والحواد أيضا ٠٠٠ يكونون قطعة من الظلام  
واحدة فى جنح الليل ٠ وكان الشارع مرقشا بقطع من الظلام  
وفجوات من النور ، الا أن الظلام كان أغلب فى نهاية الشارع ، حتى  
لكان يبدو كأنه سد يرتفع من أدنى الأرض الى صميم السماء ٠  
وبدا لهما أن السائق وزبونه كانا يدلجان فى هذا الليل الى غير  
عرض ٠ ثم أخذ يفكر فى منزله ذى الغرف الست ، وفى عمته  
آنفيسا التى ذهبت الى الدير ، وما يحتمل من موتهما فيه دون  
أن تعود الى المنزل أبدا ٠ ولم يكن بالمنزل من السكان غير ايفان خادم  
الاسطبل ، وسكليتيما التى تقوم بطهو الطعام وادارة المنزل فى وقت  
واحد ٠٠٠ ثم هذا الكلب الأسود الأشعث ذو الأنف البليد الكليل  
٠٠٠ وكان الكلب نفسه عجوزا كهذين !

ولما استقرت هذه الصورة فى ذهن فوما ٠٠ تنهد أسفا ثم حدث  
نفسه فقال :

— أحسب أن لا مفر من الزواج ٠

لقد بلبلته فكرة الزواج ، بل ربما كانت وسيلة لتسليته ، فقد  
خيل له أنها من الممكن أن تتم بمنتهى اليسر وقلة المنسقة ٠ وهو اذا

كلف اشيبينه ماياكين غدا أن يبحث له عن زوجة فلا يكاد يضي شم أو نحوه حتى تكون فتاة ما تشاركه في حياته في بيت واحد ، وتكون قريبة منه ليلا ونهارا ، ويقول لها : هلمى نتنزه قليلا ، فتكون أطوع من يمينه ، ثم يقول لها : هلمى نم ، فلا تملك الا أن تطبع وإذا تشهت أن تطبع على فمه قبلة فلها أن تفعل ذلك ، حتى لو يشأ هو . فاذا أمرها بأن تتركه لأنه لا يريد قبلاتها فقد يؤديه ذلك ويؤلم مشاعرها . . . ولكن يا ترى ؟ ماذا عساه أن يتحدث اليها ؟ تم أخذ يستعرض في ذاكرته جميع معارفه من البنات . . . لقد كان بعضهن على قسط من الجمال ، وكلهن يتمنين الزواج منه . الا أنه لم يجد بينهن من ترضيه كزوجة . . . تم راح يسائل نفسه عما عسى أن يحدث به الأزواج الصغار أنفسهم حينما يجدون أذ في تلك الخلوة بعد حفلة الزفاف ! ولقد حاول فوما أن يتخيل ذا لكنه لم يستطع ، وكل ما كان في مقدوره أن يفعل هو أن يضح على خبيثته ! وقد فكر في ليوبا ماياكينا . وكان على ثقة من أنها تكون لحة ذاهلة في هذا الموقف . . . الا أن كلامها قد يكون كذ زائفا ومحض اختلاق . لقد كان واقعا تحت فكرته غير الطيبة عن . . . أى أن أفكارها جميعا كانت أفكارا غير أصيلة ، أفكارا ملة مستعارة من الكتب التي تقرأها . وكان من رأيه أنها أفكار لا تدبفتاة في سننها وفي مظهرها وفي تربيتها .

وقد توقف عند هذه النقطة ليستعرض ما فاهت به من صنو القذف في الحياة وفي الناس . وهنا ، أبطأ في خطوه ، وقد بدم هذه الظاهرة التي لاحظها قيمن تربطه بهم صلات تكفي لأن يبادا مناحي الفكر . . . انهم جميعا يتحدثون عن الحياة الاحاديث المختلا . . . ومن هؤلاء أبوه وعمته واشيبينه وليوبا وصوفيا بافلوفنا - ل كانوا جميعا اما يشكون من الحياة ، واما يحاولون أن يعلموه كي يفهمها . . . ثم تذكر ما قاله له الرجل العجوز على ظهر السفينة حين كان يتحدث عن القضاء . . . وقد أورد هذا الحديث في خاطره جمه

السروح وألوان النفد والشسكاوى المرة التى ترددت على أذنيه من أفواه الناس .

وراح يحدث نفسه قائلا : « لست أدري لماذا ؟ ما الحياة ان لم تكن هى الناس ؟ غير أن الناس يتكلمون عن الحياة دائما كأنها شيء مستقل عنهم وخارج عن أنفسهم ، شيء يتلف عليهم الحياة دائما !! »

وأخس بيد الخوف الباردة تقبض على قلبه ، فاقشعره وجعل ينظر حوله . لقد كان الشارع هادئا خاليا من الناس ، وتوافذ البيوت السوداء تحمق فى ظلام الليل ، وخياله هو نفسه يثب بخالس منواريا فوق الجدران والأسوار من ورائه .

ثم نادى فجأة : « سواقى ! » وكان قد أخذ يعجز السير ، وراح ظله يلهت وراءه . . . ويزحف خائفا مذعورا . . . أسود . . . ساكنا . . . لا صوت له !



## الفصل السابع

٣٠ ومضى أسبوع على الحديث الذى دار بين فوما وصوفيا بافلوفنا كانت صورتها لا تبرح ذهنه طواله ٠٠ لا ليلا ولا نهارا ٠٠ وكانت تشب فى قلبه آلاما مبرحة لا تخطر لانسان ببال ٠ وجد به الشوق الى زيارتها ، واستبدت به الرغبة فى أن يكون بالقرب منها ٠٠ لكنه كان يعود فيصر على عدم الانصياع لتلك الرغبة ، فينصرف عنها وهو يوضع أسنانه من شدة الكبت ، ويلقى بنفسه قلبا وقالبا فى أعباء العمل ، نافخا بخياله فى نيران غيظه واستيائه اللذين كان يضمهما لها ٠ وخيل اليه أنه اذا ذهب لزيارتها الآن فربما وجدها تغيرت - ولعل شيئا يكون قد حدث لها بعد ذلك الحديث ، وأنها ربما لا تكون لطيفة معه كما تعودت أن تكون ، وربما لا تبتسم له تلك الابتسامة الرشيقة التى كانت تثير فى نفسه الأفكار والأحلام دائما ٠٠٠ لقد كان خوفه من هذا كله هو الذى يجعله يقاوم فى عناد وفى عنف هذه الرغبة التى تغريه بالذهاب اليها ٠٠ ومن ثم ايثاره أن يتعذب وأن يقاسى ٠

ولم تصرفه أعماله ، ولا حنينه الى صوفيا بافلوفنا عن التأمل فى الحياة ، وادمان التفكير فيها ، وان لم يحاول أن يحل لغزها المستعصى ، ذلك اللغز الذى جعله فى حيرة دائمة ، وقلق لا ينتهى - لقد كان أعجز من أن يصل الى هذا الحل ، الا أنه شرع يستمع فى اصاخة وانتباه الى كل ما يقوله الناس من حوله عن الحياة ٠ وبدلا من أن تلقى أقوالهم تلك شيئا من الضوء على لغز الحياة ، كانت تزيد فى حيرته ، وتضاعف ريبه وشكوكه ٠ وكان من اليسير عليه ان



يلمس ما فطر عليه الناس من دهاء ومكر ولوذعية ، وأن واجب  
الإنسان دائما هو أن يأخذ حذرهم منهم . وكان قد فطن الى أنهم  
لا يقولون ما يعتقدون أنه الحق في الامور المهمة . وكان كلما زاد  
من دراسته لهم قلت ثقته في تأوهاتهم وشكائياتهم . وهكذا  
أخذ في هدوء وفي ريبية ، يفهم كل مجريات الحياة التي كانت تجرى  
حوله . وأخذ خط ضئيل نحيل من نورها يتلأأ فوق جبينه .

\* \* \*

وفال له اشبينه ذات صباح وهما في بورصة الحبوب :

- تشوروف في البلد ، وهو يريد أن يتحدث اليك ، فاذهب  
للقائه الليلة ، ولكن .. لا تنس أن تشكم لسانك جيدا وأنت تكلمه  
- انه سيظل يستدرجك حتى تبوح له بأسرار أعمالك .. انه  
تعلم عجوز ماكر ، هذا الرجل أنانى تشوروف ! وهو حينما  
يمد عينيه الى السماء داعيا الله مبتهلا .. متضرعا بالدعاء ، تكون يده  
الأخرى ممدودة الى جيوبك لينشل ما فيها من مالك كله ! فخذ  
حذرك !

ويسأله فوما : - وهل نحن مدينون له بشيء ؟

- آي . اننا لم ندفع ثمن هذا الصندل ، فضلا عن ثمن مائتي  
حمل من الوقود . ولكن اذا طلب منك دفع المبلغ برمته ، فلا تجب  
طلبه .. فالروبلات يا فوما شيء لزج .. كلما أطلت امسالك  
بها وقبض يديك عليها جمعت لك كوبكات كثيرة .

- ولكن كيف نمتنع عن الدفع اذا أصر على ذلك ؟

- لا تسأل عنه .. ليبيك ما شاء وليتوسل ما أراد .. وما عليك  
الا أن تنهه وتبأكي ، وتغل يدك الى عنقك !

لقد كان أنانى سافتش تشوروف تاجر الأخشاب الناجح يملك  
معملا كبيرا لنشر الأخشاب ، كما كان يبني المراكب والصنادل ،

وينسغل السفن لحمل البضائع فى نهر الفولجا . . وكانت بينه وبين اجنات، جوردييف معاملات تجارية ، ومن ثم فقد رآه فوما مرارا . وكان رجلا طاعنا فى السن ، الا أنه كان طويلا منتصب القامة كأنه شجرة من أشجار الصنوبر ، وله لحية كبيرة بيضاء ، وذراعان طويلتان . وكان تكوينه البديع ، ومحياه الطلق ، ونظراته الصافية، تبعث الرهبة والاحترام دائما فى نفس فوما ، وذلك بالرغم مما سمعه عنه من أفواه الناس من أنه لم يجمع ما جمعه من ثروته الضخمة من طريق شريف ، ومن أنه يحيا حياة مربية فى احدى القرى النائية فى وسط الغابة . وقد سمع فوما قصة هذا الرجل يرويهما أبوه ، وكان أبوه يقول ان تشوروف كان فلاحا فقيرا فى صدر شبابه ، وأنه تصادف أن لجأ اليه مجرم هارب محكوم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة فأواه عنده ، وكان هذا المجرم ممن يزيهون النقود ، فكان تشوروف يحبسه فى حمام منزله ليزيف له المبالغ الضخمة . . . ومن هنا مصدر هذه الثروة التى بدأ بها حياته . وقد حدث أن اشتعلت النار ذات يوم فى الحمام ، ووجدت رفات الرجل محترقة تحت الاطالال وقد كسرت جميعته ، فانطلقت الاشاعات فى القرية بأن تشوروف قد قتل الرجل ثم أحرق جسمه . وكانت تروى أمثال هذه القصص عن كثيرين من أغنياء المدينة - أولئك الذين دأبوا جميعا على جمع ملايينهم بالقتل والسرقة ، أو ، كما كانت الطريقة الغالبة فى جمع الثروات ، بتزييف النقود وترويجها . وكان فوما يستمع الى أمثال هذه القصص والشائعات منذ نعومة أظفاره ، ولم يكن يعنى بالتثبت من حقيقتها أو كذبها . وكان يعرف أيضا أن تشوروف هذا قد تزوج زوجتين ، ماتت أولاهما وهو يعانقها فى ليلة زفافها اليه ، فلما ماتت لم يبال أن يتزوج زوجة ابنه هو وقد حزن ابنه حزنا موجعا مفضا كان يستعين عليه بالاكباب على الحمر وادمان الشراب حتى أشفى لجلي الموت بمرارة لو لم يتخذ نفسه بتوجهه الى احدى التكايا التى على

صدفان: نهر الأرعيز. ليقضى بقية حياته فيها ، ولما ماتت زوجته  
البنانية هذه ، لم يبالي تشوروف أن يتخذ له خلية من أفناء شحادة  
ضماء. بكما . وكان الى ذلك الوقت لا يزال يعاشرها ، وقد ولدت  
له ولدا وضعته ميتا . وكانت هذه الحكايات التي سمعها فوما من  
أبيه ومن أناس آخرين تثب في ذاكرته وهو في طريقه الى الفندق  
الذي ينزل فيه ذلك الرجل ، مما أضفى على شخصيته سحرا عجيبا  
في ذهن فوما .

ولما فتح فوما باب الغرفة الصغيرة ذات النافذة الوحيدة المطله  
على سطح كتيب قُدر لمنزل مجاور لاحظ أن تشوروف لم يكن قد  
حُب من نومه الا هذه اللحظة فقط وكان يجلس على حافة سريره  
ممسكا أيها بكلتا يديه ، وقد ثنى ركبتيه فاسترسلت عليهما لحيته  
البيضاء . . . وكان يبدو ضحما كثير الجرم خشي في جلسته تلك .  
وفي صوت غضوب أجش ، ودون أن يرفع رأسه ليرى من الباب ،  
نادى الرجل « من ؟ » ويجيبه فوما :

« أنا . . . كيف الأحوال أنائي سافتش ؟ »  
« يُتدِير الرجل رأسه ببطء ، ويعمشن بعينيه في جهة فوما ، ثم  
يقول :

« ابن اجنات ؟ »

« - أجل .

« - تفضل . . . اجلس قرب النافذة . . . دعنا ننظر كيف صرت .  
آتشرب شيايا ؟  
« - لا بأس .

وينادي تشوروف الجرسون ، ثم يتناول لحيته في يمينه ، ويشرع  
يدقق نظره في فوما في عناية وامعان ، ويبادله فوما نظراته دون  
أن يطرف !

لقد كان الجزء الأعلى من جبين هذا الرجل العجوز غائرا شديداً الغور ، وكانت خصلات مجعدة من الشعر الأشيب تنسدل فوق صدغيه وأذنيه المنتصبين ، وكانت عيناه الزرقاوان الوديعتان تتسمان بسيماء الحكمة والرزانة ، بل بسيماء الشرف حتى الجزء العلوى من وجهه ، الا أن شفثيه كانتا غليظتين حمراوين ، ولا تنسجمان هما وسائر الملامح الأخرى . وكان أنفه الطويل النحيل يتقوس فجأة في طرفه ، كأنه يريد أن يختبئ في شعر الشارب الأبيض . وكان الرجل العجوز اذا حرك شفثيه استطاع محدثه أن يخطف لمحة من أسنانه الصفراء الحادة . وكان يلبس قميصاً قمرزيا من القطن مربوطا من وسطه بمنطقه من الحرير ، وكان ينظرونه الفضفاض الأسود ملموما داخل رقبة حذائه الطويل . وكان بحسب فوما أن ينظر الى شفثى هذا الرجل نظرة واحداً ليقتنع بصدق ما كان الناس يقولونه فيه .

وقال تشوروف فجأة :

— لقد كنت وأنت أصغر من ذلك أقرب شبيهاً الى أبيك منك الآن . هل تتذكر أباك ؟ هل تصلى من أجله ؟ هل تدعو له وتطلب له المغفرة ؟

وكان يقاطع فوما عندما كان هذا يدلى بإجابته القصيرة، ثم قال

— لقد كان اجنات آثما كبيراً ، وقد مات دون أن يتوب . . ماذا بغتة هذا الاثم الكبير !

وأجابه فوما وقد ساءه أن يتحدث الرجل عن أبيه بتلك الطريقة

— لم يكن آثما أكثر من الآخرين !

وسأله تشوروف مقطباً :

— مثل من ، مثلاً ؟

- فى الدنيا عدد عظيم من الاثمين الاشرار

ويجيبه الرجل ، وهو يؤكد ما يقول :

- ليس فى هذه الدنيا الا آثم عظيم واحد هو أعظم اثما من  
المرحوم اجنات جوردييف ٠٠٠ وذلك هو ٠٠٠ اشبينك ياكوف ٠٠  
هذا المنافق الملعون !

وسأله فوما مستهزئا :

- متيقن أنت من ذلك كل التيقن ؟

ويجيبه الرجل وهو يهز يده ، وقد غامت عيناه :

- هذا أعرفه كل المعرفة ٠٠٠ لقد اضطررت أن أرفع أمره الى  
لقضاء ليفصل فى جريمته الثقيلة التى أنقض حملها ظهري . لقد  
سلك الشيطان مسلكا عجيبا ضدى ، لكنى أومن بنعمة الله . أما  
ياكوف ، فلا يؤمن بالسماء ولا بالجحيم ولا بالساحرات ٠٠ بل هو  
لا يؤمن بالله نفسه ٠٠ انه لا يؤمن به ٠٠ ومن أجل هذا فلسوف  
يكون عقابه هنا ٠٠ فى هذه الدنيا .

وسأله فوما :

- وأنت متيقن ذلك أيضا ؟

- نعم ٠٠ متيقن . وأنا ألاحظ أنك تضحك منى ونقول : هل  
حسب نفسك نبيا ؟ ولكن الرجل الذى يكون قد ارتكب من الخطايا  
الاثام قدر ما ارتكبت يكون قد عرف أشياء كثيرة جدا . والخطايا  
علم عظيم ٠٠٠ وهذا هو السبب فى أن ياكوف ماياكين أمهرنا  
جميعا !

وعندما كان فوما يستمع الى صوته الأجنس الممتلىء ثقة ، كان  
يحدث نفسه قائلا : « لقد أصابته لفحة من ربيع الموت بالفعل .

وأحضر النادل «الجرسون» هذا المخلوق الصغير الشاحب ذو الوجه الملوث غلاية الشاي ، ثم أسرع بالخروج من الغرفة ، وأخذ تشبوروو يشتغل ببعض اللفافات التي على افريز النافذة .  
وقال يخاطب فوما دون أن ينظر اليه :

- انك وقح . وأنت تنظر الى الناس نظرة سوداء ، لقد كان الناس لا ينظرون هذه النظرة الى الامور . لقد كانوا ينظرون اليها نظرة بيضاء ، وكانت نفوسهم بيضاء كذلك . . . . وكان كل شئ بسيطاً لا تعقد فيه . . والناس أنفسهم كانوا أكثر بساطة مما هم الآن . . . حتى خطاهم كانت بسيطة . . . أما اليوم . . فكل شئ معقد تعقيدا شديدا .

١١ - وضب الشاي ، ثم جلس قبالة فوما . وراح يحدثه فقال :

- كأن أبوك وهو في مثل سنك هذه ، وعلى فكرة لقد كان والدك يشتغل في الايام الحوالي عاملا من يكسحون الماء المتسرب الى بطون السفن ، وحدث أن السفينة التي كان يشتغل فيها ألقمت مراسيها مرة أمام قرينتنا . . أقول كان أبوك وهو في مثل سنك رجلا صافي القلب كالبلور . . وكان من اليسير على الانسان لهذا السبب أن يرى بمجرد نظرة خاطفة أى نوع من الرجال هو . . . أما أنت فأنا لا أستطيع أن أعرف أى نوع من الناس أنت . . بل أنت نفسك لا تدري . وهذا سيكون السبب في خرابك . وكل أهل هذه الايام سيببتهون الى الخراب لأنهم لا يعرفون أنفسهم . ان الحياة غابة . . وواجبك أن تكتشف طريقك فيها . والناس يضلون طريقهم فى غابة الحياة بفعل الشيطان . . هل أنت متزوج ؟

- لم أتزوج بعد

١٢ - هل رأيت ؟ انك لست متزوجا ، ولكن الراجح أنك لو نلت نفسك منذ عهد بعيد . . هل تخصص لاعمالك وقتا كثيرا ؟

١- لا بد ٠٠ اننى لا أزال أستغل مع اشبينى  
وفال الرجل وهو لا يفتأ يهز رأسه ، وعيناه لا تنفكان تومضان  
بغضبان :

- تستغل ؟ وأى نوع من الشغل شغل هذه الأيام ؟! ان هذا  
ليس شغلا ٠ لقد كان التجار يتجولون بأنفسهم على خيولهم فى  
جوانب الريف - ولم يكن شىء يمنعهم من هذا قط - لا العواصف  
النلجية ، ولا وحشة الليل ، ولا قطاع الطرق الذين كانوا يتربصون  
لهم ليقتلوهم ٠٠٠ لقد كانوا يموتون كما يموت الشهداء ، فيغسلون  
آثامهم بمائهم ٠٠٠ أما تجار هذه الأيام فيركبون القطر .  
ويسافر وكلاؤهم بالنيابة عنهم ٠٠٠ أو ٠٠ هل سمعت آخر خبر .  
ان الرجل يجلس فى مكتبه فيسمع صوته على بعد خمس مراحل !  
جها ان هذا من عمل الشيطان وايم الحق ! فجلوس الانسان وعدم  
فنامه بأى عمل هو الذى يجلب الى نفسه السامة ، فلا يملك الا  
ان ياتم ويقترف الخطايا ٠ ان الآلات هى تقوم له بجميع أعماله هذه  
الأيام ٠ أما هو فيجلس دون أن يؤدى عملا ٠٠ وفراغ الانسان مقتله  
٠٠ انه يزود نفسه بالآلات التى تؤدى له أعماله ٠٠ ثم يجلس  
راضيا عن نفسه لا يعمل شيئا ٠ ألا ان الآلات هى فخاخ الشيطان .  
ان الرجل اذا وجد ما يعمل ، لم يجد وقتا للتردى فى الاثم ٠ ولكنه  
يجد نفسه حرا يصنع من الخطايا ما يشاء ما دامت الآلات قد حلت  
محلّه فى عمله ٠ ان الحرية تقضى على الانسان كما تقضى الشمس على  
الديدان التى تعيش فى أحشاء الأرض ٠٠٠ انها الحرية هى التى  
ندبى الى الانسان خرابه !

وبعد أن فرغ تشوروف - هذا الداهية العجوز - من القاء هذه  
الخطبة بلسان واضح لا غموض فيه ، انشأ يديق المتضدّة بأصبعه .  
حتى دقها دقائق أربعا ٠ ثم تطلق وجهه بنشوة ظفر مشثومة ، وأخذ  
صدره يعلو ويهبط ، وشعرات لحيته الفضية ترتعش على بطنه ٠٠

وكان هذا يجعل من فوما آذانا مصغية تنصت اليه . فقد كانت ترن رنيناً تملؤه الثقة التي لا تتزعزع بحيث جعلت الشباب يمد ويضطرب ، مما جعله ينسى الشائعات التي سمعها عنه ، والتي كان يؤمن بصحتها من قبل .

وأخذ تشوروف يتفرس في فوما بطريقة مكشوفة خالية من الاحتراس ، كأنما كان ينظر خلاله الى شخص آخر غير الشاب الجالس أمامه . . . . شخص كان يساوره الخوف ويخامره الألم يفعل كلماته . . . . مما كان يجلب السرور الى قلب الرجل العجوز . .

- وأنتم جميعاً ياهل هذا الزمان ستقضى عليكم تلك الحرية . فلقد أمسك الشيطان بخناقكم حينما سلبكم العمل ووضع لك الآلات والوكلاء مكانه . . ترى ! ما هذا الذي يجعل الأبناء أرد من آبائهم ؟ انها الحرية . . الفراغ ! ان الفراغ هو الذي أدى بهم إلى السكر وفقدان لذة العيش .

وقال فوما في هدوء :

- أوه . . ان الناس كانوا يسكرون في الماضي ، ويحيون حياته الفارغة السائبة بمثل ما يصنع الناس اليوم !

وصاح الرجل وعينه تكبادان تقدحان الشرر :

- اخرس ! لقد كان الناس أقوى . . . . وكانوا ياثمون وفقاً لقوتهم . لقد كانوا كدوح السنديان العظيم ، ولسوف يحاسبهم الله على قدر قوتهم . . انه سيزن أجسادهم ، وسيكيل الملائكة مقدا الدماء التي تجري فيهم ، وسيبري الملائكة أن آثامهم لا ترجح وز أجسادهم ودمائهم . . ولن يرضى الله بأن يناقش ذنباً الحساب لا أفترس حملاً . ولكن اذا حدث أن غرس فأر لعين أسنانه في لحم حم فقد يدعو الله هذا الفأر لمناقشته الحساب !



وراح فوما يسأل الرجل فى تفكير وروية :

- وأنى لنا أن نعرف : هل الله سيجرى هذه المناقشة ؟ انما نريد محاكمة يستطيع الجميع أن يروها .

- ولماذا يجب أن يروها ؟

- حتى يستطيعوا أن يفهموا

- ومن غير الله يستطيع أن يحاكمنى ؟

ونظر فوما الى الرجل نظرة نكس بعدها رأسه ولم يقل شيئا بعد .  
لعد أخذ يفكر فى المجرم الهارب المحكوم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة  
الذى قيل ان تشوروف هذا قد اغتاله وأحرقه فى حمام منزله ، وعاد  
اليه يقينه فى صدق هذه الشائعة ٠٠٠ كما عاد اليه يقينه فيما روى  
الناس عن زوجاته وحظاياه ٠٠٠ لا جدال فى أن هذا المجرم كان  
يميتهن خنقا بوساطة قبلاته ٠٠٠ وأنه كان يعصرهن فيقضى عليهن  
فى حضنه ذى العظام الجبارة ، بل كان يمص دماهن بشفتيه هاتين  
الكريهيتين ، اللتين كانتا لا تزالان حمراوين من أثر دماء هؤلاء النساء  
للأتى قضين بين ذراعيه القويتين المعروقتين وكان دماهن لما تحف  
على شفتيه بعد ، والآن ، وهو فى انتظار الموت فى أية لحظة ، كان  
يحسب حساب جرائمه وخطاياه ، ويصدر أحكامه على الآخرين .  
أثلا انه ما من أحد غير الله يستطيع أن يحاكمه .

وعندما كان فوما يحدجه بنظرة تنسرق من خلال أهدابه ، كان  
حدث نفسه قائلا : - ترى ٠٠ هل هو خائف ؟

ولكن الرجل عاد الى حديثه قائلا وهو يهز رأسه :

- فكر فى هذا أبها الصغير ! فكر فى الطريقة التى يجب أن تعيش  
ها . لقد عشت السنين الطوال فى هذه الدنيا - آه ! ما أطول  
ما عشت ! لقد نمت أشجار وترعرعت ثم قطعت ، وبنيت بيوت من

احتسابها ثم تقادم الزمن عليها فتهدمت .. وقد رأيت هذا كله ..  
ولا أزال حيا أرزق .. اننى حينما أرتد بطرفى الى حباتى الخالية أحدث  
بعسى : ليت شعرى ! أمحتمل أن يكون فى مقدر رجل واحد القيام  
بكل تلك الاعمال ؟ وهل أنا حقيقة الذى عشت لا أقوم بكل هذا ؟

ثم نظر الرجل الطاعن فى السن فى وجه فوماً فى صرامه  
وتقطيب ، وعاد يهز رأسه تانية ، وغاص فى بحر من الأحلام !

لقد كان السكون شاملا فى الغرفة .. ثم اذا دبذبة فوق  
سطحها ، واذا قرقة عربات وأصوات أناس مهوشة تصل مر  
الشارع ، واذا الغلاية التى كانت لا تزال فوق المنضدة ترسل صوت  
عليانها الحزين .. واذا تشوروف يحرق عينيه فى كوب الشساى  
ويداعب لحيته الهائلة بيده ، وخيل لفوما أنه يسمع جيشانا وغرغر  
فى صدر العجوز فى أثناء تنفسه ..

وأخيرا يقطع العجوز هذا السكون بقوله :

— لا بد أنك تشعر بالوحشة والمرارة بعد أيبك ؟ أليس كذلك ؟  
ويجيبه فوما :

— لقد اعتدت ذلك ..

— انك غنى .. وحينما يموت ياكوف ستكون أكثر غنى ، فلسوف  
يترك لك كل شيء .. ان له ابنة واحدة .. والافضل لك أن تتزوج  
هذه الابنة .. ولا يهم مطلقا أنها أختك الروحية وأختك فى الرضاع -  
لقد آن لك أن تتزوج .. اذ كيف يمكنك أن تعيش بلا زواج .. أكبر  
الظن أنك تزنى !

— كلا !

وقال الرجل مستهزئا :

— ربما .. آه .. أجل .. ان طبقة التجار موشكة على الزوال ..

ولقد خدتنى أحد سكان الغابات مرة بما لعله أن يكون صحيحا ، وقد يكون غير صحيح ٠٠ أن الكلاب كلها كانت ذئابا يوما ما ، ثم انحطت الى مرتبة الكلاب ! ٠٠ وها نحن أولاء نذهب الى المدارس لتتعلم ، ونضع على رؤوسنا القبعات المزخرفة ونصنع كل ما من شأنه أن يظننا كالأهم الأخرى . ولن يمضى زمن طويل حتى تعجز عن تمييز التاجر عن أى شخص آخر من أفراد الشعب ٠٠٠ وقد أصبحت موضة العصر أن يرسل الناس كل أطفالهم الى المدرسة حيث يطبعون بطابع واحد ، ويلونون بلون واحد ٠٠٠ أبناء التجار وأبناء الإشراف وأبناء أصحاب الحرف - لا فرق ! كلهم يلبسون الزي الرمادى ، ويتعلمون الشيء نفسه فنحن نزرع الناس كما نغرس الأشجار ، لاى غرض ؟ لا أحد يدري ! وأنت تستطيع أن تميز هذه الكتلة من الحشب من تلك ، بالعلامات التى عليها ٠٠ أما هم فيحاولون أن يمسحوا الناس جميعا مسحا تاما ناعما حتى يصبحوا نمطا واحدا لا يمتاز بعضه من بعض ٠٠ لا بأس ٠٠ فأيامنا نحن العواجيز موشكة على الزوال ٠٠٠ ولعل أحدا لن يذكر بعد خمسين عاما أن أمثالى كانوا يعيشون فى هذه الدنيا ٠٠ أنا ٠٠ أنانى ابن سافا الذى لقبه تشوروف - أو أننى ٠٠ أنا أنا ٠٠ لم أكن أخشى أحدا سوى الله ٠٠ أو أننى ٠٠ كنت فى صباى فلاحا لا يملك إلا فدانين ونصف فدان من الأرض ، حتى اذا كبرت ، ودلفت الى الشيخوخة ، أصبحت مالكا لأحبا عشر ألقا من الأقدنة مغطاة كلها بالأشجار ، فضلا عما يقرب من مليونى روبل .

وهنا قال فوما محققا :

- المال ٠٠ كل مخلوق لا حديث له الا المال ! وأى لون من ألوان البهجة أو السعادة يستطيع المال أن يقدم للإنسان ؟  
فتمتم الرجل قائلا :

- اهم ٠٠ ما أتعس ما تكون تاجرا غلبان ان لم تعرف ما للمال من سلطان !

ويسأله فوما :

- ومن ذا الذى يعرف هذا السلطان على حقيقته ؟

ويجيبه الرجل جواب ذى ثقة :

- أنا ٠٠ أنا أعرف سلطانه ، ويعرفه أى انسان أوتى سعة من الذكاء ، وياكوف ، اشبينك الداهية يعرف هذا ٠ المال ! المال هو كل شيء يا صغيرى ٠ انتره على صفحة أمامك وتأمل ماذا يمثله هذا القوى الجيسار ؟ انك لن تلبث ، اذا فعلت ، أن تؤمن بأن المال هو السلطان ٠ هو القوة المفكرة ٠٠٠ لقد صب آلاف من الناس أرواحهم فى هذا المال الذى تملكه ٠٠٠ وأنت تستطيع أن تقذف به فى موقد ، وتنظر اليه وهو يحترق اذا أردت ٠٠ وأنت اذا فعلت هذا ٠٠ أفلا يثير فيك شعورا بالقوة والسلطان ؟ هه !  
- ولكن أحدا من الناس لا يفعل هذا .

- والسبب فى ذلك أن المال لا يأخذ سبيله الى أيدي المغفلين مطلقا ٠ ان المال مكرس للعمل ٠ وبهذا العمل يحصل الناس على قوتهم اليومى ٠ وأنت سيد هؤلاء الناس جميعا ٠ لماذا خلق الله الناس ؟ لكى يعبدوه ٠ فى البدء ، كان الله ، ولم يكن معه شيء آخر ، وهو القادر ذو السلطان ٠ ومد كان مكتوبا أن الانسان مخلوق على صورة الله ، فالانسان أيضا بحاجة الى السلطان ٠ وأى شيء غير المال يأتى للانسان بالسلطان ؟ فهذا هو الموضوع يا صغيرى ٠٠٠ وعلم فكرة ٠٠ هل أحضرت لى نقودى ؟

- كلا ٠٠

وقالها فوما ورأسه يشكو الثقل والدوار من طول ما أنصت هذا العجوز ، وقد سره أن ينتقل الحديث الى العمل ٠

وقال الرجل وهو مقطب :

- ولماذا ؟ لقد آن أوان الدفع بحسب الشروط !
- سأدفع لك نصف المبلغ ٠٠ غدا .
- النصف ؟ انى أريد المبلغ كله .
- اننا فى أزمة شديدة فى الوقت الحاضر ٠٠ و
- ولم تحصل على حاجتك منه ؟ عال ٠٠ وأنا أيضا فى حاجة الى مال .
- لا بد أن تنتظر !

- أوه ٠٠ كلا ٠٠ لن أنتظر يا صديقى ٠٠ فأنت شيء ٠٠ ووالدك شيء آخر ٠٠ ولا يمكن أن تكونوا موضع ثقة لأحد . أيها الحطافون النهابون الصغار ٠٠ انكم تستطيعون أن تصيحوا على الأرض السوداء فى شهر واحد ، وأكون أنا الذى أدفع الثمن ! سمع ٠٠ اذا لم تدفع لى المبلغ بأكمله غدا فسأعمل لك البروتستو لل لازم ، ولا تنتظر شيئا آخر غير هذا .

وذهل فوما وهو ينظر الى هذا الرجل الشيخ ! أممكن أن يكون بهذا هو الرجل الذى كان يتحدث الآن عن الشيطان بلسان نديس ؟ لقد تغير الوجه ، والعينان كذلك . وأصبحت نظرتهما سارمة قاسية ، وراحت العضلات على جانبي خياشيمه تختلج تحتلجات الشراهة والجشع . وأيقن فوما أنه ان لم يقم بسداد كمبيالته بتمامها فلن يتردد تشوروف فى جر الفضيحة التجارية على لشركة باجراء هذا البروتستو عليها .

وقال تشوروف بصوت أشبه بصوت الحنازير :

- تقول ان الحالة سيئة ؟ فهل هى كذلك حقا ؟ عال ٠٠ قل لى ذن ٠٠٠ فيم بعثرت نقود والدك اذن ؟

وأحس فوما بالرغبة فى أن يكشف خبيثة هذا الرجل أكنز .  
انكشفت ، فقال وهو يتعمد العبوس :

- الحالة . . سيئة جدا . . فلا حوالات ، ولا دفع سلفا . . وم  
سم فالمال شحيح !

- وتريدنى على أن أمد اليك يد المساعدة !  
فقال فوما وهو ينكس عينيه . بوداعة :

- اذا سمحت بمد أجل الدفع .

- . . من أجل خاطر والدك فقط . أه ؟ لا ياس ، ربما . ربما .  
ربما .

- ولدة كم ؟

- لمدة ستة أشهر .

- شكرا . . شكرا كثيرا .

- عفوا . . انك مدين لى بأحد عشر ألفا وستمائة روبل :  
فاسمع يا بنى : عليك أن تكتب لى كمبيالة جديدة بخمسة عشر ألفا  
وأن تدفع لى فائدتها مقدما ، وضمانا لذلك ترهن لى مركبتين  
مراكبك .

وهنا هب فوما واقفا . وأخذ يضحك وهو يقول :

- ارسل الى الكمبيالة غدا ، فسأدفع لك المبلغ بتمامه .

وشخصت عينا تشوروف فى إثبات وفى غير اختلاج تحت نظر  
فوما الساخرة ، وأفاق مما كان فيه ، وأخذ يهرش صدره ويقول .

- هذا أحسن أيضا

- أشكر لك حنانك واشفاقتك !

فقال الرجل مكشرا :

- لقد أردت أن أشفق عليك .. لكنك لم تدعنى أفعل .

- كان الله فى عون أى بائس يقع فى مخالبك !

- يا سلام ! انه يكون سعيدا

- بل يكون شقيا منكودا !

ويجيبه تشوروف فى غلظة :

- كفى يا صغيرى كفى .. ان هذا درس لك سرعان ما تحتديه ،

وهذه لعبة لها سحرها الجذاب .. وستعرف كيف ترقص طريا حينما

تكسبها ... وداعا . جهز النقود كاملة غدا .

- سأفعل .. وداعا .

وحينما كان فوما يغلُق الباب خلفه اذ به يسمع الرجل يتناهب

تثاؤبا طويلا ، ثم يأخذ فى دعاء عميق مبحوح :

- أيتها العذراء المقدسة ، يا أم يسوع .. افتحي أبواب السموات

على مصاريحها ! ..

وانصرف فوما وهو ينطوى على احساسين متناقضين : انه يحب

هذا الرجل ، الا أنه يحتقره !

وحينما استعرض ما قاله تشوروف عن الاثم والخطايا ، وقوة

ايمانه برحمة الله ... لم يملك الا أن يكبر من شأنه .

- انه هو أيضا يتحدث عن الحياة ! وهو يعترف بذنوبه فى غير

بكاء ولا شكوى . لقد أذنبت ، وعلى تبععة ذنوبى ، أما هى ! ..

وعندما تذكر صوفيا بأفلوفنا .. استولى عليه الحزن وعاد

يحدث نفسه قائلا : « انها تتوب وتنيب ... ولكن من يدري ...

هل كانت توبتها توبة صادقة .. أو هى مجرد ادعاء ؟ »

لقد كاد فوما يغيظ الرجل ويحسده .. لكنه عاد الى غثياز منه عندما ذكر كيف كان يحاول أن يسلخه سلخا . ولما شمه بالمجز عن تهديئة هذه الانفعالات المتصارعة ، ضحك من نفسه ضحكة خفيفة حائرة .

وقال وهو يجلس في كرسيه بغرفة الطعام في منزل ماياكين :

- ألم تعلم ؟ لقد عدت الآن من لقاء صاحبنا .. تشوروف !

وكان ماياكين لابسا بيجامة قذرة ملوثة ببقع من الدهن ، ويبد صحفة فارغة ، ولما سمع ما قاله فوما اضطرب في كرسيه المنجد بالجلد ، وقال وهو في شدة الشوق لمعرفة ما جرى :

- صبي له كوبا من الشاي .. ليوبا ... والآن .. خبرني يا فوما بكل ما حدث .. هيا أسرع .. لاني يجب أن أكون في المجلس في تمام التاسعة .

وقص عليه فوما وهو يضحك ، كيف حاول تشوروف أن يأخذ عليه كمبيالة ثانية .. فلما فرغ من قصته ، جعل ماياكين يمصص ، وقد علت وجهه سحابة من الغم ، وأخذ يقول :

- لقد خيبت رجائي فيك هذه المرة يا ولدي ! لماذا ؟ ايصح أن يتصرف أحد في شئون العمل على هذا النحو ؟ أف ! ليت شعري لماذا أرسلتلك ولم أذهب اليه أنا نفسي ! تا لله لكنك فردته ثم لففته حول خصري !

- لا أظن ذلك .. انه يقول انه قوى كشجرة السنديان !

- شجرة سنديان ! عال ! اذن .. فأنا منشارها ! ان شجرة السنديان شجرة طيبة ، ولكن ثمرها لا يصلح الا للحلايف ! على أن خشب السنديان خشب صلب !



- ولكننا لم يكن لنا مفر من الدفع !

- المهرة من الناس لا يعجلهم الى ذلك شيء - لكنك لست منهم -  
فأنت تبرطع دائماً الى الدفع ٠٠٠ فيا لك من تاجر شاطر !

وبدا الاستياء على أشده في وجه ماياكين ، وكانت تجاعيد وجهه  
تتراقص وتتبرم بصورة بشعة وهو يقول لابنته في احتياج :

- هاتي السكر ! ألا ترين أنه بعيد عن يدي !

لقد كانت ليوبا شاحبة ممتعة الوجه ، وكانت عيناها مكتئبتين  
كذلك ، ويدها تتحركان في خمول واسترخاء .

وكان فوما يلاحظ ذلك ويحدث نفسه قائلاً : انها أمام أبيها  
تكون ودیعة كالحمل !

وسأله ماياكين :

- وبماذا تحدث اليك يا بني !

- عن الذنوب ٠٠ والمعاصي !

- طبعاً ! فالناس يحبون دائماً أن يتحدثوا في خصوصياتهم !

أليس يدير مصنعاً للمعاصي ؟ لقد كان يتبغى أن يكون من نزلاء

السجون من سنين طويلة مضت - ثم هم ينادونه في بسوء الجحيم :

انه لا يستطيع صبراً حتى يصل الينا .

ويجيبه فوما بروية وهو ينظر في شايه :

- الا أن ما يقوله له قيمته .

ويسأله ماياكين بعبوسة خبيثة :

- وهل ذكرني بسوء ؟

- فعلا

- وماذا قلت له ؟

- لقد كنت أصغى اليه فقط .

- اهم . . وماذا سمعت ؟

- لقد قال ان الاقوياء مغفورة لهم خطاياهم . . ولكن الضعفا

لا يغفر لهم !

- يا سلام . . ان البراغيث نفسها تعرف ذلك !

وظل فوما فترة ما وهو متضايق من بغض اشبينه لتشوروف

وأخيرا ضحك وهو يقول لماياكين متفرسا فى وجهه :

- انه لا يتصورك !

ويجيبه الرجل فى كبر واعتداد :

- لا أحد يتصورنى . . . ولست أدرى ما الذى يدفعهم الى ذلك .

اننى لست حسناء ساحرة الجمال . . الا أن الجميع يحترموننى . . .

والناس لا يحترمون الا من يرهبونهم .

ثم نظر الرجل العجوز الى فوما تياها مفاخرا .

وأخذ فوما يعيد ما قاله :

- ان أقواله لها قيمتها . وهو يتحسر على أن طبقة التجار موشكا

على الزوال ، وأن الناس جميعا يتعلمون أشياء بعينها ، وأنه لز

يمضى زمن طويل حتى تعجز عن تمييز أحد من الناس عن سائر

الباقين ، لا أنهم سيكونون جميعا سواء .

ويقول ماياكين متحسرا :

- وهذا لا يعجبه ؟ هذا المغفل !

ويسأله فوما وهو ينظر اليه متشككا :

- ويعجبك أنت ؟

- ان من أمهر الأشياء وأحسنها أن نجمع الناس ذوى المشارب المختلفة فى مكان واحد ونعلمهم التعليم الذى يوحد آراءهم • ولنسأل أنفسنا هذا السؤال : ما الفرد من وجهة نظر الدولة ؟ لا شيء الا لبنة • لبنة عادية • ومن شأن اللبنات أن تكون متساوية الأحجام والأشكال • واذا تساوى الناس فى حجومهم وأشكالهم استطعت أن تبني منهم ما تشاء •

ويقول له فوما مقطبا :

- أحسب أنه لا يسرك أن تجد نفسك لبنة !

- ربما •• ولكن هذا هو الشيء العملى • وأنت لا يمكنك أن نسوى وجه كل شيء •• الا أن الطرق الشديد يحول بعض الأشياء فيجعلها ذهبيا • أما اذا تكسرت تحت الطرق •• فما باليد حيلة •• ان هذا يعنى أنها كانت أضعف من أن تبدأ البناء بها •

- وقد تكلم عن العمل ، فذكر أن الناس صائرون الى التلف لأن الآلات تقوم لهم بأعمالهم بالنيابة عنهم •

ويقول ماياكين مستهزئا وهو يلوح بيده علامة على الاستهجان :

- انه يدس أنفه فى كل شيء •• وكأنما قد ضاع منه أنفه فهو يبحث عنه ! ويا عجبا كيف جازت هذه الثثرة ، وذلك الهديان عليك ؟ الآلات ؟ مدهش ؟ هلا وقف لينظر مم تصنع هذه الآلات ، هذا العجوز الهرم ! من الصلب ! هذه هى ! وبعبارة أخرى ، انك لن تأخذك بها رحمة - فقط أدرها - ثم دعها تشتغل وتدر لك الروبلات بدون أن تثرثر ، وبدون أن تقدح فيك من وراء ظهرك -

وما عليك الا أن تضع الكوبس ، ثم تنظر الى العجل كيف يدور  
ويدور . أما العامل . . فهو باستمرار بائس ولا يقنع بشيء ، وهو  
غى بعض الأحيان يبلغ به البؤس مداه ، ولا ينفك يجأر ويشن  
ويشكو ويتوجع ويبكى . . . فيكب على الشراب حتى يفقد وعيه .  
ان فى العامل أموراً كثيرة يمكننى الاستغناء عنها بسهولة أما الآلة  
فهى أشبه بالمتن الذى نقيس به ، تستخدمها فيما صنعتت من أجله  
ولا شيء غير ذلك . . . أوه . . . لقد آن أن أليس وأنصرف .

وينهض الرجل وينصرف ، وهو يطرقع بشبشبيهه .

ويغمغم فوما عابسا وهو ينظر اليه خارجا :

- الشيطان نفسه لا يستطيع أن يحل أو يبرم مع هذين ! أحدهم  
يقول هذا . . . والآخر يقول ذاك !

وتقول ليوبا بصوت ناعم :

- وهذا هو الحال مع الكتب !

وينظر اليها فوما نظرة مهذبة ، فتبادله بابتسامة حائرة ، وفي  
عينيها نظرة حزينة متعبة . . . ويسألها :

- لا تزالين تقرئين كعادتك !

وتجيبه بانقباض : نعم

- وأنت على ما أنت من الهم والتقطيب !

- وألعن ! لأننى كما يرى لا أنيس لى هنا . . . ليس ثمة مر  
أتحدث اليه .

- انك فى حالة سيئة !

ولم تجب . بل أخذت تعبت بوشى فوطتها وقد نكست رأسه  
ويقول لها فوما بلهجة دمهنة ، وقد أخذ الأسف منه مأخذة لحالتها :

- يجب أن تنزوجهى يا ليوبا .

ولم يكده يقول لها هذا حتى قطبت جبينها بطريقة غير ظريفة ثم  
قالت :

- أوه .. لا تقل هذا

- لا أقول ماذا ؟ انك ستتزوجين يوما ما .

فزفرت الفتاة ثم قالت :

- ربما .. أنا أيضا أقول هذا .. ولكن كيف يمكنني ذلك ؟ انني  
أشعر كأنما .. كأنما ضباب يقف بيني وبين غيري من الناس -  
ضباب كثيف .

ويجيبها فوما بلهجة الواثق بما يقول :

- هذا الضباب .. هو تلك الكتب !

- انتظر .. انني لم أعد أفهم شيئا ، لقد أصبح كل شيء كريها ..  
وليس في الدنيا شيء هو على ما كان ينبغي له أن يكون . لا شيء  
مطلقا . وأنا أدرك ذلك ، الا أنني لا أستطيع أن أذكر لك ما هو  
الخطأ ، ولماذا ؟

ويتمتم فوما :

- ليس كما ينبغي أن يكون .. هذه هي الكتب ، أؤكد لك . الا  
أنني أنا نفسي أستطيع أن أرى أن الاشياء ليست كما ينبغي لها أن  
تكون . وقد يكون السبب في هذا أننا لا نزال صغيرين ، جد  
صغيرين !

واستمرت لينوبا تقول ، متجاهلة ملاحظة فوما :

- لقد كنت أظن أول الامر أن الكتب تستطيع أن تساعدني على أن  
أفهم الاشياء .

ويقول لها فوما ساخطا :

- قلت لك انسى كتبك هذه !

- ماذا ؟ كأنك تحسب أن من السهل على الانسان أن ينساها !  
انك ربما لا تصدق كم في هذه الدنيا من الافكار الكثيرة المتناقضة .  
وبعضها أفكار مرعبة . ففى أحد هذه الكتب مثلا . . يقولون ان  
وراء كل شيء ، على هذه الارض سببا

- وراء كل شيء ؟

- كل شيء . . وفى كتاب آخر عكس هذا الرأى تماما .

- ولكن . . ألا يمكنك أن تدركى أن هذا عبث وهراء !

وقطع عليهما حديثهما صوت ماياكين الواقف بالباب ، لابساً  
معطفه الطويل ذا الفراء ، وقد تدلت نياشيسينه من حول عنقه على  
صدره :

- فيم تتحدثان ؟

وتجيبه نيوبا عابسة :

- ليس عن شيء خاص

وقال فوما :

- عن الكتب

- أى كتب ؟

- الكتب التى تقرأها ، ليوبا . أحدها يقول ان وراء كل على وجه  
الارض سببا .

- عال !

- وأنا أقول ان هذه كلها أكاذيب .

وجعل ماياكين يزوى ما بين عينيه ، ويمس لحيته بيمينه ، وهو  
يفكر فى الموضوع ، ثم سمع سعلة خفيفة وسأل ابنته بعد لحظة :

- فى أى كتاب جاء هذا الكلام ؟  
وتجيبه ليوبا بشيء من الضيق :  
- كتاب صغير أصفر .

- ضعيه على مكتبى . ان الناس لا يكتبون كلاما كهذا لغير غرض  
.. اهم .. سبب وراء كل شيء .. ان الذى فكر فى ذلك شخص ذكى  
ولا بد . لقد صاغه صوغا جميلا . وهو كلام ان لم يكن المقصود به  
المغفلين فى هذه الدنيا ، جاز أن يصدقه الانسان . الا أننا حينما  
نرى أن المغفلين لا يصلحون لشيء فى أى مكان ، فمن رابع المستحيلات  
القول بأن ثمة سببا وراء كل شيء .. لا بأس .. وداعا .. فوما ..  
هل أنت باق ، أو تأتي لأُصملك الى المنزل ؟

- بل سأبقى قليلا .

ثم عاد فوما وليوبا فخلا بعضهما الى بعض مرة أخرى .  
وأوما فوما وراء اشبينه مستهزئا :

- ذكر بط .. غريب الاطوار !

- ولماذا ؟

- له رأيه الخاص فى كل شيء ، ويسمى كل شيء باسم غريب :

وتجيبه ليوبا والحزن باد عليها :

- انه ذكى .. لكنه لا يفهم لماذا أنا غير سعيدة ؟

- ولا أنا والله .. انك تعقدين الاشياء وتجعلينها تبدو على غير

حقيقتها

وتسأله بمزاج منحرف :

- مثل ماذا مثلا !

- أوه .. كل شيء ! وهذه ليست أفكارك - انها أفكار ناس

آخرين

- أفكار ناس آخرين ! أفكار ناس .. :

وكانت على وشك أن تقول شيئاً جارحاً .. الا أنها أمسكت ولم  
تفه .. وبينما كان فوما يجيل فيها عينيه لم يملك أن يقارن بينها وبين  
صوفيا بافلوفنا

وأنشأ يحدث نفسه محزوناً محطوم القلب : ما أشد اختلاف  
الناس .. حتى النساء ! وكل منها تجعلك تحس احساساً مختلفاً

لقد كان الظلام يوشك أن يرخي سدوله في الخارج .. وفي الغرف  
أيضاً .. وكانت الرياح تهب خلال أغصان الزيزفون فتضرب هذ  
الجدران بأفنانها كأنما كانت تشتكي البرد هي الاخرى وتود لو يؤذ  
لها بالدخول ..

وقال فوما بصوت باغم :

- ليوبا

ورفعت ليوبا رأسها وحدجته بعينيها وهي تقول :

- أعلمت أنني تشاجرت مع صوفيا بافلوفنا ؟

وتسأله ليوبا منتعشة :

- ولماذا ؟

- ليس لأمر خاص .. لم تكن أمينة معي

- حسن .. يسرني أنكما تشاجرتما .. لقد كانت قميئة أن تلقا

حول خنصرها .. انها امرأة قادرة .. آه لو عرفت ما أعرفه أنا عنها

ويجيبها مغموما :

- انها ليست كما تحسبين أبداً .. وأنت لا تعرفين شيئاً عنها ..

هذه كلها أراجيف !



- أوه .. كلا .. ليست أراجيف مطلقا .  
ويقول لها متوسلا :

- اسمعي يا ليوبا .. أرجوك ألا تقدحي فيها أمامي .. انني  
أعرف كل شيء .. شرفا أعرف .. فلقد ذكرت لي كل شيء .

وتسأله ليوبا في دهشة :

- أحقا ؟ يا لها من مخلوقة عجيبة ! وماذا قالت لك ؟

وقال فوما وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ملتوية :

- لقد اعترفت لي بأنها .. آئمة !

- وهذا كل ما قالته ؟

وأثارت رنة خيبة الامل في سؤال ليوبا الامل في نفس فوما .  
فقال :

- أليس في هذا الكثير ؟

- وهل تحبها حبا شديدا ؟

وجعل فوما ينظر خلال النافذة دقيقة أو نحوها وهو لا يجيب ،  
حتى قال أخيرا :

- لست أدري . يخيل لي أحيانا أنني أحبها في وقت ما أكثر مما  
أحببت .

وتهز ليوبا كتفيها وتقول :

- بصراحة ، لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تحب مثل هذه  
المرأة !

- أوه .. وأي صعوبة في هذا ؟

- لا يمكننى أن أفهم ذلك • ولعل السبب هو أنك لم تر أجمل  
منها •

وقال فوما موافقا :

- فعلا

ثم يصل حديثه بعد برهة فيقول :

- ولعله ليس ثمة من هي أجمل منها • لشد ما أحن اليها وأريدها  
الانى أحشاها - أعنى أننى لا أود أن أجعلها تأخذ فكرة سيئة عنى •  
وأحيانا تنهكنى هذه الفكرة حتى لاؤشك أن أتغلب عليها بالشرى  
الى أن تدور رأسى • لكننى لا أكاد أهم بذلك حتى أتذكرها • • فا  
أجد من نفسى القدرة على شرب قطرة واحدة • • وهكذا فى كل شى  
• • اننى كلما فكرت فيها ، وما عسى أن تقول • • ضـعـف قلبى  
واضطرب •

وتسأله ليوبا وهى فى لجة من الفكر :

- اذن فأنت تحبها حقيقة • وأنا ، اذا قسم لى أن أحب أحدا  
فقد أكون مثل هذا أيضا • • لن أفتأ أفكر فيه ، وفيما يقول •

ويقول فوما :

- أن كل ما فيها مختلف عما فى غيرها - انها تتكلم كما لا يتكلم  
أحد سواها ، ويا لله ، ما أرقها ! انها نحيلة نحيلة • • كالطفل !

- وماذا حدث بينكما ؟

ويقترب فوما بكرسيه منها ، ويميل الى أمام ، ثم يشرع فى حديثه  
بصوت خفيض ، فيذكر لها كل شىء ، وكان كلما استعاد الكلام اللذى  
وجهه الى صوفيا بافلوفنا ، أحس كأن المشاعر التى جعلته يقول ها  
الكلام تحيا من جديد •

- قلت لها : يا للعار ! ما الذى جعلك تتلاعبين بى ؟

وكان صوته مليئا بالانفعال والثورة ، وكانت ليوبا التى هزتها الحماسة لا تنى تومىء برأسها علامة على موافقتها ، وتشجيعا لئوما على الكلام . وتقول له :

- مرحى مرحى ! وبماذا أجابت ؟

فيبدو الهم على وجه فوما ، ويهز كتفيه ، ويقول :

- لا شئ ! وبالأحرى . . انها كانت تتمحل المعاذير . . ولكن ماذا يفيد الكلام ؟

ثم ساد الصمت ، وسكت ، وسكنت ليوبا أيضا وان جعلت تلعب ضفيريها . وكانت الغلاية قد خدمت نارها ، والظلام قد أخذ يخيم نى الغرفة ، وأصبحت النوافذ أشبه ببقع معتمة وقال فوما :

- لماذا لا نضىء المصباح ؟

وتجيبه ليوبا متنهدة :

- لله ما أشد تعاستنا . . أنا . . وأنت !

أما فوما . . فلم يرضه هذا الكلام . . ولهذا اعترض قائلا ، وهو رابط الجأش :

- اننى لست تعسا . . . والمسألة اننى لم أتمرس بالحياة بعد ، وتجيبه ليوبا محزونة :

- ان الانسان يكون تعسا اذا لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل غدا . فانا لا أعرف . . وأنت لا تعرف أيضا . وقلبي لا يعرف طعم الراحة أبدا . . وهو دائم الاضطراب بفعل حنين لا يمكن تفسيره

- أوه .. أنا أيضا أشعر بهذا .. والآن .. حان موعد ذهابي  
الى النادي

- لا تذهب ..

- بل .. لا بد .. فان صديقا ينتظرني ثمة .. وداعا ..  
- وداعا ..

ثم مدت اليه يدها ، وعيناها تبحثان في حزن ووجوم في  
عينيه .

وسألها فوما بعد أن ضغط يدها ضغطة خفيفة :

- أتتوئين أن تنامي ؟

- بل سأقرأ قليلا أولا

ويجيئها وهو غير موافق على أنها تنوى القراءة :

- الكتب بالقياس اليك ، كالفودكا بالقياس الى السكرارى !

- حبذا لو فكرت في تشبيه غير هذا .

وعندما كان فى الشارع رفع رأسه الى نافذتها فلمح فيه وجهها  
.. وجهها الشاحب كأفكارها ورغبات نفسها . ثم أوما اليها ،  
وهو يحدث نفسه قائلا : انها مختلطة الفكر .. كصاحبنا الاخرى .

وجعلته هذه الفكرة يسرع فى خطاه ويضرب برأسه ، كأنه يحاول  
طرده كل فكرة فيها عن صوفيا بافلوفنا .

وكانت لفحات من الرياح الباردة تجتاح الشارع من جميع  
جوانبه فتثير التراب فى أوجه المارة . وكان الناس يدجلون فى  
الظلام ، وكان فوما يزم وجهه ويكاد يغمض عينيه .

وجعل يحدث نفسه قائلا : اذا لقيت امرأة أول من ألقى فيكون

معنى هذا أن صوفيا بافلوفنا ستقابلنى بمثل البشاشة التى كانت  
نلقانى بها من قبل ٠٠ وسأذهب لزيارتها غدا ٠ أما اذا لقيت رجلا ،  
بلن أذهب غدا ، بل سأنتظر قليلا ٠

لكنه لقى كلبا ، وقد غاظه هذا حتى لقد أوشك أن يركل الحيوان  
لمسكين ٠

ولقى فى بار النادى هذا الشاب المرح أُوختيشيف الذى كان  
إقفا قرب الباب وهو يتحدث الى رجل سمين ذى شوارب ٠ وعندما  
حج الشاب فوما دلف مسرعا ، وناداه مبتسما :

- ها لى أيتها المليونير المحتشم !

٠ وكان فوما يحب هذا الشاب لبشاشته وطلاقة وجهه ، وكان  
يسره دائما أن يراه ٠ وقد صافحه بوجه يفيض ودا ثم سأله :

- ما الذى يجعلك تظننى محتشما ؟

- ان أى انسان يستطيع أن يدرك ذلك ٠ فانت شخص تعيش  
كما يعيش النساء ٠ لا تشرب ولا تلعب الورق ولا تغازل - أوه  
٠٠ على فكرة ٠٠ هل علمت أن راعيننا التى لا نظير لها ستسافر  
غدا وستقضى الصيف فى الخارج ؟

فسأله فوما فى هدوء :

- صوفيا بافلوفنا ؟

- نعم ٠٠ ان شمس حياتى ٠٠ وربما حياتك أيضا ؟ ٠٠ تميل  
الى الغروب !

وغمز بوجهه غمزة مضحكة ، ورمق فوما بنظرة كلها خبث ٠٠  
أما فوما ، فقد جمد فى مكانه ، وشعر بدوران ينتاب رأسه ، وأنه  
عاجز عن جمع شتات نفسه ٠

ثم قال أخيرا وفى صوت خفيض عميق صادر بلا وعى :  
- اذن .. فسوينا مسافرة .. أليس كذلك ! شىء لطيف  
لشد ما أنا مسرور !

ويسأله أُوختيشيف متعجبا :

- حيلك ! لماذا تقول هذا !

ويبتسم فوما ابتسامة بلهاء وهو يرمق رفيق صديقه المشدود  
بنظرة حائرة . أما أُوختيشيف فيداعب شاربه بأصبعيه ، ويوجه  
دشا من الكلمات الغيظة المنكرة الى فوما .. على حين يقول رفيق  
أُوختيشيف :

- لأن المدينة ستنتقص احدى فاجراتها !

ويحتج أُوختيشيف ويقول متجهما :

- أو .. لا لا يا مارتن نكتتش !

وتثور نائرة فوما .. ويتقدم خطوة من نكتتش ويسأله متجهما

- ومن أين لك أنها فاجرة ؟

ولا يزيد الشاب الاثنيق على أن يسمح فوما بنظرة متسامخة ، ثم  
يدير رأسه فى ناحية أخرى ، وهو يقول فى نفخة عجيبة ، وعضلا:  
بطن ساقه اليمنى تختلج :

- اننى لم أقل انها فاجرة .. بل قلت انها فاجرة !

وهنا تدخل أُوختيشيف يقول بعنف :

- يجب ألا تقول مثل هذا الكلام عن امرأة هـ ..

ولكن فوما يقاطعه بقوله :

• لحظة من فضلك • اذ لا بد أن أسأل هذا السيد عما يعنى •  
ما الكلمة التى استعملها ؟

وكان فوما يتكلم فى هدوء ووضوح ، وهو واضع يديه فى أعماق جيوبه ، وقد شد صدره الى أمام كأنه موشك أن يدخل معركة ، أما السيد المتشامخ فقد حدجه بنظرة ثانية ، وابتسم ابتسامة ساخرة جعلت أوختشيف يدرك ما وراءها من شر ، فناداهما متوسلا :

- أيها السادة !

وقال الشاب وهو يتشددق :

- ان ما قلته هو أنها : فاجرة • وان لم تكن تعرف معناها ، فأنا أشرحه لك !

فقال فوما وهو يملا رثنيه بنفس عميق ، وعيناه لا تريمان عن وجه الشاب :

- نعم • اشرح معناها من فضلك •

وأدار أوختشيف حدقتى عينيه •• ثم التحى ناحية أمينة •

وقال الشاب المنتفخ بصوت هادىء وهو يدنى وجهه الممتلئ من وجه فوما :

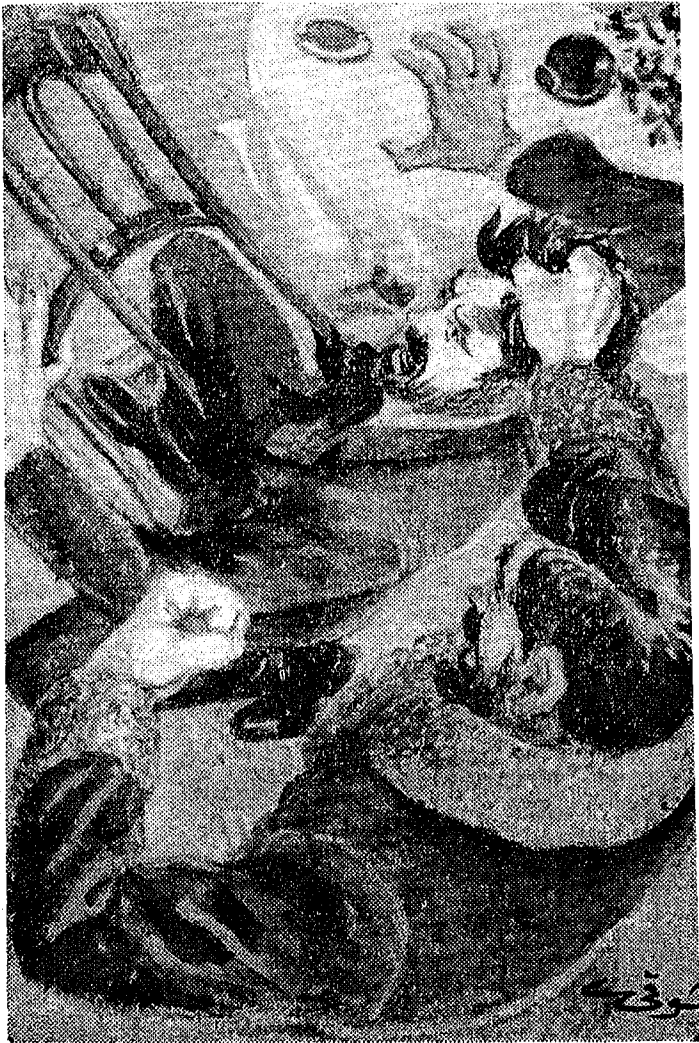
- فاجرة •• ولا أزيدك علما •• معناها امرأة لا عرض لها •

وزأر فوما زارة خفيفة •• وقبل أن يعرف الشاب ماذا حدث له ، كان فوما قد أمسكه من شغره المجعد الداكن ، وجعل يهزه هزا عنيفا بيده اليمنى ، ثم جعل يلوح فى الهواء بيده اليسرى وهو يبرق ويرعد قائلا :

- لا تسب الناس •• وراء ظهورهم • وقل لهم ما تشاء فى •••

وجوههم ••• قل هذا فى وجوههم صراحة •

كان فوما قد أمسكه من شعره الجعد الساكن وجعل يهزه





وقد طاب قلب فوما وثلج صدره ، حينما رأى الشاب المغرور وهو يضرب فى الهواء بيديه السمينتين على هذه الصورة المضحكة ٠٠٠ ، وكيف كانت ركبتاه تصطكان من شدة الهز ، وكيف كانت قدماه تخربشان الأرض ٠ وقد انتشرت ساعة الشاب الذهبية من جيبه ، وتدرجت من سلسلتها الذهبية على بطنه ٠ وقد بلغ من طرب فوما الذى انتشى لما أحس من قوته ، وما كان يخامر من لذة الانتقام ، بما أذاق هذا العين المحترم ، من مهانة وتحقير ٠٠٠ بلغ من طربه الذى كان يقرب من الجنون أن أخذ يصيح مسرورا مبتهجا وهو يجرحه الى وراء ثم يدفع به الى أمام والمسكين صعق مأخود لا يملك عن نفسه دفاعا ٠ ثم شعر آخر الأمر بأن العبء الثقيل الذى كان يجثم على صدره قد انزاح ٠٠٠ العبء الذى ملأ نفسه قنوطا كل هذا الوقت ٠ ولم يشعر الا وشخص ما يمسكه من وسطه وكتفيه ، ويقبض على أصابعه ، ليثنيها الى خلف ٠٠٠ وشخص آخر يشب فيقف على أصابع قدميه ٠٠٠ لكن عينيه اللتين كانتا تقدحان الشرر لم تكونا تريان شيئا الا هذه الكتلة الثقيلة التى كانت تئن وتتوجع فى قبضته ٠ وأخيرا وجد نفسه ينتزع من فريسته ، وقد أفلتت من قبضته ٠٠٠ ثم يرى ٠٠ وكأنه ينظر من خلال ضبابية حمراء ٠٠ الى الرجل الذى صنع به هذا الذى صنع ملقى عند قدميه ، ولا حراك فيه ٠ ثم أخذ الرجل المكوم ، المشعث ، يبدى بعض الجهد اليائس لكى ينهض على قدميه ، حتى أدركه رجلان بلبسان ملابس سوداء فحملاه ، وكانت ذراعاه مسترخيتين بينهما كالأجنحة المتكسرة ، وقد جعل يلهث بصوت مجروح :

- انك لا تستطيع أن تمسنى بيديك ٠٠ انك لا تستطيع ٠٠  
تعرف من أنا أيها الوغد ؟ اننى ممن يحملون أوسمة الدولة ٠٠ ولى  
اطفال ٠٠ وكل الناس يعرفون من أنا ٠٠ أيها الوغد ٠٠ أيها  
الوبش ! يا أكل لحوم البشر ٠٠ لا بد من مبارزة !  
ويهتف أوختشيف فى أذن فوما قائلا :

— هلم بنا ٠٠ بالله عليك ٠٠ هلم بنا ٠

— بل انتظر لحظة ٠٠ سأحطم له وجهه !

ولكن أُوختشيف جذبه ، ومشى به ٠٠٠ ورأسه يتمايل ، وقلبه يدق ، الا أنه مع ذلك يشعر بانسراح وسعادة ٠٠٠ وعندما كانا عند باب النادي ، أخذ نفسا طويلا فأنعشه ٠

وراح يسأل أُوختشيف وعلى فمه ابتسامة لطيفة :

— أظنه لن ينسى هذا الدرس بسرعة ، هه :

وأجابته السكرتير الشاب وهو يلهث :

— لا بد أنك مجنون ! فيم كل هذا ؟ اننى لم أر مثل هذا طول حياتى !

— ولكن ٠٠ يا صديقى العزيز ٠٠ ألم يكن يستحق تلك العلقه الساخنة ؟ أليس سافلا قليل التربية ؟ كيف يجرو أن يقول هذا عنها فى غيابها ؟ ليذهب وليقل لها هذا الكلام فى مواجهتها !

— حيلك — حيلك ! ما لنا نحن وهذا كله ؟ أرجو أن تكون قد ألحقت به ما ألحقت لحسابها هى :

— وما معنى قولك لحسابها ؟ لحساب من اذن ؟

— لست أدرى ٠ ولكن ٠٠ لا بد أن تأثرا قديما كان بينك وبينه،

وكننت تصر على تسويته ٠٠ ما شاء الله يا لها من خناقة ! اننى لرز أنساها الى آخر حياتى !

— هذا الرجل ٠٠ : من هو ؟

ثم انفجر ضاحكا ووصل كلامه قائلا :

- كان شكله ظريفا وهو يتهق .. هذا الجحش .. الأحمق !  
وحملق فيه أوختشيف لحظة قبل أن يقول :  
- عجيبة ! صحيح انك لا تعرف من هو ؟ وهل صحيح أنك  
عملت ما عملت لحساب صوفيا بأفلوفنا ؟  
- بل عملته باسم الاخلاق والواجب  
- بل باسم الحماقة والتغفيل !  
وقالها أوختشيف مرتبكا مترددا ، رافعا كتفه في تملل ، وملوحا  
بيده ، وقد عاد الى الرصيف من جديد ، ثم قال لفوما وهو يحدجه  
بطرف عينه :

- انك ستلقى جزاء ما فعلت .. فوما اجناتيفتش !  
- وماذا عساهم أن يصنعوا بي ؟ يقدمونني للمحكمة ؟  
- لو اكتفوا بهذا يكون من حسن حظك . انه زوج بنت المحافظ!  
- م .. ما .. ماذا ؟

وسقط في يد فوما .. ولم يلبث أن نكس رأسه !  
- أقول لك الحق .. انه وغد ومن أسفل خلق الله ... وأنا  
أستنتج مما أصابه أنه يستحق ما حدث ... ولكنك اذا فكرت في  
أن السيدة التي كنت تنافع عنها هي أيضا ...

وقال له فوما وهو يضع يده على كتفه ، هادئا رابط الجنان :

- اسمع يا صديقي .. لقد أحببتك دائما .. وقد تركتهم جميعا  
لتمشى معي .. وأنا أفهم ذلك وأقدره .. الا أن هناك شيئا أسألك  
أن تجيبني اليه .. ذلك ألا تتحدث عن هذه السيدة باستخفاف  
تأمامي .. وهي مهما تكن بالنسبة اليك .. فانها بالنسبة الى ..

بالنسبة الى .. عزيزة جدا .. وليس فى هذه الدنيا كلها من هم  
أعز على منها .. ولهذا ، فأنا أقولها لك صريحة وفى غير مواربة .  
ما دمت رضىيت أن تمشى معى ، فأرجوك ألا تتحدث عنها .. وما دمت  
أنا أرى أنها سيده صالحة .. فلتقف عند هذا .

وكان فوما يتحدث وهو يحس كأنما أؤختشيف ينظر اليه  
متعجبا .

وقال له أؤختشيف :

- حسن .. انك شخص ظريف .. ولا شك فى ذلك .

- بل أنا شخص بسيط .. وقد أكون متوحشا .. ولقد مسحت  
الأرض بهذا الانسان .. وأشعر من أجل هذا بمنتهى الفخر ..  
ولست أبالى ما يحدث بعد ذاك

- وأخشى أن الذى قد يحدث شئ كثير .. أقول لك الحق ؟ أذ  
أحبك أيضا ... وان كنت أرى أنك - اهم - شخص خطر ! ولست  
أدرى متى تعاودك نوبة أخرى من الفروسية ، فتمسح بى الأرض  
أنا أيضا !

- .. أو .. اطمئن .. فأنا لا أفعل هذا كل يوم .. بل الحق ..  
اننى لم أفعل هذا قبل اليوم

وضحك أؤختشيف ، لأن فوما كان يتكلم وقد بدا عليه الأسف .

- ان ما صدر منك هو البشاعة بعينها . ولكن اسمع يا فوما .  
ان الشجار عمل من أعمال التوحش . انه شئ دنىء ، وأرجو أن  
تغفر لى هذا التعبير ، وان كان الواجب أن أعترف بأنك أحسنت  
اختيار فريستك للشجار هذه المرة .. انه حشرة .. بل داعر ..  
واغل فى أعراض الناس .. رجل يرتكب أفحش المنكرات ولا يقع  
تحت طائلة القانون .

ويقول فوما مثلنذا :

- يسرنى أن أسمع ذلك ٠٠ وليس ما ناله منى الا قليل مما  
يستحق من العقاب \*

- قليل ! لا بأس ! لنفرض أنه كان قليلا ، ولكن اصغ الى يا بنى  
- كلمة نصح من كاتب محكمة ٠٠ ان هذا الرجل وغد زعيم ما فى  
ذلك شك . ولكن تذكر أنك لا تستطيع أن تمسح الأرض حتى  
بالأوغاد ، لأنهم هم أيضا ذوات اجتماعية ، ويتمتعون بحماية  
القانون ، انهم لا يمكن أن ينالهم أذى الا فى حالة ما اذا تخطوا  
حدود القانون ، وحتى فى هذه الحالة ، لست أنت ، ولكن نحن  
القضاة الرسميين ، الذين نحدد ما يستحقون من العقاب ٠٠٠ وعلى  
هذا ، فان لم يكن شيء يهكم ، فلا أقل من أن تحاول التذرع  
بالصبر \*

ويسأله فوما فى سداجة وبراءة قلب :

- وهل يمضى زمن طويل قبل أن يقع فى أيديكم ؟

- هذه مسألة فيها نظر . فاذا كان صاحب القضية رجلا لا غباء  
فيه ، كان محتملا ألا يقع فى أيدينا ٠٠ وسيظل فى نظر القانون  
الى آخر أيام حياته مواطنا جديرا بالاحترام مثلى ومثلك ٠٠٠ أوه !  
يا الهى ! ماذا أنا قائل \*

ثم تنهد أوختشيف بلهجة ساخرة

وضحك فوما وسأله :

- ماذا ؟ هل تكشف أسرارنا لا يصح أن تكشفها ؟

- ليست أسرارنا تماما . ولكن ٠٠ ليس يلىق بى أن أكون خفيف  
العقل الى هذا الحد . اللعنة على كل شيء ! لقد كاد ما حدث يطيش

صوابي • ان رغبة الانتقام تستطيع ، كما يقولون ، أن تقوم بعملها  
بمجرد الرفس والركل خبط عشواء ، كما يرفس الجواد الجامح •  
وتوقف فوما فجأة ، كأنه ازاء عقبة صدته عن المسير ، ثم قال  
ببطء وبصوت عال :

- وقد بدأ هذا كله عندما قلت أنت ان صوفيا بافلوفنا مسافرة  
- انها مسافرة •• وماذا في ذلك ؟

وأخذ أختشيف موقفا ازاء فوما ، ثم جعل ينظر اليه ، وفي عينيه  
يريق له معناه • ووقف فوما ساكنا ، ورأسه منكس ، وهو يضرب  
الحجارة المرصوفة بعصاه ، حتى دعاه أختشيف قائلا :

- هيا •• سر بنا

وسار فوما وهو يزوم بلا مبالاة :

- لا بأس • فلتسافر

وراح أختشيف يدير عصاه في الهواء ، ويصفر بفمه لحنا ،  
على حين كان يرمق فوما بطرف عينيه • وأخيرا قال فوما :

- لكأني لا أستطيع الحياة بدونها !

وكان عينيه معلقتان في نقطة بذاتها فوق رأسه ••• ثم تمضى  
لحظة ويعود الى الكلام مرة أخرى •• وبصوت هادئ •• الا أنه  
ممتليء اقتناعا :

- بل في وسعي •• طبعاً •

ويقول له أختشيف :

- اسمع •• اليك نصيحة تنفعك : لا بد أن تكون لك شخصيتك  
القوية ••• ويجب أن يكون للشخص دائما شخصيته • ان مزاجك  
هو مزاج أبطال الملاحم •• ان صح أن نقول هذا • أما مزاج أصحاب

- الغناء والغزل فلا يليق بك .. وهو ليس من ذوقك ولا يوائمك .  
وقال فوما ، وقد حاول أن يفهم ما يقوله أوختشيف :  
- استعمل كلمات أسهل فى حديثك لى أيها الصديق .  
- لا بأس . أن ما أردت أن أقوله لك هو أن تسقط تلك السيدة  
من حسابك .. انها سم قتال لمن كان مثلك  
وقال فوما أسيفا محزونا :  
- ان هذا هو الذى قالته بالضبط !  
- أصبحى قالت لك هذا ؟ اهم .. حسن .. هل نذهب الى مكان  
ما للعشاء ؟  
ووافق فوما قائلا ، وهو يزار ويضرب الهواء بقبضتيه :  
- هيا بنا . واذا ذهبنا فلنذهب بالاسلوب الذى يليق بنا .  
بأننا لا أقبل أن أذهب الى مكان ما للشرب والقصف ، وبعد كل الذى  
حصل ، لست أرضى لنفسي ذاك الجنسون ، والا .. قبضت على  
شعرك .. و .. !  
- وما الداعى لكل هذا ؟ انه سيكون عشاء محتشما .. نظيفا !  
ويمسكه فوما من كتفه ثم يقول له :

- اصدقنى القول يا أوختشيف .. هل أنا شر من أى شخص  
ممن تعرف ؟ ان بعض الناس يبدو عليهم أنهم يتمتعون بالحياة -  
تراهم دائما يقصدون الى هذا المكان أو ذاك ، وراء غرض من  
الأغراض ، أما أنا .. فأراني منقبضا انقباضا شديدا .. بل فل  
انقباضا مهلكا - وهم جميعا راضون عن أنفسهم - واذا سمعتهم  
يشكون ، فنىكاواهم محض ادعاء ، هؤلاء الأوباش ! وهم دائما  
يسلكون مسلك التعاطف والاستكبار ، الأمر الذى لا أجيد منه قليلا  
ولا كثيرا . اننى شخص مغفل .. على نيائه ! لا أفهم الأمور الخبيثة ،

ولا أستطيع النفاذ الى بواطن الامور . وهذا أمر يؤلمنى ويمضنى  
وبعض الناس يقول هذا . . . وبعضهم يقول ذاك . . . وأما عنها .  
فوا أسفاه ! لو أنك فقط تعرف ! لقد وضعت جميع آمالى فيها . .  
لقد كنت أنتظر منها أن . . . أن . . . ؟ لبيت شعرى ماذا كنت أنتظر  
حتى هذا لا أعرفه ! الا أننى أعلم أن أحدا لا يمكن أن يذهب اليه  
. . . وأننى كنت على يقين أنها كانت ستطلعنى يوما من الأيام على  
أمر من أخص شئونها . ان عينيها عينان عجيبتان حقا . . . ويا لله  
ان الانسان ليرتجف خوفا وهو ينظر فيهما . . . اننى لم أكن أحبه  
فقط ، بل لقد وهبت لها روحى وقلبى جميعا . ولقد كنت أحسب  
أن مجرد قربى من سيدة فى جمالها وعذوبتها سيخلق منى رجلا .

وكان أوختشيف يصغى الى تلك الكلمات المتقطعة وهى تتدفق من  
فم فوما ، ويرى عضلات وجهه وهى تتقلص من شدة ما يبذل من  
جهد فى التعبير عن أفكاره ، كما كان يلمس الحزن العميق الكامن  
وراء هذه الاعترافات المهوشة . لقد كان ثمة فى الواقع شئ مؤلم  
أشد الألم ، موجع أشد الايجاع فى عجز ذلك الشاب القوى المتوحش،  
وقلة هيلته . . . ذلك الطاغى الذى كان يطوى الشوارع طيا بخطواته  
الواسعة غير المتساوية . وقد شعر أوختشيف ، وهو يشب خلفه  
لاهثا ، برجليه القصيرتين ، أن من واجبه أن يواسيه ويسليه بأية  
طريقة من الطرق ، اذ كان كل ما صدر عن فوما وما قاله فى تلك  
الأمسية قد أثار اهتمامه ، وهذا ، بالإضافة الى ما خامره من الزهو  
خين أحس أنه قد أصبح موضع ثقة هذا الشاب الغنى ، فوما  
جوردييف . لقد ناء بحمل هذه الثقة ، وكادت بثقلها أن تبهر  
أنفاسه . وبالرغم من أنه ، على صغر سنه ، قد أعد من العبارات  
ما يلزم للتعبير عن كل حادث من أحداث الحياة ، الا أنه كان يجد  
صعوبة فى تذكر هذه العبارات فى المناسبة الحاضرة .

وقال وهو يدفع بذراعه تحت ذراع فوما بطريقه تفيض ودأ :



- يا لله ! انك لا تستطيع أن تسير في الحياة على هذا الأسلوب .  
انك تفلسف ولما تكذب تقف على عتبة الحياة . . . الواقع أنك لا تستطيع .  
وأنت تعرف هذا . لقد أعطينا الحياة لنحيهاها - وبعبارة أخرى : عش .  
ودع غيرك يعش . وهذا هو جماع الفلسفة - أما عن هذه المرأة . . .  
فيا عجباً لك ! ان السماء لا تشرق وتغرب في أفقها فقط . . .  
وبالأحرى انها ليست المرأة الوحيدة في هذه الدنيا . . . ودعنى  
أقدمك - اذا أردت - الى امرأة أشد منها فتكا ، امرأة تنسيك  
فلسفاتك جميعاً في اللحظة التي تقع عينك عليها . . . سيدة  
أرق من الرقة نفسها . . . السيدة التي تجعلك تنتفع بحياتك على  
أحسن الوجوه ! وهى تشبهك من حيث أن مزاجها هو مزاج أبطال  
الملاحم . . . ثم هى جميلة . . . بل هى هيلين نفسها . لكناًها خلقت  
لك ، وفصلت على قدك ! يا للفكرة البديعة . انى سوف أقدمك اليها  
ما فى ذلك شك . . . وسأداويك بالتى كانت هى الدواء .

ويقول له فوما مكتئباً :

- لا تنس أن لى ضميراً . . . وطالما أن صوفياً بافلوفنا على قيد  
الحياة فلا تفكر فى أننى أستطيع مجرد النظر الى أية امرأة أخرى .  
- اه ! رجل معافى سليم البنية مثلك . . . يقول هذا ! أوهوه !

ثم شرع أوختشيف يشرح له نظرية حاجة الانسان الى التنفيس  
عن مشاعره بالمنامة والانبساط وذلك بطريقة تعليمية . قال :

- بل هذا هو ما أنت فى أشد الحاجة اليه . . . وصدقنى . أما  
مسألة ضميرك . . . ومعذرة . . . فأنت غير مصيب فى هذه النقطة .  
وضميرك ليس هو الذى يصدك ويقف بينك وبين الاستمتاع . . .  
بل هو خجلك . . . فأنت لم تتعود الاختلاط بالناس ، ومن ثمة فأنت  
تشعر بالتهيّب والاستحياء ، وبالضيق وأنت فى حضرتهم . وأنت  
تفهم هذا فهما خاطئاً ، وتحسب أنه الضمير - ولكن لا يمكن أن .

يفسح المجال لذكر الضمير هنا - اذ ماذا هنا مما يمكن للضمير أن يعترض عليه ، اذا لم يكن بد للانسان من أن يلذ ويمتنع نفسه ، واذا كان هذا الالتذاذ وذاك الاستمتاع من حقه ومن صميم حاجته !

وكان فوسما يحملق فيه وهو يسايره ، ويوفق بين خطواته وخطواته . وكان الشارع بصفى المنازل على جانبيه أشبه بهوة هائلة ممتلئة بالظلام ، وكأنه لا نهاية له ، وكان مجرى لا ينضب من شيء أسود خانق يتدفق فيه ببطء وتراخ . وكان صوت أوتششيف . . . ذلك الصوت اللطيف ذو القدرة على الاقناع يأتي رتيبا ، وبينما لم يكن فوسما يستمع الى الكلمات ، كان يدرك أن فيها لزوجة تجعلها تلتصق في ذهنه بالرغم منه . . . كما كان يخيل اليه ، بالرغم من وجود رفيق الى جانبه يحدثه ، أنه يسير وحده ، تائها في ظلام الليل الذي لف نفسه حوله ، وجعل يهدده الى الامام . وكان يعرف أنه مسوق للغواية في مكان ما ، الا أنه لم يكن يملك أية قدرة على المقاومة ، وقد جد به التعب والضمنى فلم يعد يستطيع الى التفكير من سبيل . ولم تكن به رغبة في معارضة ما يقول أوتششيف . . . ولماذا يفعل !

واسنمر أوتششيف في حديثه مزهوا بحكمته فقال :

- اننا انما نحيا حياة واحدة ، ومن ثمة وجب ألا نضيع أى قدر من الوقت هدرا . . . وصدقنى . ولكن . . . فيم هذا الاسراف فى الكلام ؟ اسمح لى بأن أنتشلك مما أنت فيه . . . هلم بنا الى منزل تعيش فيه أختان . . . ويا حسن ما تعيشان ! تعال . . . تعال . . . هل تقبل ؟

ويجيبه فوسما وهو يتثائب فى غير مبالاة :

- ولم لا ؟ ولكن . . . ألا ترى أن الوقت لم يعد مناسباً ؟  
- ان الوقت لا يكون غير مناسب مطلقا ما دمتنا سنذهب ونراهما ،  
قالها أوتششيف وهو يكاد يطير فرحا .

## الفصل الثامن

وجد فوما نفسه بعد ثلاثة أيام من حادثة النبادى ، فوق المرفأ الحشبي الذى يملكه التاجر زفانتسيف ، والذى على بعد سبعة أميال من المدينة ، وفى صحبته أربع نساء ، وصديقه أوختسيف ، وابن التاجر زفانتسيف ، ورجل أنيق آخر ، أصلع الرأس ، أحمر الأنف ، ذو شوارب مدلاة على جانبي فمه . وكان زفانتسيف فتى حدث السن شاحب اللون نحيل الجسم ، يلبس نظارة من النوع الذى يشبك على الأنف . وقد جعلت عضلات بطن ساقيه تختلج مع أنه واقف ساكن لا يتحرك ، كأنها تكره حمل جسمه النحيل المنتهى من أعلى بهذا الرأس الصغير المضحك المغطى بهذه الطاقية الجوكى التى أرخى فوقها طرطور معطفه الطويل ذى الترايبع . وكان السيد الأنيق ذو الشوارب المدلاة يدعوه جان ، وتسمعه ينطق بهذا الاسم بشيء من الحنف كأنه مصاب ببرد مزمن فى أنفه .

أما فتاة جان فطويلة مملوءة الصدر ، ذات رأس مبسط يبدو كأنه دق من الجانبين ، ولها جبين يتقلص من أعلاه الى الخلف تقلصا سديدا ، وأنف بالغ الطول يضفى عليها هيئة الطير . ولم يكن شيء من هذا الوجه القبيح كله يبدى أية حركة ، إلا العينين الصغيرتين المستديرتين الباردتين اللتين كانت حدقتاهما تدوران الى أعلى باستمرار فى ابتسامة ماكرة . أما فتاة أوختسيف فاسمها فيرا ، وهى بنية طويلة شاحبة ذات شعر غزير أصحر ، يبدو لغزارتها كقبعة ضخمة مكبوسة دائما على أذنيها وخديها وأعلى جبينها ، وهذه لزوج من العيون الزرق الذى يفتر تفتيرا حلوا من تحتها .

وكان السيد ذو الشوارب المدلاة يجلس بجانب فتاة صغيرة  
بضة يانعة ، لا تقلع عن الضحك لأشياء يسرها السيد في أذنها  
وهو مائل فوق كتفها .

أما فتاة فوما ، فقمحية اللون ، هيفاء القوام ، وملابسها كلها  
سوداء . ولها بشرة سمراء وشعر مموج . ورأس مرفوع لا يطأطأ ،  
وتلقى نظراتها على كل ما حولها في ترفع واستعلاء ، حتى ليدرك  
الانسان بسهولة أنها تعتبر نفسها فوق مستوى زميلاتها .

وكانت الجماعة قد انتظمت فوق آخر عوامة من سلسلة العوامات  
الممتدة الى مدى بعيد في داخل النهر الوديح الخالي من السفن . وقد  
صفت ألواح الخشب فوق العوامة ، وقامت في وسطها منضدة  
خشنة ، وانتشرت سلال الطعام والزجاجات الفارغة وأكياس  
البونبون وقشر البرتقال في كل مكان . وكانت كومة من التراب  
تشاهد في أحد أركان العوامة ومن فوقها موقد جثم بالقرب منه  
فلاح لبس فروة من فراء الغنم ، وجعل يده في يديه ، ملقيا نظراته  
على أسياده الذين كانوا قد انتهوا توا من تناول شيء من حساء  
السلمك ، ثم حفلت المائدة التي أمامهم بعد ذلك بألوان الشراب  
والفاكهة .

وكان ما بشموا به من كثرة الأكل والشرب ، فضلا عن يومين  
متصلين من الفسق والفجور قد أنهكهم وجعلهم جثثا هامدة لا حياة  
فيها . وقد سمرت عيونهم جميعا في صفحة النهر ، وهم يثرثرون  
بأحاديث لا تلبث أن تنقطع . وكان اليوم من أيام الربيع الصافية  
التي تبعث النشاط في النفوس ، شأن أيام الربيع ، والسماء الصافية  
الباردة تمتد في جلال وروعة فوق النهر المعتم المفعم بالماء . وقد  
لف ضباب المساء المائل الى الزرقة شعاف التلال الممتدة على ضفاف  
الماء ، وأخذت صلبان الكنائس الباسقة فوقها تتألق كأنها النجوم  
والنهر المنساب في أكتاف التلال البعيدة يبدو رشيقا غامر

إجمال ، والزوارق البخارية هابطة فيه مصعدة ، وأصواتها وهي  
تمخر في الماء تصل في زفرات ثقيلة متعبة الى الشاطئ ذى المروج ،  
حيث يملأ الهواء خريير الامواج الخفيفة المتلاحقة بأصوات لطيفة  
متكسرة . ثم اذا صف من الصنادل الكبيرة يشق طريقه ضد  
التيار فيبدو أشبه بصف من الخنازير ذات الاجسام الضخمة المهولة  
وهي تحرث الماء بخطمها وأنوفها حرثا شديدا ، والدخان الأسود  
ينبعث في دفقات متقطعة من مداخنها ، ثم يتداوب ببطء في الهواء  
الصافي . والصفارات التي تنطلق بين فترة وأخرى توحى بما يشبه  
زئير بعض الوحوش المهولة التي ألجمتها الجن وسخرتها في القيام  
بأعمالها . لقد كان كل شيء هادئا ساكنا في المروج المائية ، وكانت  
الأشجار التي تبرز رهوسها هنا وهناك فوق صفحة الفيضان مجللة  
ببعض الاغصان الخضرة النضيرة ، والماء يخفى جذوعها ويعكس في  
أديمه فروعا فيجعلها أشبه بكرات خضراء تتراشق في الهواء ، في  
جمال خيالي ساحر . . . وأقل هبة من النسيم تدغدغ سطح الماء  
المجلو الناعم فتجعله نثارا . . . يجري بعضه في اثر بعض .

وبدأت المرأة ذات الشعر الأصغر . . هذا الشعر الأحمر الداكن  
. . تغنى بصوت هادئ حزين ، وعيناها ترمقان البعد

يا شرعا في يم فلجة يجري

ناعم البال صانه تياره . . .

وتقطب قمحية اللون وتغضى عينيها الكبيرتين استخفا ، ثم  
قول وهي تشيح بوجهها :

- كفى ما نحن فيه من وحشة فلا تزيدنا كآبة بغنائك .

ويقول فوما لفتاته ، وهو ينظر في وجهها نظرة رقيقة :

- بل دعيها تغنى !

ثم اذا هو شاحب الوجه جدا ، وقد انطفاً بريق عينيه ، وأخذ  
ابتسامة غامضة حزينة ترف حول شفثيه .

واقترح السيد ذو الشوارب المدلاة أن تغنى الجماعة كلها .  
ولكن أُوختشيف أسرع يقول :

- لا .. بل تغنى فيرا وبافلنكا فقط . فيرا .. غنى أغنية  
سأذهب مع الفجر - غنى معها يا بافلنكا .

وأومات الضاحكة الى القمحية وقالت مستأذنة :

- هل أغنى يا ساشا ؟

وتجيبها ساشا ، صاحبة فوما :

- بل .. سأغنى أنا ..

ثم تلتفت الى الفتاة التي لها أنف كمنقار الطير ، وهى ، على فكرة  
أختها ، وتقول :

- غنى يا فاسا

وتجرى فاسا احدى يديها على حلقها ، وتنظر الى اختها ، فتقف  
ساشا ، وتتكىء على المنضدة باحدى يديها ، وتميل الى الوراء برأسها،  
ثم تشرع فى الغناء بصوت يشبه فى قوته وفى عمقه صوت الرجال :

السعيد السعيد من لا يبالى

بالذى تنذر البرايا اللبالي

ذو فؤاد لا يثنى فى نضال

وجنان أجرا من الرئبال ...

وتومئ أختها بحركة من رأسها ، ثم تغنى بصوت واطيء حزين  
متدرج النغمات :

يا لقلب حملت ذات شجبا

وتلمع عينا ساشا ناحية أختها وهي تستجيب بنغمات عميقة :

قد ذوى منها كما يذوى الشجر

وتعانق الصوتان وأتلفا ، ثم طفوا فوق الماء في نغمات خصبة  
ممتلئة كانت ترتجف من فرط ما فيها من قوة . لقد كان أحسد  
الصوتين يشكو من شجو فوق ما يسع الصبر نفسه . . . شجو كان  
مما بصاحبه من ظمأ يجرع سموم شكواه ، وهو ينشج تشيجه الذي  
لم يكن يجدى معه عزاء . . . أما الصوت الآخر . . . الصوت العميق  
الجرىء ، فكان يذرف الدمع ليطفى نيران العذاب ، وكان يجلبجل  
محنقا وهو يدوى قويا فى الهواء ، كما كان يتدفق بمقاطعہ الجليلة  
الواضحة ، فى فيض جياش ، يحمل فى كل كلمة من كلماته نذر  
الانتقام .

وسيلقى ذلك القاسى جزاءه . . .

\*\*\*

لقد كانت فاسا تغنى هذا اللحن النائح وهي مغمضة العينين ،  
على حين كانت ساشا تغنى لحنا عاصفا ، فيه نذير وفيه تحذير ،  
كانت تقذف بالكلمات فى الهواء قذفا ، وفى تصميم مخيف :

سوف أصليه وأشموى جلده

ثم غيرت الوزن والنغمة فجأة ، وكان الأبتهاج يفرها وهي تصب  
لشمتائم واللعنات بصوت طويل ممدود كصوت أختها :

أجف من الريح . . . ريح الصحارى

أجف من العشب فى الشمس ملقى

ألم به منجل لا يبارى

ألم به منجل لا يبارى .

وكان فوما متكئا بمرفقه فوق المنضدة ، وهو يخلق فى وجهه الفتاة ، وبالأحرى فى عينيها السوداوين الناعستين ، المحدقتين فى الفضاء ، وروح الانتقام يشع منهما فيجعل صوتها الناعم الباعم المتدفق من حنجرتها القوية أسود حالك السواد مثل عينيها ، متلائلا كما يتلايان ! وهنا .. تذكر ملاطفاتها له بيديها الناعمتين ، فراح يسأل نفسه : ترى ؟ ما الذى أصارها الى تلك الحال من الثورة والعنف ؟ انى لا تلمس فيها شيئا مخيفا مفرعا !

أما أوختشيف ، فقد قبع الى جانب صاحبتة ، وراح يستمع الى الغناء ، وعلى وجهه سيماء الانشراح والرضا . على حين كان زفانتسيف والسيد ذو الشوارب المدلاة مكبين على شرابهما ، وبتهامسان . أما الفتاة ذات الشعر الأصغر فكانت ممسكة بيد أوختشيف ، وهي تدرسها بعناية وروية . وقد اكتسى وجه الفتاة الضاحكة بسيماء الوداعة ، وهي تنصت الى الموسيقى ، برأس منكس لا يكاد يتحرك ، وكأنما كانت تحت سحر احدى الرقى ! وترك الفلاح مقعده عند الموقد ، وهب واقفا ، ثم جعل يمشى على أصابع قدميه فى حيطنة وحذر ، ويداه خلف ظهره وعلى وجهه العريض ذى الشارب ابتسامة تختلط فيها الدهشة والبراءة .

آه .. رققا بى .. صغيرى !

بهذا كانت تتغنى فاسا ، وهي تهز رأسها نائحة باكية .. على حين كانت أختها تختم الاغنية ، رافعة ذقنها أكثر مما كان مرفوعا ، بهذه الفقرة :

هكذا آلام حبى .. وغرامى .

حتى اذا فرغت ، جعلت تنظر حولها معجبة مزهوة ، ثم جلست الى جانب فوما ثم لفت عنقه بذراع قوية متينة . وسألته :  
الغنية جميلة ؟



فقال لها وهو يبتسم لها :

« حلوة »

وصاح أوختشيف :

« مرحى ساشا .. مرحى ساشا .. »

ودوت أكف الجميع بالتصفيق ، لكنها لم تلتفت اليهم جميعا .. بل راحت تعانق فوما فى دلال وتقول له :

« لا بد من هدية على هذه الاغنية »

« لا بد .. لا بد »

« وما هي ؟ »

« أى شىء تشتهين »

« حينما نعود الى المدينة .. أوه .. ستريين من حبى ما لا يخطر لك  
ببال اذا أهديت الى ما أطلب ! »

وقال لها فوما وقد ضحك ضحكة يشوبها الشك :

« لهذا السبب فقط ! ألا يمكن أن تحبينى من أجلى أنا لا من أجل

شىء آخر ؟ »

وجعلت تنظر اليه بهدوء ، وبعد لحظة من التفكير قالت له :

« والله .. لا أستطيع أن أقطع فى ذلك برأى .. وأنا لا أستطيع

أن أكذب .. والنذى أستطيع أن أقوله بصراحة ودون أن أكذب هو

أننى لا أحب أحدا الا من أجل ماله أو من أجل هداياه ، وان كنت

أعرف أن الانسان يمكن أن يحب بغير هذين .. ولكن بالنسبة الى

حالتنا ، فلم يحن الاوان للحكم بعد .. ولعل ، بعد أن تزداد معرفتى

بك ، أحبك بلا مقابل .. مجانا ! اما الآن .. فلا تقس فى حكمك

على .. فمن كانت تعيش العيشة التى أعيشها تكون فى مسيس

الحاجة الى النقود .. والنقود الكثيرة »

وكان فوما ينصت اليها ٠٠ ويبتسم ، وكان يرتجف كلما مر  
جسمها جسسه ٠٠ وكان يدرك ما يقوله زفانتسيف بصوت عال  
مشروح تضطرب له أعصابه .

« لست أدري لماذا يهرف كل انسان بما لا يعرف عن جمال الاغاني  
الروسية ؟ ماذا فيها من الجمال ؟ أعواء شرذمة من الذئاب الجائعة -  
المتوحشة التي تتضور من الجوع - أم نباح قطيع من الكلاب ؟ ماذا  
فيها من البهجة او الرقة ؟ انما يجب أن تسمع الفرنسيين وهم ينفون  
٠٠ او الايطاليين !

وقال أوختشيف محتجاً في غيظ واستياء شديد :

« كفى هذيانا ، ايفان نيكولا ييفتش !

ووضع السيد ذو الشوارب المدلاة كأسه ليقول :

« أتفق أنا وايفان في هذا ٠٠ فالاغاني الروسية ، أغان رتيبة  
ومبتذلة .

\*\*\*

وغربت الشمس ، وكانت وهي تغرب ترقرش الماء بأصباغ القرمز  
والذهب في مكان ما وراء المروج المائية . وبينما كان فوما واقفاً  
يشهد مسرحية الالوان المرتعشة على صفحة النهر اللامعة ، خيل اليه  
أن نقف الأحاديث التي كانت تصك سمعه ، لم تكن الا أشباه  
بفراشات سوداء تطير هنا وهناك ، خبط عشواء ، وبلا غرض ٠٠  
وهنا وضعت ساشا رأسها على كتفه وهمست بكلمات في أذنه جعلتنا  
يصطبغ بحمرة الحجل ، ويود لو أخذها في ذراعيه ، ويوسعها لثب  
وتقبيلاً ٠٠ والى ما لا نهاية ! لقد كانت هي وحدها من دون هذه  
المجموعة كلها ، التي لا تعجبه بأية حال من الأحوال . كما كان  
يخشى زفانتسيف والسيد ذي الشوارب المدلاة .

وأنشأ أوختشيف يصيح فجأة .

« فيم تحملك ؟

وكان يوجهه صيخته الى الفلاح الذي انتزع الطرطور من فوق  
اسه وضرب به ركبته ، وقال وهو يبتسم :

« لقد .. لقد .. كنت أحب أن استمع الى غناء السيدة .

« وهل أعجبك ؟

« ومن في الدنيا لا يعجبه هذا الغناء .

ثم نظر الى ساشا نظرة كلها طرب وقال .

« ان صدرها فيه قوى لا يستهان بها .

وآثار قوله ضحك المرأة ، كما أثار تعليقات ظريفة بين الرجال .

وسألته ساشا :

« وهل تغنى أنت ؟

ويجيبها فى احتقار :

« اذا أمكن أن تسمى غنائى غناء .

« وأى الاغنائى تغنى ؟

وضحك ضحكة خفيفة فيها ما يشبه الاعتذار ثم قال :

« أوه ! كل الانواع .. لقد أفنيت عمري غناء .

« اذن هلم .. لنغن معا .. أنا .. وأنت .

« اننى لست أهلا لمشاركتك فى الغناء ، ولا من مقامك يا آنسة !

« لتبدأ أنت ..

وقال زفانتسيف وهو يبدى امتعاضه :

« أليس هذا لطيفا !

وتقول له ساشا وهي تنظر اليه نظرة كلها ازدراء :  
« اذا لم يعجبك غناؤنا ، فلك أن تقذف بنفسك فى النهر لتريحنا منك .

وانتفض زفانتسيف لهذا الكلام ، ثم قال :

« ان الماء بارد جدا .

لكن الفرصة مناسبة ، فالنهر فى الفيضان ، وأنت لا يمكنك أن تنشر السم فى كل هذا الماء بجثتك هذه المنتنة المتعفنة .  
وخشن الشاب عليها فى الرد ، وقال لها بازدراء :  
« وحتى الساقطات فى روسيا مجردات من الرقة .

ثم انصرف عنها الى زميله الذى ابتسم له ابتسامة ثملة . وكان أوختشيف سكران هو أيضا ، وعيناه العمشاوان لا تريمان عز صاحبتة على حين كان يتمتم اليها بكلام متقطع مفكك . أما فتاة منقار الطير (!) فكانت تنقر فى اصبع من الشكولاته وقد حملت الصندوق كله تحت أنفها ، على حين انسحبت بافلنكا الى طرف العوامة تأكل البرتقال وتقذف بقشره فى الماء .

وقال زفانتسيف شاكيا لجاره :

« أبدا ما اشتركت فى شلة غريبة كهذه فى حياتى .

وكان فوما ينظر اليه وعلى فمه ابتسامة ساخرة ، وقد سره ما كان فيه من غم وانقباض ، وأثلج صدره ما سلقته به ساشا من لسانها الحاد . وكان يرمق ساشا مبتهجا . . لقد أحب فيها أجوبتها الناشفة، وما تصون به نفسها من تلك الكبرياء والترفع . . كأنها احسدى سيدات الطبقة الراقية .

ونادها الفلاح الذى كان واقفا الى جوارها :

« يا آنسة .. لعلك لا تبخلين على بقليل من الشراب أبل به ريقى  
.. وأرد به روحى !

« املا له كأسا يا قوما .

وجرع الفلاح الكأس جرعة واحدة ، ثم أخذ يتمتق !

ثم تقول له ساشا :

« والآن .. فابدأ اذن .

ومط الرجل أحد أركان فمه ، ثم انشأ يفتنى بصوت عال :

أنا لا أستطيع الشرب .. بل .. لست آكل (!)

فراحت الفتاة تتم البيت الثانى من الصوت نفسه :

فروحي لا تلقى المزيد من الحمر

وابتسم الفلاح ابتسامة تفيض بشرا ، وهز رأسه ، ثم أغمض

عينيه ، وشرع يقذف بسيل من الألحان العالية ذات السن :

وقد آن لى أن أرحل اليوم عنكمو

فأكملت الفتاة بصوت باك :

وأناى عن الأهل الكرام وعن صهرى

ثم خفض الفلاح صوته وأخذ يردد البيت الآتى بين الغناء وبين

الكلام :

وأوى الى أى المدائن ؟ لا أدرى !

وعندما تردد الصوتان الباكيان فى حواشى سكون الامسية

الباردة ، بدا أن كل شىء قد شاع فيه الدفء والخير ، وبدا أن جميع

ما فى الوجود كان يفتر عن ابتسامة ملؤها الحنان والرثاء لهذه النفس

البائسة التى كانت القوى والظروف الغامضة تنزعها من الأهل

والوطن انتزاعا ، وتذهب بها الى أرض غريبة .. لتذوب نفسه  
حسرات في شقاء العمل . ان شكواه لم تجد صداها في الصوت أو  
في الاغنية ، ولكن في دموع الانسانية المنيقة من قلبه الدامى ..  
ان شقاء الروح التي أتعبها النضال ، وألم الجراح التي نكأتها يد الحاجة  
الحديدية - ان هذا كله هو الذى كانت تعبر عنه تلك الكلمات الفجة ،  
وهذا الايقاع الباكي الذى يستحيل وصفه ، والذى كان يطفو عاليا  
.. فى السموات الحالية البعيدة الآفاق .. التى تمتنع فيها الاصداء  
على الأصوات .

واعتزل فوما المغنين ، وراح يلاحظهم بشعور أقرب الى الخوف .  
لقد كانت الاغنية تنساب فى قلبه انسياب الماء المغلى ، فتستولى على  
روحه بما فى فيض أشجانها من قوة ، ومن ثمة ، أحس برغبته فى أن  
يذرف دمه صبيبا ، كما أحس بانقباض فى حلقه ، واختلاج فى  
عضلات وجهه ، ولققت عيناه نظرة مهوشة لعيني ساشا السوداوين  
- هاتين العينين العظيمتين الراسختين اللتين كانتا كأنهما تكبران فى  
كل لحظة عما كانتا .. وخيل اليه أن الغناء لم يكن صادرا عن  
شخصين فحسب ، بل أن الكائنات كلها كانت تغنى وتنشج وترتجف  
مما بها من شجن ، وأن كل النسيم ، وكل ما فيه نفس يتردد كان  
يلوذ بعضه بكنف بعض فى قنوط وفى ياس .

وحينما انتهت الاغنية أحس برجفة تسرى فى كيانه ، ورآه يبتس  
للمغنى والمغنية والدمع ينهمر من عينيه .

وسأله ساشا :

« هل بلغ تأثيرها فيك هذا المدى !! »

لقد كان وجهها ممتقعا مما بذلت من جهد ، وأنفاسها تتلاحق  
بسرعة . ونظر فوما الى الفلاح الذى كان يجفف العرق المتصعب على  
جبينه ، وهو ينظر من حوله فى دهشة ، كأنه لا يفهم ما جرى .

ولم يكن يسمع أى صوت ، ولا يحس لهذه الجماعة أى ركز ، لقد  
انوا جميعاً يجلسون صامتين مبهورتين لا ينبسون !

ويقول فوما وهو يحاول أن يفتق مما غرق فيه من ذهول :  
« يا لله ! ساشا ! وأنت .. أيها الأبخ الفلاح .. ترى ؟ من أنت ؟  
ويجيبه الفلاح كالمعتذر ، وعلى فمه ابتسامة :

« استبان .. اسمى استبان .

ويقول فوما وهو مأخوذ من الدهشة :

« ما أروع ما تغنى !

ويزفر الفلاح الروسى ويقول :

« عفوا سيدى .. انما هو البؤس الذى يصنع بنا هذا - البؤس  
الذى يستطيع تحويل العجول الى بلابل .. أما هذه السيدة الصغيرة -  
فليس يعلم الا الله ماذا يجعلها تغنى هذا الغناء الجميل .. ان الانسان  
اذا سمعها ، وشبع منها .. هانت عليه الدنيا وما فيها .. انها  
جوهرة يا سيدى .. انها جوهرة !

ويقول أوختشيف وهو سارح من السكر :

« أداء جميل جدا ..

أما زفانتسيف فيقول فى هياج وانفعال :

« لعنة الله على الجميع ! لقد جئت هنا لاستمتع بوقت طيب ..  
لا أمتع نفسى .. لا لكى أسمع ندبا فى مناحة .. ان هذا شئ مهيج  
.. محطم للأعصاب .. ولا أسميه غير هذا .. لقد ضاق صدرى ..  
وذاب صبرى .. ولم أعد استطيع البقاء هنا .. أنا منصرف ! » .

ويقول له ذو الشوارب المدلاة :

« خذنى معك يا جان » .

ونادى زفانتسيف صاحبه :

« فاسا .. البسى .. »

وتقول الفتاة ذات الشعر الأصغر لاؤختسيف :

« هيا .. حان أن ننصرف .. والبرد يشتد ، والدنيا توشك أن  
تظلم . »

وتأمر فاسا الفلاح استبان بجمع كل ما يخصها .

ويأخذ الجميع فى التحدث والاستعداد للانصراف ، وفوما ساهم  
واجم ، ينظر اليهم وهو لا يكاد يفهم شيئا .. ولا ينفك يرتجف من  
حين الى حين .. والجميع يترنحون ، وقد ظهر الشحوب والذبول على  
وجوههم ، وبعضهم يوجه الى بعض كلمات قدرة فى عبارات مخمورة  
متقطعة ، وكانت ساشا تدفع بهم دفعا وهى تجمع حاجاتها وتقول :

- استبان .. ناد الحيل .

أما صاحبنا ذو الشوارب المدلاة فكان لا يزال يهلوس ، ويلو  
بزجاجة وكأس فى كلتا يديه .. ويقول :

« انتى أشرب كأسا أخرى .. فمن يريد أن يشاركنى ؟ »

ولفت فاسا ايشاربا حول رقبة زفانتسيف الذى كان يقف أمامها  
مقظبا كالطفل العابس وقد ملأت وجهه التجاعيد ، وعضلات رجليه  
تختلج بحالة عصبية .. وقد ملأ منظره فوما بغثيان شديد حتى لقد  
زوى وجهه عنه ، بل ترك له العوامة كلها ، وقفز الى العوامة المجاورة .  
وكان مثار عجبه أن هؤلاء الناس كانوا يتصرفون وكأنهم لم يستمعوا  
الى تلك الاغنية الساحرة .. وكان هذا لا ينفك يشغله ، ويثير فى  
نفسه رغبة فى أن يقول شيئا ، أو يفعل شيئا .

وكانت الشمس قد غربت تماما فى تلك الآونة ، واتسح المغرب



بوشاح من الضباب الأزرق الذى لم يكده فوما يرمقه حتى أشباح  
بوجهه عنه . ولم يرد فوما أن يعود الى المدينة فى صحبة هؤلاء  
لأحلاس الذين كانوا لا يزالون يتنقلون فوق العوامة بأرجل متخاذلة  
ثقيلة ، مترنحين من جانب الى جانب وهم يتمتمون بما لا يفهم . لقد  
لانت النساء أكثر رزانة من الرجال ، وان مضى بعض الوقت على الفتاة  
القمحية حتى استطاعت أن تنهض ، مما كان بها من خمار ، وقد  
ادركت هى ما بها من السكر حينما همت بالوقوف وهى تقول :

« حسنا .. الظاهراتى .. سكرى ! » .

وجلس فوما على قرمة من الخشب سواها الفلاح بساطوره ، ثم  
ناول هذا الساطور وراح يقذف به فى الهواء ثم يتلقاه بمهارة ، مما  
جعل زفانتسيف يزوم قائلا : « يا للسوقية والفظاظة !

ولم يكن فوما يتصور هذا الانسان .. بل لم يكن يحب من هذه  
المجموعة كلها سوى ساشا .. تلك المرأة التى ملأت قلبه رهبة ،  
وجعلته فى خوف دائم من أن تاتى عملا غير منتظر من الأعمال التى  
تجلب الكوارث .

صرخ زفانتسيف :

« أنت أيها القدر !

ورآه فوما وهو يدفع بالفلاح الذى خطف طرطوره وولى مستخفيا ،  
وصاح زفانتسيف وهو يقتفى أثره مهتاجا محنقا :

« يا أحق .. يا أبا رأس جامد !

وهنا ، صاح فوما محذرا :

« قف . حذار أن تمسه بأذى .

وصرخ زفانتسيف ، وهو ينظر الى خلف :

« آه !

وحنى فوما ظهره متوثبا .. ثم دلف نحوه . وهنأ ، لمعت فى رأسه فجأة فكرة فكهة .. فهمس فى أذن الفلاح وهو يضحك ضحكة تفيض جدلا :

« هل العوامة مربوطة فى ثلاثة أماكن ؟

» نعم ..

« اقطع الجبال بالساطور

» ولكن .. الناس !

» صه .. اقطعها قلت لك .

» ولكن .. اذا ..

« اقطعها .. واقطعها دون أن يتنبه اليك أحد .

وأخذ الفلاح الساطور وسار متباطئا الى طرف العوامة حيث كانت الأريطة . وضرب الجبال ضربات متتابة .. ثم عاد الى مكانه بجانب فوما ، وهو يقول له :

« انى لا أريد أن أرد على ما قال يا سيدى .

» لا تخف .

وقال الفلاح وهو مذعور ، وقد راح يصلب على نفسه بسرعة .

« ان التيار يجرفها بشدة !

وضحك فوما فى نفسه ، وأن يكن قد أخذ يحس بأضطراب فى بطنه ! وشعور شائك ملتهب ناشئ من خوف لم يكن له عهد به من قبل .. وان وجده شعورا لذيذا حلوا .

وكانت الجماعة لا تزال تنتقل فوق العوامة ، يصطلم بعضهم ببعض ، ويساعد بعضهم بعضا فى ارتداء معاطفهم ، ضاحكين مثرثرين على حين كانت العوامة تنفصل عن الشاطئ « ببطء » وتبتعد عز العوامات الأخرى .

وهمس الفلاح شبه معترض :

« انهم اذا اصطدموا بسلسلة من العوامات .. لتحطموا .. وانتهى الأمر .

« أسكت أنت .. نأخذ زورقا ونتبعهم .

« نعم نعم .. الا أنهم ناس .. لا تنس هذا .

وقفز الفلاح وراء فوما وهو يتسسم من عوامة الى عوامة حتى بلغا الشاطئ . ثم وقف فوما يحملق فوق الماء ، وبه شوق الى أن يصيح بالجماعة .. الا أنه كان يكتنم هذا الشوق حتى تكون بين العوامة وبين البر مسافة لا يجرؤ رفانه المخمورون أن يقفزوها ، والا وقعوا في الماء . وقد كان يجد في نفسه متعة وسرورا وهو واقف ينظر الى العوامة ، والتيار يحملها بعيدا بعيدا . وكان ابتعادها عنه كن يبعد عن قلب فوما ما خامره من الخوف والتوجس من قبل ، فراح يستنشق أنفاسا عميقة من الهوء النقي المنعش الذي أعاد الى رأسه صفاءه ، وكانت ساشا تقف وظهرها اليسه فوق حافة العوامة التي يجرفها التيار ، وقد ذكره منظر قوامها الجميل بقوام صوفيا بافلوفنا ، الا أن صوفيا كانت أصغر وأنحل .

وكانما أحس بوخز ذكرياته ، فصاح في لهجة ساخرة :

« وداعا ! أيتها الرحلة السعيدة !

وفجأة ، وفي وقت واحد ، تقوم جسوم الجماعة الدكناء بحركة نحوه ، فاذا هم جميعا يتكتلون في وسط العوامة ، وقد أصبح بينهم وبين فوما سنت أقدام من ماء النهر .. وبهتوا ! .. ولم ينبس منهم احد بكلمة فترة من الوقت .

ثم اذا عاصفة من الصراخ والصياح والولولة الرهيبية تنبعث من غريزة الخوف الفطرى المركبة في طبائع الاحياء جميعا . وكانت أشد .

الصيحات وأقوامها جلجلة وأعلاها دويا ، تلك الصيحة الرفيه  
المصرصة المرسعة التي أرسلها زفانتسيف وهو يصرخ :

- الـ ٠٠ نـ ٠٠ جـ ٠٠ دة نا

ثم يسمع بعضهم يزار في صوت عميق ٠٠ لابد أنه صوت السيد  
ذى الشوارب المدلاة .

- انه يريد اغراقنا ٠٠ انه يفرق أناسا، أحياء !

وصاح بهم فوما الذى كانت صيحاتهم تخزه وتقرصه كما تقرص  
الحشرات السامة :

- أتسمون أنفسكم ناسا ؟

ووقفت الجماعة تزوم فوق العوامة فى فزع ، وكانت حركاتهم  
تؤرجح العوامة مما جعلها تنجرف أسرع وأسرع . وكان من الممركز  
سماع الماء وهو يرقطم على جوانبها ومن أسفل منها ، وأخذت  
صيحاتهم تشق الهواء ، وهم يثبون ويلوحون بأيديهم ٠٠ وكانت  
ساشا وحدها هى التى ظلت حيث هى ٠٠ لا تريم ٠٠ ساكنة ٠٠  
رابطة الجاش .

وصاح فوما مازحا :

- تحياتنا للاسماك والسرطين و ٠٠ أبو جلمبو :

وكان قلبه يزداد نشوة وابتهاجا ٠٠ كلما أبعدت العوامة فى اليم  
وأخيرا صاح أوختشيف فى صوت رزين ، وان تكن به رجفة :

» فوما اجنا تيفتش ا فكر فيما أنت صانع ٠٠٠ ان هذه لعبة خطيرة  
وسأقدم فيك بلاغا ا

وضحك فوما وهو يقول :

« ان شاء الله .. بمجرد ان تطلع روحك ، أرجو أن تسارع الى  
تقديم هذا البلاغ .  
وعاد زفانتسيف الى نشيجه وبكائه صائحا :  
« أيتها القاتل !

وقبل أن يجيبه فوما ، اذا شيء يرتطم فى الماء فيحدث صوتا يجعل  
النهر نفسه كأنه يذعر ويرتجف ، ويفغر فاه هلعاً .. وسرعان ما  
ارتجف فوما هو أيضا ، وتلجج .. لقد أرسلت النسوة صرخة  
مفزوعة ، وجعل الرجال يصيحون مرعوبين ، واخذ أثر الارتطام يبدو  
على وجوه الجميع فيملؤها بالذعر .. وراح فوما يحمق فى الماء  
مبهوتا .. لقد كان فيه شيء أسود اللون يجاهد فى الوصول اليه .

وقذف فوما بنفسه فى الماء بدون تفكير على العوامة ، ثم مد ذراعه  
فوق صفحة الماء .. وهضت ثوان لم تكن من عمر الزمان .. ثم أحس  
أخيرا بأصابع باردة .. مبللة .. تمسك بأصابعه ، ثم اذا عيناه  
نرمقان عيين سوداوين تحدقان .

وحل الفرح فى قلبه محل الذعر .. لقد شد الفتاة ، ثم انتزعها  
من الماء ، وضمها الى صدره ، وراح يتفرس فى عينيها دهشا مسبوها  
يهو لا يدري ماذا يقول لها .. وابتسمت الفتاة اليه ابتسامة رقيقة .  
وقالت ، وقد سرت فيها رعشة :

.. برد !

وعند ما صافح رنين صوتها سمع فوما .. ضحك مبتهجا مسرورا ،  
ثم حملها فى ذراعيه ، وراح يتواثب فوق العوامات حتى كان على  
لشاطيء ، وكان يشعر بها باردة مبللة كأنها سمكة ، الا أن أنفاسها  
كانت تفيض دفئا وحرارة ، لقد كانت تلفح وجهه ، وتغمر فؤاده  
سرة وبهجة .

وقالت له وهى تتشبهت به :

- وهكذا كنت تريد أن تفرقنى .. أليس كذلك ؟

فقال وهو يهرب من الاجابة :

- ظريف جدا القاؤك بنفسك فى الماء :

- وقد كان ظريفا منك ايضا ما صنعت ، من كان يتصور كل هذا  
الجرأة يفيض بها قلبك ؟

- اسمعى اسمعى .. انهم لا يزالون يصيخون .

- الى الجحيم جميعا ! لكن .. اسمع .. انهم اذا غرقوا ، فستذهب  
أنت وأنا الى سيبيريا .

ثم عادت اليها قشعريرتها .. ولما احس فوما ذلك ، راح يعدو  
بها .. ويعدو .

وكانت الصيحات تنمعت من ورائهم طالبة النجدة .. وكانت  
العوامة قد ابتعدت ، وأخذت تبدو كأنها جزيرة نحيلة فوق صفحا  
الماء المنبسط ، وعليها أشباح آدمية داكنة تمرمر وتتململ ، والتيار  
يجرف الجميع فى أديم الغسق .. بعيدا .. بعيدا .. عن الشاطئ  
.. نحو ثبج التيار نفسه ، وأقوى جزء فيه .

وكان الليل يرخى سدوله .

## الفصل التاسع

في ظهيرة أحد أيام الاتحاد كان ياكوف ماياكين جالسا يشرب الشاي في حديقة منزله تحت شجرة ظليلة من أشجار الكريز ، وياقة غميصة مفتوحة ، وحول عنقه فوطة يمسح بها عنقه المتصبب ، وقد جعل يرمى بيده هنا ويرمي بيده هناك ، وهو ممتلىء نشاطا وحيوية ، لسانه لا يكاد يقف من طول ما يثرثر .

— ان الذي يسمح لبطنه بالتحكم في عقله مجنون أحمق . . . ووغد لقد كانت عينا الرجل المعجوز باديتي الغضب ، وشفتاه تختلجان اختلاجة ظاهرة التآفف والازدراء ، والنصف الأسفل من وجهه ممتلىء بالتجاعيد التي تلعب وتهتز .

— اذا كان فوما ابني الروحي أو ابني من صلبى ، أفلا أعلمه شيئا أو شيئين ؟

وكانت ليوبا جالسة تصبت بعود من الأوكاشيا، وهي تتفرس في وجه أبيها الشديد الانفعال ، المختلج العضلات ، وكانها تدرسه ، ولكن في صمت وبلا تعقيب ، وكان ميلها الى أبيها أخذ يقل عما كان متورا ونفورا ، وان لم تدرك هي ذلك ، وكان ماياكين ، بالرغم من ذكائه الجم وحيويته التي لاخذ لها ، منطويا دائما على نفسه ، مؤثرا للعزلة ، وكانت ليوبا تدرك وخشته هذه ، وتعرف أنها مما لا يطاق ، وكان في هذا مثار حنانها عليه وراثتها له ، وكانت أحيانا تتعمد مجاورته ومناقشته . وكان يكره دائما أن تعترض عليه بأي اعتراض

ولهذا كان يسخر منها ويسهزىء باعتراضاتها ، وإن كان يصغى الى حججها دائما بانتباه وامعان وطول أناة .

وأخذ الرجل يتحدث الى ابنته وهو يضرب بيده على المنضده بقبضته قائلا :

- لو استطاع المرحوم اجنات أن يقرأ ماتكتبه الصحف عن ابنه لقتله . . يالهول ماتنشره هذه الصحف ! . فضائح !

وتجيبه ليوبا :

- انه يستحق .

- أنا لم أقل انه لا يستحق . . ولا دخان بلا نار . . ولكن . . يا ترى ، من هذا الشخص الذى كتب هذا الكلام ؟

- وماذا لو بقى اسمه مجهولا أو عرف الناس من هو ؟

- جميل ! لقد أبدع الوغد فى وصف سلوك فوما . . انه كان ولا بد أحد أفراد هذه الجماعة ، وانه ممن شهد الحادث القدر بنفسه .

- انه ليس من أصدقاء فوما بحال .

وقد شاعت حمرة الخجل فى وجه الفتاة وهى تقول هذا ، ولا سيما عند ما حدجها أبوها بنظرة لها معناها ، وعند ذلك قال لها ببطء وبهجة قارصة :

- ماشاء الله على أصدقاتكم الظرفاء ياآنسة ؟ حسن . . فمن كتب هذا اذن ؟

ولم تكن تود أن تخبره . . الا أنه أصر على أن يعرف ، وبصورة فيها غلظة وفيها خشونة :

وأخيرا قالت ليوبا :



- عدنى أولا انك لن تناله بأذى .

- لاأناله بأذى ؟ ماشاء الله . . انى سأقصف رقبته أيتها المجنونه . . انهم ليسوا حمقى ، هؤلاء الذين يكتبون فى الصحف . . انهم قوة مهولة . . عليهم لعنة الله ! ثم أنا لست المحافظ . . وحتى لو كنت المحافظ ما استطعت أن أكسر أيديهم ولا أن أقيد أسننتهم . . انهم كالجرذان ، لاتنى عن الحفر والنقب . . قولى اذن . . من كتب هذا ؟

- هل تذكر الطالب الذى كان مع فوما فى المدرسة ، والذى اسمه بيزهوف ؟ الذى كان يحضر لزيارتى عندما كنت لأزال فى المدرسة ؟ هذا الشاب ذا الشعر الاسمر !

- أذكره . . فهو اذن كاتب هذا كله؟ انه جرد بالفعل! ان الانسان لم يكن يتوقع أى خير من هذا الملعون بالرغم من صغره فى تلك الايام! ولو قد عرفته لاحضنته ، وربما كنت صنعت منه رجلا ! وهزت ليوبا كتفيها ، ثم راحت تسأل أباهما متحمدة :

- وماذا جرى ؟ أليس رجالا هؤلاء الناس يكتبون للصحف ؟ ولم يعجل ماياكين بالجواب . . بل ظل ينقر على المنضدة وهو يتأمل صورته فى سطح غلاية الشاي النحاسى اللامع . ثم قال أخيرا ، وهو يرفع رأسه ويفتر عينيه :

- كلا . . ليسوا رجالا . . انهم قرح وخراريج ! لقد فسد الدم الروسى . . وهذا الدم الفاسد هو الذى يفتؤ مؤلفى الكتب وكتاب الصحف ، ومن اليهم من أولئك الفريسيين الهمج . انهم خراريج انتشروا فوق جسم روسيا كله . . ولا تزال العدوى منتشرة . . ولتنتسأل : لماذا فسد دم روسيا ؟ الجواب : لانها تسير ببطء شديد . . ان فيها مستنقعات يتكاثر فيها البعوض . . ان كل انواع

الطفيليات تنمو في المياه الراكدة .. وهذا هو ما يحدث تماما حينما تصبح الحياة راکدة .

وقالت ليوبا في ظرف :

- لا احسب أنك على حق في هذا أيها السيد الوالد :

- ولماذا ؟

- لاظنك على حق . ان الكتاب من سائر الناس في الدنيا كافه . هم الذين لا يسرهم شيء .. ولا يعجبهم العجب . ان من واجب الناس ان يظنوا اليهم باحترام ، ويعتمدوا عليهم كل الاعتماد .. انهم لا يكتبون لغرض ، ولا يلتمسون شيئا لانفسهم . وليس لهم هدف الا العدالة .. والا الحق .. انهم ليسوا بعوضا .. بل هم ..

ولم تكن ليوبا تستطيع كبت انفعالها وهي تتغنى بمحامد أولئك الذين تعجب بهم الاعجاب كله .. وقد صبغ خداهما بلون الدم .. وكانت عينها تنظران الى أبيها متوسلتين أن يصدق ليوبا حتى لو لم تكن قادرة على اقناعه بالكلام .

وقاطعها الرجل بقوله وهو يتنهد :

- يا حول الله ! انك تقرئين كثيرا يا ليوبا .. فقولى لى اذن . من هؤلاء الكتاب وما هم ؟ لا أحد يعلم ! فهذا يزهوف مثلا - من هو ؟ انه بشرة ! دمل ! ولا يزيد عند الله عن هذا ! انك تقولين انهم لا هدف لهم الا الحق .. يا سلام ! ما شاء الله ! ولكن ماذا يصنعون اذا وجدوا أن الحق أندر من الكبريت الأحمر في هذا الوجود؟ ثم ماذا اذا كان كل منهم يبحث عن الحق بطريقته هو ، ومن وجهة نظره هو ؟ صدقيني ، انه ليس في الوجود هذه الخرافة التي يسمونها الشخص غير الانثاني ! وليس في الدنيا من يشتبهى الحرب دفاعا عننا ليس له ! واذا وجد هذا الشخص فهو مغفل ابله ، ولن يرجع

منه اى خير ، لا لنفسه ، ولا لائى شخص آخر . واذا اراد انسان ان ينجح فى هذه الحياة فلا بد له من أن يتعلم كيف ينافح عن حقوقه .  
هو ، عما يخصه هو شخصيا . الحق ؟ الله الله ! لقد ظلمت حوالى اربعين عاما لا أقرأ الا صحيفة واحدة لا غير ، واليك ما تعلمته .  
انظرى الى وجه حضرتى ! هذا هو . . . يحملق فيك . . . ثم هذا هو ايضا ، على سطح هذه الغلاية الوجه نفسه ، ولكنه شىء مختلف .  
عال . . . فهذا الوجه الذى يبدو فى سطح الغلاية هو الوجه الذى تعرضه الصحف لحضرتك يا آنسة . . . والصحف لا تستطيع أن ترى حتى الوجه الاصلى . . . وتأتين حضرتك فتأخذين هذا الوجه - الحيال - على أنه الشىء العظيم الفساخر . . . أما أنا . . . فأعرف أن وجهى يبدو ملتويا مبروما شائها على سطح الغلاية . . . وهذا الوجه الذى ارى لا يمكن أن يكون وجهى الحقيقى أبدا !

وتجيبه ليوبا معترضة فى امتعاض :

- ولكن الكتب والصحف ياسيدى الوالد تحارب من أجل المصلحة العامة ، وتحمى مصالح كل فرد .

- اذن فأرينى الصحيفة التى كتبت عنك أنك تضيعين ذرعا بحياتك وانك كان يجب أن تتزوجى منذ زمن بعيد . فهذه هى الطريقة التى يدافعون بها عن مصالح حضرتك ! وهم لا يدافعون عن مصالحى انا الاخر ، وكيف يمكنهم أن يفعلوا ؟ ومن منهم يعلم ماذا اريد ؟ ومن غيرى يعلم ما مصالحى ؟

ونادت ليوبا تعترض فى يأس مرة اخرى :

- يا سيدى الوالد : ان هذا كله خطأ . . . ولست ادري كيف اعتبر لك عن ذلك . . . الا اننى أشعر ان كل هذا خطأ فى خطأ .

ويجيبها الرجل العجوز فى ثقة وتصميم

- بل هو حق كل الحق ، والصواب كل الصواب ! لقد فقدت روسيا صوابها . . لم يعد فيها صلابة زمان ! لقد أصبح كل ما فيها رخوا مائعا . وأهلها يعيشون في تحيز وتحزب ، ويمشون في غير الطريق المستقيم . وكل ما فيها منحرف عن الجادة . . انك تسمعين ضجيجا من الأصوات المختلفة ، الا أن أحسدا لا يدري ماذا يحتاج غيره من الناس . قئمة ضباب على كل شيء ، والناس يتنفسون في هذا الضباب فيتلف الهواء القاسد الرطب دماءهم . . وهذا هو السبب في تلك القرحة وهذه الحرارة . ان الناس يمنحون الحرية لكي يفكروا كما يحلو لهم ، لكنهم لا يسمح لهم بعمل أى شيء . ومن ثمة ، فبدلا من أن يحيوا حياة كاملة مملوءة يعطون ويأسنون .  
وتسأل ليوبا أباها وقد وضعت مرفقها على المنضدة ومالت نحوه .

- فما العمل اذن ؟

ويقول الرجل صائحا :

- ما العمل ؟ يجب عمل كل شيء ! على كل منا أن يقوم بكل ما في

وسعه ، ولكن يجب قبل كل شيء أن نسلس القيادة للشعب . ولكن اذا تركنا الامور على غاربها ، وسمحنا لكل مختال مغرور بأن يتوه أنه قادر على صنع العجائب ، وأنه انما خلق لتنظيم الحياة ، ولتنظيم الحياة فحسب ، ولينظمها وفق ما يرى هو . . ففضلوا . . سلموا لحضرتة القيادة . . سلموا القياد لابن الكلبة هذا ، وليرنا ماذا في وسعه أن يصنع . . ومن هنا . . تبدأ المهزلة . . فبمجرد شعوره بأن العنان قد أفلت تراه يشب الى ما هو أعلى من رأسه ، ويندفع هنا وينطلق هناك ، مزهوا ، منتفخة أوداجه بالغرور . . يحسب نفسه رجل الحوارق والاعاجيب .

وسكت ما ياكين لحظة ، ثم ابتسم كما يتسم الثعلب ، واستأنف

يقول :



فى وجهه ، باحثة عن الشواهد الاخلاقية فى أقواله ، لامسة فيهب  
أشياء أشبه بتلك الأشياء التى قرأتها فى الكتب ، والتى كانت تؤمى  
بأنها الحق كل الحق ٠٠ ولكن ضحك والدها ، هذا الضحك الذى كار  
يفيض نشوة ومسرة ، كان يمزق نياط قلبها ٠٠ ثم ان تلك التجمعات  
التي كانت تتراقص كالديدان فوق وجهه ملأتها بالخوف منه . لقد  
احست أنه كان يحاول أن يصرفها عن متابعة الاهداف التى كانت  
تصور لها أحلامها أنها أهداف بسيطة مرغوب فيها

وسألته ، وهى تتعمد اثارته :

- بابا ٠٠ وتاراس ! مثل ماذا هو ياترى ؟

وجفل ماياكين ٠٠ وارتجف جبينه من شدة الاستياء ، وراح  
يعدج ابنته بعينين حادتين وهو يجيبها فى غلظة :

- وماذا جعلك تسألين سؤالاً كهذا ؟

وتقول له ليوبا فى رقة :

- ولم لا ؟ هل ثمة ما يمنع من التحدث عنه ؟

وأوما الرجل بأصبعه فى وجه ابنته وهو يحملق ويقول :

- اسمعى ٠٠ أنا لا أريد التحدث عنه ، وان كنت لا أنصحك

بان تتحدثى عنه

ثم نكس رأسه ٠٠ الا أنه قد يكون خطأ التعبير عما فى نفس  
وهو يقول انه لا يريد التحدث عن ابنه ، بدليل أنه لم تكذب  
دقيقة واحدة حتى عاد يقول بصوت بدا فيه الغضب :

- ان تاراس هو واحد من تلك القسرح ، والحرايع . ان ربح  
الحياة تحمل جميع أنواع الروائح الى أنوفكم أيها التافهون . ولما  
كنتم لا تستطيعون التمييز بين الرائحة الحبيثة والرائحة الطيبة .

تكم تستنشقون هذه الروائح كلها ، ومن ثمة تتغشى عقسولكم  
انبساب ٠٠ ان تاراس ، يوز القرد هذا ، لابد أن يكون قد بلغ  
ثلاثين - وهو ٠٠ بالنسبة ٠٠ بالنسبة ٠٠ الى ٠٠ لا وجود له

وتسأله ليوبا ، وهي تصغى بانتباه شديد الى كل كلمة من كلمات  
يها :

- من يدري ! انى لا أزعم أنه هو نفسه يعرف ماذا صنع ، الا  
ا كان قد عقل ٠٠ وفاء الى أمره الآن ٠٠ ولا بد أن يكون ٠ لقد  
جبه والد ذكى ٠٠ وقد رأى الكثير من تجارب الزمن ٠ انه هم  
يديرو التسامح مع هؤلاء الفوضويين ٠٠ آه لو كان الأمر بيدى !  
ن ، لأريتهم ، ولجمعتهم كلهم وأرسلت بهم الى ٠٠ الصحراء ٠٠  
لقلت لهم : « الى الامام ٠٠ سر ! هذا مكانكم ايها الشطار : هنا  
صتكم لى تصبوا الحياة فى القلب الذى يحلو لكم ، فأرونا ماذا  
ن وسعكم أن تصنعوا » ثم لجعلت بعض الفلاحين الأشداء رؤساء  
ليهم ، وليقولوا لهم : هيا ٠٠ انا اطعمناكم ، وكسوناكم ،  
علمناكم ؛ فأرونا ماذا تعلمتم ؛ فلقد أن الاوان لتردوا علينا  
حيع الدين الذى فى أعناقكم ٠ « تالله ماكنت لاضيح كوبكا واحدا  
ليهم ، ولكنك أعصر كل قطرة من الدم فى أصلابهم ، ولجعلتهم  
كفرون ٠ انكم لا تستطيعون أن تطوحوا بالكائنات البشرية ، بل  
بس فى وسعكم أن تلقوا بهم فى السجون ، لكنكم قد ثرتم على  
قانون ، أليس كذلك ؟ ثم أردتم أن تعيشوا بعد ذلك كما يعيش  
لسادة ٠٠ أوه ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ لن نمكنكم من ذلك ، بل سوف  
حصل منكم على فائدة من عمل ما ، تقومون به ٠٠ والحبة الواحدة  
ن القمح تنتج شجرة باكملها فيها ألف حبة ، فكيف نسمح لانسان  
احد بأن يحيا هذه الحياة الخاسرة دون أن نحصل منه على أية  
فائدة ؟ ان النجار المقتصد ينتفع بكل كسرة من الخشب ، وبهذه  
لطريقة نفسها يجب الانتفاع بكل انسان ، والى آخر قطرة من

دمه . ان أدنا حشرة من هوام الأرض لها مكانها فى هذه الحياة  
ولا يصح أن ينزل الانسان الى ما هو أدنى من مراتب الهوام  
ولكن . . وأسفاه . . ان من المؤلم أن نجد بيننا شبابا ليس  
رءوسهم عقل . . ذرة من العقل . . وهذا فوما مثلا . . ولكن  
من القادم ياترى . . انظرى يا نيوبا .

ولم تكدي نيوبا تستدير لترى ، حتى رأيت ييفيم ، ربان السفه  
يرمق . وهو مقبل فى الممر ، وقد جعل يرسل صيحات مكبر  
مكتومة فى أدب واحترام ، وبيده طاقيته ، وعليه سيماء الجزع  
بل أمارات الغم الشديد .

ولم يكدي مايا كين يلمحه وهو فى هذه الحالة حتى صاح به :

- ماذا ؟ ماذا حدث ؟

وحيا الرجل فى انحناءة ، ثم قال :

- لقد قررت أن أحضر اليك

- ألاحظ هذا جيدا . . ماذا . . أين السفينة ؟

وأجابه الرجل وهو يشير الى جهة ما ، فى قلق واضطراب

- السفينة هناك .

وصاح به مايا كين فى غضب شديد :

- هنيك أين . . لعنك الله . . قل . . تكلم . . ماذا حدث ؟

وذفر ييفيم زفرة كبيرة قبل أن يقول :

- السفينة رقم ٩ . . تحطمت . . وجرح رجل واحد

ورجل آخر مفقود ، وأخشى أن يكون قد غرق .

وهمهم الرجل وهو يقول للربان وعيناه تقدرحان الشرر :

- عال عال . . يا سيد ييفيم . . سنأخذ مزرعتك تعويض

لهذا .



وبأد الربان يقول :

- لست أنا السبب .

وفال ماياكين مسرعا ، وهو يرتجف من الغضب .

- لست أنت ! .. اذن فمن ؟

- سيدي نفسه !

- فوما ؟ .. ويل لك .. وأين كنت أنت ؟

- لقد كنت نائما في العنبر .

- نائما ؟ كنت نائما !!

- كنت .. مقيدا !

- مق .. ماذا !

- .. سأقول لك كل شيء كما حدث .. لقد كان السيد .

شاربا .. شاربا كثيرا .. وكان يصيح ويصرخ .. اخرجوا كلكم

من هنا .. سأتولى أنا القيادة بنفسى . وقلت له : هذا غير ممكن

.. وكيف يمكن هذا وأنا الربان ؟ .. لكنه قال : قيدوا يديه ورجليه

.. وقد قيدوني وألقوا بي في العنبر مع الملاحين والعمال . ولما

كان شاربا أكثر من اللزوم ، فقد أراد حضرته أن يمزح .. ويعملها

بكتة .. فعندما رأى قافلة من الصنادل مقبلة في النهر ، وكان عدد

صنادلها ستة يجرها الرفاص شرنوجوتس ، اعترض طريقها

بسفينتنا .. فأرسلت الصنادل صفاراتها .. وأطلقتها أكثر من

مرة .. واستمرت في اطلاقها ، ومن العدل أن أقرر ذلك .

- عال .. ثم ..

- عال عال .. لم يستطع المركبان الأماميان تحويل طريقهما

.. فنطحا سفينتنا في الجنب مباشرة ، وحطماها تحطيمًا .. وقد

عطاهما أيضا ، الا أن اصابتنا كانت أفظع .

وانتفض ماياكين من كرسية وهو يرسل صرخة شديدة ..  
بيفيم ، فحنى كتفيه .. وشرع يقول :

• لقد ساءت أخلاقه بدرجة شديدة .. عندما يكون صاحيا .  
لا يتكلم الى أحد .. بل يشدو كان في دماغه شيئا .. ولكن لم  
اللمحة التي يعمر فيها مخه بكأس أو كأسين تراه يضرب السقف  
برأسه .. وعند ذلك يفلت زمامه على نفسه وعلى عمله .. بل  
يصبح ألد أعداء نفسه ، وأعداء عمله .. وأرجو المعذرة في هذا  
الكلام .. لقد نفذ صبري ، وأريد أن أستمر في عملي وأنا لست  
الأمير الناهي في حدود وظيفتي .. ولا يمكنني أن أقوم به على هذا  
النحو ..

ويزجره العجوز قائلا :

- كفانا من هذا .. أين فوما ؟

- هناك .. عند مكان الحادث .. لقد أعاد اليه صوابه في لحظة  
.. فأرسل الى العمال في الحال ، لينتشلوا الصندوق .. وأظنهم  
قد بدؤوا العمل الآن .

وسأله ماياكين وهو يشمخ برأسه :

- وهل هو وحده هناك ؟

- ليس .. وحده .. تماما !

ونظر الى ليوبا مستحيا .. ثم قال :

- ان معه سيدة .. صغيرة سوداء الشعر .. وهي لا تبقى معا  
تائما .. لكنها حينما تأتي تظل تغنى طول الوقت .. وهي تغنى  
عنا جميلا .. يالها من فتاة مفرية !

وختم هذه العبارة بزفرة عميقة !

وقال له ماياكين وهو مضطرب النفس مبلبل الفكر :

- انا لم اسالك عنها !

وكانت أسارير وجهه تشتد وتختلج من الألم ، حتى لقد خشيت عليه ليوبا من أن ينفجر باكيا .. فقالت تهديء سورتك ، وبصوت لطيف :

- هون عليك يا أبى .. فربما تكون الحسائر غير كبيرة .

- غير كبيرة ؟ وماذا تعرفين عن ذلك أيتها الحمقاء ! أتحسبين أن المسارة تنحصر فى صندوق ؟ انه رجل .. وهذه هى المصيبة .. رجل ممن نحن فى شدة الحاجة اليهم .. أيها المغفلون الاغرار للاعين

واشار الرجل بيده إشارة مفضبة .. ثم دخل المنزل .

\*\*\*

فى الوقت الذى كانت تجرى فيه هذه الحوادث كان فوما فى كوخ روى على ضفة نهر الفولجا ، على بعد حوالى أربعمائة فرسخ . وكان قد استيقظ من النوم توا ، وجلس على كومة غضة من الدريس فى وسط الكوخ ، وراح ينظر فى اكتئاب خلال النافذة الى السماء الوشاة بقطع من السحاب الداكن المنثور ..

كان يجلس دون أن يأتى بحركة ، ورأسه مثقل بخمار السكر . كان يخيل اليه أن شيئا أشبه بقطع هذا السحاب الداكن الذى يطوف فى أرجاء السماء ، يطوف فى صدره .. متجولا بلا نهاية ، باعنا فيه رعشة رطبة لافحة . وكان يشعر كأنما شيء وا هن .. شيء متهيّب يتحرك فى حذر واشفاق خلال تلك السحب ، أشبه بالشبح الذى يدب فى الكوخ من جواره .. لقله ترك ذكريات الأشبه بالقلائل الماضية تنساق داخل رأسه .. يتخيلها ولا يكاد يفكر فيها .

ويجمع به الخيال . فيتصور انه كأنما سقط في مجرى ممتلي عياه داكنة ساخنة آخذة بخناقه ، وكأنما هذه المياه تجرفه فر يارها وهي تجرى وتتدفق كما يجرى ذلك السحاب الداكن فر السماء ، ومن خلل الأصوات والظلمات الضاربة من حوله كان يكند أن يتبين . فى شىء من الصعوبة والابهام أنه لم يكن وحده . بل أر أناسا آخرين كان يجرفهم التيار معه . وأن هؤلاء الآخرين كانوا يتغيرون من يوم الى يوم ، الا أنهم جميعا كانوا فى حالة من السكرير ثم لها ، ثم اذا هم يحدقون به وهم فى سكرهم هذا ، وفى صنخبه هذا . وفى نهمهم الذى ليس كمثله نهم ، يشربون ويقصفون على حسابه . ويلعنونه ، ويشاجر بعضهم بعضا . ولا ينقطعون عن التسيح والصنخ . بل عن البكاء ، وكأنه يضربهم ، ويلكم أحده فى وجهه ، وينتش معطف آخر ثم يقذف به فى الماء . ثم يأتى ثاله فيقبل يده بشفتين باردتين ميلتين كأنهما جلد صفدعة . وهو يتوسل اليه والدموع تنهمر على خديه ألا يقتله . . . والوجوه والكلمات وقطع من الأصوات تومض فى ذهنه ، وامرأة لابسة بلوزة من الحرير الأصفر ، مفتوحة فتحة كبيرة من فوق الصدر تغنى بصوت باك مرتفع :

يا حبيبي لا تفكر فى غد الإ غدا  
دعه يندب نفسه ، فالغد غيب  
وهلم اليوم . . نوسعه سرورا  
وجيورا . . انه حب وقبىرب

وكان جميع هؤلاء الناس تجرفهم الموجة الداكنة التى كانت تجرفه . . وكانوا ، كما كان هو ، أشبه شىء بنفايات وحشالات يقذف بها التيار بعيدا . . بعيدا . ولم يكن أحد منهم يجرو قط على أن ينظر أمامه ليرى الى أين يذهب به التيار ، ولهذا كانوا يفرقود مخاوفهم فى كئوسهم ، ثم يصيحون ويصخبون ويشعوذون ويهرجوا فى غير بهجة ولا مرح . وكان فوما يصنع كما يصنعون . . . ثم به

، انه انما يصنع هذا لمجرد الافلات مما هو فيه بما يستطيع من  
برعة .

ولم يبق محتفظا بصفاائه وهدوء نفسه وسط هذه الدوامه  
لسعوره الفاجرة غير ساشا وحدها بين قوم عصفت بهم الانفعالات  
بلامحه ، كانوا أشبه بمخبولين يريدون أن ينسوا . . . انها لم  
نلبيها السكر على نفسها قط ، وكانت تتكلم دائما بصوت ثابت  
ر ، وكانت كل حركاتها أقرب الى أن تكون مملوءة بالثقة . . . حتى  
انما كانت هي التي تسيطر على تلك الدوامه بدلا من أن تكون من  
سحاياها . وقد أدرك فوما أنها أذكي من حوله جميعا ، وأنها  
بدهم حماسه للصخب والمرح . . . اذ كانت تصدر أوامرها الى كل  
رد منهم ، وتفكر باستمرار في استحداث تسليات جديدة ، وتعامل  
لجميع معاملة متساوية ، مستعملة اللهجة نفسها . والكلمات  
فسيها ، سواء كان المخاطب سائق عربة أو خادما أو ملاحا ، أو  
ان صديقا حميما أو فوما نفسه . . . لقد كانت أصغر وأنضج من  
يلاجيا ، وكانت ربتات كفيها باردة ندية ، وتقوم بها في هدوء  
لطف . وقد خيل الى فوما أنها كانت تخفي في أغوار قلبها سرا  
هيبا ، وأنها لم تكن لتحب شخصا ما حبا تاما خالصا ، أو تكشف  
بما في نفسها بصورة واضحة تمام الوضوح . . . ولقد كان  
لثمانها هذا . . . هذا الغموض . . . هو الذي يجذبها اليها . لقد  
كان يثير فيه التطلع ، ويغريه بالارتواء في أغوار روحها التي لا تعرف  
لتأثر . . . روحها السنوداء القاتمة كعينها .

قال لها فوما مرة :

- انه مبلغ كبير جدا من المال ، ذلك الذي تدفنا به الى الريح  
وما كان منها الا أن سألته :

- . . . وماذا كنا نصنع به غير هذا ؟

وراح فوما يردد في نفسه ماقالته : نعم . . . وماذا غير هذا ؟ . . .

بقوله وهو حيران مشدوه أن يجدها ثابتة لا تتردد هكذا !

وسألها في مناسبة أخرى قائلاً :

- ليت شعري .. من أنت !

- ولماذا ؟ هل نسيت اسمي ؟

- ليس هذا بالضبط !

- إذن .. فماذا غير هذا تريد أن تعرف ؟

- لقد كنت أعجب ... من أين جئت !

- أوه .. كذا ؟! انني من أوغليش ، يا روسلافل جورنيا  
مصنعتي العزف على القيثارة ... فهل زاد حبك لي الآن ، بعد ؟  
عرفت من أنا ؟!

وتساءل فوما وفي فمه ضحكة خفيفة :

- وهل عرفت حقاً ؟

- فهذا إذن لا يكفيك ... عال ... فلن أقول لك شيئاً أكثر  
من هذا . ولماذا أفعل ؟ لقد جئنا جميعاً من المصدر نفسه ..  
الناس والحيوانات على السواء ... وكل هذه الثروة عن الأسم  
لغو وقبض الريح ! بل دعنا نتحدث عن شيء أكثر أهمية .. كيف  
باتمري نقضى هذا اليوم ؟

لقد أمضياه في زورق مع فرقة موسيقية كانت مسافرة مع  
الزورق نفسه . ولقد شربوا من الشمبانيا ما ذهب برشد  
جميعاً . وغنت ساشا أغنية كان أخص ما تنسم به ما فيها من أن  
وشجن ، حتى لقد جعلت فوما يبكي كما يبكي الاطفال ..  
وما كادت تفرغ من غنائها حتى قام فراقصها رقصة روسية .  
أن بلغ منه التعب مبلغه فألقى بنفسه فوق الزورق في غير وعى وكا  
سقط في الماء .

وحينما كان منبطحا على ظهر الزورق يستعيد صورة ما جرى ، ويجتر ذكريات أخرى غير ذلك أحس بالحجل من نفسه ، وبالغثيان من ساشا ٠٠٠ وراح ينظر الى قوامها البديع ، ويصغى منها الى كل شيء ، حتى الى أنفاسها ٠٠٠ ثم أدرك أنه لا يحبها ٠٠٠ بل أنه لا يريد لها . وبدأت أفكار قاتمة حزينة تتكتل وتتجسم في رأسه المهوش المتلبك ٠٠ لقد خيل اليه أن كل ما عاشه من عمره أخيرا هو شيء أشبه بكرة من خيوط الصوف ، جامدة مبللة ، لا تنفك تخبط هنا وهناك في دخيلة نفسه ٠٠٠ ثم اذا هي تنفك ، وتحرق به خيوطها الدقيقة الداكنة ، فلا يستطيع من أحبولتها خلاصا .

وأخذ يفكر هكذا : ما هذا الذي ينتابني ؟ من أنا ؟ ٠٠

لقد أذهله هذا السؤال ، وراح يفكر فيه بروية وامعان ، محاولا أن يعرف لماذا لا يستطيع أن يحيا حياة هادئة قانعة ، كما يعيش سائر الناس ؟ وزادت هذه الفكرة من خجله من نفسه بصورة لم يعرفها من قبل ٠٠٠ فجعل يتقلب وهو منبطح ، وتعهد أن يلكر ساشا لكزة سرى فيها ضجره وضيقه ٠٠٠ مما جعل ساشا تقول وهي ممددة الى جانبه ، وبهم نصف نائم : « حاسب ! »

ويجبها مخاشنا :

- لا بأس ٠٠ لا تنسى أنك لست سيدة عالية القدر ٠٠ رفيعة  
المقام ٠

- اه !

- لا شيء ٠

وأعطته ظهرها وهي تزوم متشاببة ٠ وأنشأت تقول والنعاس  
يخالط صوتها :

- لقد حلمت أنني كنت أعزف على قيثاري لحنا منفردا ٠٠٠

وأغنى ٠٠٠ وقلب كبير واقف أمامي فاغر فاه ، ينتظر أن أنتهى مز  
العزف ومن الغناء ٠ وأشاع هذا الذعر فى نفسى ٠٠٠ وأدركت أنا  
سوف يهجم على بمجرد أن أنتهى ، ومن ثمة ، فقد أنشأت أغنى  
وأغنى ٠٠٠ وأغنى ٠٠ حتى شعرت أن صوتى قد بح ٠٠٠  
يا للشناعة ! ٠٠ انه لا يزال واقفا ٠٠ يصر بأسنانه ٠٠ بماذا تفسر  
هذا الحلم ؟

ويجيبها فوما بلهجة يشوبها النفاق :

- صبرك ٠٠٠ خبرينى أولا ٠٠٠ ماذا تعرفين عنى !؟

وتقول له دون أن تدير له وجهها :

- أعرف أنك استيقظت من توك !

ويتمتم فوما وهو يضع يده وراء رأسه :

- أجل لقد استيقظت من توى ٠٠ أتستطيعين أن تخبرينى  
بالضبط ، لماذا سألتك : أى نوع من الناس تظنيننى ؟

وتجيبه متثابرة :

- أنت سكران !

ويقول لها متوسلا :

- اسمعى ٠٠ دعى هذا الاستغفال ٠٠ وخبرينى بأمانة : ما فكرتك  
عنى ؟

فتجيبه :

- اننى لا أفكر فيك مطلقا ٠٠

ويزفر زفرة عميقة ، ثم يصمت ٠٠ وتمضى دقيقة أو نحوها لا  
يتكلمان بشيء ٠٠



ثم تقول له ساشا ، بلهجتها العادية :

- شيء جميل ! منتظر حضرتك أن أشغل بالي بالتفكير في كل من هب ودب ؟ لماذا ؟ اننى ليس لدى من الوقت ما أفكر فيه حتى فى نفسى ! أو ربما .. نسيت أريد ذلك !

ويضحك فوما مكتئبا ، ويقول :

- آه لو كان فى امكاني ألا أريد ذلك أنا أيضا !

ورفعت الفتاة رأسها لحظة لتنظر فى عينيه ، وتقول :

- انك تفكر كثيرا .. فخذ بالك .. ان هذا لن يعود عليك بخير .. وأنا لا أستطيع أن أخبرك بشيء عن نفسك .. وكل ما أستطيع أن أخبرك به هو أنك أحسن حالا من غيرك .. ولكن .. ماذا يشغلك ؟

ويسالها فوما مهتما :

- ولماذا أنا أحسن حالا ؟

- أوه ! لا أدري ! اننى اذا غنيت أغنية حزينة رأيتك تبكى .. واذا بدا من شخص ما يدل على دناءته ، يطشت به .. ثم أنت شخص مهذب رقيق الحاشية مع السيدات .. ولا تستغل ضعفهن ! وفى وسعك أن تكون شهما ذا مروءة ..

ولم يقتنع فوما بشيء من ذلك .. فقال لها بهدوء :

- انك لم تهمينى !

- اننى لا يمكننى أن أحزر ماذا فى رأسك ؟ .. انهم ينتشلون الصندل الآن .. فماذا عسانا أن نصنع ؟

- وماذا تعنين ؟

- هل نذهب الى نجنى نفجورد ٠٠ أو الى قازان ؟  
- ولاى شىء ؟  
- للفسحة ٠٠ فسحة طرب !  
- لقد نلت من فسح الطرب ما فيه الكفاية .  
ثم لبثا وقتا طويلا لا يتكلمان ، ولا ينظر أحدهما فى وجه أخيه  
وقالت ساشا آخر الأمر :  
- انك شخص من الصعب ٠٠ مصاحبتك ! ثقيل الظل !  
ويجيبها فوما فى رزاة :  
- لقد عزمت على ألا أشرب بعد اليوم .  
وتجيبه ساشا ذات الأَعْصاب الحديدية :  
- لا أصدقك !  
- ستريين ! أتظنين أن هذه الحياة التى نحياها مما يصح ؟  
- الزمن كفيف بالاجابة عن هذا ٠٠ .  
- ولكن ٠٠ صرحى لى ٠٠ أتظنين أن هذا يصح ؟  
- وماذا أحسن من هذا ؟  
ورمقها فوما بنظرة شزراء ، ثم قال مهموما :  
- أخ ٠٠ ! ان الاصغاء اليك شىء منفر .  
وتضحك ساشا وتساله :  
- اذن ، فأنت لا تحب طريقتى فى الكلام أيضا ؟  
ويزوم فوما مجيبا :  
- من كان مثلك ! وهذه الطريقة التى تعيشين بها ! اذا وضعت  
رأسك ، لا تدرين أين تضعينه ٠٠ الصرصار يعرف أين يذهب ٠٠

وأنت ٠٠ لا تعرفين الى أين ٠٠ ومن أين !

وتقاطعه في منتهى الهدوء :

- وما شأنك أنت وما أصنع ؟ ان لك أن تأخذ ما تشاء منى ٠٠  
ولكن ليس لك أن تتسرب الى دخيلة روحى !

ويسألها فوما مستهزئا :

- روحك ! وهل لك روح ؟

ونهدت ساشا ، وراحت تجمع ملابسها المتناثرة هنا وهناك ،  
وفوما ينظر اليها ، والعجب مستحود على نفسه ، لأن ما قاله عن  
روحها لم يستطع أن يثيرها أو يخرجها عن طورها ٠٠ لقد كان عدم  
مبالاتها بشيء ، وضبطها المدهش لأعصابها هو ما يبدو عليها الآن  
٠٠ كما هو شأنها دائما ٠٠ على حين كان فوما يريد أن يراها مغبضة  
أو مستاءة ٠٠ أو أى شيء يجعلها انسانا كجميع الناس !

وواصل كلامه فقال :

- روحك ؟ كأن أحدا له روح يستطيع أن يحيا الحياة التى تحيينها !  
ان الروح تنطوى فى داخلها على نار ! على الشعور بالحجل !

- وكانت جالسة على دكة ترقع جوربها ٠٠ فلما قال ذلك رفعت  
رأسها وحملت فيه بعينين حادتين ، فيسألها :

- الام تنظرين ؟

فقالت وعيناها لا تزالان فى عينيه :

- لماذا تقول هذا الكلام ؟

وكان سؤالها يحمل معنى التهديد ، وقد جفل فوما بالفعل ،

وقال لها بصوت فقد شجاعته السابقة !

- ولم لا ؟

فتنهدت ساشا وهي مستمرة في لبس ملابسها :

- انك شخص ظريف !

- وماذا في من الظرف ؟

- أوه .. لا شيء .. ! انك تبدو كأن أبوين قد أنجباك ! هل تذكر ماذا كنت ألاحظ عن الناس ؟

- ماذا ؟

- اذا كان شخص لا يستطيع أن يجيب عما يفعل ، فهو خائف من نفسه . وهذا معناه أنه شخص تافه لا يستحق الذكر .

ويسألها بعد لحظة :

- انك تقصديتنى !

ونشرت على كتفيها روبا قرمزيا فضفاضا ، ووقفت تنظر الى الرجل الممدد تحت قدميها ، وقالت له بصوت لطيف عميق ، وبلا تردد :

- أتجروء على التحدث عن روحى ؟ انك لا شأن لك بها ، وأنا وحدى التى يحق لى أن أتحدث عن ذلك ، ولو أردت أن أفعل .. ما حفلت بك ولا بأمثالك جميعا .. ولا تظن أننى عاجزة عن الكلام .. لا .. ان لدى منه ما أستطيع أن أستعمله مع أمثالكم .. كلام مثل المطارق الثقيلة ، وفى امكاني أن أدق بها أدمغتكم حتى لا يبقى فيها الا هذيان الجنون .. ولكن الكلام لا يمكن أن يكون علاجاً لكم .. وليس لكم من علاج الا صهركم بالنار لتطهيركم مما فيكم من خبث كما تطهر انار الذهب المخلوط فتحويله ذهباً خالصاً ..

ثم نثرت شعرها بحركة مثيرة ، فسقط على كتفيها في خصل  
جزيرة سوداء ، وقالت في لهجة تفيض ازدراء :

- ليس يهمنى أن أكون امرأة قذرة كما ترى .. فبعض الناس  
أنظف مائة مرة ، بالرغم مما يبسو عليهم من قدر ، من أولئك الذين  
يلبسون أكسية الكتان ، ويرفلون في مطارف الديباج .. وآه لو  
عرفتم فقط رأيتي فيكم أيها التيوس ! وآه لو عرفتم ما ينوء به قلبي  
من الكراهية والازدراء لكم ! لكنها الكراهية تجعلني أقفل فمي ، لاني  
أخشى اذا ما نفست بالكلام عما في فؤادي أن يصبح خاويا فارغا ، ولا  
أستطيع مواصلة الحياة بعد !

وما كادت تقول هذا حتى عاد اليه حبا من جديد ، ذلك أن  
ما قالته صادف هوى في فؤاده .. وانسجاما لمزاجه ، وضحك فوما  
ضحكة خفيفة ، وبدا رضاه في صوته وفي وجهه وقد أنشأ يقول :

- أنا أيضا أشعر كأن شيئا يصل الى ذروته في أغوار نفسي ،  
حينما يصير هذا ، فلسوف أجد أنا كذلك كلمة أقولها .

- ضد من .

ووثب فوما واقفا وهو يقول :

- ضد كل مخلوق ... ضد الادعياء المنافقين ! اني سأسألهم ..  
وقاطعته ساشا ببرود :

- ستسألهم اذا ما كانت الغلاية قد غلى ماؤها !

وحدجها فوما بنظرة خاطفة ثم صاح يقول :

- الى الجحيم أنت وأمثالك ! .. اذهبي واسألي عن ذلك أنت !

- ما هذا الصراخ ؟ عم تتحدث ؟ ثم خرجت ساشا من الكوخ !



فترسل صرخات الالم على حين الصحف الرقيقة تتطاير فتحدث ضحكات مأكرة ، وصلصلة السلاسل وصرير البكر يختلط بهدير الأمواج ، والريح تعوى وهى تسوق السحب أمامها فى كبد السماء

- هيللا يا رجال .. هيا ..  
ويحث بعضهم العمال قائلا بصوت مرتفع :  
- شدة واحدة أخرى .. شدة واحدة !

وكان فوما ، بقوامه البديع الفارع ، فى جاكنته الصوفية وحذائه الطويل ، يقف متكئا الى أحد القلوع وهو يداعب لحيته بأصابعه المرتجفة ، ينظر فى اعجاب الى الشغالة • وكانت الأصوات التى تأتيه من كل مكان تبعث فيه الرغبة فى الصباح ، ومشاركة هؤلاء فى عملهم ••• فى نجر الخشب ، وحمل الأحمال الثقيلة ، واصدار الأوامر ، وباختصار ، لكى يصبح مركز انتباه الجميع ، ولكى يرى كل انسان مقدار ما أوتى من قوة وسرعة ونشاط ! الا أنه كبح جماح نفسه ، ووقف كما هو •• لا يتكلم ولا يتحرك • وكان يشعر بالحجل فى الوقت نفسه • فقد كان سيد هؤلاء جميعا ••• ولو شاركهم فى العمل لظنوا أنه انما يفعل ذلك ، لا عن تواضع أو رغبة منه صادقة فى معاونتهم ، بل لكى يحفزهم الى مضاعفة مجهودهم اقتداء به ، وبهذا يستفيد هو باعتصار دمائهم ، لانهم سيعطونه عملا يساوى أكثر مما دفع لهم •

وظل يمر أمامه صبي ظريف ذو شعر مجعد يلبس قميصا مفتوحا عند الرقبة ، مرة يحمل لوحا على كتفه ، ومرة يحمل قادوما فى يده ، وهو يشب رشيقا كما تثب العنز ، ولا يكف عن المزاح والضحك والحلف ، ولا يناله الكلال من مداومة العمل •• يساعد هذا ويساعد ذلك ، جاريا فى خفة ورشاقة الى فوق والى تحت على ظهر الصندوق المكس بالمواد المختلفة ••• وقد امتلأ قلب فوما بالحسد لهذا الغلام الذى لم تكن عيننا السيد تنصرفان عنه لحظة

« انه سعيد ولا بد »

هكذا جعل فوما يحدث نفسه ٠٠٠ ومن هذه الفكرة ٠٠ لا ندري كيف ٠٠ انبثقت رغبة في نفس فوما بالحاق الضرر بالسلام ٠٠ بتحقيقه واذلاله بطريقة من الطرق ٠ لقد كان كل هؤلاء الناس منهمكين في عملهم العاجل الملح ، منسجمين انسجاما عظيما في تثبيت الصقالة وتركيب الجارات واعداد كل ما يلزم انتشال الصندل الغاطس من قاع النهر ، وكلهم يفيضون بشرا وتهللا ، وكلهم حياة نابضة دافقة مملوءة في تلك اللحظة ٠٠٠ وهنا ٠٠٠ كان فوما منتحيا ناحية ، يسائل نفسه في دهشة عما يجب عليه القيام به ٠٠٠ ولا يدري كيف يقوم بأى عمل ٠٠٠ شاعرا بأنه كان خارج محيط هذا العمل العظيم تماما ، وأنه ما من أحد في حاجة اليه ٠ وكان يؤله ويجرح كبريائه تحققه من أنه شخص لا لزوم له ٠٠ وكان هذا الشعور يتضاعف ويشتد بطول ملاحظته لهؤلاء الناس وهم يعملون دائبين ٠٠٠ وكانت فكرة أن هذا كله يعمل من أجله هو ، ومع هذا فهو نفسه لا عمل له ، أشبه بسكين مغمود في قلبه

وساءل نفسه في هم وانقباض :

- ولأى شيء من هذا كله أصلح ؟ ما وظيفتى ؟

وحضر اليه المقاول ٠٠ وهو رجل قصير القامة ذو لحية مدببة وخطها الشيب ، ووجه ملاءته التجاعيد ، فيه كوتان صغيرتان تطل منهما عينان !

وقال بصوت خفيض وعبارة مضبوطة النطق :

- كل شيء على قدم الاستعداد فوما اجناتيفتنس ٠٠٠ كل منا في مكانه ٠٠٠ وببركتك ٠٠ سنبدأ العمل ٠

وأجابه فوما باقتضاب :



- ابدعوا •

ثم حول عن الرجل وجهه اتقاء تلك النظرات النفاذة التي كانت تنطلق من كوتى عينيه •

- حمدا لله •

قالها المقاول وهو يزر معطفه فى أناة ، ويشد كتفيه •• وبعد أن ختبر الصقالة المركبة على الصندل ، صاح قائلا :

- كل منكم فى مكانه يا اخوان !!

وعند ذلك تجمع العمال جماعات صغيرة فوق ظهر الصندلين وعند الروافع •• ثم سكتوا وساد الصمت ، وكان بعضهم يتدافعون بالمناكب فى رشاقة وهم يصعدون فوق الصقالة ، ومن هناك ، جعلوا يجيلون أبصارهم فيما حولهم •

ثم صاح المقاول بصوته الرابط :

- نظرة أخيرة الى كل شيء يا رجال ، هل كل شيء متين ؟ عال !  
توكلنا على الله ، ومن توكل عليه كفاه •• هيه ! مستعدون ••• اذن  
•• صلواتكم ••

وزحلق المقاول طرطوره على قفاه ، ثم رفع وجهه الى السماء ، وصلب مثنى وثلاث •• وصنع الشغالة مثل ما صنع •• وكان بعضهم يصلى بصوت مرتفع فتختلط أصواتهم بخيرير الأمواج •

- باسمك اللهم وبركاتك •• وبركات الرسل والقديسين ••

ووقف فوما يستمع ••• وكانت كلمات الأذعية تسقط على روحه كالنجارة وروعس الجميع عارية •• الا رأسه هو •• وعندما فرغت الصلاة نظر اليه المقاول عاتبا معنفا وهو يقول :

— ألا تظن أنه كان من واجبك أن ..... ؟  
فأجابه فوما بلهجة قاصفة ، وهو يرمقه بنظرة غاضبة :  
— ليس هذا شغلك ..... لا تعلمنى !

وكان شعوره بأنه شخص تافه لا لزوم له يزداد حرافة ولدعا كل  
تقدم العمل الذى ينهض به هؤلاء العمال المؤمنون بقوتهم وبأنهم أمر  
لرفع هذا الثقل الذى يبلغ الأطنان الكثيرة من غور النهر .....  
ولحسابه هو ..... والعجيب أنه كان يرجو لهم الاخفاق فى مهمتهم .....  
لا لشيء ..... الا ليشعروا بالمدلة وانكسار الحاطر ، فكان يحد  
نفسه بهذا الوسواس :

— ليت السلسلة تنقص !

ونادى المقاتل : « ان ..... تباه ! »

ثم أعطي إشارة بدء العمل بتلوحة من ذراعه : « شد »  
واستجاب العمال للنداء ، فراحوا يصيحون بأصوات قوية حادة:  
— هيلا ..... هب

وهنا سمع صريف البكر وصريره ، وأخذت السلاسل تصلصل  
وهي تشد فى توتر ونظام ، والشغالة يصيحون وهم يضموز  
صمدورهم الى عوارض الروافع ثم يدفعونها دفعا ، متحركين فى دوائر  
بخطى ثقيلة وثييدة ، والماء ينسرب بين الصندلين كأنه لا يريد أن  
يسلم وديعته لهؤلاء البشر ، والسلاسل والسلب المشدود يهتز فم  
كل مكان من حول فوما ، وكان بعضها ينزلق حول قدميه كم  
تنزلق الافاعي الضخمة الداكنة ، وبعضها يرتفع الى أعلى حلقه  
بعد حلقة ، ثم تسقط الى الورا بصوت مجروش أجش ..... وا  
تكن أصوات الشغالة تخدم جميع الاصوات الاخرى وتغطى عليها  
— قربت يا رجال ..... قربت ..... قربت يا رجال ..... قربت

وهكذا كانوا يتغنون ، على حين كان صوت المقاتل القوي الواضح  
شق موجة هذا الغناء المدوي كما تشق السكين قالباً من الجبن ،  
اثلاً لهم مشجعاً :

- مع بعض يا أولاد ٠٠ مع بعض !

وكان فوما يشعر باضطراب وبلبلة غريبة . لقد كان يتمنى من  
أعماق قلبه لو كان جزءاً لا يتجزأ من تلك الانشودة المتدفقة كما  
بتدفق النهر الكبير العريض ، وذلك لكي يندمج في صريف المعدن  
صريره ، وفي هدير الامواج وزئيرها ٠٠٠ وكان شوقه هذا قويا  
نيفا ٠٠ حتى لقد أخذ العرق يتصبب فوق جبينه ، كما أخذ وجهه  
يشحب ويمتقع . ثم اذا هو يترك مكانه عند القلع فجأة ، وينتجه  
نحو احدى الروافع صائحا بصوت قوى :

- مع بعض ٠٠ مع بعض

واذا به يصطدم أيضا صدمة عنيفة وعارضة الرافعة ، وان لم  
يشعر بألم الصدمة التي كالحا له القدر في صدره ، بل راح يمزج  
صوته بأصوات الشغالة ، وهو يدور معهم ويلور ، ويدق الارض  
بقدميه دقا قويا . وأحس فجأة بشيء ما يتدفق في صدره ليحل محل  
الجهد الذي بذله عند الرافعة ، وموجة من الرضا تسرى في أعماقه ،  
حتى اذا اقتربت من السطح انطلقت من فمه صيحات مستثارة .  
لقد خيل اليه أنه كان وحده هو الذي يدير الرافعة ، ومن ثم أنه  
هو وحده الذي كان ينتشل الصندل الثقيل الضخم ، وأن قوته كانت  
تتضاعف وتزداد في كل دورة . وكان يندفع الى الأمام ، وقد نكس  
رأسه ، وقوس ظهره ، كما يتقوس الثور ، ليقابل هذا الثقل الكبير ،  
الذي كان يرغب ارغاما على الاستجابة له بالدنو منه ، وان لم ينفك  
بلقى به الى الحلف المرة تلو المرة . وكان ما يعرفه من الانفعال يزداد  
يزداد في كل خطوة ، وكان ما يبذله من الجهد على الدوام ، تعوضه

غمرة مغرية من الزهو والكبرياء • ثم أخسده الدوار ، واصطفيه  
عيناه بلون الدم ، ولم يعد يرى شيئا ولا يعي شيئا •• الا أنه ك  
الفتى الرابع ، صاحب اليد العليا ، الذى يقذف بقوة عضلاته ليزيد  
سدا هائلا منيعا يعترض سبيله ••• يزيحه ••• ويلقى به جاز  
••• وينتصر عليه ، وكان فى مقدوره بمجرد الفراغ من هذا العم  
أن يصبح حرا يستنشق الهواء ملء رئتيه ، وقد غمره الزه  
والاعجاب بنفسه • لقد كانت هذه هى المرة الاولى التى عرف فيها  
الالهام الروحى ، ومن ثم فقد تشبثت روحه الجائعة بتلك الفرصة  
وتملت بنشوتها ، فراحتم ترسل ألحانا من الجذل والطرب فى صيحات  
مدوية منسجمة وغناء الشغالة :

- قربت يا رجال ••• قربت •• قربت يا رجال ••• قربت !

وفوجيء فوما بضربة على صدره جعلته يترنح الى الخلف • واذا  
الضارب هو المقاتل الذى لمعت فى أسارير وجهه بوارق الثقة •  
- تهناتى •• فوما اجناتيفتش ! حمدا لله ! هل أنت تعب ؟

وشعر فوما بريح تهب على وجهه ، وكانت تمتمات البهجة تصل  
الى أذنيه من كل مكان ••• كل يباهى ويفاخر ••• وأقبل الشغال  
يحدقون به فرحين متهللين ، وقد رفعت على وجوههم الابتسامات  
اللطيفة المهذبة ، وراحوا يمسخون العرق المتصبب من جباههم •••  
وبادلهم هو أيضا ابتساماتهم مسبوها مبهوتا • لقد كان لا يزال فر  
غمرة من الانفعال لا تسمح له بأن يتبين ما حدث ، ولماذا كان كل مر  
هؤلاء سعيدا منشرح الصدر الى هذا الحد • وكيف لا ••• وها هو ذ  
صوت سعيد يقول :

- لقد انتشلنا من قاع النهر مائة وسبعين ألف روبل من جذوره  
كما ينتشل رأس لفتة !

ورأى فوما من مكانه الذى كان يقف فيه فوق حوية من الحبال

ومن فوق رءوس الشغالة ، صندلا ثالثا ، بين الصندلين الاصليين .  
داكن اللون ، مغطى كله بالطين ، مربوطا بالسلاسل . لقد كان  
متلويا ومنتفخا كأنما أصابه مرض خبيث . . . . وطفا فوق الماء في  
مكانه ذاك . . . . ضعيفا قبيح الشكل ، متكئا على رقيقه ، ملتصقا  
عندهما المعونة ، وقد بدا قلعه المكسور باكيا مهيض الجناح ، وشآبيب  
من الماء المختلط بالوجل تنز من فوق ظهره كما ينز الدم المتقيح من  
جراح مظمون . وكان لا يزال مشحونا بحديد صديء وأخشاب  
مبللة .

ولم يكن فى مستطاع فوما أن يقول شيئا وهو ينظر الى شكل  
الصندل الشنيع أكثر من هذه العبسارة : « لقد طفا ! » . وراح  
يحدث نفسه وهو مستاء ممتعض فيقول : ترى ! أمن أجل انقاذ  
هذا الوحش المعطوب الملوث القذر ما أشعر به من كل هذا الابتهاج  
الغامر ، والانفعال الذى لا حد له ؟

وتتم فوما فى صوت غامض ، يسأل الما قول :

- والآن . . هل الصندل ؟

ويقاطعها الما قول مطمئنا :

- انه بخير . . وسنفرغ حملته ، ثم نكل به عشرين أو ثلاثين  
نجارا لاصلاحه . . . . وقد يمضى زمن طويل حتى يعود الى حاله  
الاولى .

ونظر الصبى اللطيف ذو الشعر المجعد الى فوما نظرة كاشرة  
ضاحكة يقول :

- ألا كأس من الشراب ؟

وتدخل الما قول عاتبا على الغلام فقال :

- ليس الآن . . ليس الآن . . ألا تلاحظ أن السيد تعب ؟

وقال الشغالة يجبنون ما قاله المقاتل :

- طبعا ٠٠٠ هو تعب !

- ان هذه عملية ليست سهلة !

- الذى يتعب منها هو من ليس معتادا عليها !

- من ليس معتادا عليها ٠٠ يتعب من أكل الفتة !

وهنا قال فوما محتدا ٠٠ وقد ضاق بهذا الغمز :

- اننى لست تعباً

وازدحم العمال حوله ٠٠ كل يبدى ملاحظاته فى أدب واحترام .

- ان العمل شىء سار ما دام الانسان يقوم به بقلب منشرح

- انه عند ذلك يكون كاللعب

وقال صوت خنزير مداعبا :

- أو ٠٠ كالنساء !

وكان الصبى المليح عز عليه ألا يشارك فى هذه الشرثرة فقال

مازحا ٠٠ مبتسما :

- ياسيد ٠ لسنا نطلب شرابا كثيرا ٠٠٠ كأسا واحدة ٠٠

كأسا !

وشعر فوما ، وهو ينظر الى هؤلاء العمال الملتحين ، بما يغريه

بالاستهزاء بهم ، ولكن رأسه كان خاويا ليس فيه ما يقال ٠٠٠

ومضت لحظات قبل أن يقول :

- ان كل ما تفكرون فيه ٠٠ هو الشراب ٠٠٠ والشراب وحده ٠

أوصيكم اذا فعلتم شيئا أن تتمهلوا ، وتسالوا أنفسكم : ترى لماذا

نصنع هذا ؟ ومن أجل أى شىء يجب عليكم أن تحاولوا فهم

هذا !

وبدا الوجوم على الأوجه الملتحمة ٠٠٠ وأنشأ العمال ذور  
القمصان الزرق والقمصان الأحمر يزفرون ويتنهدون ، ويهرشون  
رؤوسهم ، ويزومون !

وكان بعضهم يحدج فوما بنظرة شزراء ٠٠٠ ثم ٠٠٠ ينصرف !  
وتمتم المقاتل يقول :

- هذا صحيح ٠٠٠ الفهم شيء جميل جدا ٠٠٠ والله هذا كلام  
حكيم ٠٠ هذا الذى قلته بأحسن منطق .

وقال الضنبى المليح وهو يومئ برأسه :

- ان أمثالنا من الخلق لا ينتظر أن يفهموا هذه الحكم !

قالها وقد فقد اهتمامه بفوما ٠٠٠ وخامره قليل من الغضب  
عليه ، لانه شك فى أن فوما لا يرى تشجيع العمال على شرب الخمر  
ثم عاد فوما يقول بلهجة تهذيبية ، وقد سره ما ظنه تكريما له ،  
ما أبداه الصبى نحوه ، غير مدرك لنظرات السخرية التى كان الجميع  
يحدجونه بها :

- أوه ! بل أنتم قديرون على ذلك ! ان الشخص عندما يفهم ،  
يتحقق أنه لا بد أن ينهض بعمله بطريقة حسنة تضمن لهذا العمل  
أن يبقى على وجه الزمان .

ويلتفت المقاتل الى العمال ، ويقول فى لهجة تفيض ورعا وتقوى :

- يا ألطاف الله ! هذا حق ٠٠ هذا حق لا ريب فيه !

لقد شعر فوما بما يحفره الى أن يقول كلاما حقا له قيمته عسى  
أن يجعل هؤلاء العمال يغيرون نظرتهم اليه . لقد ساءه أن يجدهم  
جميعا يرجون أن يصمت ذلك الغلام الظريف وألا يتكلم بشيء ،  
وأنهم جميعا كانوا ينظرون اليه باستياء .

ثم قال وهو يرفع حواجبه قليلا :

- انكم بحاجة الى القيام بعمل خالد ينظر اليه الناس بعد  
من السنين فيقولون : لقد قام بهذا العمل أناس من بوجورودسك  
وينظر الغلام الظريف ذو الشعر المجعد الى فوما مشدوها ؛  
يقول :

- وأى عمل هذا يا ترى ؟ نشرب الفولجا ؟

• ويزوم ويهز رأسه ، ثم يعود فيقول :

- لو شربنا الفولجا لفرقت بطوننا كما تعلم !

وارتبك فوما وسقط في يده لما قاله الصبي ، ونظر حوله فوجا  
العمال يتتسمون ابتسامة باهتة وبأنوف شامخة • وكانت ابتساماتها  
كوخز الأبر •

وكان فيهم رجل وقور وخط الشيب لحيته ، ظل زمانا لا يتكلم  
بشيء ، فتقدم الآن ليقول ببطء :

- اذا وجب علينا أن نشرب الفولجا حتى لا تبقى فيه قطرة ، وأن  
تأكل بضعة من ذلك الجبل فوق ذلك ••• فلسوف ينسى ذلك كله  
أيها السيد ••• ان الزمن كفيف بأن يسحب أذيال النسيان على كل  
شيء ••• فالحياة طويلة طويلة ••• كما تعلم ••• ثم ••• اننا لسنا  
نحن الذين يقومون بأعمال تبد أعمال الآخرين ، وتسمو عليها •

ولم يكذب ينتهي حتى بصق على الأرض بازدراء ••• وانصرف  
•• وهو يشق طريقه بين العمال كما يشق الاسفين الخشب •••  
وكان ما قاله ضربة أخيرة لفوما ••• فقد أدرك أن العمال عرفوا فيه  
رجلا غبيا وسخيفا لا عقل له ••• وفكر فى شيء يحفظ عليه كرامته  
فى أعينهم ، ويعيد به انتباههم الذى بدده هذا الرجل ، فلم يجسده



خيرا من أن يبرز صدره ، وينفخ خديه بشكل مضحك ٠٠ ثم يقول :-

- سأمر لكم بثلاثة جرادل من الفودكا !

ان أقصر الحطب هي دائما أكثرها سدادا ، وأعظمها تأثيرا ! لقد انسحب العمال في أدب جم ، وهم ينحنون أمام فوما اجلالا ، وبعد أن شكروه بلسان واحد ، ووجههم تفيض بشرا وتتهلل ابتساما وطلب فوما أن ينقلوه في زورق الى البر ، بعد ان أدرك أن موجة الانفعال الجديدة التي انتابته ربما لا تستمر طويلا ٠٠ لقد كان التبرم والضجر ينكأان قلبه ٠

\*\*\*

ودخل الكوخ ٠ وكانت ساشا بثوبها الاحمر الجميل تضع الطعام والشراب على المائدة ٠ فلم يكدر يراها حتى قال :

- ان كل شيء يغثيني ! ٠٠٠ ساشا ! هل في وسعك علاج هذا ؟

وجعلت ساشا تنظر اليه ، كأنما تدرسه بعناية وأناة ٠٠ ثم جلست بجانبه على الدكة ٠

- اذا كان كل شيء يثير الغشيان في نفسك ، فأنت بحاجة الى تغيير ٠٠٠ أى شيء تشتتبه نفسك ؟

- لست أدري !

- فكر !

- لا أستطيع التفكير

فقال برفق ، وفي شيء من السخرية ٠ وهي تشيخ عنه قليلا :-

- أيها الطفل ! ان الذى تصبو اليه هو أكثر مما  
التكهن به !

ولم يفتن فوما الى لهجتها وهى تنكلم ، ولا الى حركتها وهى  
تشيخ عنه . . . فلقد كان متكئا الى الامام ، قابضا على الدكة بكفة  
يديه ، محمقا بشدة فى أرضية الكوخ .

- فى بعض الاحيان أجدنى أفكر ليلا ونهارا . . . أفكر أفكار  
كثيرة جدا فى أنهم يلطخون جسمى كله بمادة سوداء أشبه بالقار  
. . . وفى غمضة عين يبدو لى أن كل شىء قد زال عنى . . . ويتلاشى  
فى الهواء كالهباء المنثور ، ثم اذا بى أحس أن روحى سوداء كظلام  
القبر . . . شىء مرعب ! لكأنى لست مخلوقا آدميا مطلقا - لا شىء .  
الا فجوة فغرت فاها !

وحديثه ساشا بنظرة طويلة شذراء ، ثم أنشأت تغنى :

ايه يا ريح على قلب تهب  
وعلى بحر الهوى منها ضباب

- لقد شبعت من تلك الحياة الوحشية : كل شىء هو هو باستمرار  
. . . والناس هم هم . . . والمتع هى هى . . . والراح هى هى . . .  
ان هذه حال تجعل دمي يغلي . . . وتجعلنى مغرما بضرب الناس  
وايذائهم . . . انى لا أحب هؤلاء الناس . لاى هدف يحيون ؟ انه  
لا يعرفون ولا يفهمون .

وتستمر ساشا تغنى ، وعيناها مثبتتان فى الحائط :

يا حبيب القلب ما عيشى بدونك ؟  
قفرة ، موحشة ، مثل اليباب !

- ولكنهم يمشون فى الحياة ويستمتعون . . . وأنا وحدى الذى  
أقف ساهما . . . أطرف بعينى . . . لعل أمى هى التى ولدتنى

هكذا .. لا احساس لى • ان اشبيني يقول انها كانت باردة كالثلج  
- وان بها شوقا دائما الى أن تكون فى مكان آخر غير الذى تكون فيه •  
انى أحس كأننى أذهب وأقول للناس : أتوسل اليكم أن تنفذونى  
مما أنا فيه ، يا اخوانى ! وما أشكو منه هو أننى لا أستطيع مواصلة  
الحياة ! الا أننى حينما أنظر حولى ، لا أجد من أقول له هذا الكلام ..  
نهم جميعا زائقون .. أبناء حرام !

ثم أقسم فوما يمينا فاحشة جعلت ساشا تقطع غناءها ، وتولى  
بعيدا وكانت الرياح تضرب زجاج النافذة بحففات من التراب ، وكان  
بالامكان رؤية الصراصير وهى تسعى وتصر بين الاحجار فوق  
الموقد ، وعجل يرسل أصواتا ضعيفة وائية فى حوض الاهراء  
القريبة .. ولم تكذ ساشا تسمع هذا حتى قالت لفوما :

- اسمع ! هذا هو أخوك فى الشقاء يعنى هبه هناك ! فاذهب  
وانع همومك معه ! وفى وسعكما أن تنشدا أنشودة البؤس معا !  
ثم وضعت يدها على رأسه ذى الشعر المجعد ، ودفعته دفعة  
مداعبة :

- أوه ..- علام تنوح يا ترى ؟ اذا كانت هذه الحياة التى نحيها  
لا تعجبك .. فتفضل .. عد الى عملك  
ويصبح بها فوما فى حنق وغيظ :

- يا لله ! لو كان فى امكاني أن أعبر عما فى خاطرى بطريقة  
تجعلك تفهميننى ! عملى ؟ هذا هو ما يسمونه ! العمل ! ولكنك لو  
أنعمت النظر ، وفكرت بتودة وروية .. لم تجديه شيئا .. غير  
تضييع وقت • ما جدوى هذا العمل ؟ جمع المال ؟ لقد أوتيت مالا  
كثيرا ، وفى وسعى أن أدفئك فيه حتى تختنقى • سأدفنك فيه من  
أعلى فرعك الى أخص قدمك .. أن العمل ما هو الا خديعة كبيرة !  
اتمد رأيت أفواجا من رجال الأعمال .. فررفت أنهم يقذفون

يأنفسهم فى دوامة العمل ليحجبوا أعينهم حتى لا ترى حقيقة حالهم  
٠٠٠ انهم يخفون أنفسهم من أنفسهم ٠٠٠ هؤلاء النعام ! ماذا يحدث  
لهم اذا تخلصوا من هذه الدوامة ؟ انهم قد يخبطون كالعميان  
ويصابون بالجنون . انك تظنين أن الانسان يكون سعيدا بمجرد أن  
له عملا ! ٠٠٠ أوه ٠٠ لا ٠٠ ان هذا هو جزء من السعادة فقط ٠٠٠  
ان الانهار تتدفق وتجرى لكى يسافر الناس عليها ، والشجرة تنمو  
لكى ينتفع الناس بها ٠٠٠ حتى الكلب نفسه مخلوق لغرض - لكى  
يحرس المنزل مثلا . وثم من الخير ما يمكن الحصول عليه فى كل شيء  
فى هذا الوجود ٠٠٠ الا الناس ! فهم كالصراصير ٠٠٠ لا يصلحون  
لشيء ! ان كل شيء مخلوق لمصلحتهم ٠٠٠ ولكنهم هم ٠٠٠ لآى  
شيء خلقوا ؟ ما الفائدة من وجودهم ؟

وأحس فوما بنشوة النصر ، وأنه قد اكتشف شيئا ربما ساعده  
وأضر بالناس ٠٠ ولهذا راح يضحك ضحكا عاليا .

وتسأله ساشا وهى تحديق فيه بامعان : « أتشكو صداعا فى  
رأسك ؟

ويجيبها فوما بلهجة فيها تحد : كلا ٠٠ بل أشكو من صداع فى  
روحي ! ٠٠ ان روحي تشكو ، لانها لا تجد الرغبة فى تقبل الاشياء  
على علاقتها ، انها تريد أن تعرف هذه العلات : فمثلا ٠٠ ما الأسلوب  
الذى يجب أن أتبعه فى الحياة ؟ ثم ٠٠ ما الهدف ؟ فهذا اشبيني  
مثلا ٠٠٠ هذا الرجل الذكى الاريب ٠٠٠ انه يقول : اصنع الحياة  
على النحو الذى تريد منها أن تكون ، ولكن كل من عداه يقولون :  
ان الحياة تلتهمنا وتأتى علينا .

وتجيبه ساشا فى وقار وجد :

- اسمع ٠٠٠ ان ما أنت فى حاجة ماسة اليه هو أن تتزوج ٠٠٠  
وهذا هو الموضوع كله ٠٠ فلا تماحك .

ويهبز فوما كتفيه ، ثم يسألها :

- وما الذى يوجب على ذلك ؟

- لا نك فى حاجة الى لجام وشكائهم .. و ..

- أوه ! لا تهربى ! هأنذا أعيش معك ، أليس كذلك ؟ وأنتن جميعا سواء ، وليس فيكن من هى أكثر حلاوة من الاخرى ... وقد كان صاحبة قبل أن ألقاك ... صاحبة من النوع نفسه ... وان لم يكن مثلك تماما ... وقد صحبتنى لغير ما غرض .. صحبتنى لأنها أرادت ذلك ، وأحبتنى لسبب ما ... وكانت أنثى من نوع بأس به ... لكنك اذا تعمقت ما وراء ظاهرها ، وجدتها أنثى لسائر النساء . مثلك تماما .. لولا أنك أخف دما منها ... ولكن .. لقد كان ثم امرأة أخرى ... سيدة .. ومتزوجة ، سيدة حقيقية من الطبقة الراقية ... ويشيعون عنها أنها امرأة ساقطة .. انها سيدة ذكية ومتعلمة وتعيش عيشة رقيقة فخمة . وقد كان يخطر لى اننى أستطيع أن أذوق الحياة الحق فى كنفها .. لكنها كانت شديدة الرافة بى ... ولعلها لو لم تكن كذلك ، لتغير كل شيء بالنسبة لى .. لقد كنت أتشهاها تشها فظيعا ... وأنا الآن أغرق تفكيرى فيها فى كئوس الشراب ... وأحاول أن أنسى ! وأى خير فى النسيان ؟ آه .. يا للانسان من بهيم .. وحسن !

لقد كان فوما غارقا فى لجة من التفكير على حين أن ساشا تذرع الكوخ ذهابا وجيئة وهى تقضم شفيتها قضا ... حتى قالت له أخيرا بعد أن اتخذت لها موقفا أمامه وقد عقدت يديها خلف رأسها :

- اسمع ... انتى ساتركك !

ويسألها فوما دون أن يكلف نفسه رفع وجهه نحوها :

- والى أين ؟

- لست أدري . . . وهذا لا يهم . . انك كثير الكلام ، وهذا  
يضايقنى .

وهنا . . رفع نحوها رأسه ، وسألها وهو يضحك ضحكة  
باهتة :

- أفصحى أفصحى : أجادة أنت ؟

- أنا مثلك . . عندما يحين الاوان أبداً أفكر فى كل شىء أيضا .  
وهذه ستكون نهايتى . . . ولكنها نهاية لا تزال بعيدة . . . ولهذا  
يجب أن أستمتع أولاً . . . وبعد هذا . . ليكن ما يكون !

ويقول لها فوما بلا مبالاة ، وقد ضايقه ما يبذل من جهد فى  
الحديث :

- وهل هذه ستكون نهايتى أنا أيضا ؟

وتجيبه ساشا بلهجة الواثق المطمئن :

- أجل . . . ان أمثالنا من الناس ينتهون نهاية سيئة دائما .  
وجعل كل منهما ينظر الى الآخر دقيقة أو دقيقتين ثم سألها فوما :

- وماذا ينبغى أن نصنع الآن ؟

- نتناول غداءنا .

- أقصد : ماذا ينبغى أن نصنع فيما بعد ، على وجه العموم ؟

- لست أدري !

- وعلى هذا فأنت ستتركيبنى !

- أجل . . . ولكن هلم فلنقم بفسحة كبيرة قبل أن نفترق . . .  
لنذهب الى قازان . . . لنخادع أنفسنا ، ولننسى رأسنا فى الرمال

. . . وبهذا سنتغلب على ما يساورك من أحزان .

- هيا ٠٠٠ هذا صحيح ٠٠٠ لنبتعد من هنا ٠٠ يجب : يجب .  
قاتل الله هذه الحياة الراكدة الآسنة . اسمعى يا ساشا ٠٠٠  
يقولون : ان أمثالك من النساء يجبين المال بشراة ٠٠ بل هن  
لا يتورعن عن سرقة .

وتجيبه ساشا بأعصاب هادئة :

- ليفولوا ما يشاءون !

ويسألها فوما مستغربا :

- وأنت ٠٠٠ ألا تشعرين بالمهانة لهذا الكلام ؟ لقد عرفتك ، ولا  
يمكن أن يتهمك أحد بالشراة ٠٠٠ وأنت من مصلحتك البقاء معى  
!ننى غنى ٠٠ ولكن هانت ذى تنوين أن تتركينى ٠٠ وبعبارة  
خرى ، انك لست شرهة

وأخذت ساشا تفكر لحظة ، ثم أشارت بيدها اشارة خفيفة  
وراحت تقول :

- أنا ؟ ربما لا أكون شرهة ٠٠٠ ولكن ما قيمة هذا ؟ اننى لست  
من أولئك الساقطات ٠٠٠ لست من بنات الأرصفة والشوارع .  
اما ان أشعر بالمهانة لما يقوله الناس ، فمن يستطيع أن يسوءنى  
أو يهيننى ؟ دعمهم يقولوا ما يشاءون ٠٠٠ ان الناس مولعون بالكلام  
٠٠ لكننى أعرف ماذا يسارى كلامهم هذا . اننى لو كنت قاضيا ،  
لكان الموتى هم وحدهم الجديرين بصفحتى .

وهنا تضحك ضحكة كريهة

- ولكن ٠٠٠ هيا. تغير الموضوع ٠٠٠ هيا تناول غداءنا .

\*\*\*

فى صبيحة اليوم التالى كان فوما وساشا واقفين جنبا الى جنب

على ظهر زُورق يقترب من أوسنيه • وكانت قبة ساشا الكبيرة  
السوداء ، ذات الريشات البيضاء •• والتي كانت مثنية الى وراء  
بشكل فاجر خليع ، محط أنظار الجميع • لقد كان فوما يتلوى  
استخذاءً وهو واقف الى جانبها ، شاعرا كأنما كل هذه العيون  
الشاحصة تزحف على وجهه هو • ثم يصطدم الزورق والمنزل الذي  
احتشد فوقه جمع من الناس في ثياب زاهية ، فيهتز هزة خفيفة  
ويرسل صوتا لطيفا • ويخيل لفوما أنه لمح بين هذه الوجوه  
الغريبة وجها ليس غريبا عليه ، كان لا ينفك يتوارى خلف ظهور  
الناس ، الا أنه لا يبعد عينيه عن عيني فوما أبدا

وبدا القلق على فوما ، فقال لساشا :

- هل ندخل الى القمره

فضحكت وقالت :

- لا تحاول أن تستر خطاياك ! هل رأيت أحدا تعرفه ؟

- ان بعضهم ينظر الى

ونظر الى الجمع مرة أخرى ، فاذا تغير مفاجيء يعرو وجهه ويقول  
بصوت خفيض :

- انه اشيبني

كان ماياكين يقف عند حافة المنزل معصورا بين امرأتين سمينتين،  
ووجهه الايقوني كان مرتفعا نحو فوما ، وقد أخذ يلوح بقبعته في  
أدب جم ، مشوب بشيء من المرارة ، ولحيته ترتجف ، وصلعته تلمع،  
وعيناه تثقبان في وجه فوما كأنهما مثقبان !

وتتمم فوما وهو يتناول قبضته ليحييه محنيا رأسه :

- العقاب الأبله العجوز !



والظاهر أن الانحناءة قد سرت ماياكين ، لأنه أخذ يتلوى ويرفع  
بلا ويحط أخرى ، ويبتسم ابتسامات تشوبها المرارة .  
وقالت ساشا لقوما مازحة :

- يبدو أنها مفاجأة عكرت مزاجك !

وكانت ملاحظة ساشا ، وابتسامات ماياكين شرارات أشعلت  
نار في صدر فوما

وقال بصوت مكتوم في شيء من الاضطراب :

- سنرى كيف نتصرف ؟

لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، وبدا صلب الوجه . ولم يكذب  
لزورق يرسو حتى أخذ الركاب يتدافعون الى المنزل ، واضطر  
اياكين الى التراجع لحظة بسبب تدافعهم ، الا أنه تقدم في الحال  
لى الأمام ثانية ، وقد رقصت ابتسامة الفوز على شفثيه . وراح  
وما يحده بعينين حادتين من تحت حاجبيه المعقودين وهو يخطو  
على لوح النزول ، وقد زاد من ربكته تدافع الناس وتخبطهم  
تزاحمهم . . . . . وأخيرا كان تلقاء العجوز الذى انحنى أمام فوما أبدع  
انحناءة فى الدنيا كلها . . .

- والى أين العزم . . أيها السيد فوما اجناتيفتشى ؟

وأجاب فوما دون أن يكلف نفسه مشقة رد التحية :

- انشى هنا لأسباب شخصية .

ويقول العجوز بوجه متهلل :

- عظيم جدا . . ومن يا ترى هذه السيدة الصغيرة ذات الريش .

الفاخر ؟

- خليلتي !

وقد قالها فوما بصوت عال وعيناه لا تطرفان وهو يدافع نظرات  
ماياكين النفاذة .

وكانت ساشا تقف هادئة خلف فوما مباشرة ، متأملة في الرجل  
العجوز القميء الذي لم يكن رأسه يرتفع الى ذقن فوما . وقد استرعى  
صوت فوما العالي أنظار الناس الواقفين حوله . وكانوا جميعاً  
يحدقون عيونهم فيه منتظرين أن يشهدوا فضيحة . وكان ماياكين  
هو أيضاً ينتظر ذلك ، فقد كان مزاج فوما المتحفز يدل عليه ، وقد  
أخذ يرقص تجاعيد وجهه ، ويمضغ شفثيه لحظات قبل أن يقوا  
بصوت لطيف رطب :

- أحب أن أتكلم معك كلمتين . . فهل نذهب الى فندق ؟

- لا بأس . . . ولكن ليس لمدة طويلة .

وقال الرجل وهو لا يكاد يتمالك نفسه أكثر مما فعل :

- ليس لديك وقت ، اه ! مستعجل لكي تحطم صندلا آخر !

وقال فوما وهو يرغب :

- ولماذا لا أحطمها ما دامت قابنة للتحطيم ؟

وهمس ماياكين يقول :

- لك حق . . صحيح لماذا لا تحطمها . . انك لم تكن أنت الذئ

أشترها . . فماذا يهمك ؟ عال . . هلم بنا . . هل يمكن ؟ . . و

بأس أن تفرق السيدة الصغيرة ساعة أو نحوها

ويتلفت فوما الى ساشا ويقول لها :

- اذهبي الى المدينة واحجزى غرفة في فندق سيبريا يا ساشا .

ولن أغيب عنك طويلاً .

ثم يقول لماياكين :

- هلم بنا .

ووصلا الى الفندق دون أن ينبسأ بكلمة . ولما لاحظ فوما أن أشيبيته يضطر الى توسيع خطاه ليحافظ على ملازمته تعمد أن يزيد خطاه سعة ، وكان عجز الرجل عن حفظ خطواته مع خطوات فوما عاملا زاد فى حنق ماياكين ونقمته ، تلك النقمة التى تهدد بالانفجار فى أية لحظة

ونادى ماياكين الجرسون وقد جلس هو وفوما الى احدى الموائد فى ركن من أركان صالة الأكل فى الفندق ، ثم قال له بصوت لطيف :

- أحضر لى زجاجة من عصير التوت يا ولد :

وقال فوما :

- أما أنا فزجاجة من الكونياك !

وضحك ماياكين ثم قال :

- هذه هى الطريقة ٠٠٠ عندما تكون أوراقك خاسرة ٠٠٠ فلا

باس من تلفيق ورقة رابحة !

وقال فوما وهو يجلس :

- أنت لا تعرف كيف ألعب

- أوه ! أنا لا أعرف ؟ هذه هى الطريقة التى يلعب بها كثير من

الناس .

- ان طريقتى فى اللعب هى : اما أن أكسر رأسى أو أكسر الحائط  
ثم ضرب بقبضته المائدة ضربة قوية .  
ويسأله ماياكين وعلى فمه ابتسامة شاحبة :  
- هلا أفقت من سكرتك الأخيرة بعد ؟  
واعتدل فوما فى كرسيه ، ثم قال بوجه ملوى :  
- انك رجل ذكى أيها السيد الوالد ٠٠٠ وأنا أجلك وأحترمك  
من أجل ذكائك  
ويجيبه ماياكين ، وهو يقف قليلا وينحنى محيا :  
- شكرا ٠٠ شكرا يا ولدى !  
- انما أردت أن أقول : اننى لم أعد بعد هذا الشاب ابن العشرين  
عاما . اننى لست طفلا !  
- لا لا ٠٠ لا سمح الله ! انك لسبت طفلا بعد ٠٠ وكم شتاء مر  
على رأسك الاثنيب هذا ! انه لو قدر لبعوضة أن تعيش كل هذه  
السنين التى عشتها لأصبحت فى حجم الكتكوت !  
وأجابه فوما على ذلك بقوله :  
- وفر عليك نكاتك فقد تحتاج اليها فيما بعد !  
وقد قال ذلك بصوت متزن جعل ماياكين يجفل الى الوراء ، وأخذت  
أسايرير وجهه تلعب وتتراقص فى قلق . وسأله فوما :  
- ما الذى جاء بك الى هنا ؟  
- لقد بلغنى سلوكك ال ٠٠٠ سييء ٠٠ فقلت أحضر ، لا ترى  
مقدار الحسائر ٠٠ بما أننى أشبه الناس بأحد أقاربك ٠٠٠ بل  
القريب الوحيد الذى لك !

- لقد كان يجب ألا تبالي . أسمع أيها السيد الوالد ، اعمل حاجة من اثنتين ٠٠٠ اما أن تتركنى وشأنى نهائيا ٠٠ أو خذ أنت العمل كله ٠٠ بحذافيره - الى آخر روبل !

ولقد دهش فوما - بقدر ما دهش ماياكين ، أن يسمع نفسه يقول هذا الكلام ٠٠٠ انها فكرة لم تخطر بباله من قبل ، الا إنه بمجرد أن قالها شعر أن ماياكين اذا قبل أن يقبله من جميع أملاكه أمكن أن يكون حرا ٠٠ وأممكن أن يذهب الى أى مكان يجب أن يذهب ، مهما كان هذا المكان . لقد كان مكبلا على الدوام ، وإن لم يعلم ماذا كان يكبله ويغل نفسه ، ولا كيف يتخلص من قيوده وأغلاله ٠٠٠ والآن ٠٠٠ ها هي ذى تلك الاغلال ، تسقط عنه من نفسها ٠٠٠ تسقط عنه بمنتهى البساطة ، وبلا ألم مطلقا . لقد أشرق فى قلبه شعاع من الأمل . وملاؤه هذا بالبهجة والجيشان ، وبدأ يتمتم فى هدوء بهذا الحديث السائب المتقطع :

- قد يكون هذا أحسن ٠٠٠ تأخذ كل شيء ، وتدفع ثمنه وتكون متخالصين . أذهب حيث أشاء . انى لا يمكننى أن أصل حياتى على هذا النحو ٠٠٠ كأننى مقيد الأيدي مغلول الرجلين ٠٠ أريد أن أكون حرا ٠٠٠ أريد أن أعرف حقائق الأشياء ٠٠٠ أشق طريقى بنفسى ٠٠ إننى ٠٠ كما أنا الآن ٠٠ من أنا وماذا ٠٠؟ سجين ! ٠٠ خذ كل شيء ٠٠ الى الجحيم بها جميعا ٠٠ لن أكون تاجرا أبدا ٠٠٠ انى أكره الاعمال التجارية كلها . فاذا أخذتها ٠٠٠ فسأنطلق الى مكان ما - وسأجد لى نفسى عملا ما أقوم به . أما اذا استمر الحال على هذا المنوال فلن أكف عن الشرب ٠٠٠ وهأنذا ، قد قيدت نفسى بتلك المرأة .

وكان ماياكين ينظر ويسمع بوجه أصلب وأبرد من الحجر الصلد؛ وكان كل الفندق ضجيجا من حولهما ، والناس يجيئون ويروحون وماياكين يقوم وينحنى لهذا ولذاك ، وهو لا يدري لمن ينحنى ٠٠٠

لقد كان انتباهه كله مركزا على وجه ابنه الروحي . . . ذلك الوجدان الذي كان يكتسى ابتسامة سعيدة رقيقة . . . شاردة

وزفر ماياكين أخيرا ، ثم قال :

- يا لك من عيل صغير بائخ ! لقد فقدت صوابك وأفلتت صواميل عقلك كلها ! ما هذا الكلام الفارغ ! أريد أن أعرف : هل هذا من أثر الكونياك ، أو من أثر ضعف اعترى قواك العقلية ؟  
وقال فوما محتجا :

- أيها السيد الوالد . . . لست أنا أول من يصنع ذلك . . . لقد صنعه كثيرون قبلي . . . كانوا يتركون كل شيء ، ويتجردون من كل شيء . . . ثم يذهبون الى حال سبيلهم !  
ويجيئه ماياكين بلهجة قاسية :

- لم يحدث هذا . . . ولم أعرفه في حياتي ! . . . ولو قد حدث . . . لأريتهم !

- بل كثيرون جدا تجردوا مما يملكون وأصبحوا نساكا !  
- لم يكن يمكن أن يفعلوا ذلك لو أنهم كانوا قد قابلوني لأناقشهم هذا الأمر ! ولكن . . . فيم أحاول التحدث اليك حديثا جديا ؟ به !  
ويقول فوما مستاء :

- ولكن . . . لم لا يا سيدي الوالد !

- اسمع : اذا كنت كناس مداخن . . . فتسلق الأسطح ، وخيبة الله عليك ! واذا كنت من رجال المطافئ فعليك أن تصعد الى قمة البرج ! ان لكل صنف من الناس صنفا من الحياة خاصا به . . . ولا يعقل أن تزأر العجول كما تزأر السباع . . . فكن لما ولدت أن

كون . . . ولا تنظر بعين الحسد الى بساطين الآخرين . . . عش  
بياتك الخاصة بطريقتك الخاصة .

وكان هذا الكلام الرزين الممتليء حكمة ، والذي طالما سمع فوما  
لكثير منه ، يندفع في سبيل متدفق من تلك الفجوة المظلمة التي هي  
ثم الرجل العجوز . . . ولكن . . . لا . . . لقد كان فوما عما قال  
الرجل في صمم . . . لقد كان مستغرقا في أحلام الانطلاق والتحرر  
التي بدا تحقيقها الآن قاب قوسين أو أدنى . انها كانت تستولى  
على لبه استيلاء تاما . وأصبح قلبه ثابتا لا يتزعزع في تصميمه على  
الخلاص من تلك الحياة الكثيبة العكرة التي يحيها ، وعلى الخلاص  
من كل مقومات تلك الحياة أيضا . . . من اشيبينه ، ومن المراكب  
والصنادل ، ومن حياة القصف والتهتك . . . ومن كل ما يجعل  
الحياة بهذا القدر من الكآبة والضيق والاختناق .

لقد كان صوت الرجل يصل الى أذني فوما كأنه آت من بعيد . .  
بعيد . . ثم يختلط بأصوات قرقعة الأطباق ، وجمجمة السكرارى ،  
ووقع أقدام الخدم على أرضية الصالة .

ثم قال ما ياكين وهو يضرب المائدة بيديه :

- لقد دخل كل هذا الكلام الفارغ الى رأسك لأنك ممتليء امتلاء  
شديدا بالنزوات الشابة الطائشة . . . ان طيشك وتهورك خرق  
وسوء فهم . . وأفكارك لا قيمة لها . . . قل لي . . ما رأيك في أن  
. . . أن تذهب الى دير ؟

وكان فوما يصغى ، ولا يعلق . وكانت الأصوات في الغنشدق  
تخف وتتلاشى قليلا قليلا . . . وكان يخيل اليه أنه في وسط كتلة  
مسطحة من البشر ، برزت أعينهم خارج رؤوسهم ، وجعلوا ، لأسباب  
غير معروفة ، يصبحون ويتدافعون ويقعون ويتزاحمون . . . دون  
أن يذهبوا الى أى مكان . وقد ساءه عجزه عن فهم ما يريدون أو

الثقة بما يقولون . . . وكان يتمنى لو يستطيع أن ينفلت منهم  
وأن يقف ليلاحظهم من بعد . . . فلو قد أمكن هذا لكان من المؤكد  
أن يستطيع فهم ما كان يجري ، وأن يجد لنفسه مكانا بينهم  
وقال ماياكين بصوت أكثر ليونة لما رأى من حيرة فوما وشروء  
ذهنه :

- مفهوم . انك تريد أن تجد السعادة . . . ولكن هذا ليس أمرا  
هينا . فالبحث عن السعادة أشبه بالبحث عن نبتة عشب الغراب  
وسط غابة بأكملها . . . والبحث عنها يتطلب منك قصم ظهرك .  
وعندما تظن أنك قد وجدتها فقد تتكشف عن أنها لا شيء ! لا شيء  
أكثر من خيبة أمل !

ويرفع فوما رأسه ويقول بلهجة تجعل ماياكين يحول عنه وجهه  
اتقاء عينيه المتقدتين :

- عال ! هل يمكنك أن تعطيني حريتي ؟ أعطني متنفسا ، أتتنفس  
فيه . أعطني فرصة أتخلص فيها من كل شيء انى اذا استطعت يوما  
أن أنظر الى الأشياء وأنا خارج عنها فلعلنى . . . أما اذا ظللت غارقا  
فيها على هذا النحو . فلا حيلة لي الا التداوى بالشراب حتى الموت !  
ويصبح به ماياكين غاضبا :

- كف ، عن هذا الكلام الفارغ . . . وكن رجلا معقولا .

فرد عليه فوما هذا الرد الهادىء :

- عظيم . . . فأنت لن تستجيب لطلبى . . . اذن . . . انتهى كل  
شيء . . . وسأقذف للريح بكل شيء . . . ولم يعد ثم ما يقوله أحدنا للآخر  
. . . أنت . . . وأنا ؛ وداعا . . . وسيجربى كل شيء على مايرام هذه المرة  
- وسترى : كيف تأتي النار على كل شيء حتى لا تدع الا رمادا .



لقد كان فوما ثابتا رابط الجأش قوى الصوت . وانقا من أن  
انسينه لن يستطيع أن يقف فى سبيل ما استقر رأيه على تنفيذه .  
الا أن ماياكين هب واقفا ، وراح يقول له بصوت ليس أقل قوة من  
صوته :

- وهل تعرف الاجراءات التى بمكننى أن أقوم بها ؟  
ويلوح فوما بيده قائلا :

- اعمل ما شئت !

- حسن ! واليك ما سوف أعمل : سأعود الى المدينة حالا .  
سأعمل مايلزم الحجر عليك ووضعك فى مستشفى للمجازيب !

ويقول فوما بصوت تشويه الريبة ، وقد أخذه شيء من الخوف  
- وهل هذا ممكن ؟

- كل شيء ممكن ما دعت أنا الذى سأعمله . . يا صغيرى الشاب!  
وسرت الرعدة فى جسم فوما ، وراح يحدث نفسه قائلا :

- انه يستطيع أن يفعل هذا . . . انه قاس لا يرحم !

- اذا كنت جادا فى أن ترتكب حماقة المجانين هذه، فسوف أتخذ  
الاجراءات التى تحول بينك وبين هذا . لقد عاهدت أباك على ملازمتك  
حتى تقف على رجلك . . . وأنا مصمم على أن أفى بذلك العهد . . .  
حذا لم تشأ أن تقف فساربطك داخل مشاية من حديد تجعلك تقف  
حيدا . . . انى أعرف أن هذا الذى أصابك ناشئ من كثرة ادمانك  
الشرب . . . لكننى اذا رأيتك تبعث أموال أبيك التى طالما شقى  
فى جمعها ، وذلك لمجرد اللهو والسرف ، فسأعرف شغلي معك .  
سأدخلك الشق . . . وأنا رجل متعب لا يستطيع أحد أن يضحك  
على ذقنه . . يا صغيرى !

وعند هذا تجمعت غضون خديه وكراميشهما تحت عينيه اللتين كانتا تبسمان فى برود وسخرية وهما يبصبسان من هاتين النقرتين القاتمتين ، وقد صنعت الخطوط التى فى جبهته رسما غريبا فى قاعدة جمجمته الصلعاء ، وأخذ وجهه طابعا صارما خاليا من الرحمة .

وسأله فوما واليأس مستول على نفسه :

- وبعبارة أخرى ٠٠ لا مفر ولا مهرب من ذلك كله ٠٠٠ وانى تقطع على كل طريق من طرق الخلاص !

- أمامك طريق واحد ، فعليك به ، وسأريك السبيل اليه .  
وسينتهى بك الى بر السلامة

وكانت وداعة الرجل ، وكبرياؤه التى لا تقهر قد أثارنا نأثره فوما وبلغنا به درجة الجنون ٠٠ فما كان منه الا أن دفع بيديه فى جيوب معطفه اشفاقا من أن يرسلهما فى وجه الرجل ، ثم اعتدل فى مقعده ، وراح ينفخ كما تنفخ الافاعي قائلا :

- ليت شعرى ما الذى يجعلك فخورا مختالا هكذا ؟ ماذا عنديك مما يفخر به ويزهى ؟ ابنك ؟ أين هو ؟ ابنتك ؟ ماذا صنعت منها ؟ لله ما أطرفك وأنت تعلم الناس كيف يعيشون ! رجل ذكى ٠٠ تعرف كل شىء ! قل لى : ما هدقك الذى تعيش من أجله ؟ ألا تنتظر أن تموت ؟ وأى شىء فعلته كان يستحق أن تفعله ؟ وبماذا سوف يذكرك الناس ؟

وارتعشت أسارير ماياكين ، ثم ٠٠ انهارت ، بحيث بدا وجهه كشيئا كسييفا محزنا ٠٠٠ وفتح فاه ٠٠ ولكن الكلام خانه ٠٠ فلم يفه بشىء ٠٠٠ ولم يملك الا أن يجلس مكانه مأخوذا مشدوها ٠٠٠ ينظر الى ابنه الروحى فى ذهول ٠٠٠ وفى خوف أيضا ، لكنه استطاع أن يقول أخيرا :

- اخرس ٠٠ أيها الجرو !

ونهبض فوما ٠٠٠ ونثر الكاب على رأسه ، ووقف يحدق في الرحم ،  
هي بغض :

- انى أتحداك ٠٠ وسأكون معك فى نزال ٠٠٠ وسأنفق كل  
ما ملكت يدي .

- عال جدا ٠٠ وسنرى ماذا تكون النتيجة ؟

وقال فوما مستهزئا :

- وداعا ٠٠ أيها النا ٠٠ صح الحكيم !

ويجيبه ماياكين بصوت ناعم ٠٠ وكأنه مقطوع النفس :

- والى أن نلتقى مرة أخرى !

\* \* \*

وجلس ياكوف ماياكين وحيدا فريدا فى الفندق ٠٠ وقد ظل  
حالسا الى مائدته يرسم بأصابعه المرتعشة رسوما غريبة فى بضع  
حيات من الجويدار كانت منثورة على صينية ٠٠٠ وكان رأسه  
المنتصب لا ينى يميل ويميل ، كأنما كان يحاول أن يستشف معنى  
ما رسم من تلك الرسوم على الصينية ، بأصابعه التى كانت جلدا  
على عظم ٠٠٠

وكانت قطرات من العرق قد وقفت على جلدة رأسه الاصلح ،  
وتجاعيد خديه ترقص كعادتها فى قلق واضطراب .

وأخيرا نادى الخادم ، وسأله وهو حزين مهتاج :

- كم حسابك ؟

## الفصل العاشر

لقد كان فوما قبل شجاره هذا مع ماياكين يشرب الخمر لا حبيبا فيها ، ولكن لما كان يشعر به من انقباض وسام وكرامية للحياة ، أما الآن فهو يقبل على شربها كأنه ينتقم لنفسه من شيء ، يشربها بدافع من النعمة والقنوط ، وكأنه يتحدى الناس جميعا ، وفي بعض الأحيان كان هذا التحدى يذله هو نفسه . لقد كان يخيل له أن أهل الوقار من الناس ، أولئك الذين لا يذوقون الخمر ولا يسمحون لها بأن تذهب برشدتهم ، هم حمقى ومجانين . . . سيئو البخت . . . أما السكارى . . . فكانوا أهل ثورة وتمرد ، وأشده حماقة وجنونا من الآخرين . انه لم يكن يجد ما يحبه فى أى واحد من رفاقه . . . بل لم يكن يعنى بالسؤال حتى عن أسمائهم ، وسرعان ما كان ينسى الوقت الذى عرفهم فيه والمكان الذى لقبهم فيه ، وكان يجد ما يغريه على الدوام بتحقيهم والزراية بهم . وكان يحيط با فى المطاعم الغالية ذات النمط الحديث أهل الفن والنظاموز والمشعوذون والممثلون ووجهاء الريف المفلسون الذين بددوا ثرواتهم فى الحياة السائبة المستهتره . وكان هؤلاء أول ما يلقونه يتظلمهروز مظهر الدعاية له ، وأنهم حماته المخلصون . وكانوا لا ينكفون بفخرون أمامه بحسن تذوقهم للخمور وواسع المامهم بصنوفها وخبرتهم الواسعة بألوان المطاعم والمشارب ، ثم لا يلبثون بعد ذلك أن يظهر و أمامه بمظهر الاذلاء . . . الغلابة ! فيقترضوا منه النقود التى يقترضه هو بدوره بموجب سندات مهوره بامضائه . وأخذ الحلاقون والمهرة فى لعب البليارد ، والموظفون الكتائبون والمغنون يحوموز

حوله كما تحوم جوارح الطير حول الجيفة ، وذلك عندما يغشى  
المشارب الوضيعة والخمارات ، وكان يشعر في وجوده بينهم  
بالغبطة ، ومن ثم كان يأنس اليهم أكثر مما يأنس الى غيرهم .  
وكانوا فى نظره أقل فسادا وأيسر فهما . . انهم لم يكونوا الغاذا  
كسائر الناس ، وكانوا فى بعض الاحيان يظهرن من العواطف  
القوية السليمة ما لم يكن يصدر عن غيرهم ، وكانوا على الدوام  
يسمون بقدر أوفى من الإنسانية . . . الا أنهم لم يكونوا يقولن عن  
السادة المحترمين « ، شراهة الى المال وصفاقة فى الحصول عليه .  
بطالما كان يشتد فى سخريته بهم من أجل هذا

وكان ممن يحومون حوله طائفة من النساء بالطبع . وكان فوما ،  
لعحولته وسلامه بنيته ، يؤوى النساء من كل صنف ، الرخيصات  
مبهن والغاليات . . الجميلات والقبیحات . وكان يهدى اليهن المبالغ  
الكبيرة من المال . . وكان يبذلهن غالبا كل أسبوع كما يبذل الانسان  
حداءه . . الا أنه كان يحترمن اجمالا أكثر مما يحترم الرجال .  
وكان يسخر منهن أحيانا ويوجه اليهن الالفاظ النابية المزرية ، غير  
انه لم يكن يستطيع قط - حتى فى أحوال السكر الشديد - التغلب  
على ذلك الحجل الذى كان يعتريه فى حضرتهن . وكان يشعر بأنهن  
جميعا ، حتى أقلهن حياء واحتشاما ، كن عاجزات لا يملكن الدفاع  
عن أنفسهن كالأطفال تماما . ولم يكن فوما وهو هذا الفتى المستعد  
باستمرار لاثارة الشجار مع أى رجل ، ليرقع يده على امرأة ، وان لم  
ير بأسا فى توجيه أشنع الشتائم الى من تهيب له سببا لذلك ، لقد  
كان يشعر أنه أقوى بما لا يقاس من أية امرأة ، وأعظم حظا أيضا .  
وكانت المرأة التى تباهى بفجورها وتتهالك على الاثم والفسق تغشى  
نفسه ، وتملؤه بالضيق والشعور بالعار فى مصاحبتها . وقد  
صربته امرأة شبه مخمورة من هذا الصنف ذات ليلة بقشرة شمامة  
على خده وهما على مائدة العشاء ، فامتقع لونه ، وما كان منه الا أن

وقف وقد وضع يديه فى جيوبه ، وقال لها بلهجة شديدة ، وبصوت يرتجف غضبا :

- هيا .. اخرجى من هنا يا كلبة ... لو كان أحد عيرى لحطم رأسك من جراء تلك الفعلة ... ولكنك تعرفين أن مثلى لا يمكن أن يمسك بأذى ، ولو بأصبع واحدة من أصابعه ... يا جرسون ... اقذف بها من هنا !

وعندما ذهب هو وساشا الى قازان ، لم تمض أيام حتى تركته ساشا وذهبت لتعيش مع ابن أحد صناع الجعة  
وقد قالت لفيوما وهى تتركه لتقوم برحلة مع عشيقها الجديد فى نهر كاما :

- وداعا يا حبيبي ... ولعلنا نلتقى يوما ما مرة ثانية : وتذكر لنا .. أنا وانت ، مسافران فى الطريق نفسه .. وصيتى ألا ترخي العنان كثيرا لمشاعرك ... بل متع نفسك بالموجود ، ودون أن تلقى بالك الى شىء ... وعندما يفرغ الطبق .. كسره ... وداعا !

ثم طبعت على شفثيه قبلة طويلة عنيفة ... وعندما تركته كانت عينها أشد سوادا من كل عهد مضى !

وكان فيوما سعيدا بهذا الفراق ... لقد ملها وزهد فيها ... وكانت قلة ميالاتها ترعبه وتثير الفزع فى نفسه ... ومع هذا ، فقد شعر فى تلك اللحظة بوخزة من الألم والأسف ... ثم ولى عنها وهو يتمتم :

- اذا لم تلقى حظك معه .. فعودى الى !

وكان جوابها على ذلك كلمة الشكر المعتادة ، قالتها وهى تضحك ضحكة خشنة وقحة .. لم يعتد أن يسمعها منها من قبل

وهكذا ٠٠ جعل فوما يعيش من يوم ليوم آخر ، وهو يرصع لبنا  
الامل المداعب ، الذى يغازله بالهرب من مععان الحياة الى هامشها  
٠٠٠ الى ما وراء الدوامة ٠٠٠ بعيدا عن العاصفة . لقد كان اذا خلا  
الى نفسه فى الليل ، يغمض عينيه تماما ، ثم يخيل له أنه يرى هى  
رحابها حشدا من الناس وكأنهم فى فوهة بركان ضخمة ممتلئة بالحلم  
والشراب وهم يدورون حول أنفسهم كما يدور الحب فى نقرة  
الطاحونة . وكأنما تخت أرجلهم حجر كهذا الحجر . وهو يطحنهم  
طحنا ، وهم يرتفعون ثم يسقطون موجة بعد موجة ، وبعضهم يحاول  
ان يسبق الآخرين الى النقرة لكي يطحنه الحجر قبل اخوانه .  
ويقضى عليه قضاء مبرما وبأسرع ما يمكن ٠٠ على حين كان البعض  
الآخر يحاول أن يبقى بعيدا ٠٠٠ فوق القمة ! ليفلت من ذاك  
الحجر الذى لا يرحم .

وكان يخيل لفوما أنه يتبين وسط هؤلاء البائسين بعض الوجوه  
التي له بها عهد ٠٠٠ لقد كان يتبين وجه أبيه وهو يدفع غيره دفعا ،  
وبوجه ضاحك ٠٠٠ بل بصوت مقهقه ٠٠٠ ثم اذا هو يتعثر ويختفى  
تحت أقدام القوم ، وكان بينهم كذلك وجه اشيبه وهو ينفلت كما  
ينفلت الثعبان ، ويتوائب على اكتافهم ، وينسرب بين أرجلهم ،  
ويرقص جميع عضلات جسمه النحيل الهزيل ٠٠٠ وكانت فيهم  
ليوبا وقد طفقت تصيح وتصرخ وتكافح ٠٠٠ تثب الى أمام مرة ،  
ثم تنفلت الى خلف مرة أخرى ، وهى فى كل ذلك تحاول الامساك  
بأبيها حتى لا يغوص فى نقرة الطاحونة ، أما ييلاجيا فقد كانت  
تتحرك بسرعة فى جهة واحدة ، وأما صوفيا بافلونفا فكانت تقف  
وذراعها مرتختان فى ترهل الى جانبيها ، تماما كما كانت واقفة فى  
صالونها آخر مرة لقيها فيها فوما ، وكانت عيناها العظيمنتان  
ممتلئتين ذعرا . وكانت ساشا ٠٠٠ تلك الجريئة الرابطة الجأش ،  
كانت تشق طريقها وسط الجمع شقا ، غير ملتفتة الى ما حولها من  
تدافع ، وهى تتفرس فى القوم بعينها الضافتين السوداوين .

ركان فوما يستمع الى صراخهم وضحكهم وهتافاتهم المخمور،  
ومحاوراتهم .. وكانت الاغاني وعبارات الندبة والنواح تأتي محلقة  
فوق هذا الجمع المضطرم من الأبدان البشرية المحبوس في النقرة  
والزاحف هنا وهنا ، يعصر بعضه بعضا ، ويثب بعضه على أكتاف  
بعض ، متعشرين متخبطين كالعميان ، متشاجرين .. متساقطين .  
ثم غائبين عن الابصار . ثم سمع حفيفا وخشخشة كأن أوراقا مر  
البنكنوت تتطاير كالحفافيش فوق رعوس القوم الذين يتلقفونهم  
بشراة . وسمع أيضا رنين الذهب والفضة وقرقعة زجاجات الحم  
وقنقح فليناتها ونشيج السكرى ، وتلك النغمات الحزينة التي كاز  
بمزج بها صوت احدى النساء وهى تغنى تلك الاغنية :

يا حبيبي لا تفكر فى غد الا غدا

دعه يندب نفسه ، فالغد غير

وهلم اليوم .. نوسعه سرورا

وحبورا .. انه حب وقرب

ولم يستطع فوما لنفسه فكأكا من تلك الرؤيا التي كانت تزداد  
تألقا وتزداد عظما كل مرة تداعب عينيه بمناظرها ، والتي كانت  
تثير مشاعر مختلطة تنقذف فى دوامتها كما تنقذف مسابيل الماء فى  
النهر الكبير ، مشاعر من الخوف والسخط والرثاء والغضب ، كانت  
تغلي وتضطرم فى صدره الى أن تتحول ، فتكون رغبة كبيرة ، تكاد  
من عظمها تخنقه ، فينبثق التمتع فى عينيه ، ويحس رغبة فى الصياح  
والعواء كما يعوى الذئب ليخيف الناس .. أما هذه الرغبة فهى  
أن يضع حدا لذلك الهرج الذى لا جدوى فيه ، وأن يضيف هو  
شيئا الى الاضطراب .. أن ينطق بكلمات ذات معنى ، يرسلها  
بصوت عال .. وأن يجعل كل هؤلاء الناس يسبزون فى جهه  
واحدة ، بدلا من اختلاطهم وتدافعهم هكذا بلا نسق وفى غير  
نظام ، لقد كان يحس بالرغبة فى أن يمسك بهم ليفصل بعضهم عن



بعض ، وأن يجلد بعضهم ، ويربت على ظهر بعض ؟ وأن  
عؤلاء وهؤلاء جميعا ، وأن يلقي ضوء بعض نار عظيمة عليهم .

لكنه كان صفر اليدين - لا كلام عنده ولا نار - لا شيء . . . الا  
الرغبة . . . يلمسها ويحسها . . . ولكن لا يستطيع تحقيقها . . . لقد  
رأى نفسه واقفا خارج النقرة التي كان الناس يطحنون داخلها . . .  
واقفا في ثبات وتصميم . . . ولكن . . . في صمت وبكم . لقد كان في  
مقدوره طبعاً أن يهتف بهؤلاء القوم :

- أيها الناس . . . ما هذه الحياة التي تحيونها ؟ ألا تخجلون ؟  
ولكن ماذا تكون الحال اذا سمعوه ، فقالوا : « ولكن أى نوع من الحياة  
ترى أنت أن نحياها ؟ » لقد كان يعرف تمام المعرفة أنهم لو سألوه  
عذا السؤال لا يمكن أن ينهار من هذه الذروة التي يقف فيها لتطأه  
أقدامهم ، وليطحن بين الحجرين اللذين لا يرحمان . وان الناس  
سيضحكون ولا بد حينما يرونه يحيق به الهلاك !

وكان يخيل اليه أحيانا أنه صائر الى الجنون لا مخالفة من كثره .  
ما يكب على الشراب ، وكان هذا هو السبب في تمكين تلك الرؤيا  
. . . وبالأحرى ، ذلك الرغب ، من عقله . وكان في مقدوره حينئذ  
أن يخمده بقوة ارادته . الا أنه في اللحظة التي كان يخلو فيها الى  
فسه ، ولا يكون السكر متمكنا منه تماما ، كانت نوبة الحرف  
والهذيان تعاوده فتطحنه طحنا . وكان تشوفه الى الحرية والانطلاق  
بقوى ويشتد ، الا أنه كان أعجز من أن يحطم عنه قبود ثروته .  
وأغلاها .

\* \* \*

أما ماياكين ، الذي كان فوما قد أعطاه السلطة القانونيه لاداره  
أعماله ، فلم يكن يدع يوما يمر دون أن يفرض عليه الشعور بمسئوليته  
معرضا فكان يرسل اليه أصحاب الديون ليحصلوا كمسيالاتهم

والمقاولين لامضاء عقود الشحن ، والكتبة لمناقشة لأمور التي تولوا ابرامها بأنفسهم ٠٠٠ وكان هؤلاء يبحثون عنه في المشارب والحمارات لكي يسألوه عما يجب أن يفعلوا ، والنحو الذي يتصرفون بمقتضاه ٠ وكان هو يوجه اليهم نصائحه التي لم يكن في كثير من الاحيان يوقن وجه الصحة فيها ٠ وكان هو يلاحظ مايتلقون به هذه النصائح من التشاؤم والشك في جدواها ٠ كما كان يلاحظ أنهم ، بدلا من أن يتصرفوا كما أشار عليهم ، كانوا يتصرفون بوحى من أنفسهم ، حيث يكون التصرف أفضل وأحسن مما كان يرى هو ٠ وكان يعلم أن اشبينه كان وراء هذا كله ٠٠٠ وأن هذه كانت حطة ماياكين التي رسمها ، والتي حرص فيها على القاء عبء المسئوليات على كاهله عسى أن يعيده الى الجادة ، والطريق السوى المستقيم الذي اختاره هو له ٠

وكان فوما يدرك كل الادراك أنه لم يكن الرأس المدبر لاعماله في حقيقة الأمر ، بل انه لم يكن الا مجرد ملحق من ملحقاته ، وشخصية ثانوية فيه ، بل شخصية لا أهمية لها أيضا ٠ وكان ضيقه بهذه الحال يضاعف من شعور الكراهية للرجل العجوز ، ويزيده شوقا الى يوم الخلاص من ربة أعماله ٠٠٠ حتى لو كان في الخلاص منها حرا به ٠ ومن ثم راح يبعثر الاموال بمعدل فظيع في المشارب وبيوت الفجور ٠٠٠ الا أن ذلك لم يستمر طويلا : فقد أقفل ماياكين حساباته في البنك ٠ وأخذ فوما يدرك أن الناس لم يعودوا يسارعون الى تلبية ما يطلب اليهم من القروض كما كان من شأنهم معه من قبل ٠

وكانت هذه ضربة لكبريائه ، الا أن الضربة الحقيقية ، الضربة التي أذهلته وأطارت صوابه ، حاقت به عندما بلغه ما كان يشيعه عنه اشبينه من الشائعات عن جنونه ، وما كان يلمح به من ضرورة تعيين وصى شرعى يكون صاحب القوامة عليه ٠ ولم يكن فوما يعلم

الى اى حد يستطيع اشبينيه أن يمضى فى ذلك ، ومن هنا فقد نردد  
فى أن يستشير أحدا فى هذا الموضوع .

وكان يؤمن بأن ماياكين شخصية ذات أهمية كبيرة فى عالم  
التجارة تستطيع القيام بما تشاء ، وقد أذهلته أول الامر يد اشبينيه  
الباطشة ، الا أنه سرعان ما اعتادها ، فسار فى طريق شهواته ،  
لا يلذه الا الاختلاط بمن كان يهوى الاختلاط بهم .

وكان لا ينفك يزداد ايمانا بأن البطانة التى حسوله من أولئك  
الناس كانت أخبث منه وأشد دنسا ، وأنهم انما يحيون حياة تافهة  
فارغة لا معنى لها ولا هدف . انهم لم يكونوا سادة الحياة والمتحكمين  
فيها ، بل لم يكونوا الا مجرد تبع ، ومجرد مداهنين - ولا دليل -  
.. تلقى بهم الحياة الى ما تشاء ، وتعصف بهم كما تشاء .

وهكذا ظل سادرا فى حياته تلك ، كأنما كان يعبر مستنقعا نكدا  
بهدهد فى كل خطوة بأن يبتلعه وحله ، على حين كان اشبينيه يلتف  
حوله كما تلتف ساق من سيقان العنب ، نام فى أرض جافة صلنة  
.. فهو لا ينى يرمقه من بعد بعين حذرة متيقظة .

\*\*\*

ذهب ماياكين ، بعد مشاجرته مع فوما ، الى منزله مقطباً عابس  
الوجه مستغرقا فى التفكير . وكانت عيناه تكتسيان بلوعة جافة ،  
وهو يشد نفسه شدا فكان أشبه بسمط متوتر وقبعت حباته حبة  
نوق حبة . وكانت أخاديد وجهه أشد عمقا ، وكأنما ازدادت سحنته  
تقيضا وظلاما ، حتى لقد حسبته ليوبا مريضا بمرض خطير ولا بد  
.. اذ كان يدق الأرض بقدميه فى عنف وشدة ، ويوجه اليهسا  
ردودا جافة خشنة على أسنلتها .. ثم يصيح بها أخيرا :

- اغربى عن وجهى .. دعيني وحلى .. فليس عندي وقت لك !

وقد ثارت في قلبها مشاعر الحنان لما كانت تراه من سيماء التعس  
في عينيه الخضراوين . وعندما جلس ليتناول غداءه لم تملك أن  
ذهبت إليه حيث وضعت كفيها على كتفيه ، وسألته وهي تنظر إليه  
في حنان وعطف :

١ - أتشعر بشيء يا أبى ؟

انها ندر ما كانت تبدي له شيئا من أمارات العطف والمحبة ،  
فاذا حدث أن أبدت من عطفها شيئا ، كان ذلك يهز قلبه هزا ...  
وكان هذا يلذذ منها ، وان لم يكن يحفل قط بأن يبادلها عطفًا يعطى  
... أما هذه المرة فقد نثر يديها بعيدا عن كتفيه ثم قال :

- تعالى تعالى .. اجلسي .. قولى لى .. ما الذى يربكك هكذا ؟

لكنها لم تجلس ، بل ظلت واقفة حيث هى ، محدقة فى وجهه ..  
ثم شرعت تقول له فى احساس جريح :

- لماذا يا أبى تخاطبني دائما بهذه اللهجة ، كأننى طفلة أو فتاة  
عبيبة ؟

- بل لائتك كبيرة ولا ذكاء عندك ... هذا هو السبب ...  
ماجلى وتناولى غداءك .

وجلست فى الكرسى المقابل له فى صمت ، وقد زمتمت شفيتها ..  
ومضى وقت طويل والرجل يمد يده إلى طعامه ... بل كان يحملق  
فى حسائه وينقر المائدة بملعقته ، وهو ذاهل شاردا للب ... إلى  
أن قال فجأة ، وهو يتنهد :

- آه لو كان رأسك الفارغ المهوش هذا يستطيع أن يفهم أفكار  
والدك !

ورمت ليوبا ملعقتها ، ثم أجابته وهي توشك أن تبكى

- لماذا تتعمد دائما أن تخرج مشاعري يا أبى ! ألا تستطيع أن نلمس ما أنا فيه من وحشة ؟ ليس يخفى أنك تفهم مقدار ما فى حياتى على هذا الاسلوب من قسوة . ومع هذا ، فأنت لا تعطينى يقا حلوا مطلقا . . . . ولكن . . . ما الفائدة ؟ . . . فحياتك مثل حياتى مقفرة موحشة . . . . ومن الصعب عليك أن . . . .

وقاطعها بقوله وهو يضحك ضحكة خفيفة باهته :

- تنهقين كحمار بلعام . . . . هيه . . . . وماذا تريدن أن تقولى أيضا ؟

- انك شديد الزهو والفخر بذكائك .  
- وماذا أيضا ؟

- يجب ألا تكون مزهوا فخورا . . . . تم لماذا تظل تصدمنى هكذا . . . مع علمك أنه ليس لى أحد سواك فى هذه الحياة ؟

تم فاضت عينها بالدموع . . . فذهل الرجل ، ونظر اليها بعينين بدعورتين ، وهو يقول :

- آه لو لم تكونى بنتا . . . أو لو كان لك عقل مثل عقل . . . ماردا بوسادنستا . . . اذن لسخرت بالدنيا وما فيها ياليوبا ! . . . بفسوما بكل شخص سواه . . . تعالى . . . عيب . . . لا تبكى . . .

وتسأله وهى تمسح دموعها :

- وماذا يصنع فوما ؟

- يحرن . . . كما يحرن الحصان . . . ويقمص ويرفس . . . انه قول لى : خذ كل ما أملك ودعنى حرا . . . يريد أن يجد الخلاص فى اخور ! فهذا هو الذى يداعب خيال فوما !

- ولكن . . . لماذا ؟

- لماذا ! .. هذا : اما من أثر الحمر .. أو .. كان الله فى عونہ ،  
وراثۃ عن أمہ - الكارثة القديمة نفسها .. وهو اذا أصر على هذا  
الجنون فسوف أحاربه بأسناني وأظافرى .. لقد أعلنها حربا  
مكشوفة بينى وبينه .. هذا المنفوخ المتكبر .. المتخطرس .. الا أنه  
شباب حدث .. ولا ينطوى على شىء من خبث أو دهاء .. انه يقول  
انه سوف يأتى على كل ما يملك ! أوه .. انه يستطيع ؟ أليس  
كذلك ؟ والله لأرينه !

ويرسل ماياكين قبضته فى الهواء مهددا ، ويصل كلامه فيقول :  
- كيف تجرؤ على ذلك ؟ من الذى أنشأ هذه الاعمال ؟ أنت ؟  
كلا ! انه أبوك ! لقد كدح فى سبيلها أربعين سنة من عمره ، وتأتى  
أنت فتحاول قذفها الى الريح ! لقد كان من دأبنا نحن التجار أن  
سافر معا فى البرية فى صفوف ، أحدا خلف الآخر ، ونحن  
نتسلق القمم ونهبط الأودية .. ولا ننفك نمضى قدما حتى نبلغ  
مقاصدنا .. اننا نحن التجار وأصحاب الدكاكين .. نحن الذين  
حملنا روسيا على أكتافنا جيلا بعد جيل .. ولا نزال نحملها الى  
اليوم ..

لقد كان بطرس الأكبر رجلا آتاه الله الحكمة ؛ فهو الذى عرف  
قيمتنا ، فماذا فعل لمعاونتنا ؟ لقد طبع لنا الكتب التى تعلمنا عملنا  
لقد حصلت على كتاب من تلك الكتب التى طبعها .. كتاب من تاليف  
بوليدور فرجيل أوربنسكى عن المخترعين ، طبع سنة ١٧٢٠ م  
ألقي بالك الى هذا ، لقد أعطانا بداية .. وها نحن أولاء قد وقفنا على  
أرجلنا ، الا اننا نريد أن نمضى قدما دون أن يعوقنا عائق .. لقسا  
أرسينا أسس الحياة ، ووضعنا أرواحنا نفسها فى الأرض مع الحجار  
.. وقد آن أن نبني الآن طبقات البناء طبقة بعد طبقة .. وكان لآبا  
لنا من الحرية للقيام بهذا العمل ، فهذا اذن هو خط سير العمل التو

كان علينا أن نتبعه - وهذا هو العمل الذى أمامنا .. ولكن فوما لا يرى شيئا من ذلك .. غير أنه يجب أن يراه ، ويجب أن يستمر فيه . ان تحت يديه ثروة أبيه ، وعندما أموت فسوف يحصل على ثروتى أنا أيضا .. فلماذا لا يمضى فى طريقنا ويضطلع بعبء العمل؟ ولكنه بدلا من أن يفعل ، يشب على رجلية الخلفيتين كالحصان الجامح .. ويصهل ! ولكن .. صبرا .. صبرك أيها التافه الصغير الذى لا قيمة له ! تالله لأردنك الى الجادة ، ولتكن فى مكانك الصحيح !

لقد كان الرجل يضطرم غضبا ، وكانت عيناه تقدحان الشرر ، كأنما كان فوما هو الذى أمامه ، وليست ابنته ليوبيا .. ولشدهما انزعجت الفتاة لذلك .

- لقد مهد لك أبوك الطريق .. وما عليك الا أن تسلكه .. وأنا .. لقد ضللت خمسين سنة وأنا يستعبدنى هذا العمل .. ولماذا ؟ لا بنائى ! وأين أوثك الأبناء ؟

ثم يتخاذل الرجل وينكس رأسه .. حتى إذا عاد الى الكلام ، كان كمن يتكلم من أحشائه :

- لقد مات أحدهم .. والثانى سكير عرييد أسلم نفسه للشيطان .. والثالثة ابنة .. فمن ذا الذى ينهض بعبء العمل بعد وفاتى ؟ فلو أن لى زوج ابنة .. الآن .. أو لو أمكن أن يشبع هذا الاحمق فوما من حماقات الشباب التى هو سادر فيها الآن ، ثم يقر قراره ، ويثوب الى رشده لزوجتك اياه ، ثم لأعطيته جميع ما أملك .. ولكن فوما لا يريد .. ولست أرى أحدا سواه .. ان الناس اليوم أصبحوا غيرهم بالأمس .. لقد كانوا قديما أحسن كثيرا مما هم عليه اليوم .. فلماذا ؟ ما السبب ؟

ثم نظر الرجل الى ابنته .. لكنها لم تنبس ! فراح يسألها :

- خبرينى يا ليوبا .. ماذا تريدان من الحياة ؟ وما رأيك فيما ينبغي أن تكون حياة الناس ؟ لقد ذهبت الى المدرسة يا ابنتى وقرأت الكثير من الكتب .. فماذا تريدان من الحياة ؟

وقد كانت الطريقة التى وجهت اليها تلك الاسئلة مفاجأة أربكتها ، لكنها مع ذاك شعرت بسرور كبير فى أن يسألها أبوها مثل هذه الاسئلة ، وان خشيت أن تجيب عنها مخافة أن تتضعض مكانتها فى نظره .. ومع ذاك فقد استجمعت كل قوتها ، وكأنما كان المطلوب منها أن تثب فوق المائدة ، ثم قالت بصوت مرتجف حائر :

- أريد أن يحيا كل انسان سعيدا .. مستكفيا .. وأن يكون للناس جميعا على قدم المساواة .. ان كل انسان يحتاج الى الحرية يقدر ما يحتاج الى الهواء ، ولا بد من المساواة فى كل شئ ..

وما كان من العجوز الا أن قال لها فى بطة وازدراء :

- تماما كما هو رأىي فيك دائما .. مغفلة لا رجاء فيها !

وتخاذلت ليوبا .. وتفككت مفاصلها ، الا أنها لم تلبث أن مالت برأسها الى وراء وراحت تحتج قائلة :

- انك أنت نفسك قلت ان الحرية ...

- اخرسى ! انك أعجز من أن ترى حتى ما هو مكتوب على أنف كل مخلوق ! كيف يمكن أن يكون الناس جميعا سعداء ومتساوين وكل منهم يكافح لكى يكون على رأس الجميع وفى مقدمتهم كلهم ؟ ان الشحاذ نفسه له كبرياؤه ، ولا يعدم ما يفخر به على زملائه ! بل ان أصغر طفل يحاول جاهدا أن يبذ أقرانه فيما يمارسون من ألعاب .. ولن يمكنك مطلقا أن تجعلى الناس يقرون بالهزيمة بعضهم لبعض .. والمغفلون فقط هم الذين يظنون أن هذا فى امكانك .. ان لكل انسان ذاتا يحبها ويحرص عليها ، وليس فى الناس من يسمح لك



بأن تنجتيه وفقا للا نموذج نفسه الا اولئك الذين تجردوا من حبه  
لذواتهم .. يا غلبانة ! لقد قرأت كثيرا .. وبلغت من كل أنواع  
النفايات ..

وكانت عينا العجوز الداهية تفصان بنظرات التسويخ المرة ،  
والزراية الجافة .. ثم اذا هو يدفع كرسيه الى وراء ، ويهب واقفا ،  
يرشع فى ذرع الغرفة الى أمام والى وراء فى خفة وبسرعة ، وهو  
يهز رأسه ويجمجم فى نفسه بكلمات متشنجة .. أما ليوبيا التى  
امتقع وجهها خجلا وارتاباكا ، واستولى عليها شعور كثيب بعجزها  
وغباؤها فلم تك تملك الا أن تصغى الى ما يجمجم به من كلام بقلب  
خفق مضطرب .

- رباه .. لقد تخلى عنى الجميع .. وأصبحت مثل عبدك أيوب  
.. فماذا عساي أن أصنع يا الهى ! .. ان لم أكن ذكيا مجتهدا ،  
فمن غيرى يكون الذكى المجتهد ؟ وان لم أكن البارع اللوذعى الواسع  
الحيلة .. فمن غيرى يا ترى ؟

ورق قلب الفتاة لا بيها ، وأحسست برغبة ملحة فى مد يد المساعدة  
له فى حاله تلك .. فى أن يحتاج اليها . وكانت ترتقب كل حركة  
من حركاته بعينين مشتعلتين .. وأخيرا قالت له : وبصوت  
منخفض :

- لا تبتئس الى هذا الحد يا أبى .. وعلى كل .. فتاراس لا يزال  
حيا .. ولعله ..

وتوقف ماياكين بغتة ، كأنما تلقى ضربة ، ثم رقع رأسه يبطئ  
وقال :

- اذا اعوجت الشجرة وهى لا تزال صغيرة ، فكيف يصلح حالها  
اذا كبرت ؟ .. ومع هذا .. فصحيح أن تاراس قد يكون قسوة

ربما تعلقت بها ساعة الغرق ، وان لم يكند يكون خيرا من فوما .  
ان فوما له شخصيته على الأقل ، وقد ورث عن أبيه جراته وجسارته  
قلبه . وفي امكانه أن يصنع العظام لو عنى بذلك . أما . . . تاراس  
. . . تاراس . . . فلقد أحسنت صنعا بتذكرك لى اياه !

وأخذ الرجل الذى كان قبل لحظات يندرع الحجره كأنه السنجاب  
المحبوس فى قفص ، يمشى الآن ببطء وهدوء نحو المنضدة ، ثم اذا  
هو يعدل كرسيه فى وقار ، ويجلس عليه . وشرع يقول وقد بدأ  
الجد على وجهه :

- لابد من محاولة معرفة شيء عن أحوال تاراس . . . انه يعيش فى  
مدينة يوسوليه فى مصنع هناك . . . وقد أخبرنى بذلك بعض  
التجار . مصنع صودا على ما يظهر - لابد من معرفة شيء ما عن  
أحواله . لابد . . .

وسالته ليوبا بصوت ناعم ، وهى ترتجف حياء وفرحا :

- بابا . . . أتأذن لى فى أن أكتب اليه خطابا ؟

ويجيبها وهو يحدجها بنظرة خاطفة :

- أنت ؟

ثم يقول بعد لحظة من التروى :

- لعل هذا يكون أحسن . . . هيا . . . اذهبى واكتبى اليه الآن .

اسأليه : هل تزوج ؟ وكيف يعيش ، وما مطامحه . . . ولكن . . . أقول  
لك . . . سأخبرك عما تكتبين اليه عندما يحين أو ان ذلك . . .

- لنكتب اليه فى الحال يا أبى !

- بل الذى يجب أن يتم فى الحال هو زواجك . وأنا أفكر لك

قى ولد طيب ذى رأس أحمر ، ولد عظيم على ما يبسودو - ذى مزاج  
أورباوى وهندام أورباوى !

وتسأله ليوبا فى تلهف :

- أيمكن أن يكون سمولين يا أبى ؟

- عال .. وماذا كان هو ؟

وتجيبه ليوبا وكأنها لا ترتبط بشيء :

- لا شيء .. أنا لا أعرفه !

- ستعرفينه .. لقد آن الأوان ، ليوبا .. لقد آن الأوان ..

«أنا لا يمكن أن نتكل على قوما ، وأن لم أقصد أن أدعه وشأنه .

.. وأنا لم أكن أتكل عليه .. ولا أفكر فيه

- وأسفاه ! لو أنك أوليته شيئا من العطف ورقة الإحساس ،

فربما لم يكن ليضل هذا الضلال .. اننى عندما كنت أراكما فى

خلوة كنت أقول لنفسى : أن الولد سوف ينشئ بيتا لصغيرتى ليوبا

.. ولكن .. لقد خاب فألى !

وشرد ذهن ليوبا عندما كانت تصغى الى والدها .. لقد كانت

غناة قوية صحيحة الينية .. وكانت تكثر من التفكير فى الزواج

فى الأيام الأخيرة بوصفه المخرج الوحيد مما تشعر به من وحشة .

لقد كانت تفكر فى ترك أبيها والانطلاق من أسره كى تدرس وتعمل ،

لكنها أقلعت عن هذه الرغبة منذ زمن طويل ، كما أقلعت عن رغبات

كثيرة مثلها من الرغبات التى تقرب أن تكون نزوات طارئة . وكانت

الكتب الكثيرة التى قرأتها قد تركت فى نفسها رواسب عكرة لم

يكن فيها شيء من الحياة الا بمقدار ما فى البروتوبلازما منها . رواسب

جعلتها تعزف عن الحياة أو تغشى بها ، وتحن الى الانطلاق والحسرية

«والاستقلال بنفسها ، والفكاك من هيمنة أبيها ، الا أنها مع ذلك لم تنته بها الى هذا التحرر بالفعل ، بل لم تدلها على طريق هذين التحرر . وفي الوقت نفسه كانت الطبيعة تسير فى طريقها ، فكانت ليوبا كلما شهدت الامهات الصغيرات وعلى أيديهن أطفالهن ، امتلات بالحسد ، وخامرها الحنين الى أن تصبح مثلهن . وكانت ربما وقفت أمام المرأة أحيانا ، وأنشأت تنظر الى وجهها النضر الصغير الذى أخذت تبدو حول عينيه تلك الخطوط الداكنة ، وعندئذ كانت الحسرة تسرى الى نفسها . . . لقد كانت الحياة تمر بها مرورا وهى تسرى فى طريقها ، وكأنها تدفع بها عن موكبها . والآن . . . وهى جالسة تنصت الى أبيها . . . راحت تحاول أن تتخيل سمولين هذا . . . ترى ! ماذا يكون ؟ ومن ذا يكون ؛ . . . ان آخر عهدها به اذ هو طالب فى المدرسة الثانوية . . . وكان اذ ذاك فتى ثقيل الظل ، أفتس الأنف يكسو وجهه النمش ، لا يجيد الرقص ولا يستطيب رفقته أحد . . . بالرغم من أناقته ورقة سلوكه . الا أن هذا كله قد مضى عليه زمن طويل . . . وقد سافر الى الخارج ، وظل يدرس ثم منذ ذلك . . . فياترى ؟ ماذا يكون من أمره اليوم ؟ . . . ثم قفزت أفكارها من سمولين الى أخيها تاراس . . . وأخذت الهواجس تنتابها عما عسى أن يرد به على خطابها اليه . . . لقد كان هذا الاخ ، كما صورته لها خيالها أهم لديها بما لا يقاس من كل من أبيها ومن سمولين . . . وكانت تحدث نفسها فى تلك اللحظة بالذات بأنها لن توافق على الزواج حتى ترى تاراس . . . عندما هتف بها أبوها فأيقظها من شرودها وهو يقول :

- اصحى . . . ليوبا . . . يم تحلمين ؟!

- أوه ! اننى لم أكن أفكر الا فى السرعة العجيبة التى تمر بها !

- وما ذاك الذى يمر ؟

- الاشياء جميعا .. لقد خطر على الاسبوع الماضى أن أذكر اسم  
تاراس .. والآن ..

- ان الحاجة هي التى تدفعنى الى ذلك دفعا .. الحاجة قوة عظيمة  
يا ابنتى ، انها تستطيع أن تثنى الصلب نفسه فتجعله أطوع من  
الزنبلك .. والصلب قوى متين ! تاراس ؟ سنرى ! ان الإنسان  
يدل على قيمته بمقدار ما يبدى من المقاومة للحياة ، فاذا ثناها لارادته ،  
بدلا من أن ينثنى هولها .. فهذا هو الانسان فى نظرى .. الجدير  
باعجابى . والأسفاه ! لشد ما يحزننى أننى بلغت من الكبر عتيا  
هكذا ! ان الأمور تجرى على عجل هذه الأيام .. وبسرعة عجيبة  
وكلما مضى عام زادت الحياة حلاوة ، وصارت أطرف طعما ، لك  
فيها من مشيهات وبهارات ! ما أعظم ما أتمنى أن أعيش وأعيش ،  
لاقوم بجلائل الأعمال ! وممصص الرجل بشفتيه ، ثم دعك يديه  
بعضهما ببعض ، وتلايلات عيناه ، وقال :

- ولكنكم أنتم أيها الشباب الغض .. ان الدماء تجرى فى عروقكم  
دماء رقيقة مترفة .. انكم تعطبون قبل أن تنضجوا ، وسرعان  
ماتذبلون وتكونون كالفضلة البائتة ، وأنتم لا تستطيعون حتى أن  
تروا كيف تطيب الحياة وتحلو . لقد عشت على هذه الأرض طوال  
سبعة وستين عاما .. وهأنذا ، وأنا أقف على حافة القبر ، الاحظه  
ان الدنيا ممتلئة بالورود والازهار أكثر مما كانت الحال فى شبابى ،  
وأن عدد الفقراء اليوم ودرجة فقرهم شيء لا يذكر ، بالقياس الى ماكان  
الفقر والفقراء فى أيامنا الخوالى .. ان كل شيء يزداد حسنا هذه  
الأيام .. وما عليك الا أن تنظرى الى هذه المباني الرشيقة التى  
ترتفع الى عنان السماء والى الأدوات .. أدوات التجارة .. والى  
السفن ! والى العقول التى انصبت فيها حتى أنتجتها ! انها تجعلك  
تريدى أن تقولى وأنت تنظرين اليها : مبروك عليكم ، أيها الناس ،  
مبروك عليكم ! .. ان كل شيء جيد ولطيف ، وكل شيء يجلب السرور

الى النفس ، كل شيء .. ماعدا أبناءنا ووارثينا ، أولئك الذين حرموا  
أى شرارة من الحياة فى قلوبهم . ان أحقر مشعوذ من بين صفوف  
الطبقة العاملة فيه روح أكثر مما فى شبابنا هذا الخرع المنخوب !  
واليك مثلا هذا ال .. ما اسمه ؟ .. آه .. الشساب ييزهوف  
.. ولد لا هنا ولا هناك .. ولكنه من الصفاقة والتلامة بما يجعله  
قاضيا على الدنيا بأسرها ! ولد لديه من الشجاعة ما يجعله يتصرف  
بحسب ما يرى ، دون أن يخشى أحدا . أما أنتم فوأسفاه ! انكم  
تحيون كالشحاذين .. ان الأولى بكم أن تسلكوا أحياء وينثرالملح  
على لحكومكم ، فهذا هو الذى يمكن أن يجعلكم تقفون باعتدال ..  
وفى غير عوج ! »

ارتجف ياكوف ماياكين - هذا الرجل القمىء ، المكرمش ، الجلد  
على عظم ، الأصلع ، ذو اللطخ السوداء على أسنانه وفمه ، ذو الجلد  
القاتم الذى كأنما قدد فى قرن الحياة ، ارتجف ياكوف ماياكين هذا  
وسرت الرعدة فى جسمه وهو يصب كلماته المؤذية المهلكة هذه على  
رأس ابنته الغضة البضة الحسناء التى نظرت إليه فى توجس كأنما  
جنى جنائية ، ثم ابتسمت ابتسامة هيابة خجولا .. وشعرت بما  
يجول فى أعماق قلبها من مشاعر الاحترام لهذا الرجل العجوز أביها  
.. الذى كان يجرى وراء ما يهدف إليه بمثل هذا التصميم العنيد  
الشرس !

\*\*\*

لم يقلع فوما عن حياة اللهو والعبث

وبينما كان يدخل مطعما مألوفا من مطاعم المدينة وجد من يعانقه  
عناقا حارا كله مرح وكله ائناس .. ولم يلبث أن فطن الى الذى  
يعانقه .. انه هو بعينه ابن صانع الجمعة .. الفتى الذى صبت اليه  
ساشا وسافرت معه . والذى يقول لقوما :

- يا للمفاجأة ! لقد مضت على أيام ثلاثة فى هذه المدينة والوحدة  
تذيينى وتضمنينى ، دون أن ألقى فتى محتشما آنس اليه ، حتى  
لم أجد بدا من مصاحبة نفر من رجال الصحافة لما يثست من وجود  
غيرهم • وعلى كل •• لقد كانت شلة لا بأس بها •• لقد تشامخوا  
على أول الأمر ، وكانوا ينظرون الى من طرف أنوفهم •• ثم لم يلبثوا  
ان تهافتوا على كاندباب لما أغرقتهم فيه من الشراب •• انتظر ••  
سأقدمك الى أحدهم ، واحد ممن يدبجون المقالات الهامة الجذابة ،  
لصحفى الذى كتب عنك ، ما اسمه يا ترى ؟ شخص ظريف مسل  
•• عفريت يلهفه !

لكن فوما راح يسأله ، وقد أذهلته شيئا ما تصرىحات ذلك  
السباب الطويل الذى يرفع الكلفة على هذه الصورة ، والذى كان  
يلبس تلك الملابس البراقة المبهرجة :

- وكيف ساشا ؟

ويجييه وهو يرقص وجهه ساخرا :

- أخ !•• ساشا ، صاحبك هذه فتاة •• غير مليحة ، فتاة  
لكننفها الاسرار والظلمات •• كثيية جدا •• باردة كالسمكة ••  
قد تركتها ••

وسأله فوما وهو مستغرق فى التفكير :

- باردة !

ويجييه ابن صانع الجمعة بأسلوب محكم مقتضب :

- أى شىء يقوم الانسان بعمله ، فلا بد أن يعمل على أحسن  
لوجوه •• فمثلا •• اذا وافقت على أن تكون خلية لشخص ما ••  
لابد أن تقوم بالواجب عليك نحوه ، هذا اذا كنت امرأة أمينة حقا!  
على فكرة •• ما رأيك فى شىء من الفودكا ؟

وشربا .. حتى غابا عن صوابهما ..

وفى هذه الليلة اجتمع خلق كثير صاحب فى الحان ، وقد خاطبهم  
فوما بصوت ثمل غليظ ، وهو فى شبه كابوس مزعج :

- هذا هو رأى فى الناس .. اه ! بعضهم ديدان .. وبعضه  
عصافير .. العصافير هم التجار .. وهم يأكلون الديدان .. هذا  
هو عملهم . وذلك هدفهم .. ولكن .. أنا .. وأنتم .. ما عملنا  
بما هدفنا ! .. لا عذر لنا .. ولا أحد يريدنا .. وهؤلاء الآخرو  
.. وكل شخص غيرهم .. ما الغرض من وجودهم .. هذا موضوع  
جدير بالتفكير . من يريدنى ؟ لا أحد يريدنى . اقتلونى ..  
اقتلونى يا ناس ! أريد أن أموت !

ثم بكى .. وسكب الدموع مدرارا . وجاء اليه رجل فكه صغير  
الجسم أسمر البشرة ، ثم انحنى فوقه وأسر فى اذنه بكلمة ، ثم  
رمى بنفسه فوق صدره ، وصاح وهو يدق المائدة بسكين فى يده :

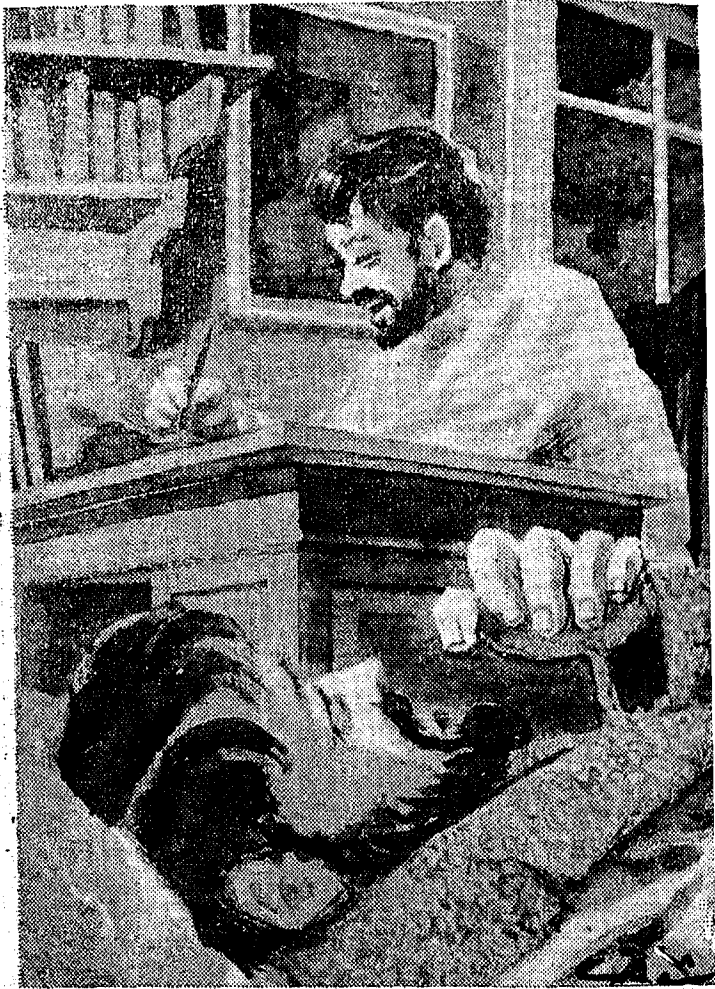
- سكوتا ! الناس الطيبون هم أصحاب الكلمة الآن ! أفيال هذه  
«القاعة» و«ماموناتها» لهم الكلمة الآن . استمعوا الى الكلمات الظاهرة  
الصادرة عن الضمير الروسى الطيب . تكلم يا جوردييف ، واجهر  
بكلامك .. اجهر بكل ما فىك من قوة ..

ثم قبض على كتف فوما ، وارتقى على صدره ثانية ، حيث ظل  
رأسه المستدير الأسود الحليق ملقى يتلوى ويتقلب تحت أنف فوه  
الذى لم يكن يستطيع أن يرى وجه هذا المخمور الثمل ، حتى ضاقت  
به ، ودفعه عنه دفعة قوية وهو يقول :

تعال هنا ! مائة روبل فى الشهر ، وسكن ، وأكل ! ما شاء الله  
الى الجحيم بالورقة ! أنا أدفع أكثر من ذلك .

لقد كان كل شيء يهتز ويتميل فى حركات متزنة . وكا





واستنطاق فوما بجهد أن يرفع رأسه من فوق الوسادة ليرى  
الرجل جالسا عند الدرج يكتب في نشاط

الجمهور يتردد الى الورا مرة ، ثم يتقدم الى الامام مرة أخرى ،  
والأرضية ترتفع ، والسقف يهبط ، ويخيل لفرما أنه لا تكاد تمضى  
لحظة حتى ينحصر بينهما فيتحطم تحطيمًا ٠٠ ثم يخيل اليه بعد هذا  
أنه كان راكبًا فى زورق يجرفه نهر سريع الجريان ، وأنه يكافح  
كفاحًا شديدًا وقد وقف مضطربًا صائحا :

- الى أين نحن ذاهبون ؟ أين الربان ؟

وتجيبه أصوات ضحكات ثملة مجلجلة ٠٠ ومعها صوت الرجل  
الاسمر الصغير الجسم المبحوح الأجنس :

- صحيح ٠٠ أو ٠٠ أين الربان ؟

واستيقظ فوما من كابوسه المزعج ليجد نفسه فى حجرة صغيرة  
ذات نافذتين ، وكان أول شيء وقع بصره عليه شجرة تمس احدى  
النافذتين من الخارج ، ذات ساق ضخمة ، منتفخة اللحاء ، تمنع  
الضوء من النفاذ الى داخل الحجرة ، وكانت أغصانها الخالية من  
الورق ، السوداء اللون ، الملتوية كالثعابين ، تتسكع فى الفضاء ،  
وتصفر صغيرا محزنا كلما هبت الريح . وكان المطر يتساقط ،  
وسبول منه تنهمر على زجاج النافذتين ، ويمكن سماعها من فوق  
السطح وهى تنسكب على الارض ، محدثة صوتا باكيا ٠٠ أضف  
الى هذا كله صوتا متقطعا لقلم يخربش على الورق ، تصحبه نوبات  
من غمغمة وتمتمة .

واستطاع فوما بجهد أن يرفع رأسه من فوق الوسادة ليرى  
الرجل جالسا عند الدرج يكتب فى نشاط ، مبديا موافقته من حين  
الى حين ، وهو يلوى رأسه من جانب الى جانب ، ويحرك كتفيه  
حركات مضحكة ، بل يحرك كل عظام جسمه وجميع عضلاته  
باستمرار ، كأنه جالس على جمر متقد لا يستطيع لسبب ما أن يقوم  
من عليه ٠٠ ولم يكن عليه من الملابس شيء الا قميص ولباس . وكان

لا ينسى أن يسمح بجبينه بذراعه المعروفة . . . الجلد على عظم ! أو يرسل  
تخلجات صوتية في الهواء ، وقدماه العاريتان تتأرجحان الى امام  
وراء فتحدثان احتكاكا بالارض مزعجا . وكانت الاخايد الرفيعة  
التي في قفاه ترتعش ، بل كانت أذناه نفسها تختلجان . وعندما  
أدار وجهه رأى فوما شفثيه وهما تهمهان بلا صوت ، وكلما ضحك  
كان أنفه الحاد الاشم وشاربه الاشعث يشبان وينتفضان ، وكان  
وجهه شاحبا شديد الصفرة غزير التجاعيد حتى ليحسب الناظر  
الى عينيه السوداوين البهيجتين انهما ليستا لهذا الوجه !

وأشاح عنه فوما بعد أن ملأ ناظره منه وراح يديرهما ببطء  
في جوانب الغرقة التي دقت المسامير بكثرة في جدرانها ، حيث  
علقت مجاميع من الجرائد ، محدثة فيها زوائد بشعة أشبه بالخراريج .  
وكان الورق الذي غطى به السقف قد أصبح مقببا ، والأجزاء المقببة  
قد انفجرت ، وأصبح الورق متدلليا حول هذه الأجزاء ناثرا قدرة .  
وكانت الأرضية مبدورة بالملابس والأحذية والسكتب ومزق من  
الورق . . . وعلى العموم لقد كانت الحجره تبدو كأنما مر خلالها  
اعصار .

ثم قذف الرجل القمى بقلمه على المنضدة ، وانحنى فوقها ، وشرع  
ينقر بأصابعه فوق حافتها بعصبية ، ثم انطلق يغنى لنفسه بصوت  
رفيع مسرسم :

كن جريء القلب ان كنت محبا  
واطبع القبلة في فخر الحبيب  
فهو ما أوصى به علم وفق  
وسبنا الحكمة من كل أريب

ثم زفر فوما زفرة عميقة وقال :

- لو أمكن أن تأتيني بقدر من الصودا .

وانتفض الرجل القمى ، ودفع بكرسيه بعيدا ، ثم جلس على  
حافة سرير فوما ، ثم قال :

- آه ! صباح الخير يا صديقى . صودا ؟ بكنياك أو بغير كنياك ؟  
- يكون أحسن لو كانت بكنياك !

ثم قبض فوما على اليد النحيلة الممتدة اليه وراح يحملق فى وجه  
الرجل .

ونادى الرجل وهو يدير وجهه نحو الباب :  
- يبجودوفنا !

ثم يدير وجهه ثانية نحو فوما ، ويقول :  
- ألا تتذكر من أنا ، يا فوما اجناتيفتش ؟

- فيك ملامح يبدو أن لى سابق عهد بها . . . والظاهر أننا  
تلاقينا من قبل .

- لقد كنا نلتقى طوال أربع سنين متصلة . . . لكن هذا كان  
من سنين خلت . ألا تذكر ؟ ييزهوف !

وهتف فوما وهو يتكىء على مرفقيه :

- يا الهى ! هل هو أنت حقا ؟

- أحيانا أشك فى ذلك أنا نفسى يا صديقى . . . ولكن الشكوك  
لا تلبث أن تتلاشى أمام شعاعة من الحقيقة .

ولوى ييزهوف وجهه بطريقة غريبة ، ثم راح يتحسس صدره .  
وفغر فوما فمه يقول :

- يا لله ! انك تبدو كبيرا طاعنا . . . ما سنك ؟

- ثلاثون

- انك تبدو كأنك فى الخمسين . . . مالك أصفر هزيلا هكذا ؟  
يظهر أن الحياة قد قست عليك !

وأسف فوما لرؤيته صديق الصبا هذا ، الذي كان يوما ما فتى  
مرحا رشيقا ، بهذه الحال من الهزال والضعف ، ويعيش في مثل هذا  
البحر ! لقد عبس عبسة حزينة وهو يتفرس فيه ، ويلاحظ اختلاجات  
وجهه ، ونظرات عينيه السريعة الحادة . وكان يزهوف مشغولا  
بفتح زجاجة الصودا فلم يتكلم ، وكان يمسك بها بين ركبتيه ،  
ويبذل كل ما في عضلاته من قوة لكي ينزع سدadtها ، وقد أثر  
عجزه الظاهر عن فتحها في نفس فوما

وقال فوما متألما :

- لقد امتصت الحياة كل ما كان فيك من خير . وكنت يوما ميلا  
إن التعليم .

وأخيرا أفلح في فتح الزجاجة ، فقدمها لفوما ثم جلس الى جانبه  
بلهث ويمسح العرق المتصبب على جبينه ، وقد طار لون وجهه من  
لنعب .

وراح يقول :

- دعنا بالله من ذكر التعليم ، فالتعليم شراب مقدس يا صديقي ،  
الأنه لما يصلح للاستعمال بعد ، شأنه في ذلك شأن الخمور التي  
لم تنضج بعد ٠٠٠ انه الى الآن لا يستطيع أن يجلب السعادة  
لأهله . وكل انسان يجعل التعليم ملتجأه لا يمكن أن يحصل منه  
الا على الصداع ٠٠٠ مثلي ومثلك الآن ٠٠٠ وعلى فكرة ، ما الذي  
يجعلك تشرب كثيرا هكذا ؟

ويضحك فوما ويقول :

- وماذا يمكن أن يصنع الانسان غير هذا ؟

وتضيق عينا ييزهوف وهو ينظر الى فوما دهشا :

- بمقارنة هذه الملاحظة بالحكمة التي كانت تتدفق من فمك

اللبلة الماضية ، أستنتج أن الحياة لم تكن شيئاً جميلاً بالنسبة اليك  
أنت كذلك .

وزفر فوما زفرة مسموعة ، ثم نهض من فراشه ، وهو يقول  
بمرارة :

.. الحياة ! الحياة مستشفى للمجاذيب ... انى دائماً فى غربه ..  
ولا يفارقنى العجب مطلقاً فى سبب هذا كله ... وأنا لا يسرنى  
شئ قنر ما يسرنى أن أبصق عليها جميعاً ، ثم أذهب الى مكان  
م .. لا يلقانى فيه أحد ... اننى أحلم بالهرب من كل شئ ..  
ان الحياة عبء لا أطيعه ، وأنا أنوء به .

ويقول ييزهوف وهو يدعك يديه ، وجسمه كله ينتفض :

.. عجب جداً .. ان هذا ان كان صحيحاً فانه يكون شيئاً  
عجيباً جداً ، لأنه يؤيد الواقع من أن روح السخط المقدسة قد  
نفذت الى مخادع الطبقة التجارية ، وأنها قد أخذت تتحرى النفوس  
الميتة .. نفوس أولئك الذين لا هم لهم الا بطونهم ... الغارقين  
فى الدسم ، وفى بحار من الشاى والمشروبات الاخرى . قص على  
قصتك يا صديقى .. وسأجعل منها رواية .

ويقول فوما وهو يدرس وجه صديق صباه ، مشدوها من جديده  
.. ماذا يمكن مثل هذا الحطام البائس أن يكتب ؟

.. لقد قالوا لى : انك كتبت عنى شيئاً ما بالفعل !

.. فعلاً .. هل قرأت ما كتبت عنك ؟

.. كلا .. فلم أستطع الحصول على نسخة

.. وماذا قالوا لك ؟

.. انك قسوت على قسوة شديدة ... مزقت لحمى !

وسأله ييزهوف وهو يحدق نظره فيه :

- اهم ٠٠ ألا يسرك أن تقرأه ؟

وأسرع فوما يقول : وقد لاحظ أن عدم مغالاته قد أذت صديقه :

- أوه ٠٠ بل لا بد من قراءته ٠٠

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة مهذبة :

- ويسرني أنه مكتوب عنى .

وأثارت فيه هذه المواجهة بينه وبين صديق الدراسة مشاعر لطيفة هادئة مصحوبة بذكريات من ذكريات الطفولة التي مرت بأهنة كما تمر الأشعة الضئيلة الحاطقة خلال السنين .

وذهب ييزهوف الى المائدة التي كانت غلاية الشاي فوقها ، وصب منها كوبين من الشاي الأسود الشديد السواد ، ثم قال :

- تعال ٠٠ اشرب الشاي ٠٠ وقص على كل شيء .

- ليس عندي ما أقضه عليك ٠٠٠ فلقد كنت أحييا حياة فارغة ٠٠  
وأنا أفضل أن أسمع منك ؛ فلقد رأيت أنت أكثر مما رأيت أنا .

وانتابت ييزهوف موجة من التفكير وهو لا يزال يختلج ، ويهز رأسه من جانب الى جانب ٠٠٠ وكانت عضلات وجهه وحدها هي التي تحتفظ بسكونها على حين كان غارقا في تفكيره ، وان كانت التجاعيد التي حول عينيه لا تنفك تطيف بهما كما تطيف الأشعة ، وكانما عيناه تفوصان في أغوار الكوتين المعقورتين أسفل جبينه .

وقال ييزهوف وهو يهز رأسه :

- حقا ٠٠ لقد رأيت شيئا أو شيئين يا صديقي ٠٠٠ وأحسب أنني أعرف أكثر مما يصلح لأمثالي ٠٠٠ ومعرفة الانسان الشيء

الكثير الزائد عن الحد . . . مضره به . . . تماما . . . كعرفته الشئ .  
القليل التافه . . . وعلى هذا ، فانت تريد أن أحدثك عن نفسى !  
سأحاول . اننى لم يسبق أن حدثت أحدا عن نفسى قط ، لأن أحدا  
لم يسبق أن أظهر لى أى ميل منه الى قط . . . وما أبغض العيش  
فى هذه الحياة حين تخلو من صديق ، يضع أقل ما يمكن من ثقته  
فيك !

ويقول له فوما وقد وثق وثقة تامة بأن هذا الأئخ هو أيضا يجد  
الحياة شيئا ثقيلا :

— أستطيع أن ألاحظ من وجهك ، ومن كل شئ آخر فيك ، أنك  
قاسيت من الحياة ألوانا .

وفرغ ييزهوف من شرب شايه ، ووضع كوبه على الطبق ، ثم  
رفع قدميه ووضعهما على حافة كرسيه ، ولف ذراعيه حول ركبتيه ،  
وأسند ذقنه عليهما . وبعد أن اتخذ هذا الوضع الذى كان يبدو فيه  
من الضالة والليونة كأنه قطعة من الكاوتشوك ، شرع يقول :

— كان من عادة الطالب ساتشكوف، الذى كان يوما ما ولى أمرى ،  
وهو الآن دكتور فى الطب ، أن يقول لى كلما سمعت دروسى جيدا :  
مرحى يا كولىا مرحى ! يا كولىا مرحى ! انك شاب ذكى . ان الفقراء  
أمثالنا ، أولئك الذين جاؤوا الى الحياة من بابها الخلفى ، مضطرون الى  
الدراسة بجد وجلد اذا أرادوا أن يتقسطوا كل من عداهم . ان  
روسيا فى مسيس الحاجة الى الأذكىاء والامناء من الرجال ، فاذا  
قدر لك أن تكون من هؤلاء ، فلسوف يكون فى مقدورك التحكم فى  
مستقبلك ، كما تكون عضوا نافعا فى المجتمع . ان آمال بلادنا انما  
تقوم علينا نحن بالذات ، ممن لا ينتمون الى طبقة بعينها . . . اننا  
نحن الذين استنجد بهم الوطن ليشيعوا النور والحق فى قلوب  
الشعب . . . الى آخر ما كان يقوله ساتشكوف من أمثال هذا  
الكلام . وكنت أصدقه ، وأؤمن بكلامه . . . هذا الوغد ! ثم تمضى



عشرون سنة أو نحوها منذ ذلك الوقت ، ونكون ، نحن ، الذين لا ننتهي إلى طبقة بعينها ، قد كبرنا ٠٠٠ إلا أن أحدا مع ذلك لم يكذب يشعر بنا ، ولا بما فينا من بدوات الذكاء ٠٠٠ ولم نشع شيئا من النور في هذا الظلام المحيق ببلادنا ٠٠٠ وروسيا لا تزال تقاسي الأمرين من علتها المزمنة ، هذا الفيض الزائد عن الحد من الشباب الأوغاد السفلة ، والناس الذين من صنفنا ليسوا على استعداد لأي شيء ، إلا لينفخوا أوداجهم .

ان ولي أمرى السابق ، هذا الوغد ، واسمح لي بأن أقولها مرة ثانية ، ان هو الا رجل مدهن ذليل ، نكرة ، يصنع دائما ما يأمره المحافظ أن يصنع . ثم أنا ٠٠٠ من أنا ؟ اننى لست أكثر من بهلوان ٠٠ مشعوذ في خدمة المجتمع . لقد حصلت على قدر من الشهرة ليس بالقليل في تلك المدينة ٠٠٠ وعندما أمشي في أي شارع من شوارعها أرى سائقي العربات يلكز بعضهم بعضا ويقولون : خذ بالك ٠٠ ها هو ذا ييزهوف ٠٠ لقد أحدث دونا مرعبا هذا الشيطان اللعين ، فحتى شهرة مثل هذه ، لا بد من الكفاح للحصول عليها ، يا صديقي : أفليس هذا بلاء !

ثم اختلجت عضلات وجهه ، وراح يضحك ضحكا مكتوما ، لا يعدو حدود شفتيه . ولم يفهم فوما قاله ييزهوف شيئا . . . . . إلا أنه ، لعلمه أن صاحبه ينتظر منه كلمة يقولها ولو مجاملة . . . . . قد أطلق لسانه بأول مجال في ذهنه :

— وعلى هذا فانك لم تصل إلى الهدف الذي كنت قد رسمته لنفسك ؟

— أبدا ٠٠٠ لقد كنت أحسب أنني سوف أصبح رجلا أكثر أهمية يوما ما . وقد كان من الممكن أن أكون !  
وقال ييزهوف عبارته الأخيرة متعجبا ، ثم قفز من كرسيه

واقفا ، وراح يذرع الغرفة ذهابا وجيئة ، ومضى يتكلم بصوته  
المجلجل وهو يقول :

- ولكن لا بد للانسان من مصادر ضخمة اذا أراد أن يحتفظ  
لنفسه بالسلامة والحيوية الكاملة . وقد كانت لي هذه المصادر .  
فلقد كنت ذكيا ، وقابلا للتكيف بحسب الظروف والأوضاع . . .  
الا أنني استنفدت جميع هذه المصادر في تعليم لم تكن لي به اليه  
حاجة . لقد نهبنا أنفسنا ، أنا وكثيرون ممن على شاكلتي لنقيم  
مدخرا كنا نظن أننا سنسحب منه ما نشاء في المستقبل . وبأمل  
أن أرفع من قيمة نفسى عملت كل ما من شأنه أن يجعلني تافها حقير  
الشأن ، فتصور هذا ! لقد ظلمت ستة أعوام تباعا أعلم حفنة من  
الأطفال حروفهم الأبجدية ، وكنت أبلغ الاهانات التي كان «باباتهم»  
و «ماماتهم» ، يصوبونها أكواما فوق رأسي . . . ولم أكن أحتمل هذا  
كله الا لكي أستطيع أن أقيم أودى في أثناء دراستي . وكنت أجد  
من الوقت ما أكسب فيه خبزي وملحي ، لكنني لم أكن أجد منه  
متسعا لاكسب أحذيتي وأكسييتي . . . ومن ثم فقد قدمت التماسا  
الى احدى جمعيات البر رجاء اقراضى سلفة . وآه يا صديقي لو درت  
جمعيات البر هذه مقدار ما تقتل من روح الانسان وتهدر من كرامته  
في سبيل الابقاء على بدنه ! وآه لو درت أن كل روبل تعطيه اياه من  
أجل خبزه يحتوى على تسعة وتسعين كوبكا من السم الذي يقضى  
على روحه وكرامته ! وآه لو أمكن أن تنشق صدورهم مما تثير فيهم  
ألوان نشاطهم الخيرية والانسانية من عوامل الزهو والكبرياء ! انه  
ليس على ظهر الأرض مخلوق كرهه تعافه النفس كرجل يعطى  
الصدقات ! ولا مخلوق أكثر تعسا من رجل يأخذ هذه الصدقات !  
وكان يزهوف لا يزال يذرع أرض الغرفة كالذى به مس ، وكانت  
الأوراق المنتشرة على الأرض تحدث حفيفا وتمزقا ثم تتطاير من  
تحت قدميه ، وكان يصير بأسنانه ، ويلوى عنقه ، ويرخي ذراعيه

كانهما جناحان مهيطان • وكان احساسان يتنازعان نفس فوما  
وهو يصغى اليه ••• لقد كان يرثى له ويعطف عليه •• الا أنه كان  
يلذه ما يراه من منظر شقوته وبلائه •

ثم انبثق من صدر ييزهوف صوت صرير أشبه بصوت رافعة  
لم تغمس في الزيت ، وهو يقول :

- لقد سموني باسم الشفقة الانسانية ، ثم جرروا على الخراب  
حينما جعلوني على استعداد قاتل لتقبل القليل التافة ، انتظارا  
لكثير الجم • وهو هذا الاستعداد الذي تراه في كل فقير يريد أن  
يرفع رأسه في هذا العالم •• آه يا صديقي ! ان الذين يموتون لعدم  
تقدير مواهبهم ومقدراتهم لاكثر عددا من الذين يموتون بالسل !

وأحسب أن هذا هو السبب في أن الرجال الذين كان الواجب  
أن يكونوا قادة الشعب يصبحون من رجال البوليس السرى •

ويتحمس فوما •• ويرسل يده في الهواء قائلا :

- الى الشيطان بهم جميعا ••• أكمل قصتك •• أكمل

- قصتي !

ويقف ييزهوف قى وسط الحجرة ضاربا بيده على صدره ، ثم  
بقول :

- اليك يا صديقي هذه القصة ، القصة بحدافيرها •• لقد أنجزت  
كل ما كان في وسعي أن أنجزه •• لقد ارتفعت الى منصب المهرج  
العام ! الهلפות الاعظم ! وليس في امكاني أن أرقى الى ما هو أعلى !  
وقاطعه فوما قائلا :

- لحظة من فضلك •• خبرني أرجوك : ماذا يستطيع الانسان  
أن يصنع لكي يعيش في امان ، اعنى لكي يكون قانعا راضيا عن  
حياته :

- أن تحيا حياة عاصفة ٠٠٠ وأن تخشى القناعة خشيتك من الطاعون ؟

ولم يكن لهذه الكلمات أى معنى فى نظر فوما ٠٠٠ انها لم تثر أى احساس فى قلبه ، ولا أية أفكار فى عقله .

- ان الانسان يجب دائما أن يجاهد فى سبيل شىء فوق استطاعه ، لأن الحاحه فى طلبه يخلق منه رجلا أعظم مما هو .

وكانت لهجة بيزهوف قد صارت أكثر هدوءا الآن بسبب تواقفه عن التحدث عن نفسه ، ومن ثم كان صوته ثابتا مستقرا مقنعا ، ووجهه مقطباً رزيناً . وكان يقف فى وسط الحجره وهو يومئ باحدى يديه ، ويتكلم كأنه يقرأ من كتاب :

- ان الشخص القانع بحاله ان هو الاخراج قتال فى جسم المجتمع ، انه يتختم نفسه بحقائق تافهة لا يعتد بها ، ويسر من الحكمة الآسنة ، ويكون أشبه بالسندرة ، أو مخزن المهملات الذى تحتفظ فيه ربة الدار الشحيحة بكل أنواع النفايات التى لن تستعملها ، لا هى ، ولا أحد غيرها . وأنت اذا اقتربت من مثل هذا الانسان . اذا فتحت الباب الذى يؤدى الى دخيلة نفسه ، وجدت نفسك وقد غمرتك منه أبخرة الفساد وروائح العفن ، ان سيلا من النتن ينتشر منه فى الهواء الذى تستنشقه . وهذه المخلوقات التعسة هم الذين نسيمهم رجالا أقوياء . رجالا ذوى مبادئ وذوى عقيدة . ولا يهتم أحد مطلقا بأن يلاحظ أن عقائدهم هذه ، ومبادئهم تلك ، ان هى الا مجرد أكسية يسترون بها أرواحهم العارية . ان اللفظتين الاعتدال والدعة لفظتان مكتوبتان فوق جباههم بأحرف براقة . ويالهما من لفظتين زائفتين ! وتستطيع أن تمسح هاتين اللفظتين بيد قوية لترى مكانهما : ضيق الفهم والغباوة !

ويصيح بيزهوف فى فزع وغضب :

... ما أكثر من لقيت من أمثال هؤلاء ! انهم أشبه بالدكاكين التي  
تتجر في ألف صنف ! من قطران ٠٠٠ وأقماع سكر ٠٠٠ ومهلك  
صراصير ٠٠ وحبال قلع ، كل شيء ٠٠٠ الا الاشمسياء الطازجة  
الصحية التي لا غناء عنها : انك تأتي اليهم بقلب مثقل ، ونفس  
أرهقتها الوحشة ، متعطشا الى كلمة تشجيع ، فلا يقدمون اليك الا  
أفكارا فاترة مسروقة من الكتب ، ثم لاكتها الافواه بعد ذلك حتى  
أسبحت رذلة ممجوجة . وهذه الأفكار الممجوجة أفكار تافهة لا يعتد  
بها لدرجة أنها تفتقر الى مقدار كبير من الكلمات البراقة والجميل  
الطنانة للتعبير عنها ومواراة سوءاتها . وأنا حينما أسمع مثل هذا  
الانسان يتكلم لا أملك الا أن أقول لنفسي : ها هو ذا حصان معلوف  
علفا طيبا ، معتنى به عناية عظيمة ، مزدان بالجلجل والاجراس في  
كل مكان ، ولا يعمل له الا جر عرية الزبالة من المدينة ، ولا يمكن أن  
يسره شيء آخر غير هذا العمل ٠٠٠ ذلك الحيوان المسكين !

ويقول فوما :

- انهم أيضا ناس سطحيون .

ويقف ييزهوف في مواجهته ويقول متهكما :

- انهم ليسوا سطحيين ، ان همهم من الحياة هو أن يكونوا مثالا  
لما لا يمكن أن يتصوره العقل . واذا أردت الحق قلت : ان مكانهم  
الصحيح هو متحف تشريح ، حيث تعرض جميع صور الشذوذ .  
والانحرافات عن مألوف الطبيعة . ليس في الطبيعة ما هو سطحي  
يا صديقي ٠٠٠ حتى أنا ، لي مكانى فيها . وليس من الناس من  
هم سطحيون الا أولئك الذين أبدلوا من قلوبهم الميتة قرحا كبيرة  
متقيحة ٠٠٠ الا أن هؤلاء أيضا لا يخلون من فائدة ، فائدة ربما  
لا تزيد على امدادى بموضوع أفش فيه غليل .

وجعل ييزهوف النهار بطوله يلغو ويثرثر ، ويصب النجاسات

على رموس من يكرههم وتغنى نفسه بهم ، وقد انتقلت عدوى ما كاز  
يبيديه من حقد ولد الى فوما ، فلم يلبث أن عرته انفعالات حماسية  
هو أيضا .

وقد جاءت أوقات فيما بعد كانت ثقته ببيزهوف تضعف  
وتتزعزع . وفي ذات يوم قال له بصراحة :

— هل يمكنك أن تصرح للناس بأقوالك هذه فى مواجهتهم ؟

— اننى أصرح لهم بها كلما واتت الفرصة . . بل أنا أصرح لهم  
بها كل يوم أحد فى الجريدة . . فهل أقرأ لك ما أكتب ؟

وبدون أن ينتظر اجابة فوما تناول حزمة من الصحف معلقة على  
أحد المسامير ، ثم بدأ يقرأ وهو لا يزال يذرع أرض الحجره . لقد  
كان يدمدم ويجمجم . ويهر كما تهر الكلاب ، ويبدى نواجذه .  
وكان بالضبط كجرو شرس صغير ، يشد السلسلة التى ربطوه  
فيها وهو فى غضب مكبوت ، ولم يكن فوما يعي مما يسمع شيئا ،  
الا أنه كان مأخوذا بهذه الجرأة المتهورة التى يبديها صديقه ،  
وبسخريته اللاذعة وسخطه المتأجج ، وكان يستمتع بذلك كله ،  
يقدر ما يستمتع المستحم فى حمام بخارى بطبطة المذل .

وكان لا يملك أن يهتف كلما صادفت بعض الجمل استحسانا فى  
نفسه :

— مرحى مرحى ! لله درك ! لقد شويتهم هذه المرة !

وكانت أسماء البارزين من المواطنين والتجار من معارفه تتكرر  
مرة بعد أخرى ، وكان يزهوف يسخر منهم سخرية مكشوفة وفى  
منتهى الجرأة ، تاتى كلذع الاير تارة ، وفى لهجة من الاحترام الجارح  
تارة أخرى .

وكان استحسان فوما ، وهذا البريق السعيد فى عينيه يشجعان

بزهوف ، فكان يتمادى في دملته وجمجمته ، فتراه يسقط من  
نعب على الفراش ، ولكن ليهب في الحال ، وليقف أمام فوما ، الذي  
تذ يصيح به :

- اقرأ ما كتبتة عنى اذن !

وجعل ييزهوف يقلب في أكوام الصحف المتناثرة ، ثم اذا هو  
نتصب واقفاً وقد فرج قدميه أمام فوما الذي كان يتنسم له ، وهو  
الس فوق هذا الكرسي الذي تقوضت نجاته

وكان المقال يبدأ بوصف لتلك الحفلة اللاهية الخلية في العوامة  
كان فوما يجد لبعض عبارات ييزهوف لدعا كلذع البعوض .  
أخذ وجهه يستطيل ، وراح ينكس رأسه ، ويعروه الوجوم . . .  
م أخذ لذع البعوض يزداد حدة وشدة

ثم قال أخيراً وقد نال منه الغضب والحجل :

- ألم يكن الأجدر أن تجعل عباراتك أكثر ليونة وأقل ايجاعا ؟

ان فضح الناس وهتك أستارهم لا يقربك من الله زلفى ! وهب

يه ييزهوف كالكلب المسعور :

- صه ! صبرك !

وراح يكمل قراءته

وعندما فرغ من التدليل في مقالته على أنه ليس بين جميع الطبقات  
من يمكن أن ينافس التجار في المشاغبات وحفلات القصف الزائطة ،  
وقف ليسأل عن السبب في هذا . . . ثم يجيب عن ذلك فيقرأ :

- يبدو لي أن ميلهم هذا الى التهاك الشنيع على اللذات ناشىء

من الافتقار الى الثقافة فضلا عما يتمتعون به من نشاط وفراغ .

ولا يمكن أن يجادل أحد في أن تجارتنا ، باستثناء عدد قليل منهم ، هم أوفر الناس قوة ، وأنهم في الوقت نفسه أقل الناس عملا . . . . .  
معلمهم لا يستنفد من وقتهم الا شطرا يسيرا

وهنا ، يقول فوما مبتهجا ، وهو يضرب المنضدة بيده :

- هأنت ذا تصيب كبد الحقيقة . . . . ان هذا كلام لم يتكلم بمنله  
أحد في صدقه وحقيقته . . . . وهأنذا مثلا . . . . لى قوة كقوة الثور ،  
أما عملي . . . . فعمل يستطيع أن يقوم به عصفور !

ويصل بيزهوف قراءته :

- فكيف ينبغي للتاجر أن يستنفد قوته ونشاطه ؟ ان البورصة  
لا تستنفد منهما الا قدرا قليلا ، ومن ثم تراه يبعثر مبالغ ضخمة من  
رأس ماله الجسماني في الحانات والمشارب ، وهو خالئ الذهن مع أنه  
كان يمكن أن ينفقه في وجوه تعود بالخير على المجتمع . انه لم يرتفع  
فوق مستوى الحيوانات بعد ، وما حياته الا قفص ضيق أشد الضيق  
بإنسان في مثل قوته وصحته وطبيعته الجارفة . ولانه ليس له  
ما يشغله من الاهتمامات الثقافية ، تراه ينصرف الى حياة اللهو  
والفسوق . وحياة اللهو والفسوق التي يحيها تاجر من التجار  
هى الهديان الذي يصدر عن الوحش المحبوس في القفص . وهذا  
بلا شك أمر مجزن وباعث على الرثاء . ولكن . . . . أوه ! انه ليس أفظع  
من هذا ولا أشنع الا حينما يطبق هذا الوحش ذكاه على القوة  
الرحشية المودعة فيه ، ويبدأ في استعمالها لتنفيذ ما ربه ! ثق أنه  
لن يكون أقل عنفا ، بل ان أعمال القوة التي يقوم بها عندئذ ستصير  
أعمالا تاريخية . . . . . وحين ذلك . . . . نرجو أن يكون الله في عوننا  
. . . . ان كل ما يقوم به عندئذ يكون مصدره الرغبة في استيلائه  
على السلطة بكلتا يديه ، ورفع طبقته فوق سائر الطبقات ، وهو  
لن يعفى أحدا أبدا ولا شيئا مطلقا من استخدامه للوصول الى  
ذلك .



ويلقى بيزهوف بالصحيفة بعد اذ فرغ من قراءته ، ثم يسأل :

- أعلى حق أنا ؟

ويجيبه فوما :

- أنا لم أفهم النهاية . . . . لكنك على حق فى أنه سوف يقبض على  
مقاليد السلطان .

ثم شرع فوما فى غمرة من الثقة والايمان يشرح لبيزهوف آراءه  
فى الحياة وفى الناس ، ويصف له حيرته الاخلاقية . ولما انتهى  
قذف بنفسه على الفراش . . . . ولاذ بالصمت .

ويتمتم بيزهوف :

- اهم . . . . اذن فهذا هو المأزق الذى انتهيت اليه . . . . انه لمأزق  
عجيب . وما رأيك فى الكتب ؟ هل تقرأ ؟

- كلا . . . . لست أحب القراءة . . . . ولم أقرأ كتابا فى حياتى .

- وهذا هو السبب فى عدم حبك القراءة . . . . لانك لم تقرأ  
قط .

- انى أشعر بالرهبة من القراءة . . . . ولقد رأيت ماذا كانت  
نتيجة القراءة فى شخص أعرفه وبالأحرى . . . فتاة . . . لقد  
فعلت القراءة بها شرا مما تفعله الحمر بالناس . ثم ماذا تقيسد

القراءة ؟ ان الأشياء التى تقرأها ان هى الا أشياء مفتعلة . ولست  
أجادل فى أنها ممتعة . الا أن الذى يظن أن الكتب قد تعلمه كيف  
يعيش هو شخص مجنون . . . . ثم . . . لا تنس أن الناس ، لا الله ،  
هم الذين يكتبون هذه الكتب . . . . وماذا يستطيع الناس أن يضعوا  
لأنفسهم من القواعد والقوانين ؟

- وما قولك فى الاناجيل ؟ ألم يكتبها أناس ؟

- بلى ٠٠ لكنهم كانوا رسلا ٠٠٠ وليس بيننا رسل اليوم .
- هذا حق ٠٠٠ الجواب الصحيح ! ليس بيننا رسل اليوم .
- ليس بيننا الا يهودات خونة ! ويهودات خائبون مع ذاك !

ولشد ما كان فوما مسرورا بحسن اصغاء ييزهوف اليه . وكان يبدو عليه وهو يتكلم أنه يزن كل كلمة يقولها . وهذا شيء لم يصنعه أحد معه من قبل . وقد كان شيئا مشجعا أن يصرح فوما بأفكاره بمثل تلك الصراحة والجرأة ، دون أن يحفل كثيرا بالتعبير والصياغة ، واثقا من أن ييزهوف يستطيع أن يفهم ، لأنه أراد أن يفهمه .

ثم تضى أيام ٠٠٠ ويقول له ييزهوف مرة بعد حديث جرى بينهما :

• انك لشخص عجيب ٠٠٠ ان التعبير يلتوى عليك أحيانا ٠٠٠ الا أنني أحس أن لك قلبا شجاعا . ولو أنك أوتيت قدرا أكبر من المعرفة بأساليب الحياة ، لاستطعت أن تقول كثيرا ٠٠٠ ولأمكنك أن تجهر به بكل ما فى صوتك من قوة ٠٠٠ وهذا شيء لا أشك فيه .

وزفر فوما زفرة خفيفة ثم قال :

• ان الكلام لا يمكن أن يساعد الانسان فى تحرير نفسه . لقد كلمتني مرة عن أولئك الناس الذين يتظاهرون بأنهم يعرفون كل شيء ، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا كل شيء . وأنا أعرف هؤلاء الناس ، وأعرف منهم اشبيينى مثلا ٠٠٠ وكم أتمنى لو استطعنا أن نتخذ اجراء ما ضددهم ، أن نفضحهم ونشهر بهم ! انهم طغمة شريرة !

ويجيبه ييزهوف فى روية وتأمل :

- لست أدري كيف يمكنك أن تعيش ومثل هذا العبء راسخ على قلبك يا فوما ؟

انه هو أيضا يشرب ٠٠٠ ذلك الرجل القمى الذى تعصف به الحياة وتقسو عليه تلك القسوة البهيمية .  
واليك كيف كان يقضى يومه :

انه قد يقرأ الصحف المحلية وهو يتناول فطوره ، وفى أثناء قراءته يلتقط من المواد ما يلزم كتابة قصته الفكهة التى يكتبها على المائة نفسها . ثم يسارع بعد ذلك الى دار الصحيفة التى يحرر فيها ، حيث يأخذ فى قص جذافات من الصحف الواردة من خارج المدينة ليعد منها « مشاهد وصورا من الحياة فى الاقاليم » وفى يوم الجمعة يكتب قصته الفكهة التى تنشر يوم الأحد . ومقابل هذا كله يتسلم راتبا قدره مائة روبل فى الشهر . وكان سريع الانتاج ويكرس جميع أوقات فراغه « لزيارة ودراسة المنشآت الخيرية » وبالإحدى ، لقد كان هو وفوما يتنقلان من أحد الأندية ، أو المشارب أو المطاعم ، الى ناد أو حان أو مطعم آخر . وكان كلما غشى شبتا من ذلك راح يجمع المواد لكتاباته ٠٠٠ تلك الكتابات التى كان يسميها « مكانس لكنس الضمير العام ! » وكان يشير الى رقباء الصحافة فيسميهم « الأوصياء المهيمنين » على توزيع الحقائق والعدالة ! وكان يسمى الصحف نفسها « القوادات التى ترشح الشعب للأفكار الخطرة » كما يعرف عمله فى الجريدة فيقول : انه هو « بيع روحى وضميرى بالقطاعى ! » أو انه « محاولة عاجزة لدس أنفى فى المحافل المقدسة » .

وكان من الصعب على فوما أن يدرك : هل كان يزهوف يمزح أو يجد ؟ . فهو يتكلم فى كل شئ باحساس عظيم ، وكانت أحكامه على الأشياء والأشخاص قاسية ، وخالية من الرحمة . وكان فوما

يحب هذا فيه ، الا أنه كان أحيانا يعكس آراءه فى وسط حملة من التشهير المذموم ، ولا يبالي أن يرفض بالحماسة هذه الآراء التى كان يتحمس لها ، جاعلا ذلك كله مزاحا فى مزاح . وكان فوما فى مثل تلك المناسبات يشعر أن يزهوف انسان لا يستشعر قلبه محبة أى شىء محبة حقيقية ، وأن قلبه خال من أى مثال من تلك المثل التى تتمكن من القلوب ، فتتحكم فى كل ما يفعل أصحابها . وكاز يزهوف يتخذ لهجة مختلفة تمام الاختلاف اذا كان الحديث يدور حول نفسه . وكلما كانت عاطفته فائرة جياشة وهو يتحدث عن نفسه ، عنف عنفا شديدا خاليا من الرحمة على كل شىء وعلى ك شخص يتحدث عنه . ولم يكن ثابتا على مبدأ واحد تجاه فوما وكان يشجعه أحيانا فيقول له محرضا :

- كن هداما . . . اهدم كل شىء ، واكتسح أمامك كل شىء  
وبكل ما فىك من قوة . . . تذكر أنه ليس شىء هو أئمن من الكائن  
البشرى . اهتف بأعلى صوتك : الحرية ! الحرية !

الا أن فوما حينما كان يخلو الى نفسه ويفكر فى أحاديث يزهوف  
التي كانت تستثيره وتملؤه حماسة ، كان يعجب كيف يستطيع أن  
يكتسح هؤلاء الناس الذين يشلون حركة الحياة توخيسا لمصالحهم  
الخاصة ، وكان اذا سأل يزهوف فى ذلك صاحا به قائلا :

- انس هذا ! وماذا تستطيع أن تفعل ؟ ان أحدا ليس فى حاج  
الى من كان مثلك . ان أيامك . . أيام الأقوياء ، وان كانوا جهلاء .  
قد ولت وانتهت . . انك لا مكان لك فى دنيانا هذه !

ويصيح فوما بدوره ، وقد أثاره تقلب يزهوف ، وعدم استقرار  
على رأى :

- لا مكان لى ! هذا كذب !

- عال جدا . . . فماذا فى وسعك أن تفعل فى هذا إذن ؟

ويقول فوما مهتاجا ، مهددا بقبضته :

— أقتلك ! هذا ما أستطيع أن أفعل !

ويهب ييزهوف كتفيه ويقول :

— بهلوان ! وأى خير يؤدى إليه قتلى ؟ اننى شبه مقتول فعلا ! ثم

قول فى نوبة من الغضب والقنوط :

— لقد لعب الحظ لعبة قذرة معي ! فيم كان شغلي كما يشتغل  
لعبيد هكذا طوال اثني عشر عاما بلا انقطاع ؟ من أجل هذا  
ستطعت أن أدرس ، فلماذا درست طوال هذه الاثني عشر عاما في  
المنظمة وفي الجامعة ؟ . . . وكم بلغت من كلام فارغ . . . أقال من  
المتناقضات الغثة الثقيلة التي ليس بي اليها حاجة ! لكي أصبح كاتب  
قصص مسلية ! ولكي أقوم بدور يومي لتسلية الجمهور ، معللا نفسى  
بأنهم محتاجون الى ذلك ، ويمكن أن ينتفعوا به . لقد أطلقت كل  
ما كانت روحي تدخره من مفرقات بسرعة ثلاثة كوكبات للطلقة  
الواحدة . . . ثم الام انتهت بي الحال لان أو من به ؟ لا شيء ! والشئ  
الوحيد الذى أصبحت أو من به هو أن هذه الدنيا بصورتها الحالية لاتساوى  
قلاعة طفر ، وأن كل شئ فيها يجب أن يتحطم وتسوى به الأرض .  
ماذا أحب ؟ نفسى . ومع هذا فأنا مؤمن بأن نفسى التي أحبها غير  
جديرة بهذا الحب ! »

وكانت دموعه على وشك أن تنهمر من عينيه ، وظل المسكين  
يمزق فى عنقه وصدره بأصابعه النحيلة الواهية .

وكانت موجة من الأمل المشرق تطيف به أحيانا ، وعند ذلك  
تراه يتكلم بلهجة جديدة ، فيقول مثلا :

« أو . . . اننى لم أغن أغنيتى بعد . . . انك سوف تسمع عنى  
ما يسرك فى القريب العاجل . . . وما عليك الا أن تنتظر — وسيأتى

اليوم الذى أهدج فيه الكتابة فى الصحف ، ثم أنصرف الى عمل جدى . وأنا أفكر فى كتابة كتاب صغير باسم « أغنية البجعة » أو أغنية الميت . وسيكون كتابى هذا البخور الذى سيحرق عند فراش مجتمعنا ذاك ، وهو يلفظ آخر أنفاسه . . . والى حيث ألفت رحلها . . .

وكان فوما ينتبع بعناية جميع ما يقوله ييزهوف ، ويوازن بين كل من أحاديثه ويقيس بعضها ببعض ، وقد استطاع بذلك أن ينتهى الى نتيجة عجيبة . . . هى أن صديقه ذاك رجل ضعيف ومختلط التفكير مثله تماما ، الا أن فوما تمرن على استعمال الكلام فى مواضعه بكثرة الاصغاء اليه ، وكان يسره أحيانا أن يلاحظ أنه يعبر عما فى نفسه بلغة واضحة قوية .

وكان يلقى الكثيرين فى مناسبات عدة فى منزل ييزهوف ، وكان يخيل اليه أن هؤلاء يعرفون كل شيء ، ويفهمون كل شيء ، وأنهم لم يكونوا يرون فى الأشياء جميعا الا التفاهة والزيف ، وكان يلاحظهم ويصغى اليهم فى صمت وسكون ، وكان يعجبه منهم الجسارة التى يبدونها ، وان ضايقه ونال من نفسه ما كانوا يلقونه به من تشامخ واستعلاء ، وكان يدهشه منهم أنهم اذا لقيهم فى منزل ييزهوف كانوا أكثر ظرفا ولطفا مما لو لقيهم فى المشارب أو الشوارع . لقد كانت لهم كلمات وأساليب وإشارات خاصة يتبادلونها فيما بينهم اذا لقوا غيرهم من خلق الله بمجرد خروجهم الى الشارع ، وكانوا أحيانا ، حينما يجتمعون فى منزل ييزهوف يصخبون ويزههون كما تزهزه أنوار الزينة . . . وكان ييزهوف عادة أكثرهم صخبًا وازدهاء ، ومع ذلك فلم تكن أنوارهم تلك تلقى فى نفس فوما شيئًا من الضوء يؤبه له .

قال له ييزهوف يوما : « اننا سنقوم برحلة ، وقد كون صفاقو الحروف فى جريدتنا جمعية تعاونية ، وهم يقومون بجميع أعمالهم

الجريدة بطريق التعاقد ، واحتفالا بتلك الذكرى سيقمون وليمة  
عني إليها ، وعلى فكرة أنا الذي اقترحت عليهم انشاء هذه  
لجمعية التعاونية ، فهل تحب أن تحضر ؟ ان هذا مما يدخل السرور  
لبيهم » \*

وقال فوما : ويسرني أنا أيضا .

ولم يكن فوما يعنى بالطريقة التي يزجى بها فراغه . . هذا  
اراع الذي كان لديه منه الشيء الكثير الثقيل الذي لا يدري :  
كيف ينفقه ؟

وفي ذلك المساء ، كان فوما وبيزهوف يجلسان بين جماعة من  
وى الوجوه الشاحبة اجتمعوا عند حافة الغابة خارج المدينة ، وكان  
بعض صفافى الحروف اثني عشر رجلا لبسوا جميعا الملابس اللائقة ،  
كانوا يعاملون فوما كأنه واحد منهم ، وهو الشيء الذي آثار  
هشته . بل سخطه ، وذلك لما كان يلاحظه من رفعة منزلة  
بيزهوف بينهم ، وأنه كان أقرب الي السيد المطاع فيهم ، وأنهم لم  
يكونوا أكثر من تبع له . انهم لم يكونوا يحفلون بفوما بالرغم من  
ان يبيزهوف حينما قدمه اليهم راحوا يصافحونه ويقولون له : انهم  
يسعدهم أن يروه بينهم ، ومن ثمة فقد جلس وحده تحت شجرة  
من أشجار اليندق ، وراح يلاحظهم عن كثب ، شاعرا بأنه ليس  
بهم . والظاهر أن هذا أيضا كان موقف بيزهوف من فوما . . فقد  
جد أن يتركه وشأنه ولا يوليه من الالتفات أكثر مما يوليه  
الآخرون . ولاحظ فوما أن كاتب القصص المسلية القميء هذا كان  
يتعمد أن يوهم هؤلاء العمال بأنه ليس بأكثر من واحد منهم .  
فها هو ذا يساعدهم في اشغال النار وفتح زجاجات البيرة لهم .  
ويضحكهم بصوت عال مدو ، ويحاول بكل الطرق أن يقلدهم .  
وكانت ملابسه في هذه الرحلة أيسر مما كان معتادا أن يلبس .

وقال لهم وكأنه يشمخ ويتباهى :

- ما أعظم أن يكون الانسان بينكم أيها الاخوان ! ثم أنا ..  
لست من طينة غير طينتكم على كل حال .. انما أنا ابن حارس مرز  
خراس الليل .. ضابط الصف ماتقى ييزهوف .

وعجب فوما .. لماذا ياترى يقول لهم هذا ؟ وماذا يهمهم أن  
يعرفوا ابن من هو ؟ والمهم هو فضل الانسان .. لا حسبه ولا  
نسبه !

وكانت الشمس تميل الى الغروب . وكانت للسماء أنوار زينتها  
وزخرفتها وصبغت السحاب بحمرة الدم .. والغابة ترسل في  
الوجود صمتها ونداوتها . وتستقبل على حواشئها أطيافا آدمية  
داكنة تسير في سكون وبلا جلبة . وكان رجل نحيل ربعة يلبس  
قبعة من القش ذات رفر ف كبير يعزف على الاوكورديون ، على حين  
أن رجلا آخر ذا شارب أسود وطرطور يتدلى على مؤخرة رأسه يغنى  
غناء لطيفا مشجيا ، وأن أمامهما رجلين آخرين أخذنا يجربان قوتهما  
بشد عصا من طرفيها ، وآخرين محنيين على السلة المحتوية على  
الطعام وزجاجات البيرة ، ورجلا سميننا ذا لحية بيضاء ، واقفا وسط  
ضبابة من الدخان يلقي في النار بقطع من الحشب كانت لا تلبث  
أن تطلق وتهش ، واللهب يمسك بها ويشتعل فيها .. ثم اذا  
عازف الاوكورديون يرسل لنا مرحا رشيقا ، فيأخذه صوت  
المغنى ، وينسجمان معا انسجاما جميلا .

وكان ثلاثة غلمان أحداث ينبطحون عند حافة غدير صغير ، وقد  
وقف أمامهم ييزهوف وهو يقول بصوت مرتفع :

- انكم تحملون في أيديكم لواء العمل المقدس ، وأنا ايضا لست  
الا جنديا عاديا في الجيش نفسه .. وكلنا خدام في دولة صاحبة  
الجلالة الصحافة ، ومن ثمة فينبغي أن نكون أصدقاء ثابتين على  
الود ، واخوان وفاء وثقة .



ثم انصرف فوما عما يقول ييزهوف لهؤلاء الصبخار ليصغى الى ما استرعى سمعه من حديث أكثر متعة يدور بين شخصين على مقربة منه ، وكان واحد من المتحدثين شخصا طويلاً مسلول الجسم يقتر الزى له نظرات تفيض مرارة ونقمة ، أما الآخر ففتى حدب السن ذو لحية وشعر أشقر .

وكان الطويل المسلول يقول وهو لا ينفك يسعل :

- اذا أردت رأيي .. فهذا جنون وحماسة ، كيف يمكن لمن كان مثلنا أن يتزوج .. والزواج كما تعلم يأتي بالأطفال .. فمس ذا الذى يعولهم ؟ والزوجة تفتقر الى ما تلبسه ولا بد .. ثم من يدري .. ماذا تسفر عنه تلك الزوجة ؟ وماذا يكون معدنيا من خير أو شر ؟

ويقول الشاب الحدث فى شيء من الحجل :

- حمدا لله .. ان زوجتى فتاة صالحة .

- ربما تكون كذلك الآن .. وكونها خادمة شيء ، وكونها زوجه شيء آخر .. ولكن .. ليس هذا هو المهم . انما المهم هو : كيف يتيسر لك أن تعولهم .. انك سوف تضطر الى العمل الذى يجعلك جلدا على عظم ، وسوف تشقى هى كذلك .. أوه .. كلا يا صديقى .. ان الزواج ليس لأمثالنا من الأشقياء ! اذ كيف يمكن أن نقيم أود أسرة بهذا الاجر التافه الذى نحصل عليه ؟ فأنا مثلا .. اننى متزوج .. منذ أربع سنوات فقط .. وهأنذا قد نالنى ما ترى .. من التلف والقرف !

ثم أخذ يسعل .. ويسعل طويلا وبشدة .. سعالا ينتهى دائما بصفير .. حتى ، اذا انتهت نوبة السعال التفت الى زميله يقول وهو يلهث :

- دعنا من هذا ٠٠ لا فائدة ٠٠ لا فائدة !

ونكس الشاب الصغير رأسه فى هم وفكر ٠٠ أما فوما فتمسم فى نفسه قائلاً : الكبير المسكين على حق .

لقد كان يؤلم فوما أن يتجاهله الجميع على هذا النحو ، الا أنه كان يشعر بالاحترام لهؤلاء البائسين ذوى الوجوه التى كأنما لطخت بنوب الرصاص ، وكان مبعث احترامه لهم أنهم لما يناقوه ولم يتملقوه . لقد كانوا يتحدثون بطريقة جيدة ، وكان معظم حديثهم عن عملهم ، مستعملين فى هذا الحديث كلمات كثيرة لم يتعود سماعها ٠٠ دون أن يحاول واحد منهم التقرب منه أو أن يفرض نفسه عليه ، كما كان من عادة رفاقه فى الحانات أن يفعلوا . وكان هذا من دواعى سروره .

وكان يشعر بغمرة من الضحك المكبوت تملأ نفسه ، فلم بملك الا أن يقول :

- يا لله ! يا لهؤلاء من معشر ذوى أنفة وكبرياء !

وقال أحدهم فى شبه تعنيف :

- اسمع يا نيقولاى ماتيفيتش ، أنت لا تريد ان تحكم بما فى الكتب ، ولكن بما ترى حولك .

- حسبن جدا أيها الأصدقاء ٠٠ فماذا أفدتم من تجربة زملائكم العمال ؟

والتفت فوما ليرى يبيزهوف الذى كان يلوح بقبعته فى الهواء على حين كان يلقي خطبة نارية ، ولكن واحدا أنشأ يقول فى تلك اللحظة :

- ألا تقترب قليلا ، جوسبودين جوردييف ؟

وينظر فوما فيرى غلاما ظريفا عليه قميص عامل ، ويلبس حذاء  
طويلا ، وقد وقف أمامه فى أدب جم ، وزاح يبتسم بوجهه سمين  
مكور وأنف كبير ضاحك مما جعل فوما يحبه ويعطف عليه ، ويرد  
ابتسامته بمثلها قائلا :

• بكل سرور • ولكن ألم يحن الوقت بعد لأن نقرب من  
شربنا ؟ لقد أحضرت معى حوالى ائنتى عشرة زجاجة - لا تزال  
بلفتها •

• أوه ! اذن فأنت تاجر كثير المال ! سأبلغ رسالتك الى المركز  
العام !

وضحك الغلام ضحكا عاليا وطويلا لما حاوله من الفكاهة •  
وشاركه فوما فى دعابته ، بعد اذ أحس بنفحة من الدفء لعلها  
سنته - اما من الغلام ، واما من النار المتأججة القريبة •

وأخذ الغروب يشحب فى بطنه ، وكانما كان ثمة ستار قرمزى  
عظيم يهبط فى الغرب شيئا فشيئا ليبنى لنا أعماق قبة الليل  
التي لا يسير غورها والتي رقصتها النجوم ، وقد أخذت يد مجهولة  
تنثر الأضواء على هذا الغشاء القاتم الأسود الذى كان يتغشى  
المدينة البعيدة ، التي لم يكن يبذ ظلامها الا ظلمات الغابة • ولم  
يكن القمر قد بزغ بعد ، وكانت ظلمة دافئة تكتنف الحقل كلها •

وجلست الجماعة فى حلقة بالقرب من النار ، وأخذ فوما مكانه  
الى جانب ييزهوف جاعلا ظهره الى الضوء ، وكان بهذا يستطيع أن  
يرى الوجوه الباشة التي ينعكس عليها النور ، وأخذوا جميعا  
بشهوة الشراب ، وان لم يدركهم السكر بعد ، يضحكون ويمرحون  
ويغنون رقائيق من الأغانى ، وهم فى أثناء ذلك يشربون ويأكلون  
الحبىز الأبيض وقطع الخيار والنسجق • وكان فوما يجد لذة خاصة  
فى كل شيء ، وجرأته مشاركته لهم فى مرحهم ، فأحس رغبة فى

أن يقول شيئاً لهؤلاء العمال يمكن أن يساعدهم ويجعلهم مثله .  
وكان ييزهوف لا ينفك يتلوى ، ويلكزه بكتفه ، ويهز رأسه وعمه  
يتمتم بكلام غامض غير مفهوم .

وصاح الغلام الظريف يقول :

- ؤيها الزملاء ، هلموا نغن أغنية الطالب .. هيا : واحد ..  
اثنان .

سراعا كموج البحر ...

ويشاركه أحدهم بصوت منخفض :

- أيام عمرنا تكرر ، فتطوينا الغداة وتذهب

ويهتف ييزهوف بالجميع :

أيها الاخوان !

ثم ينهض وهو ممسك بزجاجته ، لكنه يترنح ، ويستند الى  
رأس فوما حتى لا يقع ، وهنأ ينقطع الغناء ، وتتجه اليه جميع  
الانظار . « يا رجال العمل .. اسمحوا لي بأن أقول لكم بضع  
كلمات صادرة من أعماق فؤادي . اننى سعيد بأن أكون واحدا من  
جماعتكم .. اننى أشعر بالرضا وأنا بينكم ، لأنكم رجال عمل ..  
رجال لا يستطيع أحد أن ينكر عليهم حقهم فى السعادة .. وان لم  
يعترف لهم بهذا الحق بعد . ما أجمل أن يجد رجل مثلى .. يعيشر  
مى كل تلك الوحشة ، وتجرحه الحياة كئوس مرها .. أن يجد  
نفسه فى تلك الصحبة السعيدة المتعاونة ، صحبة أمثالكم من  
الأمناء الأوفياء ! »

ثم يتراخى صوت ييزهوف ، ويميل رأسه .. وتسقط قطرة من  
الشراب على يد فوما الذى يرفع رأسه ليرى وجه صديقه المختلج ،  
وهو يصل كلامه قائلا ، وقد أخذ جسمه كله يرتجف :

- اننى لست وحدى .. ان ثمة كثيرين من أمثالنا .. مثلى أنا .. ممن قسا عليهم سوء البخت وقصم ظهورهم .. اننا أقل حظا منكم أيها العمال ، لاننا أضعف منكم جسوما وأرواحا ، لكننا أقوى منكم ، لاننا مسلحون بالعلم - العلم الذى لا نستطيع أن نفيده منه ! اننا لا نستطيع الا أن نكون سعداء اذا جئنا اليكم وتفرغنا لخدمتكم قلبا وقالبا عسى أن يجعل هذا حياتكم أيسر والين جانبا .. انه ليس ثمة شيء آخر يمكن أن نقوم به غير هذا .. فنحن بدونكم لا يمكن الا أن نكون كالمعلقين فى الهواء ، وأنتم بدوننا تكونون كالضارين فى الظلام .. أيها الاخوان ، اننا مخلوقون بعضنا لبعض » .

وقد عجب فوما : ماذا يريد منهم يا ترى ؟ وقد نظر فى وجوه صفافى الحروف ، وأدرك أنهم هم أيضا فى دهشة وحيرة وانقباض ..

ثم يقول ييزهوف بعزم وتصميم ، وبإيماء حزينة من رأسه :

« ان المستقبل مستقبلكم أيها الاخوة » .

ويقولها وكأنه ينفس عليهم هذا المستقبل ، ويكره أن يكونوا اصحابه ، لكنه يعترف لهم به رغم أنفه :

« ان المستقبل هو مستقبل العمال الامناء ، وان فى انتظاركم عملا عظيما ستقومون به ، وهذا العمل العظيم هو خلق نوع جديد من الحضارة لا يقوم الا على أكتافكم .. وأنا .. ابن هذا الجندى المتواضع ، اناصرکم بجسمى وروحى ، وعليه .. لنشرب نخب هذا المستقبل الذى هو مستقبلكم ، .. مرحى .. مرحى يا اخوة ! »

ويسقط ييزهوف متهالكا على الارض ، والزجاجة فى فمه ، وقد انطلق العمال يرددون صيحته المهتومة ، مالتين الهواء بعاصفة من الهتاف كانت تهز أوراق الاشجار هزا ..

وحين يفرغون من هذا ، يقول الغلام الطريف :

« والآن .. الى الغناء ! »

ويوافقه صوتان أو ثلاثة ، الا أن الكثرة تدخل في نقاش عنيد حول الاغنية التي يتغنونها ، وكان ييزهوف وهو يستمع الى لغظهم يدير رأسه من جانب الى جانب ، ليلقى على كل منهم نظرة فاحصة .  
تم صاح بهم فجأة :

« أيها الاخوان ، أريد ردا .. ردا على نخبي ! »

ثم أخذ الهدوء يعود الى الجماعة رويدا ، وأخذوا يتفرسون فيه وقد استولى العجب على بعضهم ، وبعضهم يخفى ابتسامة ساخرة وبعض لا يزال في استياء مكظوم باد على وجوههم .. وينهض ييزهوف ثم يشرع في الكلام مهتاجا :

« ان بينكم اثنين ممن نبذتهم الحياة .. ضيفكم .. وأنا .. وق نبذتنا منذ أمد طويل لسبب واحد ، وسبب واحد فحسب : هـ ادماننا التفكير في شئون هذه الحياة ، وما نشعر به من البهجة مر أننا لا غناء عنا .. أيها الاخوان : ان هذا الزميل الضخم المغفل ..

ويقاطعه بعضهم ، فيقول معترضا ، بصوت عميق :

« ليس لك أى حق في اهانة ضيفنا ، يا نيقولاى ماتفيتش !

ويوافقه الغلام الطريف قائلا :

« مؤكد .. ليس لك حق في هذا .. ممنوع الغمز واللمز ! »

ويقول ثالث مؤكدا بصوت مدو ولهجة حازمة :

« لقد جئنا الى هنا للراحة من عناء العمل ، ولنقضى وقتنا

طبا » .

ويقول ييزهوف وهو يتكلف الرد ويصطنع العذر :

«أيها المغفلون ، أيها المغفلون المهذبون ، اذن فأنتم تشعرون بالاسف

من أجله ! أليس كذلك ؟ فهل تعرفون من هو ؟ انه واحد من أولئك  
الذين يمصون دماءكم ! »

وهتف به الرجل قائلا :

« كفى كفى .. نيفولاي ماتفيتش ! »

وعندئذ انصرفت الجماعة الى ما كانت فيه من حديث وثرثرة .  
منجاهلين ييزهوف تمام التجاهل . وأسف فوما لما بدا من صديقه  
من مهاجمة ماقال ، ولا حظ أن الذين هبوا للدفاع عنه كالوا يتعمدون  
صد كاتب الاقاصيص وانتهاره . وأدرك أن ييزهوف لو عرف ذلك  
لأله وأذى شعوره ، ولكي يصرفه عن ادراك ذلك لكزه في جنبه  
لكزة مازحة وقال له :

- هيا يا كوكي ، هلم نشرب كأسا .. أنفعل ، أم ترى أن الوقت  
قد حان لكي نعود الى بيوتنا ؟

ويجببه ييزهوف :

- بيوتنا ؟ وأين هو هذا البيت الذي يأوى اليه رجل لا مكان له  
بين الناس ، أيها الاخوان ؟

الا أن كلامه لم يجد له جوابا .. لقد ضاع في ضجيج الجماعة ،  
ولم يلتفت اليه أحد ، ولما رأى هو ذلك نكس رأسه وقال :

- اذن .. هيا .. لنعد .

- اذا شئت . وان كان البقاء لا يضايقنى .. فالجلسة جميلة ممتعة  
: . والله ما أظرف هؤلاء الشياطين .. ولو كانوا غير ذلك ما باليت  
البقاء بينهم !

- لا أستطيع البقاء أكثر من هذا .. انى أكاد أتجمد من البرد .

ووقف فوما ، وانحنى يحيى العمال ، ثم قال لهم بلهجة باشة

- شكرا لكم هذا الطعام اللذيذ يا رفاق .. وداعا .

لكنهم أحاطوا به فى الحال ، ورجوه أن يبقى :

- لتبقى معنا قليلا . الى أين تمضى الآن .. اننا سنغتنى .

- شكرا .. يجب أن أذهب .. لا يمكن أن أدع صديقى ينصرف وحده . فانعموا بوقت طيب «

ويقول الغلام الظريف :

- أو أو .. بل ابق .. فلم يحن وقت الرحيل بعد .. ونستطيع نحن أن نوصله .

ويقول الرجل المسكين المسلول فى صوت منخفض :

« ابق بالله عليك .. وسيوصله أحدنا الى حدود المدينة ، ثم يضعه فى عربة .. ويعود من ثم صاحبنا .

وكان بود فوما لو يبقى ، وان كان يخشى فى الوقت نفسه أن يفعل ، من أجل خاطر ييزهوف الذى كان يتلوى ثملا ، ويشد كفووما قائلا :

- هيا .. هيا .. الى الجحيم بهم جميعا !

وهنا ، لا يسع فوما الا أن يقول :

- وداعا يا سادة .. انى منصرف ..

ويمضى مع ييزهوف .. ويهب الجميع يحيونه ويأسفون لفراقه

ولا يكادان يبعدان حتى يقهقه ييزهوف :

- ها ها .. ها ها .. انهم يودعوننا والدموع تكاد تنهل من



عيوبهم .. والحقيقة أنهم مسرورون لمفارقتي اياهم .. لقد كنت  
تقف في طريقهم .. وكانوا هم يريدون أن يهرجوا وأن يعبثوا كما  
نعت البهائم .

- حقا لقد كنت تقف في طريقهم . ما الذي دفعك الى القاء تلك  
الخطب ؟ لقد جاءوا لقضاء وقت طيب ، لا ليسمعوا خطبا ومحاضرات  
.. لقد ضايقتهم مضايقة شديدة .

- اسكت ! انك لا تدري : عم تتحدث ؟ .. أتظن أنني سكران ؟  
ان جسمي هو الذي ثمل .. أما روحي فصاحية واعية . وهى على  
الدوام صاحبة وواعية ، وتشعر بكل شيء .. واأسفاه ! كم فى هذه  
الدنيا من دناءة- وتفاهة وجمود فهم ! .. ثم هؤلاء التاعسون  
الاعبياء !

ثم توقف بيزهوف ، وأخذ يترنح قليلا ، ممسكا رأسه بكلتا يديه  
وتمتم فوما يقول :

- انهم لا يشبهون غيرهم من الناس فى شيء . انهم فى منتهى  
لادب ، ويكادون يكونون سادة ظرفاء ، ولهم أفكار ناضجة صادقة .  
هم يعرفون ما يتحدثون عنه .. يا لهم من عمال بسطاء سلمي .  
لنية !

وصافحت أذانها أغنية جماعية حملها اليهما الهواء من خلفهما ..  
كانت تأتى متقطعة أول الامر ، ثم لا تلبث أن تزداد تماسكا حتى  
تأتى متدفقة ، وفى موجة عظيمة تطيف بالحقول الخالية ، فى ثنايا  
عماء الليل اللطيف المنعش .

ويقول بيزهوف فى صوت هادىء حزين :

- يا لله ! ماذا فى هذه الدنيا مما يمكن أن تتعلق به الروح ؟ ماذا

حيها مما يمكن أن يطفىء ظمأها غير الحب والصدقة والاخوة والعمل  
النظيف المقدس ؟

ويتمتم فوما الذى كان مستغرقا أشد الاستغراق فى أفكاره  
وتأملاته حتى لقد كان هذا يشغله عن ادراك ما كان يقوله بيزهوف

- يا لهؤلاء العوام ! انهم قوم لا بأس بهم اذا نظرنا اليهم نظرا  
طبيبة . بل انهم لقوم فى منتهى الغرابة ! ان الفلاحين والعمال  
عند النظرة الاولى اليهم يخيل للانسان انهم لا يزيدون عن تلك الحبل  
التي تسير وثيدا وهى تلهث وتضج ، وتنفخ نفخا شديدا .

ويسمعه بيزهوف فيقاطعه قائلا :

« انهم يحملون حياتنا كلها على ظهورهم ، ويسيروا وثيدا كما تسير  
الحيل . . . بلداء مستسلمين . . . واستسلامهم هذا كارثة . . . لعنة .  
! وظل سائرا يترنج وهو صامت لحظات . . . ثم اذا به يشرع فى  
الانشاد شئ من الشعر بصوت مبجوح ، ملوحا بيديه فى الهواء فى  
اثناء ذلك :

يا حياة خدعتنى وأمرت كأس عيني  
ورمت غـور فؤادى من ما تسـيها بجيش

وتوقف عن السير ، وعن الانشاد ليقول لقوما بصوت حزين :  
- لقد قيل هذا الشعر فى يا صديقى . . . أما بقيته . . . أوه .  
لقد نسيتها :

أين أحلامى التي أخفيتها طى فؤادى ؟  
لن ترى الضوء وان عا دت فى يوم التنادى  
« انك أحسن حظا منى . . . لانيك . . . لانيك مغفل !

ويجيبه فوما مستاء :

- كف عن هذه العريضة ، واستمع اليهم وهم يغنون .  
- انى لا أريد أن أستمع الى أغاني الآخرين . . فلدى أغاني

نم أنشأ ينشد بصوت مرتفع مولود :

ان أحلامى التى أخفيتهما طى فؤادى  
لن ترى الضوء وما أك شر أحلام الفؤاد

بهم أخذ ينشج ويبكى كما تبكى النساء ، وقد تأثر فوما بهذا .  
• أنه كان متضايقا •

وضرب ييزهوف على كتفه مما به من سحق وقال له :

- كفى . . انك مخلوق ضعيف خرع !

وأمسك ييزهوف رأسه بيديه ، وشد من قامته ، ثم راح يجاهد  
بانشاد مقطوعته من جديد :

لن ترى الضوء وما أكثر أحلام الجنان  
تلك أحلامى التى سجيتها طى ازان  
ضيق ، فى كفن من شعر قلبى وجناني  
كم ترنمت لها ، كم أنشدت روحى الاغانى  
باكيات شاكيات : هامسات فى بيانى

وهمس فوما فى قنوط ويأس : « يا رباہ ! »

وجعل غناء العمال يأتى من بعيد خلال الظلام والسكون ، وكان  
عضهم يرسل صفيه بوزن الغناء ، فكان الصفيه العالى المجلجل  
يرتفع فوق تلك الموجة من الأصوات القوية المدوية كما يعلو الفارس  
الرشيق صهوة جواد منطلق . ونظر فوما خلفه فشهد حائط الغابة  
المظلم . ولهب النار يتراقص عليه ، وأشباح العمال القائمة حول

النار .. وكانت الغابة أشبه بصدر عظيم رحب ، والنار في هذا الصدر أشبه بجرح يدمى . وكان العمال يبدون كأنهم أطفال صغار وهم ملفوفون في سراويل العتمة . بل كانوا يبدون كأنهم يهربون تتراقص بفعل انعكاس ضوء النار عليهم ، وقد أخذت أذرعهم تتمايل مع نغمة أصواتهم العالية القوية كأنها ألسنة تلك اللهب .

وكان يزهوف واقفا الى جانب فوما يشهد معه ذلك المنظر . وادا هو يعود فجأة الى انشاد أشعاره :

وانتهى الحنى ، وغنى الناي الحنه  
مودعا في أخريات اللحن بلواه وحزنه

\*\*\*

ايه يا ربى .. أرح روحى بعـدلك  
شقيت ما ليس يشقى أحد فامنن بفضلك  
ايه يا ربى .. أرح روحى بعـدلك

وفزع فوما لصوت ولولته الحزينة .. وزاده فزعا أن يطلق كاتب القصاص البائس صرخة هستيرية ممدوية .. ثم يلقي بنفسه ، ووجهه الى أسفل ، فوق الأرض ، حيث تأخذه نوبة من البكاء الهادئ . الحزين الذى يفيض أسى .. كما يفعل طفل صغير مريض .

ويهتف به فوما وقد أمسك بكتفه !

- نيقولاى ! حسبك يا صديقى ، حسبك ! ماذا جرى ؟ ألا تحس من نفسك ؟

لا .. انه لم يكن ثمة ما يدعو الى الحجل .. لقد رمى بنفسه على الأرض كما ترتمى السمكة بعد خروجها من الماء ، حتى اذا رفعه فوما من فوق التراب راح يلقي ذراعيه المعروقتين حول صديقه ، ثم يفرق فى نوبة من البكاء

ويقول له فوما بصوت خفيض :

- تعال تعال ، هون عليك ٠٠ ولا تشق على نفسك يا صديقي  
لعزيز

وسماع الاسيياء والحنق فى نفس فوما مما يمكن أن تسببه الحياة  
للانسان من مثل هذا الشقاء ، فامتلاء بالكراهية لها والازدراء عليها ،  
وكأنه هو هذا الصديق ، وكأن مصائبه مصائبه ٠٠ واذ به يلتفت  
إلى حيث تتلألأ أنوار المدينة فى ظلام الليل ، فيقول فى صوت  
كالرعد ، وفى فورة من المرارة :

- عليكم اللعنة ، أيها الشياطين !

## الفصل الحادى عشر

عاد ماياكين من البورصة ذات يوم فقال لابنته :

– ليوبا • استعدى يا ابنتى للقاء أحد الخطاب هذا المساء • وأعدى  
مائدة طيبة ، وأخرجى جميع الفضيحة القديمة وفازات الفاكهة أيضا •  
يجب أن تجعلى المائدة تضربه فى أنفه مباشرة ، ويجب أن يرى جميع  
الاشياء الثمينة التى نقتنيها

وكانت ليوبا جالسة بالقرب من النافذة ترفو جوارب أبيها • وقد  
حنت رأسها وهى تعمل دائبة

وقالت تعترض على ما قال أبوها وقد أحست بالضيق :

– وفيم كل هذه المظاهرة يا أبى ؟

– هذا شيء لا غنى عنه •• انه كالبهريز الذى يكسب الطعام  
نكهته •• ثم هذا هو الذى يجب أن يكون •• ثم •• ان البنت  
لست حصانا •• ولن يشتريها أحد الا اذا نصبنا له المصايد

وأومات ليوبا برأسها ايماءة لها معناها ، ثم ألفت بالشغل ،  
وحذبت أباها بنظرة تجمع بين الحجل والاستياء – ثم عادت فتناولت  
الجورب ونكست رأسها أكثر مما كان أولا • وراح العجوز يمشى  
جيئة وذهابا ، محملا فى الفضاء ، وهو يجذب لحيته بشدة وفى قلق  
كانما ينعم الفكر فى مشكلة صعبة عويصة • لقد كانت ابنته تعلم أنه  
لن يصغى إليها اذا تكلمت ، وربما لا يزال ما سببته كلماتها لها من

هوان . لقد كانت الاحلام الجميلة الفضية التي طالما ساورتها وملأت خيالها بزواج يمكن أن يكون صديقا حقا بقدر ما هو زوج . . . زوج منقذ يستطيع قراءة الكتب الجميلة معها ، وأن يساعدها في فهم ما تشوق اليه من الاماني والامال المهمة الغامضة . . . ان هذه الاحلام كانت قد بغرت وقضى عليها قرار أبيها . . . هذا القرار الذي لا نکوص فيه ولا معدى منه ، بأن تتزوج سمولين . . . انه قرار ترك عكارة سوداء في روحها .

لقد اعتادت أن تنظر الى نفسها بوصفها ارفع مستوى من لداتها من البنات العاديات ، بنات الطبقة التجارية اللائي لا هم لهن الا الملابس الفاخرة ، والزواج ممن يقرر آباؤهن أنهم صفة طيبة للزواج منهن ، دون أن يأخذوا في اعتبارهم ، الا نادرا ، أن لبتاتهم مشاعر واحاسيس ينبغي احترامها ووضعها في حسابهم قبل أى اختيار آخر .

ثم ها هي ذى قد رأى أبوها أن يزوجه الان . . . لا لسبب ما ، الا لأن وقت الزواج قد آن ، ولأن أباه محتاج الى زوج ابنة يمكن أن تشول اليه مقاليد أعماله وأماله . ولم يكن يخفى على ليوبا أن أباه كان يؤمن بأنها فقيرة في عوامل الجاذبية والجمال بدرجة لا يمكن معها أن تجتذب أحدا من الراغبين في الزواج ، ومن ثمة فقد رأى أن يعرض هذا بعرض ما لديه من أسباب الغنى والجاه . . . ومنها هذه الفضيحة التي أوصاها بالاكتثار منها على المائدة . . .

لقد عراها الكثير من الارتباك والحيرة . . . فشكت أصعبها وكسرت ابرتها . . . ومع هذا . . . فلم تفه بكلمة ، لأنها كانت تعلم تمام العلم أن قلب أبيها لن يكون الا القلب الأصم الأبكم الذى لن يستجيب لشيء ولن يستمع لشيء مما تقول .

وظل العجوز يذرع الغرفة رائحاً غادياً .. وهو لا ينفك يتمتم  
بدعاء أو صلاة ، أو يلقي على ابنته تعليماته التي يعلمها بها كيف  
تلقي خطيبها ، وكيف تنصرف أمامه .. ثم اذا هو يتوقف فجأة  
ليحسب على أصابعه حسبة ما .. ثم اذا هو يعبس ويتجهم ، ويعود  
فيبتسم .. ثم .. يهمهم :

- هم .. اللهم يا كريم لا تجعل لأحد علينا حكماً الا حكمك ..  
وقنا اللهم شر الملق والمتملقين وشر من لا يؤمن بك يا كريم .. ليوبا  
.. ولا بد أن تلبسى زمردات أمك ..

ويكون صبر الفتاة قد نفذ ، فتنفجر فيه وقد ضاق صدرها

- حسبك يا أبى .. حسبك .. دعنى وشأنى أرجوك

- بل دعينا من ألعيبك .. وافعل ما أمرك !

ثم يعود الى ما كان فيه من حساب ، مضيقاً من أجفانه وهو يعد  
على أصابعه :

- خمسة وثلاثون فى المائة .. هذا النصاب المحتال ، أنر بصائرك  
يا ...

وتقاطع ليوبا متسائلة وقد استولى عليها الخوف :

- بابا ...

- هيه ...

- هل هو ... هل تحبه ؟

- من ؟

- سمولين !



- سمولين؟ انه شاب لبيب ٠٠ واع ٠٠٠ والآن ، حان وقت الذهاب ٠٠ اسمعى يا ليوبا ٠٠ البسى أبهى ما عندك

وينصرف الرجل ٠ وتضع ليوبا شغلها جانبا ، ثم تتكىء الى حلف ، وتغمض عينيها ، وقد شحبت مفاصل يديها ٠٠ وتسنجت أصابعها المتشابكة ، وأخذت تدعو الله وتتوسل اليه ، مما تحس من المرارة التى يحقر بها والدها من شأنها ، ولخوفها من المستقبل :

يا الهى اللطيف ٠٠٠ يا مقلب القلوب والابصار يا رب السموات ٠٠ أضرع اليك أن يكون لطيفا ٠٠ مثلك ٠٠٠ فاجعله ربي لطيفا ٠٠ ورقيقا وديعا ٠٠٠ يا عجبا ! رجل غريب يأتى دون سابق عهد ليحملك فى الواحدة منا ٠٠ ثم تصير ملكه بعد ذلك عشرات السنين ! لله ما أبشع وما أشنع ! وا خجلاه ! تداركننا يا الله ! ٠٠٠ ثم ٠٠ لو أن أحدا كان الى جانبي أشكو اليه بنى ويخفف عنى ما أجد ! لو كان تاراس هنا ٠٠!

وعندما ذكرت أخطاها شعرت بوطأة الظلم تزداد وتتضاعف ، وتتضاعف أحزانها وتزداد بلواها ٠ لقد كتبت الى تاراس خطابا طويلا ضافيا تقول له فيه : انها تحبه من صميم قلبها ، وتضع فيه جميع آمالها ، وتتوسل اليه أن يحضر ليقابل أباه بأسرع ما يستطيع ، مصورة له فى أبداع صورة ما يمكن أن تكون عليه حياتهما معا ، مؤكدة له أن أباهما رجل شديد الذكاء يستطيع أن يقدر الظروف ويفهم كل شئ ، وأنه بلغ من الكبر عتيا، وأنه يحيا حياة كئيبة موحشة ، وان يكن يشعر بحماسة عجيبة لأن يحيا وأن يعمر ٠٠٠ ثم شكت اليه من الطريقة التى يعاملها بها هذا الوالد ٠٠ وانتظرت ليوبا أسبوعين طويلين وهى تتحرق لتسلم الرد ٠٠ فلما تسلمته اذا هى تجتاحها نوبة هستيرية من الفرح بتسلمه ، كما انتابتها نوبة أخرى من اليأس وخيبة الرجاء ٠٠٠ لقد كانه الرد

جافا ومختصرا ، وان يكن أنيقا محكما . لقد أخبرها تاراس أنه خلال شهر أو نحوه سيكون فوق الفولجا فى عمل من الاعمال ، وأنه ربما زار والده فى أثناء ذلك ، اذا لم يكن لوالده اعتراض . لقد كان خطابا باردا فاترا . . . ومن ثمة ، فقد أبكاهها . . . وبللته بدموعها . . . ولهذا طوته وطبقته فى راحتها . . . الا أن الليل الذى أصابه لم يرطب من مرارة ما فيه . لقد كان يخيل اليها أن وجها يبرز من سطح الورق المرقط ذى التجاعيد الذى كتب عليه الخطاب ، والذى غطته أحرف كبيرة ، خطتها يد جريئة مطمئنة . . كان يخيل اليها أن هذا الوجه يبرز اليها مقطبا متجهما . . . وحها نحىلا ملائته الغضون والتجاعيد مثل وجه أبيها .

وسمع الوالد العجوز أن ابنه قد كتب خطابا . . . فكان أثر ذلك شيئا مختلفا تمام الاختلاف. عن الأثر الذى تركه فى نفس الفتاة . لقد أثار ذلك شئى الاحاسيس فى نفس الوالد ، وبأدر من فوره الى ابنته ، وعلى شفتيه ابتسامة خاصة تختلج عليهما اختلاجا ، وأنشأ يقول :

- هيه . . . خير . . . أرينا يا ستى . . . لنر كيف يكتب الشباب الأتيق الرشيق اياه ! أين نظارتى ؟ « أختى العزيزة » . . .  
اهم . . .

وقرأ العجوز خطاب ابنه فى صمت ، حتى اذا انتهى منه وضعه على المنضدة . . . وجعل يتمشى قليلا فى زوايا الحجره ، وقد ارتفع جاجباه مما عمراه من الدهشة . . . ثم عاد فقراه مرة ثانية ، وقف بعدها ينقر بأصابعه على المنضدة ، مستغرقا فى تفكير عميق . . . ثم قال أخيرا :

- لا بأس . . . خطاب طيب . . . ناشف . . . ليس فيه كلمه لا لزوم لها . . . ولعل البرودة قد جعلته جامدا بعض الشئ ! ان

البرد هناك قارس قاس ٠٠٠ ليحضر يا ليوبا ٠٠٠ وسنلقاه ان  
شاء الله ٠٠٠ عجائب ! اهم ٠٠٠ هذا كما جاء في مزموذ داوود :  
عندما رددت عدوى - لقد نسيت بقية الكلام الذى بعد هذا ٠٠٠  
وأظنه كشيء من هذا القبيل : لقد ضعفت أسلحة عدوى فى النهاية ،  
وتلاشت ذكراه وسط الضجيج « ٠٠ حسن ٠٠ سننظر فى  
الامر ، أنا وهو ، بلا ضجيج ، ولا جلبة ٠ وحاول العجوز أن يتكلم  
فى هدوء ورفق وفى ابتسامة فيها أنفة وفيها استعلاء ، الا أنه لم  
يستطع ذلك ، فلقد أخذت غصون وجهه تختلج من أثر ما تجيش به  
نفسه من الانفعال ، وراحت عيناه تلمعان لمعانا غريبا ، وهو يقول  
لابنته :

- اكتبى اليه خطابا آخر يا ليوبا واطلبى اليه الحضور دون أن

يخشى شيئا .

وكتبت اليه ليوبا هذا الخطاب الآخر ، وكان أقصر من خطابها  
الأول وأكثر ضبطا ٠٠٠ ثم بدأت تنتظر رده من جديد ، وهى لا تنى  
تفكر فيما عسى أن يكون أخوها هذا ٠ لقد كانت تفكر فيه أول الأمر  
بمثل الوقار الذى يكنه المؤمنون للصديقين والأولياء والضارين فى  
سبيل الله ٠٠٠ أما الآن ، فقد أخذ تفكيرها فيه يملؤها رهبة ٠٠٠  
انه شخص تعذب طويلا ، وقضى شبابه فى غربه أشبه بالمنفى ، ومن  
نمة فهو رجل لا كسائر الرجال ٠٠٠ انه أصبح خيرا بالناس ، وله  
رأيه فيما يصدرون عنه من أعمال ، وهو بالطبع سوف يسألها  
حينما يلتقيان ، وحين تأخذ رأيه فى الرجل المتقدم اليها :

- هل كنت حرة مطلق الحرية فى اختيار هذا الزوج ؟ وهل

هو زواج يقوم على حب ربط قلبك بهذا الرجل ؟

وأخذت الأفكار السوداء تنتابها رويدا رويدا ، بل أخذت تتركها وتعذبها ٠٠ على أنها لم تملك الا أن تنفذ تنفيذا حرقيا ما أمرها به أبوها أن تفعل ، استعدادا للقاء خطيبها ، وكانت تنفذه وهي فى حال عصبية أشبه بحالات اليأس ، وان عينيها لتكادان تسكبان الدموع ، وان نفسها لا تقرب أن تكون فى غير وعيها ٠ لقد أعدت المائدة وملائتها بالفضيات القديمة ، ولبست ثوبا حريريا رمادى اللون ، ثم جلست أمام مرآتها بالقرب من النافذة لتبرم فى أذنيها ذلك الحلق من الزمرد الذى كان يوما ما جزءا من حلئ أسرة الأمير جروزنسكى ، وانتهت ملكيته الى ماياكين من غيره من الاشياء الثمينة الاخرى بطريق الرهن على قرض لم يستطع المقترض أن يرده

وشرعت لبوبا تنظر فى المرآة الى وجهها اللثائر المضطرب ، للذى كانت شفاته المستديرتان الناضجتان تبدوان أشد حمرة مما هما عليه لما يعرو خديها من صفرة وشحوب ٠٠٠ ثم تنظر الى صدرها الناهد المتلى الذى يمسكه الثوب الحريرى فيجعله بارزا مشدودا ، فترى أنها جميلة وقمينة بأن تسترعى انتباه أى رجل ٠ لقد كانت الزمردتان الخضراوان المتلاثلتان فى أذنيها لمسة سطحية ثقيلة على ذوقها ، وفضلا عن ذلك كان يبدو أنهما تلقيان ظلا أصفر باهتا على خديها ٠٠ ومن ثمة فقد انتزعت الزمردتين ، ووضعت مكانهما ياقوتتين حمراوين ٠٠٠ وهي فى أثناء ذلك كله لا تنى تفكر فى سمولين : ترى ٠٠٠٠ ما شكله ، وما فصله ؟

ولاحظت غضونا سمراء تحت عينيها ، فلم يسرها ذلك ، وأخذت تعالجها بشئ من البودرة ، وهي لا تزال تفكر فى سمولين ، وفى سوء البخت الذى جعل منها امرأة ٠٠٠ ولم يجعل منها رجلا ، ثم تنعى على نفسها ضعف شخصيتها ، بل فقدان هذه الشخصية ٠ ولاحظت لبوبا أن اختفاء الغضون السوداء من تحت عينيها قد سلبها

رونقهما وبهاءهما ، ولهذا ، فقد أزلت البودرة وأعادتهما الى ما كانتا عليه . وبعد أن ألفت على نفسها نظرة أخيرة آمنت بأنها حسناء . . . حسناء حسنا أخاذا يبهز اللب ، ويسبى القلب . . . . وجميلة . . . هذا الجمال القوي الحى الذى يتدفق فى شجرة صغيرة من أشجار الصنوبر . وقد هدأ روعها الى حد ما هذا الذى اعتقدته من حسننها ، مدخلت الى غرفة الاكل بخطى ثابتة . . . خطى الفتاة الغنية الصغيرة الصالحة للزواج ، العارفة بقيمتها تمام العرفان .

لقد كان أبوها وسمولين فى انتظارها

وكانت ليوبا تمشى فى الطرقة على مهل ، وهى تزر عينيها بطريقة ظريفة ، وتهدل شفيتها فى تيه وكبرياء . . . وما كادت تلوح حتى نهض سمولين ، وتقدم للقائها فى انحناءة مؤدبة راقتها وصادفت هوى فى نفسها ، كما راقها هذا المعطف الجميل الذى ينسجم هو وجسمه القليل النحيل . . . لقد تغير قليلا عما كانت تعرفه ، وكان شعره لا يزال أحمر اللون وحليقا ، ووجهه ممتلئا بالنمش ، الا أنه قد أصبح ذا شاربين بديعين ، والظاهر أن عينيه زادتا اتساعا .

وقال العجوز لابنته وهو يشير الى سمولين :

- عريس نموذجى ! اه ؟

وهنا ضغط سمولين على يد ليوبا ، وابتسم .

وتمتم سمولين فى نغمة لطيفة :

- أتعشم ألا تكونى قد نسيت زميل الدراسة القديم !

ويقول ماياكين وهو يلقي على ابنته نظرة فاحصة :

- تستطيعان كلاكما التحدث فيما بعد . . . تستطيعين يا ليوبا

ان تُنصرفنى للاشراف على الخدم حتى تنتهى من الحديث الذى كنا  
بصدده . . . هيه ، وهكذا كان أفريكان ديمترييفتش كما تقول . . .

ويتوجه سمولين بالحديث الى ليوبا فيقول لها فى رقة بالغة

.. أستمحيك العفو . . . آنسة ليوبوف ياكوفلفنا !

وتجيبه ليوبا :

- أوه . . . عفوا . . . لا شىء مطلقا .

وتتحدث الى نفسها فتقول : انه رقيق وفى منتهى الأدب . . .  
وكانت وهى تمشى بين المائدة وصوان الفضية فى الغرفة المجاورة  
تحتلس السمع بأذن فطنة الى ما يقول . . . « سرها أن تجد صوته  
ناعما لطيفا ممتلئا ثقة » :

.. - وكما ذكرت لك . . . لقد فمت بدراسة طيبة للمجلود المدبوغة فى  
روسيا وحالتها فى الأسواق الخارجية . . . لقد كانت الجلود  
الروسية منذ ثلاثين عاما أجود أنواع الجلود . . . الا أن الاقبال  
عليها أخذ يتناقص هذه الأيام ، كما أخذت أسعارها تتناقص أيضا  
. . . وهذا أمر طبيعى ، لأنه ما لم يتوافر رأس المال والعلم والخبرة  
لا تستطيع مصانع الجلود الصغيرة عندنا مواجهة ما يقتضيه انتاج  
الأنواع الراقية من نفقات لم يكن لهذه المصانع بها عهد ، وما هى  
مضطرة اليه فى الوقت نفسه من تخفيض النفقات . . . ومع هذا  
دان ما تنتجه يكون غالى الثمن وصنفا رديئا الى درجة كريهة . . . لقد  
ألقوا بروسيا أضرارا شنيعة بالقضاء على سمعتها بوصفها منتجة  
للأنواع الراقية من الجلود . . . وبوجه الاجمال ان هؤلاء المنتجين  
الصغار الذين ينقصهم رأس المال والمعلومات الفنية الصناعية أعجز  
من أن يجاروا آخر التطورات فى الصناعة الحديثة ، ومن ثمة فهم  
لمعنة ززئت بها البلاد ، وطفيليات تقضى على تجارتها .

ومن خلال ما كان يشف عنه حديث سمولين البسيط المنطلي،  
دراسة وفهما أدركت ليوبيا ما كان يبدو على هذا الشاب من سمات  
الترفع والاستعلاء حتى لكأنه كان يشعر أباهما بأنه المنعم المتفضل  
بالاصهار اليه . . . . وقد آلم هذا ليوبيا وضاق به .

وهمهم العجوز واحد ي عينيه على سمولين ، والاخرى ناحيه  
ليوبيا ، ثم قال :

- وبالاختصار فانت تفكر في بناء مصنع ضخمة . . . . ضخم كالحوت  
. . . ليتطلع جميع المصانع الصغيرة . . . كما يتطلع الحوت الاسماك  
الضخمة !

وقال سمولين ، وقد أوما ايماءة لطيفة ينفي بها ما اتهمه به ذلك  
لدهية العجوز :

- أوه . . . كلا . . . ان غرضي هو استعادة ما كانت تتمتع به الجلود  
لرؤسية في الاسواق الخارجية من شهرة في الجودة وتهاود في  
لأسعار . . .

وعلى ضوء ما اكتسبته من علم بوسائل الانتاج الحديثة اعتمزم  
ناء مصنع نموذجي لانتاج بضائع نموذجية افاجيء بها السوق ؛  
ن شرف البلاد . . . .

وسأله ماياكين مقاطعا . . . . وقد غرق في لجة من التفكير  
- وكم من التقود قلت ان ذلك كله يتكلف ؟

- حوالي ثلثمائة ألف .

وعندما سمعت ليوبيا ذلك همست في نفسها تقول :

- وهذه ذقتني ان كان أبي يضحى بمثل هذا المبلغ من أجل سواد  
بيوني !

ويعود سمولين الى حديثه فيقول :

- ان مصنعي سيصدر الجلود مشغولة في صورة أحذية وشد  
وسروج وأحزمة .

ويقاطعه العجوز مرة ثانية متسائلا :

- وكم يا ترى تبلغ الفائدة التي تحلم بالحصول عليها من ذلك

- أنا لا أحلم . . بل أقيم مشروعى على أرقام حسابية مضبو،  
مبنية على ما تسمح به الأحوال فى روسيا .

ويضغط سمولين على عبارة : الأرقام الحسابية المضبوطة مؤا  
وإثقا . . ثم يقول :

- ان عقلية المنتج يجب أن تكون عقلية باردة من الوجهة العملي  
أشبه فى برودها بعقلية الرجل الميكانيكى الذى يخترع آلة ،  
الآلات . فاذا كان يقصد بآلته أن تنهض بعمل كبير ضخم ، ل  
أن يعمل حساب احتكاك أصغر عجلة من عجلات آلته من الناحية  
الميكانيكية البحتة . . وكم أود أن تقرأ الملاحظات التى كتبتها  
والتى بنيتها على دراسة طويلة عميقة لتربية الماشية وعلى تجا  
المحوم فى روسيا .

ويجيبه ماياكين ضاحكا ضحكة خفيفة :

- حسبنا هذا الآن . . . لقد جعلنا . . . وملاحظاتك هذه لا تق  
من الجوع شيئا . . الا اذا كانت مما يؤكل . . . عظيم جدا . .  
كل انسان يستطيع أن يدرك أنك لم تضع وقتك فى أوروبا عبثا .  
فالآن . . هلم نأكل شيئا . . . وعلى الطريقة الروسية القديمة  
وجلسوا الى المائدة . . . وتوجه سمولين الى ليوبا بالحديد  
سألها ، وهو يتناول سكينه وشوكته :



- والان ٠٠٠ كيف تقضين وقتك يا آنسة ليوبوف يا كوفلنا ؟  
رينوب العجوز فى الرد عن ابنته قائلا :

- مسكينة ٠٠ انها ربة الدار هنا ٠٠٠ تشرف على كل صغيره  
كبيرة فى المنزل كله ٠٠٠ ولهذا لا تجد متسعا من الوقت للترفيه  
بن نفسها !

وتضيف. ليوبا :

- لا متسعا من الوقت ولا متسعا من الوسائل ٠٠٠ اننى لا أطيق  
هذه الحفلات الراقصة ولا تلك الولايم التى يقيمها التجار .

ويسألها سمولين :

- والمسرح ؟

- أنا لا أذهب الى المسرح كثيرا ٠٠٠ لانى لا أجد من أذهب

بمع

ويزوم ماياكين متعجبا :

- المسارح ! لعلك تتلطف وتشرح لى هذا الأسلوب الحديث.الذى  
أدخلوه على المسارح اليوم ، والذى يصورون فيه التجار كحفنة من  
المغفلين ! ان هذا شىء ظريف وفيه تسلية بالطبع ٠٠ الا أنه بعيد  
من الحقيقة كل البعد ، ان التاجر هو أهم شخصية فى مجلس  
المدينة ٠٠ والتاجر هو الذى بيده مقاليد الشئون التجارية ٠٠  
والتاجر هو الذى يملك هذه المسارح نفسها ٠٠ وبعد هذا يجرون  
على تسميته مغفلا ! ان هذه المسرحيات التى يؤلفونها عن التجار  
ليست من حقيقة الحياة فى شىء على الاطلاق ، أوه ! أنا أفهم أنه  
لا داعى لأن تطابق القطعة المسرحية الاستعراضية واقع الحياة فى  
المسرحيات التاريخية التى من قبيل : « حياة القيصر » بما فيها من  
غناء ورقص ، أو « هملت » أو « الساحرة » أو « فاسيليزيا »

أقول : انه لا داعى لأن تطابق أمثال هذه المسرحيات واقع الحياة لأنها تتناول الماضى ، ولا شأن لها بنا نحن . وسواء كانت حقيقيه أو غير حقيقية فالعرض هو أهم ما تهدف اليه . . . أما اذا كنت تتناول الحياة فى أيامنا هذه فواجبك أن تتحرى الحقيقة فيما تقول ، وأن تكون أميناً فى تصويرك الناس فى ضوء الواقع الصحيح .

وكان سمولين يبتسم فى أدب جم وهو يصغى الى العجوز ، بد حدج ليوبوا بنظرة كأنما يوحى اليها بأن تتولى هى الرد على أبيها . . ومن ثمة قالت ، وفى نفسها شئ من الضيق :

- على كل حال . . يجب أن تعترف يا بابا أن معظم التجار وعائلاتهم هم أناس خشنون وغير متعلمين ويومئء سمولين موافقا ويقول :

- أجل . . هذا صحيح ، بكل أسف ، ولكن . . ألسنت عضواً فى جمعية من الجمعيات ؟ ان ثمة جمعيات من كل نوع فى هذه المدينة .

وتقول ليوبوا ، وهى تنهد :

- أعرف هذا . . . ولكن . . . الظاهر أننى بعيدة بوجه ما عن كل ذلك .

ويتدخل أبوها فيقول :

- . ان البيت يشغلها على الدوام . ويكفى أن تلقى نظرة على كل جده التحف والطرف التى جمعناها هنا . . . انها تحتاج دائماً الى العناية والرعاية . . وأن تظلى نظيفة ومنظمة .

.. ثم أوماً فى زهو وكبر الى المائدة المكتظة بألوان الفضيات ، وإلى صنوان الصينى الذى كان ينبوء بحمله من الأنية الغالية التى تملؤه . . . والشئ كانت تذكر الانسان بما يعرض من أمثالها وبهذه الكثرة ،

في فترينات المحال التجارية. وكان سمولين ينظر الى ذلك كله وعلى شفثيه ابتساماة ساخرة ، لكنه كان يلتفت الى ليوبا ، لينظر اليها تلك النظرة التي تفيض بالمودة ، والتي كانت تفهم منها أنه يتفق معها في كل شيء . . . . . وكانت هي تدرك هذا ، وتحمد الله عليه ، وتشعر بسببه بمشاعر السعادة الغامرة تسرى ملء جوانحها هي هية وخجل

لقد كان لمعان الزجاج المشطوف يتضاعف ويشتد في ضوء النجفة البرونزية الضخمة ، ومن ثمة كانت الغرفة تبدو مفعمة بالانوار .

ويبتسم سمولين الى ليوبا ابتساماة رقيقة ويقول :

- اننى مغرم غراما شديدا بمدينتا القديمة العزيزة . . . انها مدينة جميلة ساحرة ، وزاخرة بالحركة والحياة . . . ان فيها شيئا يحفز الانسان الى الكد . . . شيئا يجعل الانسان يسعى الى العمل . . . ان روح جمالها فيه وحى وفيه الهام . . . انه يجعل الانسان ميالا الى أن يحيا حياة مملوءة . . . وأن يعمل بكل ما فى وسعه من نشاط وجد . . . ثم هي مدينة الاعمال النهنية الى هذا كله . . . وآية ذلك تلك الصحيفة المهمة التى تصدر فيها . . . وعلى فكرة . . . نحن معتزمون شراءها .

ويسأله ماياكين بلهفة :

- نحن ؟ . . . ومن نحن هؤلاء ؟

- أورفانستوف وشتشوكين ، وأنا . . .

ويقول العجوز وقد دق المائدة بيمينه :

- عال . . . عال جدا . . . وعلى هذا فقد آن الاوان لاغلاف .

فواهمم . - ولعبرى . . . لقد آن أوان ذلك من زمن طويل . . . ولكن !

... ولا سيما قم هذا الملعون ييزهوف ... ذى الأسنان الحادة  
المرهفة ! انكم تحسنون صنعا اذا بردتم أسنانه ... ابرودها ..  
وثقوا انكم تؤدون للبلد خدمة جليظة

ويعود سمولين فيرمق ليوبا بنظرة باسمة ... وتعود مشاعر  
السعادة فتغمر فؤادها من جديد .

وتقول ليوبا . وقد عراها الحجل ، وهي متوجهة بالحديث الى  
أبيها فى الظاهر ، والى سمولين فى واقع الأمر :

- ان لم أكن مخطئة ، ليس الغرض الذى يهدف اليه أفريكان  
ديمترييفتش من شراء الجريدة هو اغلاق أفواههم كما تقول يا بابا  
ويقول لها العجوز وهو يهز كتفيه :

- ولماذا اذن يريدون شراؤها ان لم يكن هذا هو غرضهم ؟ انها  
صحيفة لا يصدر عنها الا الضجيج والتهويش .. أوه ، اللهم الا اذا  
كان الذين سيكتبون فيها هم رجال الأعمال أنفسهم ... التجار  
أنفسهم .. نحن ...

ويقاطعها سمولين فيقول واضعا الأمر فى نصابه :

- ان نشر جريدة ما يمكن أن يكون عملا مربحا حتى اذا نظرتنا  
اليه نظرة تجارية صرفة ، ولكن للجريدة بغض النظر عن ذلك هدفا  
- مهما جدا ، وبالأحرى هو الدفاع عن حقوق الملكية الخاصة والمصالح  
التجارية والصناعية .

- وهذا هو ما كنت أقوله تماما - ان التجار اذا كانوا هم الذين  
يتولون أمور الصحيفة أمكن أن تستعمل استعمالا صالحا  
- ولكن يا أبى ...

وشرعت ليوبا تتحدث ... لقد أرادت أن تعبر عن رأيها فى هذا  
الموضوع أمام سمولين .. أرادت أن تشعره بأنها تفهمه ، وبأنها

يست هذه الفتاة العادية ٠٠ ابنة أحد التجار ٠٠٠ التي لا هم لها  
لا الملابس والرقص ٠٠ لقد أحبت سمولين ٠٠ ولم يسبق لها قط  
ن لقيت تاجرا قضى شطرا طويلا من عمره خارج بلاده ٠٠٠ تاجرا  
تكلم بهذه اللهجة المنقعة التي تترك أثرها في وعى سامعها ، وله  
مثل هذا الخلق النبيل ، ويعنى بهندامه الى ذاك الحد ٠٠٠ ثم ٠٠٠  
هذا هو المدهش ٠٠٠ يتحدث الى السيد العجوز الداهية ، أذكي  
جل في المدينة بأسرها ، بتلك اللهجة التي تفيض زهوا واستعلاء  
٠٠ اللهجة التي يتكلم بها الرجل الكامل الرجولة الى صغير لا يزال  
جيو في مدارج الطفولة .

وأخذت ليوبا تحلم ، وتتمنى الأمانى ، وتقول لنفسها : « ان شاء  
له ٠٠ بعد الزفاف ٠٠ فسأجعله يأخذني معه الى الخارج » وراحت  
بذه الفكرة الطارئة تلح عليها الحاحا جعلها تنسى ما كانت تقصد  
في تقوله لوالدها ٠٠٠ ومن ثمة ٠٠ فقد خجلت واحمر وجهها ولم  
ستطع أن تفوه بكلمة ٠٠٠ وخشيت أن يضع هذا من قيمتها في  
بنى سمولين ٠٠٠ وأخيرا لم تجد مخرجا من حيرتها هذه الا أن  
نول :

— لقد تكلمتم بما فيه الكفاية ، وقد سرقنا الحديث فنسينا أن  
ندم شيئا من الشراب الى ضيفنا .

ويقول لها أبوها : « هذا من صميم عملك أنت ٠٠ فأنت ربة  
لدار »

ويقول سمولين : « أوه ٠٠ شكرا ٠٠ لا تشغلي نفسك ٠٠ فانا

أكاد أشرب شيئا على الاطلاق .

فيقول له ماياكين مازحا : « احم احم ! »

ولكن سمولين لا تزييله لهجة الجد ويقول

- صحيح والله .. أنا لا أكاد أشرب ... وان كنت أحيانا أتناول كأسا أو كأسين اذا كنت متعبا متعبا شديدا أو اذا لم تكن صحتي جيدة ... وأنا لا أستطيع أن أسيغ معنى للشراب لمجرد الانبساط. فثمة أسباب كثيرة لا حصر لها للانبساط والتسلية أجدر بالرجل المتعلم .

ويقول العجوز غامزا :

- كالنساء مثلا !

ويظهر الامتعاض على وجه سمولين ، ويقول بجفاء وهو ينظر الى ليوبا :

- بل الكتب والمسارح والموسيقى ...

ويحملك الرجل مع هذا في الشاب العظيم الفاضل ، ويزفر كم نزفر الخنازير ، ثم يقول فجأة :

- ان الحياة في تغير دائم ... لقد كانت الكلاب الكبيرة تعيش يوما على الفضلات ... والآن ربما لا ترضى الاجراء الصغير، بالقشدة . ومعدرة عن لهجتى الحادة يا سيدى الفاضل .. والقافى تعذر كما يقولون ... وأنا طبعا لا أعنيك أستغفر الله !

وامتقع وجه ليوبا ، والتفتت نحو سمولين فى رعب ... لقا كان يفحص ملاحه من الميناء قديمة الصنع ، وهو يبرم شارب كانه غير ملق باله لما يقال ، الا أن عينيه كانتا أحلك سوادا مر العادة ، وكانت شفتاه مزومتين بشدة جعلت ذقنه شديدة البروز . كذلك .

ويقول ماياكين ، وكان شيئا لم يحدث :

- وهكذا يصبح جوسبودين صاحب المصنع المزمع انشاؤه والهدى

يتكلف ثلثمائة ألف روبل ثم تملأ الرياح شراعه وتسير السفينة باسم الله مجريها .. أليس كذلك ؟

ويجيبه سمولين بلهجة الواثق الذى لا يتردد ، وهو يحدج الرجل العجوز بنظرة صارمة باردة :

- فى خلال عام ونصف العام تكون بضائعى معدة للسوق ، ثم يتوالى الانتاج بصورة متوسطة بعد ذلك .

- وتتكون الشركة من سمولين وماياكين .. ولا أحد غيرهما . عظيم .. عظيم .. من كان يصدق أننى وقد بلغت هذه السن أفكر فى مغامرة جديدة ، ألا تعتقد ذلك ؟ أنا .. الذى يجثم تابوت الموتى فى انتظاره منذ سنين ! هه ! ما رأيك فى هذا ؟ ..

ولكى يفلت سمولين من الاجابة ، راح يضحك ضحكا عاليا ، وان كان ضحكا باردا لا حرارة فيه ولا مبالاة ، كالذى يقول : الى حيث ألقى ! ثم يقول أخيرا :

وقد سرت رعشة فى جسم ماياكين عندما صك أذنيه ضحك سمولين ... ثم اذا هو يأخذه الوجوم من حيث لا يشعر

وتمضى لحظات وقد لاذوا جميعا بالصمت

ثم يقول ماياكين دون أن يرفع رأسه :

- أجل ... لقد آن أن نفكر فى ذلك .. لقد آن أن أفكر - أنا -

فى ذلك !

ثم يرفع الرجل رأسه ، ويحدق تحديقا شديدا فى ليوبا ثم فى سمولين .. وينهض واقفا ، ويقول متجهما :

- سأترككما وشأنكما لحظة .. فلدى شغل يجب أن أنجزه فى

غرفة المكتب .

ويتركهما بالفعل .. ثم يخرج ، ورأسه منكس .. وكتفاه

مرتخيتان .. وهو يجر قدميه جرا ...

ويحاول الفتى والفتاة أن يتحدثا بشيء بعد خروجه ... الا أن المحاولة لم تكن تزيدهما الا ربكة .. ومن ثمّة فلم ينيسا بكلمة .. وسادهما صمت يشوبه الارتباك والحرج ، ومدت ليوبا يدها فتناولت برتقالة ركزت كل انتباهها فى تقشيرها ، أما سمولين فقد جعل ينظر الى شاربه ، ثم اذا هو يمد يده اليسرى ليسويه فى عناية ورقق ، ويتناول بيده اليمنى سكيناً ويشرع فى تقطيعه واللعب به .

ويمزق هذا الصمت بقوله لليوبا :

- معذرة عما وقعت فيه من عدم اللياقة ... ولكن ... لعلك لا تنكرين أنك تجدين فى المعيشة مع والدك شيئاً من الصعوبة والمشقة ... انه - كما يبدو لى - من رجال المدرسة القديمة - وأخشى أن أقول : الدقة القديمة ، ان لم يضرك أن أقول هذا ، أو أن أقول انه صلب الرأى فيه قساوة !

وأفزعت ليوبا صراحة هذا الرجل الصغير ذى الشعر الاحمر ، وأنشأت تنظر اليه نظرة كلها سرور ورضا وامتنان عظيم ، ثم قالت وكأنها توافق على ما يقول :

- ان المعيشة هنا صعبة وشاقة بالفعل ... الا اننى اعتدتها .. ثم ... ان له آراءه السديدة مع ذلك .

- أوه .. هذا ما لا يرقى اليه الشك ... ولكنك .. أنت ! أنت الفتاة الصغيرة .. الشديدة الجاذبية .. المهذبة الواسعة الثقافة ... التى لها آراؤها الخاصة فى الحياة ...

لقد كانت ابتساماته لها تفيض حناناً وعطفاً ، كما يفيض صوته رقة ولطفاً ، مما جعل قلبها يمتلىء بالدفء ، ومما زاد خيط السعادة الباهت الذى تشبثت نفسها به بريقاً ولمعانا .



## الفصل الثاني عشر

كان فوما جالسا مع بيزهوف فى غرفته وهو يصغى الى ما كان يقص عليه من الشائعات التى تلوکها ألسن الناس فى المدينة .  
وكان بيزهوف جالسا فوق منضدة حافلة بالصحف ، وقد راح يمرجح رجليه فى نشاط وخفة ، وهو يقول :

— لقد بدأت الحملة الانتخابية . وقد رشح التجار اشبينك . . .  
السوسة العجوز . . . انه رجل مستعص على الموت . . . ولا يد أن يبلغ المائة والخمسين من العمر . . . وسيزوج ابنته سمولين — هل تتذكره . . . هو هذا الغلام ذو الرأس الأحمر . . . انهم يقولون انه شاب مهذب دمت . . . وهذا هو شأنهم فى تسمية كل شخص أوتى شيئا من الذكاء شخصا مهذبا دمت الأخلاق ، حتى لو كان غدا لثيما . . . لأن الناس اليوم ليس فيهم من هو مهذب دمت الأخلاق .  
وأفريكان سمولين يتظاهر بأنه أحد الأذكياء المستنيرين — لقد شق طريقه بالفعل فى أوساط ذوى العقول الراجعة ، وهو يجنّب اليه الانظار . . . ان نظراته تشف عن أنه تصاب من الدرجة الاولى ، الا أنه واثق من نجاحه فى هذه الحياة لأنه وصولى ، ويعرف كيف يحقق ما يصبو اليه من فجاح . . . أجل يا صديقى . . . ان أفريكان سمولين رجل من حزب الأحرار ، والتاجر المتحرر مزيج من الذئب والخنزير .

ويقول فوما وهو يلوح بيده :

- الى جهنم هو وغيره . . . ماذا يعينى امره ؟ انك تشرب بسراهرة  
كعادتك !

- ولم لا ؟

لقد كان منظر ييزهوف ، هذا القمىء الأشعث شبه العارى ،  
كمنظر الديك المنتوف الريش الذى خاض معركة قتالة ولم يهدأ  
من حرها بعد

- اننى أشرب لانه من الضرورى أن أطفىء ظمأ روحى المتأجج  
من حين الى حين . أما أنت - يا كتلة الحشب المبللة - أفلا تزال  
تدخن ولم تنطفىء بعد ؟

وغمز فوماً بعينيه ثم قال :

- لا بد لى من الذهاب لزيارة هذا العجوز .

- خذ النور من قرنيه !

- اننى أشعر كأنى لا أستطيع هذا !

- اذن . . . فلا تذهب

- ولكن هذا واجب

- اذن . . . فاذهب ولا بد أن تأخذه من قرنيه

- أوه . . . بالله عليك أقلع عن هذا المزاح . . . فالموضوع لا يمكن  
أن يكون من الموضوعات التى تسر أحدا

ويشب ييزهوف من فوق المنضدة متحمسا وهو يقول :

- بل أنا أجد فيه متعة أية متعة . . . ألم تقرأ فى عدد أمس كيف  
مزقت لحم شخصية من أهم شخصيات المدينة. وفرمتها فرما ؟ . . .

وفضلا عن هذا ، فقد سمعت نكتة طريفة ممتعة ٠٠ اسمع يا سيدى :  
جلس جماعة من الناس عند شاطئ البحر حيث أخذوا يفلسفون  
ويتحدثون عن الحياة ، واذا يهودى يوقف الحديث فجأة ليقول  
( مألثا كلامه بالشيينات بدل السينات والثاءات ) : أيها الشادة •  
لماذا هذا الاشراف فى الكلام عن الحياة ؟ بوشعى أن ألخس الموضوع  
كله فى كلمة واحدة ٠٠٠ انها لا تشوى كوبكا واحدا ٠٠٠ لا تشوى  
أكثر من هذا البحر ٠٠٠

ويقاطعه فوما قائلا :

- حسبك ٠٠٠ ووداعا

- مع السلامة ٠٠٠ الطريق الذى يؤدى ٠٠ أنا مزاجى اليوم  
رائق ، وليس لى دماغ لسماع زمجراتك ٠٠٠ وبخاصة مذ أبدلت  
بزمجراتك هذه الوحوات التى تشبه قباج الحنازير •

وانصرف فوما ٠٠ وغادر ييزهوف وهو يغنى بأعلى صوته :  
خذ طبلك معك ولا تخف ٠٠٠

ولما سمع فوما هذا البيت همس فى نفسه : انك أنت نفسك  
الطبل •

وكانت ليوبيا هى التى لقيته فى منزل والدها ٠٠٠ فقد ظهرت  
إنامه فجأة ، وفى حال من الدهشة الشديدة :  
وقالت :

- أنت ! يا لله ! وما هذا النحول وما تلك الصفرة ٠٠٠ الظاهر  
انك تعتنى بنفسك عناية كبيرة •

ثم يبدو عليها شىء من الذعر ، وعادت تقول هامسة :  
- أوه ٠٠ فوما ! ألم يبلغك ؟ اليوم - من ؟ ألم تسمع ؟ انه الجرس  
- ربما يكون هو •

وخرجت مسرعة ٠٠٠ تاركة من ورائها : حفيف ثوبها الحريري ،  
فوما الذى لم يجد فرصة ليسألها حتى : ٠٠ هل أبوها موجود ؟  
ولقد كان أبوها بالمتزل قعلا ٠٠٠ بل كان واقفا بالباب وقد أمسك  
مصراعيه بذراعيه المفرودين على طولهما ، وهو لابس فراكه  
الفضفاض الضافى ، وعلى صدره جميع نياشينه وأنواطه ، وجعل  
يحملق فى فوما بعينه الخضراوين الصغيرتين • ولم يكده يدرك فوما  
وجود العجوز الداهية حتى رفع رأسه ، وهنا أنشأ ماياكين يحييه  
بلهجة فيها من التبكيت ما فيها :

- كيف الأحوال أيها السيد الظريف ؟ ، ومن أين أتيت ياترى ؟  
ومن ذا الذى كان يمتص دمك ، أو أن الخنازير - على حد المثل -  
مهما أحببت القنارة اغتسلت ولو بقارة (١) ؟  
ويقول له فوما مقطبا :

- هل هذا هو كل ما عندك مما أردت أن تقوله لى ؟

ثم يلاحظ أن العجوز قد فوجيء بشيء ، لم يكن ينتظره ، وأن  
رجليه أخذتا ترتجفان ، وأنه يشدد قبضته على كتف الباب ، فى  
حين أخذت عيناه تطرفان • ويخطو فوما نحوه خطوة ، طانا أن  
بالرجل شيئا من الوعكة ، الا أن ماياكين ينحيه جانبا وهو يقول  
بشيء من الغلظة :

- اليك عنى - تنح ٠٠

ويتراجع فوما ، ويجد نفسه واقفا الى جانب شاب ربعة قليل  
الجسم ، كان منحنيا ليحيى ماياكين قائلا :

- كيف الحال يا والدى !

---

(١) المقارة : القطعة من الخبز السوداء

ويجيئه العجوز وقد أمال رأسه قليلا ، وشفته تنفرجان عن ابتسامة لينة :

- كيف حالك أنت ، تاراس ياكوفلفتش ٠٠ كيف حالك ٠  
لقد كانت رجلاه ترتجفان من هول المفاجأة ، ولذلك كان امساكه  
بالباب وامساكه اياه بشدة ، خشية أن يقع ٠  
وتنحى فوما مرة أخرى ثم جلس وقد تولاه العجب ٠

وأخذ جسم ماياكين الواهن الواهي يتمايل الى الأمام مرة والى الخلف مرة أخرى ، وهو منتصب الرأس مع ذاك ، يحدق عينيه فى ولده ، دون أن يتكلم ٠ وكان ابنه يقف أمامه شامخا ، وقد انتشر حاجباه فوق عينيه الكبيرتين السوداوين ٠ لقد كان له وجه أبيض النجيل وأنفه الكبير ، وكانت له لحية تنتهى بعثنون ، وشارب صغير أسود كان يختلج فى تلك الآونة ٠ وكانت ليوبيا تقف خلف فوما ، فلما رفع رأسه لمح وجهها الشاحب المذعور ، وهى تنظر الى أبيها نظرات كلها رجاء وكلها توسل ، والدموع تكاد تنهمر من عينيها ٠٠٠ لقد كانوا جميعا فى غمرة من المشاعر المختلفة التى أمسكت ألسنتهم ، فلم يجدوا الى الكلام سبيلا ، بل لم يكونوا يأتون معها بحركة ٠٠٠

ثم مزق ماياكين هذا الصمت آخر الأمر بصوته الساكن الذى لم يكن يعرف الهدوء قط ، وهو يقول :

- لقد أدركتك الشيخوخة يا تاراس !

وضحك ابنه ضحكة خفيفة ثم راح يرسل نظراته السريعة الى والده ، تأخذه من أعلى رأسه الى أخصر قدميه ٠

وترك الرجل كتف الباب التى كان يمسك بها ، ثم تقدم الى ابنه خطوات ، لكنه توقف فجأة ، وعلت وجهه عبوسة عجيبة ٠٠٠ ولمس لاحظ تاراس ذلك ، تقدم هو ، وبسط يده الى أبيه ٠

وقال ماياكين بصوت ناعم :

« حسن جدا ٠٠٠ هلم ٠٠ وليقبل أحدا الآخر »



وتعانقا عناقا مثيرا ، وأخذ كل منهما يقبل الآخر قبلا ت حارة

، وتعانقا عناقا مثيرا ، وأخذ كل منهما يقبل الآخر قبلات حارة...  
ثم انفصلا ... وكانت غضون ماياكين ترقص كعادتها ، أما وجهه  
تاراس فكان هادئا رابط الجأش ، بل يكاد يكون جامدا ، في حين  
كانت ليوبا تنشج تنشيجا سعيدا . وفي حين كان فوما يجلس في  
كرسيه متمللا ... لا يكاد يجد أنفاسه !

وأخذ ماياكين ينشج بصوت حزين يفيض أسى ويقول :

« أيها الاولاد : ان ماتفيض به قلوبنا ليس من حبور ولا ابتهاج ..  
بل هو مما بها من هذا السرطان الذي يجعلها نخرة »

وكان ماياكين قد تخفف مما كان يجثم على صدره ويثقل على روحه  
وهو ينفض أشجانه في هذه الكلمات ... اذ لم يكده يفرغ من قوله  
حتى أخذ وجهه يفيض بالبشر ، وأخذ جسمه يدب فيه النشاط ،  
وتشيع فيه الحركة ، ثم قال لابنته في لهجة عذبة :

« طبعاً ... من مثلك اليوم ؟ من لقي أحبابه ، نسي أصحابه !  
هيا ... أعدى المائة لكي تقدم شيئا الى هذا الابن الضال .

ثم يتوجه بحديثه الى تاراس فيقول :

« الراجح انك نسيت شكل أبيك يا تاراس ، أليس كذلك أيها  
العجوز ؟

وكان تاراس ماياكين يلبس ملابس سوداء كلها ، وكان الشيب  
المنتشر في شعر رأسه وشعر لحيته يتلاها لهذا السبب بشكل  
واضح يسترعى النظر ، فلما قال له أبوه مقال لم يزد على أن تبسم ،  
ولم يتكلم .

« حسن .. اجلس اذن وقص علينا قصة حياتك ، وماذا  
كنت تصنع خلال هذه السنين الطويلة ، ثم ما آمالك في المستقبل ..

هذا هو ابني الروحي .. ابن اجنات جورديف .. هل تتذكر  
اجنات ؟

« أتذكر كل شيء »

« حسن .. ان لم يكن قولك هذا تباهايا ! هل أنت متزوج ؟

« لقد ماتت زوجتي .

« ألك أولاد ؟

« لقد ماتوا .. كان لي ابنان

« وأسفاه ! كم كنت أتمنى أن يكون لي حفدة

« أتأذن لي بأن أدخن ؟

« ولم لا ..؟ هيا .. » « سيجار »

« ان لم يكن لك اعتراض

« أبدا أبدا .. هذا كله عندي سواء .. ان ما كنت أ .. ان ما

كنت أقصده .. هو أن تدخين السيجار من دأب الارستقراط ؟

وأنا لم أقلها الا .. الا على سبيل النكتة .. شاب رزين عجوز

منلك ، بهذه الشوارب ذات القطة الاجنبية .. وقد أمسك السيجار

بين أسنانه .. ثم ابن من ؟ ابن ماياكين .. هي هي .. هي !

ثم راح يضرب ابنه فوق كتفه وهو يضحك .. الا أنه يتوقف

عن ذلك كله فجأة ، كأنما أدركه شيء من الاحتشام .. أو الخوف ..

لقد أخذ يسائل نفسه .. هل كان قد تعجل الى اظهار الابتهاج

بأسرع مما ينبغي ؟ وهل كانت هذه هي الطريقة التي يلاقى بها هذا

الابن ذا الشعر الاشيب ؟ لقد راح ينظر متشككا فى عينى ابنه

السوداوين اللتين كانتا تلمعان فوق نفاختى خديه الاصفرين ..

حتى لم يسع تاراس الا أن يبتسم ابتسامة لطيفة ، وهو يقول لابييه :

« هذا بالضبط هو ماكنت أذكرك به .. المرح ، والحيوية .. ان

السنين لم تغير منك شيئا قط .



وشد ما ياكين كتفيه فى زهو وخيلاء ، ثم دق صدره بقبضته  
تباهايا وقال :

« وهى لن تغير منى شيئا ٠٠ لان الحياة لاسلطان لها على من يقدر  
نسه قدرها

« أو هو ٠٠ يالك من رجل ذى كبرياء

ويجييه أبوه متثعلبا :

« كيف لا ؟ يجب أن أفتدى بابنى ٠٠٠ ابنى هذا المتكبر الاكبر  
لنى لم يكتب الى حرفا واحدا طوال سبعة عشر عاما !

« هذا لان أباه لم يكن يحب أن يقرأ منه حرفا واحدا

« دعنا من هذا ٠٠٠ فانه وحده يعلم من الملوم ٠٠ وهو ، بسامى  
كتمته ، سيدلك يوما ما ٠٠ وليس هذا أوان الكلام فى مثل تلك  
لامور ٠٠ انما أريد الآن أن تحدثنى عما كنت تفعل كل هذه السنين ،  
كيف التحقت بالعمل فى مصانع الصودا ٠٠ ثم كيف شققت سبيلك  
فى الحياة ٠

وزفر تاراس قائلا :

« هذه قصة يطول شرحها ٠

وبعد أن أخذ من سيجاره نفسا طويلا ونفثه فى الهواء مرة واحدة،  
محدثا ضبابة كبيرة من الدخان شرع يقول :

« عندما أطلقوا سراحي ذهبت للعمل فى مناجم الذهب - التابعة  
لاخوان زمزوف ٠

« أعرفهم ٠٠ انهم اخوة ثلاثة ، أحدهم أعرج ، وثانيهم مغفل ،  
وثالثهم بخيل مغلول اليد ٠٠٠

« وهذا الثالث هو الذى اشتغلت عنده لمدة عامين ، وقد تزوجت ابنته فى نهايتهما

» « بديع .. مرحى مرحى .. »

وهنا ، استغرق تاراس فى شبيه غيبوبة ، وراح والده يتفحص وجهه الحزين الشاحب بنظرات عميقة ، ثم يقول :

« ألاحظ أنك كنت تحبها حبا شديدا - هذا مالا يد لنا فيه ... ان الموتى يصعدون الى السماء ... ويبقى الذين لم يموتوا لكى تظل العجلة تدور ... على أنك لايزال فيك اللمع بعد ... وهل أنت أرمل منذ زمن طويل ؟

» من أكثر من عامين

» وكيف التحقت بمصانع الصودا ؟

» انها كانت ملكا لصهرى

» أوه .. وكم كان يدفع لك ؟

» حوالى خمسة آلاف روبل

» لقمة طيبة ! اهم - ومن هنا تلك الجريمة التى حكم عليك من أجلها بالاشغال الشاقة ؟

وهنا رمق تاراس والده بنظرة مثثلجة ، ثم سأل بجفاء :

» على فكرة .. ومن أين لك أننى حكم على بالاشغال الشاقة ؟

وهنا لاح شيء من الذهول على وجه يماكين .. ثم لم يلبث أن حلت محله اشراقة من الفرح :

» عجباً ! ألم يحكم عليك بالاشغال الشاقة اذن ؟ ... حمدا لله !

ولكن ، كيف حدث هذا ؟ أرجو ألا يسوءك شيء .. ثم كيف كان

يمكن أن أعرف الحقيقة ؟ لقد قيل أنك أرسلت الى سيبريا ..

والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة هم الذين يرسل بهم اليها

وبدا التآثر على وجه تاراس ، وشرع يقول وهو يضرب بيده على ركبته :

- اذن .. فيحسن وضع حد لهذه الاقاويل .. وسأذكر لك ما كان من ذلك بالضبط .. لقد نفيت الى سيبريا حيث قضيت بها ست سنوات ، وحيث قضيتها جميعا فى مناجم الذهب على ضفافه نهر ليئا ، وقد قضيت فى السجن تسعة أشهر فى مدينة موسكو .. وهذا هو كل ما هنالك .

ويتمتم ماياكين ، وقد انشرح صدره ، وان شعر ببركة :

- مفهوم .. ولكن من أين اذن تلك ال ٠٠٠ ؟

فيزوم تاراس قائلا :

- من أين كل تلك الشائعات الحمقاء التى تناقلتها ألسن السوء عندكم ؟

ويقول ماياكين وقد بدا عليه التألم :

- حقيقة .. لقد كانت شائعات حمقاء .

- وقد جرت على ضررا كبيرا .

- هل حدث هذا حقا ؟

الله حدث .. لقد كنت وقتها قد بدأت أتسلم عملي ..

\*\*\*

لقد كان فوما منزويا فى مقعده ذاك وهو يرقب الرجلين ، ويستمع الى حديثهما فى ريبة وقلق ، وهو يتفحص ماياكين الشاب .. وكان موقف ليوبا من أخيها ، ذلك الموقف الذى كان يستند الى ما كانت ألسنة السوء تشيعه عن ألوان نشاطه وهو بعيد عن أبيه .. كان

هذا الموقف هو الذى جعل فوما يعد تاراس شخصا شاذا لا يمكن بحال أن يكون له مثيل بين الأشخاص العاديين . . لقد كان يظن أن شخص له طريقتة الخاصة فى الحديث ، وله أسلوبه الخاص فى الملابس . . وله بوجه الاجمال طريقتة الخاصة فى كل شيء . . مما يجعله مختلفا عن الناس فى جميع أحوالهم . . ولكن . . ها هو ذا يرى أمامه شخصا يدل مظهره على أنه واحد من رجال الأعمال الناجحة . . رجل أنيق فى ملبسه . . لا يكاد يختلف عن أبيه فى شيء الا فى هذا السيجار الذى فى فمه . وهو يتحدث أحاديث عادية ، ولكن فى عبارات أنيقة وأسلوب المستيقن المتحقق . فماذا كان فيه مما يعد شذوذا ؟ . . لقد شرع يحدث أباه عما يمكن أن تغله تجارة الصودا من أرباح . انه لم يحكم عليه بالأشغال الشاقة قط - لقد استنتجت ليوبا ذلك . . واستيقنته الساعة فحسب .

وكانت ليوبا لا تنفك فى حركة دائبة ، وكان وجهها مشرقا يفيض بهجة ، ولم تكن تحول عينيها مطلقا عن تاراس الذى كان يلبس معظفا محلى بالفرو ، مصنوعا من قماش راق شديد السواد ، ذا أزرّة كبيرة وجيوب فى كلا جانبيه . لقد كانت تمشى على أطراف أصابعها ، ثم لا تنى تمد عنقها نحوه . وكان فوما ينظر اليها ممعنا ، لكنها كانت لا تكاد تلقى بالها اليه ، وهى تحمل الأطباق والزجاجات مهربولة من الباب الى المائدة ومن المائدة الى الباب .

وحدث أنها كانت داخله فى اللحظة التى كان تاراس يتحدث فيها الى أبيه عن موضوع منفاه ، فوقفت مسمرة فى مكانها ، والصينية فى يديها الممدوتين ، تصغى الى كل كلمة يقولها تاراس واصفا ما لاقاه فى منفاه ، حتى اذا فرغ من حديثه ، استدارت وانصرفت فى ببطء ، دون أن تلاحظ تلك النظرة الساخرة التى كان يحدثها بها فوما .

ولقد كان فوما موزع الفكر بين تاراس . وبين ما لقيه من اهمال

هؤلاء له جميعا ٠٠ حتى لقد انصرف ذهنه عن متابعة حديث تاراس قليلا ، ولم يعد الى وعيه الا حينما أحس فجأة بأن يدا تضرب على كتفه ، مما جعله يجفل ، ثم ينهض واقفا على قدميه ٠٠ وذلك أمر كاد يربك اشبيينه :

- أرأيت ! ها هو ذا أحد أفراد أسرة ماياكين ، فاتخذته مثالا ! لقد غلوه فى سبع بواتق خرج منها كلها حيا وغنيا ٠٠ فهل يمكنك أن تستخلص لك عظة من ذلك ؟ لقد شق طريقه فى الحياة بنفسه ، دون أن يستعين بأحد أو يطلب المساعدة من مخلوق ٠٠ وهذا هو ما يعنيه كون الانسان من أولاد ماياكين ! ان الرجل من أسرة ماياكين يقبض على مستقبله بيديه ٠٠ فهل تفهم ذلك ؟ استخلص لنفسك درسا من تاراس ٠٠ واذا لم تجد له مثيلا فى مائة من الرجال ، فأبحث عن مثيله فى ألف رجل ٠ ان الفرد من أسرة ماياكين يظل رجلا الى الأبد مهما ألم به من الأحداث ٠٠ وأية قوة فى هذه الدنيا لا يمكن أن تنال منه أو تجعل منه اما قديسا ، واما « ابليس » ٠٠ وأرجو ألا تنسى ذلك أبدا ٠٠

ولم يدر فوما ما يقول ٠٠ فقد بهته هذه العبارات التى تفيض فخرا وكبرا ، والتى لم يكن ينتظر أن يتيه بها هذا الرجل زهوا ودلالا ٠ ولمح ابتسامة ترف على ركن من فم تاراس وهو يدخن سيجاره فى هدوء ، وينظر الى أبيه ، لقد كان وجهه يتسم بسمة الرضا والنشامخ ، ومظاهر الكبر والاستعلاء تكسو شخصيته كلها ٠٠ والظاهر أن سرور أبيه بما سمعه منه كان يملؤه هو أيضا سرورا ومتمعة ٠

وواصل ماياكين حديثه الى فوما فقال ، وهو لا ينى يلكمه بيده بالعاجزة الموهونة فى صدره :

- اننى لا أعرف ابنى ٠٠ ابنى أنا الذى من صلبى ٠٠ انه لم

يطلعنى على خفايا صدره بعد ٠٠ وربما تكون بيننا هوة لا يستطيع  
النسر أن يحلق فوقها ، ولا الجن أن يتخطاها ٠٠ وربما كان دمه قد  
طال به الغليان فى دار الغربية حتى لم تبق فيه رائحة من دم أبيه  
٠٠ ومع هذا ٠٠ فقد ظل فردا من سلالة ماياكين ٠٠ وقد أدركت  
ذلك على الفور ، وتحققته ، وقلت لفسى : حمدا لله ٠٠ حمدا لك  
يا الهى ٠٠. الآن أستطيع أن أترك هذه الدنيا لاكون بين يديك ٠٠  
مطمئنا ، هادىء البال .

لقد كان العجوز يرتجف ارتجافا شديدا حتى خيل لفسوما أنه  
يرقص ، وهب تاراس مسرعا لنجدته وهو يقول له :

- تفضل يا أبى ٠٠ تفضل ٠٠ هدىء من نفسك ٠٠ هلم  
فلنجلس ٠٠

ثم ابتسم لفسوما عرضا ، وسار بأبيه نحو المائدة .  
ولم يكدم ماياكين يستريح حتى أنشأ يقول :

- اننى أومن بالدم . وكل ما فى الرجل من قوة هو فى دمه ٠٠  
لقد كان من عادة والدى أن يقول لى : ان دمي يتدفق فى عروقتك  
يا ياشا . ودماء عائلة ماياكين أثقل من أن تستخفها أية امرأة ٠٠  
فهلهم فلنشرب زجاجة من الشمبانيا على هذا يا أولاد ٠٠ هل هناك  
مانع ؟ ٠٠ وبعد هذا تذكر لى كل شىء - كل ما حدث لك - قل لى  
٠٠ كيف تجرى الأمور فى سيبيريا !

ويعود ماياكين فتبدو عليه مرة أخرى أمارات القلق والتفكير  
العميق وهو يحملق فى ولده بشدة ٠٠ ولكن تاراس لا يكاد يرسل  
اجاباته الجازمة المطمئنة حتى يفرق أبوه فى نشوة جديدة من الجدل  
والابتهاج . وكان فوسا يرمق ذلك كله وينصت اليهما من الركن  
الذى كان جالسا فيه ساكنا لا يتحرك .

ويأخذ تاراس فى حديثه بهدوء وفى رزانة فيقول :

- الشائع بين الناس أن استخراج الذهب من مناجمه عمل يسير لا يكلف شيئاً ، والحقيقة أنه عمل محفوف بالكثير من المخاطر ، ويفتقر الى رأس مال كبير . والتجارة مع الأهالى تعود على التاجر بربح جم ، وهى تملأ جيوب التجار بأموال وافرة ، حتى لو لم تكن تجارة منظمة . انها على الدوام مشروع ناجح ، الا أنه متعب . وهى لا تحتاج الى كثير من الذكاء ، ولا تتيح فرصة لذوى المواهب الكبيرة لى يظهروا فيها مواهبهم . . .

ثم تحضر ليوبا وتدعوهم الى المائدة . فاذا خرج الرجل وابنه من الحجره أمسك فوما بكم ليوبا واستبقاها فى الحجره ، فتسأله مسرعة :

- ماذا تريد ؟

فيجيبها فوما مبتسما :

- فى منتهى السعادة .

- ولماذا . . . ؟

فتقول له وهى تنظر اليه متعجبة :

- يا لك من شخص مضحك ! ألا تستطيع أن تدرك ذلك من

نفسك . . . ؟

ويجيبها باحتقار :

- عجباً ! كأننا يمكن أن يرجى أى خير من أبيك أو من طبقه التجار جميعاً ؟ ثم . . . انك قد كذبت على . لقد أخبرتنى أن تاراس هو كذا وكذا ، وأنه كيت وكيت ، فاذا هو تاجر عادى كبقية التجار ، وله بطن كبطونهم !

ويسره أن يراها قد اصطبغ وجهها بلون الدم ، ثم اذا هى تمتقع

فبييض وجهها ثانية ، ثم تعض شفثتها فى استياء ، ثم اذا هى تلهث  
وتقول :

- أنت .. أنت .. كيف تجرؤ على مخاطبتي هكذا ؟  
فاذا بلغت الباب استدارت له بوجه يغلى غضبا ، ثم قالت بصوت  
هادىء :

- أنت يا كاره البشر .. يا عدو الناس !  
ويضحك فوما .. !

انه لم يرد أن يجلس الى المائدة مع هؤلاء السعداء الثلاثة .. لقد  
كان يسمع أصواتهم المرححة وضحكهم الطافح بالسعادة ، كما كان  
يسمع قرقعة الاطباق ، فيدرك انه لا مكان بينهم لشخص مثله مثل  
القلب موزور النفس .. بل لا مكان له فى أى مكان مطلقا .. وبينما  
كان يقف وحده فى وسط الحجرة رأى أن يترك هذا المنزل لاصحابه  
الذين كانوا يقصفون . ولما خرج بالفعل ، وجد قلبه يضطرب  
بالسخط على هؤلاء الذين عاملوه هذه المعاملة .. على أنهم بعد هذا  
كله ، وقبل هذا كله .. كانوا لا يزالون أقرب الناس اليه فى هذه  
الدنيا ..

وأخذ ينظر بعين خياله الى وجه اشمينه بغضونه المرتعشة وعينيه  
الخضراوين وهما تلمعان مسرورتين ، كما أخذ يتمثل هذا العجوز  
كنلة من الحشيب فاسدة ، جعلها السوس نخرة ، وهى تتأجج فى  
الظلام .. ثم لا يلبث أن يتمثل وجه تاراس ، هذا الوجه الهادىء  
الجاد ، ويتمثل جسم ليوبا وهو مشدود نحوه .. فاذا هو يحزن  
ويحقد ..

وراح يسائل نفسه : كيف يستطيع أحد أن ينظر اليه بتلك  
الطريقة .. ؟

وكانت الجلبة التى تحدثها حركة المرافىء على ضفة النهر قد



ردته الى كامل وعيه . . لقد كان الناس حوله في كل مكان يشحنون  
السفن بالبضائع ويفرغونها منها بحركات سريعة قلقة ، وبعضهم  
يحث الجيول ، وبعضهم يصيح ببعض آخر بأصوات مهتاجة ، مالمين  
الشارع بجلبة فارغة تغطي على حركة العمل . لقد كانوا يجيئون  
ويروحون في شارع ضيق مبلط بالحجارة قامت المباني العالية على  
أحد جانبيه ، وانحدرت ضفة النهر تحت جانبها الآخر . . وقد  
خيل لفرما أنهم انما يفكرون في الهرب من عملهم الى ذلك الشارع  
القدر المزدحم ، وأنهم يتعجلون الفراغ من أعمالهم التي تعوقهم هكذا  
حتى يستطيعوا الهرب بأسرع ما يستطيعون .

وكانت بواخر ضخمة ترسل الدخان الكثيف من مداخنها الكبيرة،  
وقد رست في انتظارهم قرب الشاطئ ؛ وكانت مياه النهر العكرة،  
المتلثة بالسفن والصنادل من كل نوع ، لا تنى تضرب الشاطئ  
بأصوات مشجية ، كأنها تتمنى لوساد الهدوء والسكينة لحظات !

ومرت دقائق كانت الانغام السعيدة التي ترسلها أغنية يتغنى  
بها العمال . . أغنية « دو بنشكا » . . تأتي خلالها من أحد المرافىء .  
لقد كان متعهدو شحن السفن وتفرغها يقومون بمجهود متواصل  
مستعجل ، وكان الشغالة يثبون على نغمات الاغنية ، فيربطونها  
بنغمات حركاتهم .

فاذا أنشدت المغنى :

في الحانة يجتمع التجر

ظرفاء ترويهم خمـر

رد عليه الباؤون من أعماق قلوبهم :  
أو ! دو بنشكا ! هيا ، تعالى

فاذا أصوات خفيضة ترسل أنغامها القوية في الهواء :

ها هي تأتي .. ها هي تأتي ..

فتردد الاصوات الصادحة أصداء هذه الكلمات نفسها :

ها هي تأتي .. ها هي تأتي ..

ووقف فوما يصغى الى الاغنية لحظة ، ثم قصد الى المرفأ الذي  
تجىء منه . حيث وجد الشغالة قد اصطفوا صفيين وهم يجرون  
برميلين كبيرين من داخل عنبر احدى السفن . وكانوا يلبسون  
قمصانا قدرة ، مفتوحة الصدور ، وأيديهم في قفازات بلا أصابع ،  
وأذرعهم عارية الى الكوعين ، وقد وقفوا عند مدخل العنبر يشدون  
الحبال بطريقة مرحة تفيض دعابة وأخوة ، محافظين على أنغام الاغنية،  
وقد انطلق صوت المغنى الاصلى المحجوب عن الاُنظار من داخل  
العنبر ضاحكا ، وهو يغنى فى الوقت نفسه :

أما نحن الشغالة فى تلك السفن

فظماء لا نملك للخمرة من ثمن !

فيرد عليه الشغالة جميعا وبصوت واحد مدو :

أو .. دو بنشكا ! هيا تعالى ..

وكان غناؤهم يقع من نفس فوما موقع الموسيقى العذبة المنسجمة،  
وسره أن يقف للملاحظتهم . لقد كانت وجوه الشغالة القذرة طافحة  
بمع ذاك بالبشر ، وكان العمل سهلا لينا لا تعقيد فيه ، وكان قائد  
الغناء يفيض الهاما ، حتى لقد حسن فى عينى فوما لو استطاع أن  
يشغل مع أمثال هؤلاء الرفاق على وقع ذاك الغناء البديع ، وكم يكون  
جميلا سُرْب زجاجة من الفودكا بعد أن يكون الجهد قد نال منال  
منه ، ثم التهام طبق من حساء الكرنب صنعته تلك الفاسقة التي  
تطبخ الطعام لهؤلاء العمال .

وسمع فوما بعضهم يقول فى صوت أجش :

- ما أبدعهم من عمال فيفيضون نشاطا وحيوية ! ما أبدعهم !

فيلتفت ، ليرى رجلا سمينا منتفخ البطن ينقر على ألواح المرفأ  
بعضاه وهو يتفرج على الشغالة بعينيه الصغيرتين ، والعرق يتفرق  
فوق وجهه وعنقه ، وهو لا ينفك يمسحه بيده اليسرى ، ويتنفس  
أنفاسا لاهنة كأنه كان يتسلق جبلا

ورمقه فوما بنظرة جافة ، ثم أخذ يحدث نفسه :

- ان غيره من الناس يقومون بالعمل .. أما هو فيعرق لهم ! ولكن  
.. لعل أنا نفسي أردأ منه !

لقد كان كل طابع جديد يولد فيه أفكارا مضنية تزيده يقينا  
بفتاھتھ ، وكان يحس كأن كل شيء في الوجود ينطق بزجره  
والتثريب عليه ، وكان كل كلمة زجر له أو تثريب عليه صخرة يروح  
تحتها صدره .

وذهب في مساء ذلك اليوم نفسه الى منزل آل ماياكين . ولم  
يكن الرجل العجوز ثمة ، وكانت ليوبا وأخوها يتناولان الشاي  
في حجرة الأكل ، وقد سمع تاراس وهو في طريقه الى الحجرة يقول  
في صوت مبحوح أجش :

ولماذا يهتم أبونا بأمره ؟

.. ولم يكده فوما يظهر حتى لزم تاراس الصمت ، وأخذ يتفرس  
فيه ، في حين بدا الارتباك على ليوبا ، وان قالت له كأنها تعتذر :  
- أوه .. هل هو أنت ؟

وعندما كان فوما يأخذ مكانه كان يحدث نفسه قائلا :

- لقد كانا يتحدثان عنى .

وصرف تاراس نظره عن فوما ، ثم شرع يأخذ جلسة أخرى

تهيء له قدرا أوفى من الراحة ، ثم مضت لحظات من الصمت  
المكثوم جلبت الرضا لنفس فوما • ثم سألته ليوبا أخيرا :  
- أأست ذاهبا الى الحفلة ؟

- أى حفلة ؟

- ألم تعلم ؟ ان كونونوف ينزل مركبا جديدا الى الماء ، وستقام  
حفلة تدشين ، تعقبها رحلة الى أعلى الفولجا

- اننى لم أدع •

- انه لم يدع أحدا ، بل اكتفى بالاعلان عن ذلك فى البورصة  
بقوله وانه يسعده أن يشرفه من يشاء بالحضور •

- حسن •• وأنا لا يعنينى أن أذهب •

- صحيح ! لا تتعجل •• ان الشراب سيجرى هناك أنهارا ••

ثم رمقته ليوبا بنظرة شزراء ، فقال لها فوما :

- فى وسعى أن أشرب حتى أغيب عن وعيى •• ولكن على

حسابى أنا •

وهزت ليوبا رأسها هزة لها معناها ، وهى تقول :

- ألا أعرف أنا ذلك ! ••

وكان تاراس يلعب بملعقة شاي وهو يرمقهما بطريقة غير  
مباشرة •

وسألها فوما :

- أين السيد الوالد ؟

- ذهب الى المجلس حيث انعقد اجتماع لهيئة المديرين اليوم .  
الانتخابات ستجرى \*

- وهل سينتخب ؟

- طبعا \*

ويسود الصمت مرة أخرى . ويمضى تاراس فى شرب شايه  
جرعات كبيرة ، ثم يبتسم لآخته ، ويدفع كوبه نحوها دون أن  
يتكلم ، وتبتسم هى أيضا سعيدة محبورة ، وتأخذ الكوب فتغسله ،  
وتملؤه ، وتعيده الى أخيها ، ويكون وجهها قد تبدل من نظراته  
السعيدة أماراة من أمارات الجلد أقرب الى أن تكون تجهما .. وتقول  
بصوت هادىء مشوب بالوقار :

- هل يمكن أن نعود الى ما كنا نتحدث فيه ؟

ويجيبها تاراس باقتضاب :

- لا بأس \*

- أنت تقول .. وأنا لا أفهم عنك تماما .. لقد قلت انك اذا  
وجدت ذلك كله تفكيرا طوبويا .. وبالأحرى .. اذا كان مستحيلا  
أن .. نحلم .. فماذا اذن فى وسع انسان لا ترضيه الحياة أن  
يفعل ؟

ثم جعلت تنظر فى وجه أخيها نظرات هادئة كلها ترقب ، وراح  
هو يرمقها ثم يتململ فى كرسيه ، ثم ينغض رأسه ، ثم اذا هو  
يشرع فى حديث رزين كله يقين وثقة :

- اننا يجب أن نبحث عن السبب فى عدم رضا هذا الانسان  
عن الحياة . فلعل هذا السبب يكون ناشئا عن عجزه عن العمل ،  
أو عن فكرة خاطئة تراوده عن مقدرته الشخصية . ان غلطة معظم

الناس هي أنهم يتوهمون أنهم « أكفأ » مما هم حقيقة . والواقع أن ما يطلب من الانسان هو شيء طفيف جدا . فما عليه الا أن يتخير العمل الذي يكون في وسعه الاضطلاع به ، ثم يؤديه بعد ذلك على أحسن وجه يستطيع أن ينهض به . وإذا كان الانسان يحب العمل الذي يفوم به ، فإن أشق الأعمال يصبح حينئذ عملا نشائيا . والكرسى الذي يصب فيه صانعه كل ما أوتى من شغف بصناعته لا يمكن الا أن يكون كرسيا جيدا متينا جميلا . وهذا ينطبق على كل شيء . اقرئى سميلز . ألم تقرئيه . انه كتاب عظيم جدا . كتاب خير . . ثم اقرئى بعد ذلك لبك Lubbock وتذكرى دائما أنه لا يوجد شعب أكثر جدا في ميدان العمل من الشعب البريطاني ، وهذا يفسر لك نجاحهم الذي لا يدانيه نجاح في الميدان التجاري والصناعي . ان العمل عند البريطانيين يكاد يكون نظاما دينيا . والمستوى الثقافي عند أية أمة من الامم يتناسب دائما وحجم العمل . وكلما زادت ثقافة شعب من الشعوب ، وكلما توافرت له مطالبه بصورة كاملة قلت الحواجز التي تقف في سبيل ما يصبو اليه وراء تلك المطالب من مطالب أخرى . والسعادة كل السعادة هي في تحقيق كل ما يصبو اليه الفرد من طلبات . ومن ثم ترين أن سعادة الفرد انما تقوم على موقفه من العمل .

لقد كان تاراس ماياكين يسوق كلامه في أسلوب بطيء حتى ليظن من يسمعه انه يجد في الحديث ما يجهد . ولكن ليوبا كانت تستمع اليه بشغف ، وكأنها كانت آذانا مصغية تعد ما يخرج من فيه لآيء من الحكمة جديدة بأن تختزنها في قرارة روحها .  
وتسأله :

- وماذا اذا وجد انسان أن كل شيء كرهه تعافه النفس وتشمئز منه !

ويسألها فوما بدوره ، وفي هدوء أيضا . . ودون أن ينظر اليها :  
- أي شيء بخاصة ؟

- كل شيء - الأشغال ، الأعمال ، الناس . . . اذا رأى مثلا ان كل شيء كاذب . . . ملفق . . . مصطنع . . . ليس شغلا حقيقيا ، بل مجرد ملء فراغ ، ملء فراغ للروح . فبعض الناس يعمل ، وبعضهم لا يصنعون شيئا الا أن ينتفعوا بعرق غيرهم ويصدروا اليهم الأوامر ، ومع ذلك فهم يحصلون على جميع الربح . فبماذا تعلق ذلك ؟ .  
- لست أفهم ما تقصدين . . .

وهنا يقطع فوما حديثهما ، وقد أدرك ما اكتسى به وجه ليوبيا من نسجوب ، فيقول بلهجة سماخرة :  
- ألا تفهم ما تقصد ؟ اذن فلنعرض الموضوع على النحو التالي :

رجل يذهب الى عرض النهر فى مركب . مركب جيد . الا أن الماء شديد العمق تحته . . . فهنا ، اذا بدأ الخوف يدب فى قلب الرجل من عمق الماء وعكره ، فماذا تجديه متانة المركب ؟ انها لن تذهب بهذا الخوف من قلب الرجل .

والتفت تاراس نحو فوما غير مبال به . ثم جعل يتفرد فيه دون أن يتكلم ، وهو يديق طرف المنضدة بأصابعه دقا هيئا ليينا . وكانت ليوبيا تتلوى فى مقعدها قلقا متململة على حين كان بندول الساعة يعلن مضى الوقت فى دقات وانبة أشبه بأنفاس الزمن ، فيديق قلب فوما فى بطاء وثقل ، لانه كان يعلم أن أحدا من أهل المنزل لا يمنحه كلمة عطف فى الآونة التى تحيق به حيرته المؤلمة وعاد يقول : وكأنه كان يحدث نفسه أكثر مما كان يحدثهما :

- ليس العمل هو كل ما يفتقر اليه الانسان ، وليس صحيحا أن العمل يبرر كل شيء . وبعض الناس لا يقومون بأى عمل صغر أو كبر طوال حياتهم ، ومع ذلك فهم يعيشون خيرا مما يعيش من يعملون ويكدحون . فكيف تعلق ذلك ؟ ان عمالك ما هم الا مجرد عربات كارو بائسة ، يسوقهم غيرهم فيمثلون . . . وهذا

هو كل شيء • انهم مبرعون من الذنب عند ربهم • وأنت ان سألتهم ما غرضكم من الحياة ؟ أجاوبك : اننا لا نملك من الوقت ما نجيبك عن هذا السؤال • اننا نكدح طوال حياتنا ، ولكن • بماذا أبرر أذ عيتنى فى هذه الدنيا ؟ وبماذا يبرر حياتهم أولئك الذين لا يعملون أى شيء اللهم الا أن يصدرنا أوامرهم الى من حولهم ، ليقوموا عنهم بعبء عملهم ؟ لأى شيء يعيشون ؟ يبدو لى أن كل انسان يجب أن يعرف بالضبط الغرض الذى يعيش من أجله •

وتوقف عن الكلام قليلا ، ثم مال برأسه الى الوراء ، وأنشأ يقول بصوت عال :

- هل يمكن أن يقال ان الانسان لم يخلق الا ليعمل ؟ ليجمع مالا ؟ ليبنى بيتا ؟ ليربى أولادا ؟ ثم ليموت ؟ لماذا يعيش الانسان ؟ لقد آن أن نجد جواب هذا السؤال •• آن لنا أن نعرف • ان الحياة التى نحياها خالية من الهدف ، وليس فيها أية مساواة •• وهذا واضح بين لا يخفى على أحد • ان بعضنا غنى مسرف الغنى ، يكفى ما يملكه ألف شخص ، وهو مع ذلك لا يقوم بعمل ما ، فى حين يكدحون طوال حياتهم ويعرقون ، ومع ذلك فهم لا يدخرون كوبكا واحدا من عملهم ذلك • وبالرغم من هذا فليس ثمة فرق كبير بين هذا وذاك • وقد تجد بين الذين لا يملكون قميصا يوارى سوءاتهم من يفهم أمور هذه الدنيا خيرا مما يفهمها من يلبسون الحزوالديجاج ! »

وكان فوما متحمسا لما يقول حتى لكان فى امكانه أن يمضى فى حديثه طوال النهار لو لم يقطع عليه تاراس أقواله بدفعه كرسيه بعيدا عن المنضدة ثم نهوضه واقفا ، وهو يقول ويأخذ نفسا طويلا .

- كلا •• سُكرا •• لقد سمعت بما فيه الكفاية ••

ويهن فوما كتفيه وهو ينظر الى ليوبا بابتسامة متكلفة ، فتقول له :

- من أين لك مثل هذه الفلسفة ؟ »



ويجيئها فوما في صوت هادىء :

- ليست هذه فلسفة ٠٠ انها عقوبة ! وما عليك الا أن تفتحى عينيك وتنظري من حولك لترى أن مثل هذه الأفكار ستزحف الى رأسك من تلقاء نفسها !

ويقول تاراس وهو واقف يتأمل الساعة المعلقة على الحائط وقد أولى ظهره للمائدة :

- وعلى فكرة يا ليوبيا ٠٠ هل لاحظت يوما أن التشاؤم خلة غريبة تمام الغرابة على الجنس الانجلوسكسونى ؟ ٠٠ ان ما يسمونه تشاؤم بيرون وسويغت ليس شيئا الا استنكارا صارخا لأوجه النقص فى حياة البشر . أما هذا التشاؤم الأسود المتحلل فليس له أثر بين الانجليز .

ثم يلتفت نحو فوما فجأة ، وكأنه قد نسيه فيقول له وهو يضع يديه خلف ظهره ، ويشد ساقه :

- انك تثير قضايا مهمة ، وان سماها بعض الناس قضايا صبيانية ، فاذا شغلتك وألحت عليك كثيرا فلا بد لك من قراءة الكتب ٠٠ انك تجد فى الكتب ملاحظات كثيرة ثمينة عن الحياة ٠٠ هل تقرأ ؟

ويجيئها فوما باقتضاب :

- كلا ٠٠ اننى لا أطيق القراءة .

ويقول له تاراس مبتسما ابتساما خاطفة وهو يضم شفثيه :

- ولكن الكتب يمكن أن تفيدك كثيرا .

ولكن فوما يجيئه مقظبا :

- ان كان الناس لا يستطيعون أن يساعدوني على التفكير السليم ،  
فالكاتب أشد عجزا منهم ولا بد .

لقد تعب فوما من طول ما تحدث الى هذا السيد العديم الاحساس ،  
وكان يتمنى لو ينصرف ، الا أنه كان في الوقت نفسه يريد أن يقول  
شيئا لليوبا عن أخيها فيه بعض السخرية به ، والتحدى لها ، ومن  
ثمة فقد انتظر رجاء أن ينصرف تاراس من الغرفة . وكانت ليوبا  
تغسل فناجيل الشاي ، وهي مستغرقة في الفكر ، ويداها تتحركان  
في فتور واسترخاء ، وكان تاراس يتمشى داخل الحجرة ؛ ثم وقف  
أمام الصوان الصيني المقدس بالفضيات ، وهو يصفر صغيرا خفيفا ،  
وينقر زجاج الصوان بأظافر أصابعه ، محملا في الآنية الفضية ،  
وقد رمقت ليوبا فوما بنظرة أو نظرتين كان يتبدى فيهما الاستهجان  
والترقب ، بل كانتا تشفان بصراحة عن عظيم سرورها لو تفضل  
حضرته فانصرف

وكانما لاحظ هو ذلك فقال وهو يبتسم :

- اننى سأفضى الليلة هنا ، لاني أريد أن أتحدث الى السيد  
الوالد ، فضلا عن ذلك ، فأنا أشعر بالوحشة في منزلى .  
وتقول له ليوبا مسرعة :  
- اذن فاذهب وأخبر مارفوشا لكي تعد لك سريرك في حجرة  
الناصية .

- حسن .

ونفض ثم غادر الحجرة ، ولم يكذ يتعدى بابها حتى سمع تاراس  
يوجه الى أخته سؤالا بصوت خفيض .

ودار في خلدته أنه يسألها عنه ، وسرعان ما جالت في خاطره  
فكرة شريرة : لماذا لا يتسمع ما يقوله هذان الأخوان الذكيان  
عنه ؟

من أجل هذا دخل الى غرفة الطعام المجاورة دون أن يحدث صوتا . وكان الظلام يسود أرجاءها الا شعاعا ضئيلة تنسرب اليها من شق في الباب الذى يصلها بحجرة الطعام الأولى ، ثم أمسك أنفاسه وهو يقف خلف باب الحجرة .

ويقول تاراس :

- هذه شخصية معقدة

وتجيبه ليوبا بصوت سريع منخفض :

- انه يحيا حياة بوهيمية ، ويسلك مسلكا فى منتهى الحماسة ، مسلكا شاذا لا يجيزه عقل . وقد بدأ هذا كله فجأة . وكان أول ما صدر منه أنه أعطى زوج ابنة وكيل المحافظ علاقة ساخنة . وقد أثار والدى الأرض والسماوات حتى يتحاشى الفضيحة . ومن حسن الحظ أن كان الرجل سبيى السمعة ، الا أن تلافى الفضيحة كلف الوالد بالرغم من ذلك أكثر من ألفى روبل ، وبينما كان أبى يبذل كل ما فى وسعه ليعفى على آثار هذا الحادث كان فوما يكاد يسلم للفرق فى نهر الفولجا جماعة بأسرها كانوا فى حفلة قاصفة معه !

- يا له من حيوان تعس ! ومع هذا فهو يستسلم للتأملات فى

الحياة !

- وفى مرة أخرى كان فى نزهة نهريّة مع طائفة ممن على شاكلته . ولما شربوا حتى غابوا عن وعيهم فاجأهم بقوله : صلوا على أنفسكم لانى سألقى بكم جميعا فى النهر . وهو شخص ذو قوة جنسانية فظيعة . فلما شرعوا يولولون ويتوسلون قال لهم : اننى انما أريد أن أؤدى لبلادى خدمة جليلة بتخليصها من أمثال هذه الحثالات ومن أمثالكم من الأوغاد !

- ظريف جدا !

- ثم هو شخص شنيع : وسيتولاك العجب لو عرفت جميع الحوادث المرعبة التي اقترفها في هذه السنين الاخيرة القليلة ، والاموال الطائلة التي بعثها !

- خبريني .. ما الشروط التي يدير له والدنا بموجبها اعماله ؛ هل تعرفينها ؟

- كلا .. لست أدري . ولكن ابانا يتولاها بالوصية لمجرد المحافظة عليها ، لماذا تسأل ؟

- أوه .. كنت أسأل بدافع العجب فحسب . انها عملية عظيمة ، وهى بالطبع منظمة تنظيما كريها ، وعلى الطريقة الروسية القديمة ، وبالرغم من هذا فهى عملية عظيمة لو وجدت من يوليها عناية جدية ..

- ان فوما لا يعمل شيئا على الاطلاق .. وكل شيء ملقى على عاتق الوالد .

- عجبا !

- ويبدو لي أحيانا أن نوبات الكآبة التي تجتاح فوما ، ثم هذه الخطب التي يلقيها .. كل ذلك صادر منه عن اخلاص وطيبة قلب ، وأنه يمكن أن يكون شخصا محتشما معتدلا الى آخر حدود الاحتشام والاعتدال . الا أنني لا أستطيع أن أوفق بين تلك الحياة البوهيمية التي يحيها والاشياء التي يقولها !

- ولا جدوى في محاولتك تلك .. فهو شخص كسول ، وقد نشيء تنشئة سيئة ، وهو على الدوام يحاول أن يجد مبررا لكسله ..

- ولكنه يكون أحيانا أشبه بـ .. أشبه بطفل برىء

- وهذا هو ما قلته بالضبط . . . نشيء تنشئة سسيئة . . . ومن  
اضاعة الوقت أن نشغل أنفسنا بشخص غبي جاهل متوحش لا يريد  
الآ أن يكون غيبا جاهلا متوحشا . لقد سمعته ! انه يحكم على  
الاشياء كهذا الدب الذى تروى الاساطير أنه كان يلوى النير ولكن  
حول عنقه !

- انك قاس شديد القسوة

- أنا قاس فعلا . . . والقسوة هى ما يحتاج اليه الناس . . . ونحن  
الروس جميعا قوم كسالى وفينا استرخاء شديد . ومن حسن حظنا  
أن سارت حياتنا فى طريق جديدة تجعلنا نشد ظهورنا سواء شئنا  
أو لم نشأ . ان الانغماس فى الأحلام لا يجدر الا بالولدان والصبايا  
. . . أما ذوو الجد من الناس فأمامهم عمل جدى يقومون به

- اننى أحيانا أشعر بالأسف الشديد نحو قوما . . . ترى . . .  
ماذا ينتهى اليه حاله ؟

- لا شئ على الاطلاق - لا خير ولا شر ، فلسوف تنفذ أمواله  
جميعا ثم يصبح صعلوكا لا يملك شيئا . . . ولكن . . . كفاانا هذا حديثا  
عنه ، فأمثاله قليلو العدد هذه الأيام . وقد أخذ التجار يقدرون  
قيمة التعليم ، أما هو . . . هذا المخلوق الذى تكثرين من الحديث عنه  
. . . فسينتهى الى الدمار .

وهنا . . . يبرز قوما من مكمنه وهو يقول :

- هذا صحيح كل الصحة يا صديقى !

لقد كان مقبلا نحو الباب وهو ممتقع الوجه مقطب الجبين ملنوى  
القم ، لا تتحول عيناه عن تاراس وهو يتوجه اليه بالحديث :

- هذا صحيح كل الصحة . . . اننى سأنتهى الى الدمار ، فاللهم  
استجب ! وكلما كانت هذه النهاية أقرب . . . كانت أحسن !

لقد وثبت ليوبا مفزوعة ، ثم أسرع الى تاراس تقف الى جانبه  
كالتى تحتسى ، وكان تاراس يقف فى وسط الغرفة هادئا رابط  
الجلأس ؛ وقد وضع يديه فى جيوبه •

وتصيح به ليوبا وهى فى كرب عظيم :

- فوما ! يا للعار يا فوما ! •• أيصح أن تتجسس علينا !

- اخرسى •• أيتها النعجة !

ويقول تاراس وهو ينظر الى فوما بازدراء :

- حقيقة •• ان التجسس سئء لا يليق !

ويجيب فوما وهو يلوح بيده :

- وماذا يهم ؟ هل هى غلطتى أن تكون الطريقة الوحيدة التى  
يستطيع الانسان بها أن يسمع بها كلمة الحق وهى التجسس !

وتقول له ليوبا وهى تزداد التصاقا بأخيها :

- أرجوك يا فوما •• أرجوك أن تنصرف •

ويسأله تاراس فى ثبات :

- لعلك نريد أن تقول لى شيئا ؟

فيجيبه فوما متعجبا :

- أنا ؟ وماذا يمكننى أن أقسول لك ؟ لا شيء • بل أنت الذى

يمكنك •• انك تحسن ان ترسل لسانك بما تريد •

فيسأله تاراس مرة أخرى :

- اذن فليس عندك ما تقوله لى ؟

- لا شيء .

- فأنا سعيد جدا

ثم يلتفت الى ليوبا ليسالها :

- هل تنتظرين أن يعود والدك حالا ؟

وكان فوما ينظر اليه لحظة وقد خامره شعور أقرب الى أن يكون

سعورا بالاحترام . . ثم لم يلبث أن انصرف .

ولم يشأ أن يذهب الى منزله . . هذا المنزل الضخم الموحش

الجاوى . . الذى كان يسمع فيه صدى كل خطوة يخطوها . . ومن

نمة فقد أخذ طريقه فى الشارع الذى كان فى ذلك الوقت غارقا فى

عسق أخريات الخريف المقبض الكثيب ، والأفكار تساور رأسه

المضطرب عن تاراس ماياكين :

- انه رجل صارم مثل أبيه ، الا أنه ليس ملولا شديد التبرم

منه ، والراجع أنه يتسلح لهذه الحياة بالغش والخداع كما يتسلح

أبوه تماما . . وهذا هو الشخص الذى تحسبه ليوبا قديسا . .

تلك المغفلة الصغيرة ! يا لله ما أبشع ما ذكرم عنى ! هذا القاضى

الفاضل ! هيه . . انها أشد عظفا على - على كل حال !

على أن هذه الأفكار لم تزده كراهية واشمئزادا لتاراس ، ولا جبا

فى ليوبا .

ومر به جواد اشبيينه وهو يركض بماياكين الذى لمح فوما شخصه

الضامر فوق صهوته . . الا أن هذا أيضا لم يجعله يشعر بأى شعور

جديد . ويمر وقاد من وقادى المصاييح بالقرب منه ، ويتوقف ليضع

سلمه الى عمود المصباح ، ثم يتسلق فوقه . . ولا يكاد يفعل حتى

يتزحلق السلم فجأة ، فيتعلق الوقاد بالعمود وقد أمسك به بكلتا

يديه وهو يلعنه ويلعن الدنيا . ويقف فوما ليشهد هذا المنظر .

ولكن فتاة صغيرة تمر به فتصدمه وتحرجه بهذا من تفكيره في حاله  
هذا الوقاد ، فاذا لاحظت الفتاة ذلك وقفت لتعتذر اليه قائلة

- أوه .. عفوا يا سيدى !

ويرمفها فوما بنظرة دون أن يتكلم .

وترسل السماء رذاذا كريها تنتثر قطراته فوق المصابيح ورجاج  
الفثريينات ، تختى لتبدو كأنما غطاها هباء من ترابٍ قدّر كان ينفذ  
الى حلوق الناس ، فيجعل تنفسهم شاقا عسيرا .

.. ويجعل فوما يسائل نفسه : ترى ؟ هل أذهب الى ييزهوف ؟ ..  
لا بأس ، فسنشرب شيئا معا ، ثم نقضى الليل معا .

وانطلق الى دار ييزهوف ، وذهب اليه وان لم تكن به أقل رعه  
فى الشراب ، أو فى رؤيّة صديقه نفسه .

ووجد فى غرفة ييزهوف رجلا أشمعت رث الهيثة يلبس قميصا  
وينطلونا رماديا ، جالسا على سرير صديقه . وقد حمل وجها قاتما  
كثيب المنظر ، أشبهه بجلد سمكة مشوية من سمك الرنجة ، وفى  
عينيه نظرة عابسة ، وعلى شفثيه شارب وحف منتشر كالشوك .  
لقد كان يجلس وهو يلف ذراعيه الغليظتين حول ساقيه اللتين رفهما  
فوق السرير . مسندا ذقنه فوق ركبتيه . أما ييزهوف ، فكان  
جالسا على كرسى ، وقد انتحى ناحية ، وساقاه فوق ذراع الكرسى ،  
وزجاجة من الفودكا قائمة بين الكتب والجرائد المنتشرة فوق المنضدة  
والغرفة كلها معطرة برائحة السردين والسمك المملح .

ونظر الى فوما فعرف أنه ينطوى على همٍ ثقيل فسأله

- هيه ! ماذا يفري فؤادك !

ثم استرعى نظر صديقه الجالس على السرير قائلا



جوردييف .

وقال الرجل فى صوت أشبه بالصرير يقدم نفسه :

- كراسنو شتشييكوف

وجلس فوما على طرف السرير الأخر ، وقال موجهاً حديثه الى بيزهوف :

لقد أتيت لأمضى الليلة عندك .

لا بأس . . . استمر فى حديثك يا فاسيلي .

وحجج الرجل فوماً بنظرة شزرء قبل أن يصل حديثه بصوته الذى يشبه الصرير ثم شرع يقول :

- أما أنا ، فلست أرى معنى لمهاجرتك الأغبىاء من الناس بالطريقه التى تهاجمهم بها . لقد كان ماسا نيللو مغفلاً . . . ولقد كان قد صنع ما كان يحب أن يصنع بأحسن الطرق الممكنة . وكان صاحبك ونكلريد مغفلاً على الأرجح ، هو أيضاً ، لكنه لو لم يطعن نفسه بالسونكى لا يمكن أن يتغلب على السبوسرى . وكم فى الدنيا من مغفلين أمثال هؤلاء . ولكن الواقع أن هؤلاءهم الأبطال فى أعين الناس ، أما الإذكياء فهم الجبناء الذين حينما يحين الأوان لكى يوجهوا ضربتهم وبكل ما فيهم من قوة ، راحوا يتساءلون : ولكن ! ماذا عسى أن تكون النتيجة ؟ ثم ماذا يحدث اذا ذهبت مجهوداتى أدراج الرياح ؟ ومن ثمة تراهم وقد وقفوا مسمرين جامدين كالآوتاد حتى تضيع الفرصة . أما الحمقى والمغفلون . . . فهم الشجعان حقاً . . . انهم لا يبالون أن ينطحوا الصخر برءوسهم حتى تتحطم . . . وماذا عليهم لو تحطمت بالفعل ؟ ألا ما أرخص رءوس العجول ! ثم هم اذا أحدثوا ثغرة فى الحائط الذى ينطحون ، رأيت أصحابنا الإذكياء يأتون فيوسعون الثغرة حتى ينفذوا منها ، وينسبوا الفضل كله الى أنفسهم . . . كلا . . . انك مخطيء كل الخطأ يا صديقى نيكولاى

ما تفيفتس ٠٠ ان الشجاعة شيء حسن جدا ، حتى لوجاهت بلا اندبير  
في العواقب !

ويلوح اليه ييزهوف بيده وهو يقول له :

- انك تتكلم كلاماً فارغاً يا فاسيلي

ويقول له فاسيلي موافقاً :

- ربما ٠٠ ولكن كيف تنتظر مني أن أدخل صالونا تلتقي فيه  
سيدات الطبقة العليا لأجلس وسطهن يملابسي الحشنة الرثة هذه ؟  
٠٠ اننى لست أعمى مع ذلك يا صاح ٠٠٠ فأنا أعرف أن ثمة  
كثيرين من ذوى المواهب والذكاء ، الا أن الدنيا لا تستفيد في كثير  
أو قليل من ذكائهم .

ويهم فاسيلي بالانصراف فيقول له ييزهوف :

- لم يحن أوان انصرافك بعد

- بل يجب أن أنصرف ، فلدى عمل الليلة - وقد تأخرت قليلا

٠٠ وسأزورك غدا ان لم يضايقك هذا .

- بل تعال ٠٠ وهبأقرم لحملك ان شاء الله !

- طبعا ٠٠ فأنت لا تجيد الا هذا .

وشد فاسيلي نفسه قليلا ، ثم نهض من فوق السرير ، وتناول يد  
ييزهوف المعروقة النحيلة الصفراء في يده الكبيرة السمراء ،  
ثم قال :

- وداعا

وأوما الى فوما ، وأخذ طريقه الى الباب وهو يمشى مترنحا .

رسال ييزهوف فوما وهو يشير الى الجهة التى يأتى منها صوت  
خطوات فاسيلى الثقيلة ، وهو يقطع المشى :

- هيه ٠٠ ما رأيك فى هذا الانسان ؟

- ومن يكون ؟

- فاسيلى كراسنو شتشييكوف ٠ مساعد أحد التجار ٠ ليكن لك  
قدرة ٠٠ ولتتخذ منه مثالا ٠٠ لقد كانت سنه خمس عشرة سنه  
حينما بدأ يتعلم القراءة والكتابة ٠ وعندما بلغ الثامنة والعشرين  
كان قد قرأ من الكتب مالا أعرف عدده من كثرته ٠٠ وكان قد تعلم  
لغتين غير الروسية ٠٠ وهو الآن يعتزم السفر الى الخارج ٠

- ولائى غرض ؟

- ليدرس ، وليرى كيف يعيش الناس خارج روسيا ٠٠ فى حين  
أن حضرتك تقضى حياتك بهذا الوجه العابس المكشر !

- ان ما قاله عن المغفلين والحمقى صحيح كل الصحة :

- لا أستطيع أن أقطع فى هذا برأى ٠٠ اذ أننى لست أحقق ولا  
مغفلا !

- ان الحمقى من عادتهم أن يتصرفوا بسرعة البرق - يرتطمون  
بكل شىء ٠٠ ويضربون به الأرض !

- هأنت تشطح كعادتك ! لتغير الموضوع ٠٠ قل لى ٠٠ هل  
صحيح أن ابن ما ياكين قد عاد ؟

- أجل ٠٠ وماذا فى ذلك ؟

- لاشىء ٠٠ لاشىء ٠٠

- بل أستطيع أن ألاحظ من سمات وجهك أن ثمة شيئاً ٠٠

- اننى اعرف ابن ما ياكين هذا . ولقد سمعت كل شىء عنه . هل هو مثل ابيه ؟

- أسمن منه قليلا . . . وأكثر جدا . . . إلا أنه مثله تماما فى جمود مشاعره . احذر لنفسك منهم يا صديقى والا فلسوف يتلعونك قبل أن تتنبه لذلك . ان تاراس هذا قد قام بأعمال بارعة ناجحه لصفهه فى مدينة بيكاترنبرج .

- ليبتلعونى اذا أرادوا . . . ولن أملك الا أن أشكرهم على ذلك .

- الثغمة القديمة نفسها . . . وعلى هذا فأنت لا تريد الا حريرتك ، ليس كذلك ؟ ولماذا تريد هذه الحرية ؟ ماذا عساک أن تصنع بها ؟ انك لا تصلح لائى شىء - وأنت لا تكاد تقرأ أو تكتب . . . آه لو كنت أنا مكانك !

ووثب ييزهوف من مكانه ، ثم اتخذ لنفسه موقفا فى مواجهة فوما ، وجعل يقول بلهجة خطابية ، وبصوت رنان :

- لو أننى أستطيع فقط تحرير نفسى من حاجتى الى شرب الفودكا وأكل الحبز لا يمكنى أن أجمع بقايا روحى المعذبة وأن أبصقها فيما أبصق من دماء قلبى فى أوجه هذه الطبقة المحترمة من أهل التفكير المستقل . . . عليهم اللعنة الى الأبد ! . . . ثم لقلت لهم : عار عليكم يامن أنتم عصارة أمتنا ، أنتم يامن اشتريت بلادنا حياتكم نفسها بدماء العشرات من أجيال أبنائهم الروس ودموعهم ، عار عليكم أيتها الحشرات التى انتهى اليها أمركم : تذكروا ماذا كلفتم بلادكم ! وماذا تؤدون اليها من عمل الآن ! هل تصنعون اللاتىء مما ذرف أهل الأجيال السالفة من عبرات ؟ سائلوا أنفسكم : ماذا صنعتكم لكى تحيلوا حياة مواطنيكم أسعد حالا ؟ وماذا صنعتكم على الاطلاق مما يستحق أن يصنع ؟ كيف رضيتم لا أنفسكم بهذه

الهزيمة ؟ ثم ماذا أنتم صانعون الآن ؟ وكيف رضيتم لأنفسكم أن تكونوا مادة لاضحاك الآخرين ؟

ثم يضرب الأرض بقدمه فى عنف ، ويصر بأسنانه ، ويحدق فى يوما بعينين تتأججان كأنهما عينا وحش مهيج ، ويقول :

- اننى كنت أقول لهم : « انكم تضيعون من وقتكم ما لا حد له فى الثروة والملق .. لكنكم ليس لكم الا نصيب ضئيل من الفكر الناضج ، وأقل من ذلك من القوة والجلد .. وأنتم جميعا جناء . ان قلوبكم أشبه بالحشايا المثلثة بريش النعام .. فهى مثلها معشوة بالآداب والمقاصد الحسنة .. فأكرم بها من حشايا ناعمة تنام فيها الروح الحلاقة يوما لذيذا عميقا ! وبدلا من أن تنشط وتدأب وتدق ، تتأرجح كما تتأرجح مهاد الأطفال . اننى كنت أغمس أصبغى فى دم قلبى لكى أكتب على جباههم كلمة الحزى والفضيحة .. ولا يمكن أن تقاسى هذه الخلاصة من أهل الفكر المستقل ، بأرواحهم المجذبة ، وسلامة نواياهم التى لا تستحق الا الاحتقار ! أوه ! ماذا يمكن أن يقاسوا ؟ ان سوطى لمؤلم ، وأن يدي لمثينة ! وأن حبى للابقاء عليهم لعريق مع ذاك ! انهم لا يألون من شئ فى الوقت الحاضر ، الا أنهم يتحدثون عن الآمهم حديثا طويلا بالغ الطول ، وبصوت مرتفع مدو . ومن هنا فهم كاذبون .. لأن الألم الصادق الحق هو الألم الصامت الذى لا يشفق ، والعاطفة الصادقة الحق لا تعرف الحدود . العاطفة ! وهل يدرك القلب الانسانى يوما ماذا تعنى العاطفة ؟ ان مصيبتنا جميعا هو أننا مجردون من العاطفة ! »

وهنا ، انقطعت أنفاسه ، وأخذ يسعل ، بل أخذ يسعل مدة طويلة ، وهو يذرع الغرفة ، ويلوح بذراعيه فى هوائها كما يلوح المجانين . وعندما وجد نفسه واقفا أمام فوما هرب الدم من وجهه ، وأخذت عيناه تصطبغان بلون الدم ، وراح يتنفس فى صعوبة ومشقة ، وكانت شفثاه تختلجان فتبدو من ورائها أسنانه الصغيرة

الحادة . لقد كان يبدو بشعره الحليق المبلل المنتشر أسفل رأسه من كل ناحية كأنه سمكة من أسماك القشر خرجت من الماء توا ، ثم ألقيت على الأرض بجوار النهر . وكان فوما طالما عهدته في تلك الحال ، وكان في هذه المرة ، كما كان في كثير غيرها ، يقف مشدوها مفكرا . لقد كان يصغى في صمت الى هذه الجملة من القذف التي يلقي بها ذلك الشاب الضئيل النحيل ، وهو لا يكاد يحاول أن يفهم منها شيئا ، أو أن يعرف ضد من يشنها ، بل هو لا يكاد يعقل منها الا ما يصبها فيها ييزهوف من قوة وعنفوان . لقد كانت الكلمات تنصب في أذنيه كما ينصب الماء المغلي من سخان ، فتجعل روحه حارة فائرة .

ويمضى ييزهوف في خطبته فيقول :

- اننى أعرف ما أودع في من قوة وبطش . انهم يصيحون بى لكى أمسك لسانى ، وهم يذودوننى كما تزداد الطير ، وهم يفعلون بى هذا هادئين وفي استعلاء وترفع . ناظرين الى من قمة شامخة ! وأنا أعرف أننى عصفور صغير . . . وأعلم أننى لست بلبلا ، بل أنا أعرف أننى غبى بليد الفهم بالقياس اليهم . . . اننى لا أزيد على كونى كاتب أقاصيص ، غرضه الوحيد فى تلك الحياة هو أن يسلى الجماهير . . . ولكن . . . دعهم يتصايحوا بى ويذودونى كما تزداد الطير ، وسأقبل سياتهم التى يصبونها على وجهى . . . أما قلبى فسيظل خافقا نابضا وسأقول لهم : حقا اننى غبى بليد الفهم بالقياس اليكم ، غير أن الميزة الوحيدة الكبرى التى أمتاز بها عليكم هى أننى لا أومن أن حقيقة من الحقائق المطبوعة فى صفحات الكتب هى أعز على وأعلى قيمة عندى من الانسان ، ان الانسان هو الكون ، وليتمجد اسم الانسان الى الأبد ، لأن فيه يقوم العالم بأسره ، ولكن . . . أنتم ؟ انكم فى سبيل كلمات لا غير . . . يجرح بعضكم بعضا ويلحق بعضكم بالذى ببعض . . . فى سبيل هذه الكلمات المجردة التى لا قيمة لها يصب بعضكم حام غضبه على بعض ، وتجرون النكد والالام على أنفسكم . . . وأنا

اجذركم وأطلب اليكم أن تتفهموا نذيرى : انكم ستدفعون الثمن عالميا لقاء غفلتكم هذه . ان العاصفة سوف تثور ، وسوف تكتسحكم من فوق سطح الأرض كما يكتسح المطر المنهمر ما يعلق بورق الشجر من تراب . انه ليس فى جميع لغات البشر الا كلمة واحدة يفهمها الجميع ، وهذه الكلمة هى : الحرية !

وهنا يثب فوما من فوق السرير ، ويمسك بكتف ييزهوف وهو بعول :

- هذا صحيح . . . صرح لهم بهذا .

ثم يخلق فى وجه ييزهوف بعينين مشتعلتين . . ثم اذا هو يقول له : وقد بدا الألم والمرارة فى صوته . .

- يا نيكولاى المسكين . . لشد ما أشعر بالأسف من أجلك . . نى لا أستطيع أن أصور لك مقدار أسفى من أجلك !

ولكن ييزهوف يصيح به ، وهو يدفعه جانبا ، وقد صدمته كلمات فوما وآلمته ، وما أبداه من شعور غير منتظر :

- ما هذا ؟ أوه . . لا !

ويخفض فوما من صوته فيبدو أخصب وأغزر محبة واعزازا وهو قول له :

- آه يا أخى ! انك روح متأججة ! وا أسفاه على أن تضع جهوداتك هذه كلها سدى !

- ماذا ؟ سدى ؟ هذا كذب !

- يا صديقى العزيز الطيب ! انك لن تصرح بما يجول بخاطرك لى مخلوق . فليس ثمة من يمكنك أن تصرح له به . اذ من يمكن ن يصغى اليك ؟ لا أحد . . غيرى !

ويصيح به ييزهوف والشرب بنقدح من عينسه ، وهو يولي أعنه كاه  
ذدعه ها يقول فوما .

- الى الجحيم بك !

عمر أن فوما يقول له بسرعة ولهفه ، وبصوت يفيض ألما

- بل صرح لي بما يجول بخاطرك . وسوف أحمل رسالتك الى  
حيت تشتد الحاجة اليها . اننى أفهمها . . و . . أوه . . لسوف  
الفتح بها قلوب الناس ! وما عليك الا أن تنتظر ! ان دورى آت  
شك فيه !

ويصيح به ييزهوف بلهجة هستيرية ، وقد أسند ظهره الى الحائط  
الدى كان يقف عنده مقطباً منطويا ، محطوم النفس ، محنقاً .  
بصيح به وهو ينشر الذراعين اللتين مدهما نحوه :

- اليك عنى !

وفى تلك اللحظة يفتح الباب وتبرز منه امرأة متشحة بالسواد  
ببيض وجهها انفعالا وتقطر سخطا ، وقد ربطت منديلا حول وجهه  
وتقول بصوت فيه صرير وحشرجة ، وقد أمالت رأسها الى وراء  
ومدت يدها نحو ييزهوف :

- نيكولاى ماتيفتش ، معذرة اذا قلت لك اننى شبعت بما فى  
الكفاية من هذا كله . . من هذا الصياح والشجار . . والزوار كل  
يوم . . انك تسترعى أنظار البوليس . . ولقد أرخيت لك العنار  
سما لم يعد فيه زيادة لمستزيد . . ويجب عليك أن تغادر هذا المنزل  
غدا . . انك تعلم أنك لا تعيش فى صحراء . . ان حولك اناسا من  
كل جانب ، وهم يريدون أن يعيشوا فى أمان واطمئنان . . وهأنت  
دا تبرى أن أسنانى تؤلمنى ألما شديدا . . فغدا أرجوك !



وكانت تتكلم بسرعة ، وكان الكثير من كلماتها يتلاشى في  
زهرها وصفيرها .. ولم يكن يفهم من كلامها الا تلك التي ترسلها  
صياح وصخب . وكان طرفا المنديل يبرزان فوق رأسها كأنهما  
نان صغيران كانا يهترزان حينما تتكلم . وكان منظرها مضحكا في  
لته وهي مهتاجة ، مما جعل فوما ينطرح على السرير مرة ثانية .  
ييزهوف فقد ظل واقفا حيث هو ، وقد جعل يمسح جبينه ،  
حاول أن يلقف ما تقوله تلك المرأة التي صرخت مرة أخرى من وراء  
اب المغلق :

- وهذه آخر مرة أقولها لك : غدا .. فلا تنس ! ويا للفضيحة !

ريزم ييزهوف وهو يحملق خلفها مكتئبا :

- لعنة الله عليكن جميعا !

ويقول فوما في شيء من الدهشة :

- انها امرأة صارمة !

ريحدب ييزهوف كتفيه ، ثم يذهب الى المائدة حيث يصب لنفسه  
سف كوب من الفودكا ، فاذا عبه عباً ، انطرح كأنه كومة فوق  
د الكراسي .. وتمضى دقيقة أو دقيقتان لا ينبس أحد الرجلين  
لمة واحدة .

وأخيرا يقول فوما في رهبة :

- لقد جرى ما جرى على غرة .. ان لسانها كان أسرع من أن  
ع لنا فرصة حتى للتنفس !

ريحدجه ييزهوف بنظرة فاتكة ، ثم يقول له بصوت منخفض

- أما أنت يا سيد فوما .. فاخرس .. ولا تتكلم .. هيا ..  
قد في الفراش وأسلم للنوم جفنيك .. وعليك اللعنة .. أيها

! الهولة .. أيها الناطور .. يا خيال المقاتة !

• ثم هز نحوه قبضته مهددا .. وصب لنفسه مزيدا من العودكا  
وعبها عبا •

وتمضى دقائق ، ويكون فوما قد خلع ثيابه وورقد في السريه  
وراح يرقب ييزهوف من خلال عينيه شبه الغمضتين •  
ييزهوف لا يزال جالسا كالكومة عند المسائدة ، محدقا في  
الغرفة ومحركا شفطيه • ولم يكن فوما يستطيع أن يدرك  
لانتهازه اياه على هذا النحو • هل كان السبب هو أن صاحبة ال  
قد أنذرتة بالرحيل .. وبالأحرى .. بالطرد ؟ ولكن ييزهوف  
الذي كان يصيح ويصخب •

وأخذ كاتب الأقسايصص يتمتم وهو يطحن الكلمات بأسنانه  
- عليها اللعنة !

ويرفع فوما رأسه من فوق الوساة • ويزفر ييزهوف زفره  
وهو يتناول زجاجة الفودكا ليشرّب جرعة أخرى •  
ويقترح عليه فوما بصوت ناعم قائلا :

- هلم فلنذهب الى أحد الفنادق .. فالوقت غير متأخر بعد •  
ويحدهج ييزهوف بكلتا عينيه ، ويرسل ضحكة غريبة ، ثم  
رأسه بيديه حكا عنيفا ، ويهب واقفا وهو يقول بصوت خاطف  
- هلم فالبس ملابسك • •

فاذا تلكأ فوما قال له ييزهوف :

- أسرع .. ألا تستطيع أن تسرع يا عجر !

وكبيتسم فوما ابتسامة لطيفة ثم يقول :

- حسبك هذه الشتائم الآن .. أما ثمة ما يستحق أن تتشاج  
من أجله .. لا لشيء الا لأن هذه المرأة قد أطلقت عليك لسانها ؟  
ولم يزد ييزهوف على أن نظر اليه .. ثم بصق .. ثم أغرق  
الضحك !

## الفصل الثالث عشر

كان ايليا يقيموفتش واقفا في مقدمة سفينته البخارية الجديدة .  
دقا بعينيه المتلاثلتين في ضيوفه المجتمعين حوله وهو يناديهم .

- هل حضر كل المدعوين ! .. الظاهر انهم حضروا جميعا .

ثم يرفع وجهه الباش المشرق ويهتف بالربان الواقف في مركز  
يادة قائلا .

- اعدل يا بتروخا !

- آى .. آى !

ويكشف الربان رأسه الاصلع ثم يصلب ، فاذا فرغ من ذلك  
ع عينيه الى السماء ومر بيده على لحيته الكبيرة السوداء ، ثم يأمر  
كانيكى قائلا :

- حول الآلات الى الناحية المضادة .. ببطء !

ولا يكاد الضيوف يشهدون الربان وهو يصلب حتى يقتدوا به ،  
ئشفوا عن رءوسهم ، ويمسكوا بقبعاتهم الحريرية وكاباتهم في  
يهم ، وترف هذه في الهواء كما يرف سرب من الطيور السوداء .  
يصلبوا .

ويهتف كونوف في خشوع :

- بركاتك يا اله السموات !

نم يصدر الربان أوامره قائلا :

- أطلقوا سلب البخارة .. بخار كامل .. هيا !

وهنا تطلق السفينة ايليا مورومتش سبحانه من البخار الابيض  
عوف رصيف الميناء ، وتهتز هزة تنرفى فى هيكلها الضخم .  
تتحرك ضد التيار فى خفة ورشاقة كما يتحرك البجع .  
ويصيح المستشار التجارى رزنيكوف ، ذلك الرجل الطويل  
النخيل الوسيم المنظر : ها هي ذى تبعد عن الشاطئ .. رشب  
كانها قالب من القشدة .. وكما تنزلق الحساء فى حلبة الرقص  
ويتمتم تروفيم زوبوف ، من مشايخ الكنيسة ، وأكبر مقرؤ  
البقود بالمدينة ، ذلك الرجل المحنى الكتفين ، الذى انتشرت  
فى وجهه ثقوب الجدرى :

- يا لها من حوت عظيم !

لقد كان اليوم يوما غائما ، والسماء محجبة بالسحب الحريه  
التي كانت تنعكس على صفحة النهر ، فتجعلها باردة رصاصية اللو  
وكانت البخارة الحديثة إطلاء تبدو فوق هذا الأديم كأنها رشاش  
فاقع البياض منساج تحت عجاجة ذلك الدخان الأسود الذى تنذ  
السفينة . لقد كانت البخارة بيضاء ذات حواش قرنفلية  
قلاياتها فحمراء شديدة الاحمرار ، وكانت كواها المستديرة ترم  
سبمات سعيدة راضية ، وهى تجرى رخاء وسط الأمواج الباردة  
مترسل بها الى الضفتين مواراة مجرجرة .

ويقول كونونوف وهو يرفع قبعته تحييا أضيافه بانحناء لطيفه  
- أيها الأصدقاء الأفاضل ، أما وقد أدينا لله ما هو لله ، فهله  
.. على نعمات الموسيقى ، نؤد لقيصر ما هو لقيصر ..

ودون أن ينتظر ردا ، يرفع يده الى شفثيه ليهتف برئيس الفر  
خائلا :

أياها الرئيس ، نشيد القيصر !  
وتشرح الفرقة الموسيقية العسكرية تعرف النشيد المطلوب .  
ويشرح مقار بوبروف ، مدير بنك التجار ، يغنى في صو  
جفيف على حين كانت أصابعه تضبط الايقاع على كرشه السكر  
الضخم .

يعيش القيصر .. قيصر روسيا العظيم

تبرأ .. لا .. لا ! .. بسم بسم بسم

حتى اذا انتهى النشيد .. ظل كونونوف يقول وهو يشق طريقه  
وسط هذا الجمع من الضيوف :

.. والآن .. تفضلوا .. هلموا الى الموائد أيها الأصدقاء ..  
.. سمعنا أن تتناولوا شيئا من الطعام ..

لقد كان نمة نحو ثلاثين ضيفا .. كلهم من أعيان المدينة الباررين  
وبحلاصة الطبقة التجارية . وكان النواب القدامى ، أولئك الصلح  
الشائبون ، يلبسون فراكات وكابات وأحذية ذات رقاب طويلة من  
النمط القديم ، الا أن عدد هؤلاء النواب القدامى كان شيئا لا يذكر  
وسط غيرهم ممن كانوا يلبسون القبعات الحريرية والأحذية اللامعة ،  
والمعاطف ذات الذبول الطويلة . لقد كانوا جميعا يقفون في مقدمه  
السفينة ، لكنهم أخذوا يذهبون الى المؤخرة بعضهم في أثر بعض  
حينما دعاهم كونونوف ، حيث اصطفوا حول الموائد المنظومة تحت  
الظل . وكان ليوب رازنيوف يضع ذراعه في ذراع ماياكين ويسر  
أليه بالحديث وهو يمشي معه الى حيث الضيوف ، وكان ما يقوله له  
يجعله يبتسم ابتسامة خفيفة ، ولم يكن فوما الذي نجح اشيبه في  
احضاره آخر الأمر الى الحفل يجد رفيقا له وسط هؤلاء الناس  
الذين كان يمقتهم ، ومن ثمة كان يبدو مقطب الجبين كاسف البال  
منطويا على نفسه ، فقد أورثه الشراب المستمر طوال اليومين  
الأخيرين مع ييزهوف صداعا شديدا يكاد يشق رأسه شقا . وكان

هو بطبعه يشعر بالحرج والقلق فى صحبة أمثال هؤلاء السادة ذوى المراتب العالية ، وكان الضجيج المنبعث من الفرقة الموسيقية ومن الجمع المحتشد ومن آلات الباخرة يثير أعصابه اثارة شديدة .

وكانت رغبته فى السكر تستبد به استبدادا لا يمكن أن يقاوم . ولم يكن يستطيع تعليل تلك الرقة المتناهية التى كانت تقطر من محيا ماياكين ذلك اليوم ، ولا السبب الذى جعل الرجل العجوز يحضره الى هذا الحفل الذى جمع الصفوة من أعيان المدينة ، أو لماذا كان يلح عليه الحاحا ، بل يتوسل اليه توسلا ، فى أن يحضر حفلة كونونوف وأن يشهد وليمته أيضا .

وقد حضر فوما بعد اذ انتصفت حفلة التدشين ، وأخذ موقفه فى مكان منعزل حيث يستطيع مشاهدة التجار جميعا .

ولقد كان القوم يقفون فى سكون يتغشاه الوقار ، وكانت وجوههم تنسم بسيماء الخشوع المصطنع ، كما كانوا يصلون فى حدة مفرطة ويزفرون زفرات عميقة ، فاذا ركعوا بالغوا فى الركوع ، واذا رفعوا أخذت عيونهم تتقلب فى السماء . وكان فوما كلما نقل ناظريه فى الواحد بعد الآخر ، راح يدير فى رأسه ما يعرفه عن كل منهم .

فها هنا مثلا كان يقف ليوب رزنتوف ، هذا الرجل الذى بدأ حياته بادارة ماخور لم يلبث أن جعله من الاثنياء الموسرين . ويقال : انه كان قد اشترى فى مطلع حياته متجرا قرويا كاملا للغزل والنسج صفقة واحدة . ثم أفلس بعد ذلك مرتين . وذلك كونونوف الذى قبض عليه منذ عشرين عاما بتهمة اشعاله النار فى أملاك مؤس عليها ، كما وجهت اليه تهمة افساد الغلمان ، وهو الآن تحت البحث والتحرى ومراقبة البوليس . ثم هذا هو زاخار كيريلوف روبستوف ذلك الرجل القصير السمين ذو الوجه المكور والعينين الزرقاوين المرحتين . . لقد كان متهما بالتهمة نفسها وللمرة الثانية فى حياته . . انه لم يكن بينهم جميعا واحد . . واحد فقط ! . . لم يكن فوما يعرف عنه شيئا فاضحا يدينه ويشينه .

وكان يعلم كذلك أنهم جميعا يحسدون كونونوف ، ذلك التاجر الناجح الذى كان يضيف فى كل عام مركبا جديدا الى السفن التى يمتلكها . وكان كل منهم لا ينى يحمل المعاول لهدم أخيه . وكانوا جميعا يحارب بعضهم بعضا حربا لا هوادة فيها ولا رحمة فى ميادين الأعمال ، وكانوا جميعا يعرفون ما يقوم به كل منهم من معاملات نشوبها الشبهات . . أما الآن ، وهم مجتمعون حول كونونوف المجدود المحسود ، فهم يندمجون فى كتلة جامدة قائمة ، تجيء وتروح كأنها كائن مفرد واحد كان يتغشاه الصمت المطبق ، ويحيط به شيء صلب لا تقع عليه العين ولا تدركه الأبصار . . شيء كان يبعث النفور والاشمئزاز فى نفس فوما ، ويشعره بالحجل والحياء فى حضرتهم .

وكان لا ينى يردد هذه العبارة بينه وبين نفسه من باب تشجيعها :

- خداع وتدليس !

لقد كانوا يسعلون ويتنهدون فى رقة وفى ظرف ، ثم يطأطئون رؤوسهم ويصلبون وهم واقفون صفا واحدا كالبناء المرصوص الأسود حول رجال القساوسة .

وكان فوما يتمتم : « لشد ما أنتم مرءون مناقفون ! » وذلك على حين راح ذلك الرجل النميم الأعور الاحدب بافلين جوشين ( الذى قذف بأولاد شقيقه المغفل منذ وقت قريب الى الشارع لبشحنوا ويتكففوا السابلة ) . . على حين راح ذلك الرجل يهمس فى انتهاز وروحانية ، وعينه الواحدة مرفوعة الى السماء الغائمة القاتمة :

- يا اله السموات : لا يحل بى غضبك . . فجزاؤك العادل لم ننن أو انه بعد . . !

وكان فوما يعجب اذ يرى هذا الرجل يضرع الى الله متوسلا

مستغنيا ، مؤمنا برحمته ايمانا راسخا لا يتزعزع على حين كان الكاهن  
يدعو بصوت هادىء وذراعه مبسوطتان وعيناه فى السماء :

— يا ربنا ويا اله آباءنا ٠٠ يا من أوحيت الى عبدك نوح ان  
يصنع الفلك للبقاء على النوع البشرى ، احفظ هذه السفينة أيضا .  
وارسل اليها ملكا حارسا يتولاها بعنايته ٠٠ وارع كل من يسافر  
عليها ٠٠

وكان جميع التجار يمسدون أيديهم فى الوقت نفسه ليرسموا  
اشارة الصليب ، وقد اتسمت وجوههم بما اتسم به وجه الكاهن  
سيماء الايمان بقوة هذا الدعاء .

وكان هذا كله يترك أثره العميق فى نفس فوما ، ويجعله يعجب  
كيف يمكن أن يكون أمثال هؤلاء الناس الذين لهم ذلك الايمان العميق  
الراسخ فى رحمة الله ، مجردين من الرحمة نحو اخوانهم فى  
الانسانية !

لقد كان يبهجه وينير السخبط فى نفسه اعتدادهم المتين القوى ،  
وعقيدتهم الثابتة الراسخة ، ووجوههم التى تفيض بالاعجاب  
وأصواتهم المدوية ، وضحكهم العالى المقهقه . وكانوا قد أخذوا  
مجالسهم فى تلك اللحظة حول الموائد ، وراحت لهواتهم تتلمظ ،  
وأعينهم تقطر شراهة الى ذلك الحفش ٠٠ وبالأحرى هذا النوع من  
السّمك النهري الروسى اللذيذ ، المطرز بالحضر والسرطين الضخمة  
وكانت عيننا ترافيم زوبوف تكادان تلتهمان هذا الطعام السائل وهو  
يثبت الفوطة حول رقبتة .

وشرع يكلم صاحب الطاحون الجالس الى جانبه ، وكانت كلماته  
تصدر كبقبة القلة التى تمتلىء بالماء ، لما فى فمه من طعام :

— انظر يا ايون نيكيفوروفتش الى ذلك الحفش ! أليس يقرب ان  
يكون حوتا عظيما يكفى لأن يحتويك فى داخله ! انه على قدك



تجأما . . وأنت بداخله تكون أشبه بالقدم داخل الحذاء ! ها . ها .  
ها ! . .

ومد ايون القميء ذو البطن المكور ذراعه القصيرة ليرفع وعاء فضيا  
ممتلئا بالكافيار الطازج ، وشفتاه تتلمظان ، وعيناه لا تريمان عن  
الزجاجات المرصوصة أمامه مخافة أن يمسه بأذى .

وكان فيما يلي كونوف حامل خشبي عليه برميل من الفودكا  
المتعقة التي أحضرها من بولندة . وقد رص محار الجندفلي في صدفة  
كبيرة ضخمة موشاة بالفضة ، الا أن الطبق الاساسى كان عصبدة  
ذات ألوان فى قالب برج من الأبراج .

ويهتف كونونوف بضيوفه :

- تفضلوا أيها السادة ، تفضلوا . كل شىء مهيا أمامكم . .  
تكلوا مما تشتهي أنفسكم وتلذ أعينكم . . من طعامنا الروسى الشهى  
لمعتاد ، أو من الأطعمة الأجنبية على السواء - ورأى أن ناكل من  
عذا ومن ذاك ، وهذا هو الأفضل فى نظرى . ماذا تفضلون ؟  
الجندفلي أم الحلزون ؟ انه مستورد من الهند مباشرة ، كما يقولون !  
وكان زوبوف يقول لجاره ماياكين :

- لقد كان الدعاء الذى قرأه الكاهن لا يكاد يناسب انزال  
لرفاصات أو الزوارق النهرية الى الماء . . عفوا . . لا أريد أن أقول  
نه لم يكن مناسباً ، بل أردت أن أقول انه لم يكن كافياً . ان  
لزورق النهري الذى يعيش فوقه الملاح يوما بعد يوم هو كالمنزى  
ماما ، ولهذا كان ينبغى أن يضاف الى الدعاء الذى تلاه الكاهن دعاء  
لمشين منزل : ماذا تفضل أن تشرب ؟

ويجيبه ماياكين :

- انتى لست ممن يدمنون على شرب الحمر . . صب لى كوبا من

الفودكا • وأدرك فوما الذى كان يجلس عند طرف المائدة بين الضيوف الأكثرين تواضعا أن عينى اشبينه ترصدانه ، ومن ثمة كان يتحدث الى نفسه قائلا :

- انه يخشى أن أحدث فضيحة لا تسره !

وانطلق رجل ذو بطن منفوخ من أصحاب السفن البخارية يقال له ياشتشوروف يقول :

- أيها الاخوان •• اننى لا أستطيع الحياة ان لم آكل رنجة ••• لا بد أن أبدأ طعامى بآكل الرنجة ••• وهذا هو ما فطرت عليه ،

- موسيقى ! لنسمع النشيد الفارسى !

- انتظر ، بل لنسمع : المجد للقيصر •

- حسن •• المجد للقيصر •

وملاّ أزيز الآلات ، وصوت القلابات المختلط بالموسيقى ، ملاّ الهواء بشيء أشبه بغناء العاصفة الثلجية الوحشى • وكانت النيات تصفر ، والصنوج ترن ، والأبواق الفرنسية تزمجر ، ودق الطبله الصغيره يدمدم ، والطبله الكبيره تطمطم ••• ثم تختلط هذه الأصوات جميعا وصوت ارتطام الماء المتواصل بالقلابات ، مجفلا فى الهواء ، ومارا بالسفينة فى اندفاع أشبه باندفاع الاعصار ، مما يضطر القوم ، اذا أراد أحدهم أن يتكلم فيسمع الآخرون صوته ، الى أن يرفعوا أصواتهم بأقصى ما يستطيعون • وكانت الآلات فى القينة بعد الفينة ربما أرسلت هسهسة محنقة ، وكان صوتها اذ ذاك يشوبه التبرم والازدراء ••• وهو الصوت الذى لا ينفك يقحم نفسه فى الضوضاء التى يختلط فيها صياح القوم وصراخهم وضجيجهم •

- ويصيح بعضهم مفضبا :

- اننى لن أغفر لك أبدا رفضك أخذ كمبيالتي .  
ويتدخل بوبروف قائلا بصوته العميق :  
- دعنا من هذا ! أذاك هو الوقت الذى تثار فيه هذه المسائل ؟  
- أذاك هو وقت الخطب أيها السادة ؟  
- الموسيقى ! صمتا !  
- تفضل بزيارتى فى البنك ، وسأشرح لك السبب فى أننى لم  
مدق عليه .  
- أهذه خطبة ؟ صمتا !  
- بل أوقفوا الموسيقى .  
- الأرملة المرحة  
- بل السيدة آنجوت !  
- كلا . . . لا تسمعنا خطبك يا ياكوف تارازوفتشى !  
- ان اسمها عصيدة ستراسبورج  
- خطبة ! خطبة !  
- عصيدة ؟ انها لا تبدو كالعصيدة . . . ولكنى سأجرىها .  
- ماياكين ! خطبة !  
- حاجة لذيذة جدا . . . يجب أن أعترف بهذا .  
ويقول روبستوف بصوته الأخف :  
- وفى أوبرا هيلين الحسناء تبرز فوق المسرح شبه عارية  
- وهكذا خدع يعقوب عيسا و . . . أليس كذلك ؟ آها !  
- تعال ماياكين . لا تتجنبنا .  
- صمتا أيها السادة . الكلمة لياكوف ماياكين .

وبعد أن يسود الصمت يسمع أحدهم وهو يقول في غيظ  
وسخط :

- ما أشد ما أوجعتنى ونالت منى تلك الكلية الصغيرة !

ويزمجر بوبروف قائلا :

- وفى أى مكان ؟

وينفجر القوم ضاحكين ، ثم لا يلبثون أن يعودوا الى صمتهم  
حينما ينهض ماياكين واقفا ، ويسعل قليلا كالذى يستعد للكلام ،  
ويمر بيده فوق صلعته ، ويجيل عينيه فى الموجودين منتظرا أن  
يسودهم الصمت . وهنا يهتف بهم كونونوف :

- أرهقوا أسماعكم أيها الاصدقاء .

ويقول ماياكين وقد ضحك ضحكة لطيفة :

- زملائى التجار . . . ان هناك كلمة أجنبية لعلكم تسمعون الغثا  
العالمة والمتعلمة تستعملها كثيرا . . وهذه الكلمة هى « التهذيب ،  
. . حسن . . ان هذه الكلمة هى التى يريد رجل بسيط مثلى أن  
يقول عنها أشياء قليلة .  
- سماعا سماعا .

ويرفع ماياكين صوته قائلا :

- أيها السادة الافاضل . . . ان الصحافة تدأب فى قولها ،  
اننا نحن التجار لسنا على شيء من التهذيب . . . واننا لا ندرى  
ما هذا التهذيب . . . بل لا نريد أن نعرف ما هو . . ورجال  
الصحافة يدعوننا متوحشين . . همجا . . وأنا أتساءل الآن  
بىورى : ما هذا التهذيب ؟ انه ليس من اليسير على رجل طاعن فى  
السن مثلى أن يسمع هذه الامور الصعبة تلوها الالسن ، ومن ثمة

فقد وجدتنى ذات يوم آخذ على عاتقى اكتشاف ما تعنيه هذه الكلمة .

وتوقف ماياكين ، ثم راح يجول بعينيه فى الموجودين قبل أن يعود الى الحديث ، وقد حبس فى شدقه ضحكة انتصار بادية :

- الظاهر أن هذه الكلمة تعنى الحب - حب النظام .. الحب الشديد للترقى . فهل هذا هو الذى تعنيه ؟ وكثيرا ما فكرت فى نفسى ، وبعبارة أخرى : ان الشخص المهذب هو ذلك الشخص الذى يهوى النظام والترقى .. الشخص الذى يحب أن يتخلص من كل شيء ... الذى يحب الحياة ويعرف قيمتها ، ويعرف قيمة نفسه أيضا . حسن جدا .

وهنا يبدو الرجل وقد أخذته رجفة سرت فى كيانه ، وانتشرت فى تجاعيد وجهه أشعة من الابتسام منبعثة من عينيه الى شفثيه ، كما كانت صلعته تتألق كلها كما يتألق النجم فى حلك الظلام .

وكان التجار يتلقفون كل كلمة يقولها ، والانتباه الشديد باد على وجوههم ، وقد جمدت أبدانهم فى وضعها الذى أمسكتهم فيه كلماته الافتتاحية .

- ولكن اذا كان ذلك كذلك ( وهذا هو الذى يجب أن تفهم الكلمة بمقتضاها ) - أقول : اذا كان ذلك كذلك . فهؤلاء الذين يسموننا متوحشين غير مهذبين ، يفترون علينا ، لأنهم انما يحبون الكلمة من حيث هى كلمة .. فهم يقولونها ولا يفهمون معناها . أما نحن فنحب معنى الكلمة الحقيقى .. نحب لبايها وجوهرها .. اننا نحب أن نعمل .. ومن ثمة كان لدينا نظام دينى حقيقى للحياة ، وبلاخرى .. نحن نجل الحياة ، أما هم فلا يجلوونها . انهم يحبون الكلام . أما نحن ، فنحب العمل .

ثم انظروا أيها الزملاء التجار .. هاكم الدليل على ما لدينا من

التهنيد . . . على حيننا للتطور والارتقاء . . . الفولجا ! أبونا المحبوب  
نهر الفولجا ! ان كل قطرة من مياهه تنطق بالدفاع عنا ، وتقنيـد  
مفترياتهم ؛ ان مائة عام فقط قد مضت منذ ذلك اليوم الذى أنزل  
فيه بطرس الأكبر مراكبه الكبيرة البطون فى مياهه ، وهامى ذى  
اليوم أيها السادة تلك الآلاف من البواخر تتردد على موانيه . فمن  
بنى تلك البواخر ؟ انه هو الفلاح الروسى ! هذا الرجل الذى ليس  
لديه منسكة من تعليم ! ثم من مالك كل هذه البواخر والصنادل  
الضخمة ؟ نحن نملكها ! ومن الذى فكر فى تسييرها ؟ نحن أيضا .  
ان كل ما هو هنا نحن أصحابه ، وكل شيء هو مما ابتكرته عقولنا  
وهو ثمرة جرائنا واقدامنا ، وثمره حيننا للعمل ، وما من أحد قد  
ساعدنا أو أخذ بأيدينا .

وقد كنا نحن الذين قضينا على اللصوص وقطاع الطرق الذين  
كانوا يقومون بالسطو على المسافرين فى الفولجا . ونقودنا هى التى  
استأجرتنا بها الفرق الكاملة للقضاء على القراصنة ، ونقودنا هى التى  
أنزلنا بها الآلاف من الزوارق النهرية على طول الآلاف من المراسى  
والمرافىء التى تقوم على الفولجا . . .

ثم ما أحسن المدن التى على جانبي الفولجا ؟ المدن التى تعج بالعدد  
الأكبر من التجار ! وبيوت من هى أحسن البيوت وأرقاها فى تلك  
المدن ؟ انها بيوت التجار طبعا . ثم من من الناس يبذل يد المعونة  
للفقراء ؟ انهم هم التجار . اننا نهب مئات الآلاف من الروبلات  
لأعمال البر ، وهى التى جمعناها كوبكا فوق كوبك . ثم من الذين  
يبنون كنائسنا ؟ نحن طبعا . ثم من الذين يمدون الدولة بالأموال ؟  
نحن ولا شك ؟

— سأدتى : اننا نحن . . . ونحن فحسب ، نعمل حيا فى العمل ،  
حيا فى جعل الحياة أحسن مما هى . اننا نحن ، ونحن فحسب ،

الدين يحبون الحياة والنظام .. وما هذا الذي يقولونه عنا الا ..  
الا ..

ويقول كلمة قبيحة لا يلبث أن يمضغها. بشفتيه حتى لا تسمع  
... فهذا هو اذن حالنا وحالهم ، فدعوهم يقولوا ما يحلو لهم اننا  
اذا نفخنا الدوارة ، دارت وأحدثت صوتا وضوضاء ، فاذا لم ننفخها  
لم يسمع لها صوت ، على أنكم لا تستطيعون أن تستفيدوا فائدة  
تذكر من هذه الدوارة .. تلك اللعبة العقيمة .. لن تستطيعوا أب  
نتفعوا منها ما تنتفعون من مكينة .. ان كل ما يمكنها أن تقوم  
به هو أن تدور على نفسها وتحدث صوتا ! ثم ماذا كان في وسع  
مؤلاء الناس الذين جعلوا من أنفسهم قضائنا أن يصنعوا على الاطلاق  
سما كان جديرا به أن يصنع ؟ ماذا صنعوا على الاطلاق لتحسين  
حياة ؟ لم نسمع أنهم فعلوا من ذلك شيئا . أما ما علمناه نحن  
واضح لكل ذى عينين .

- يا زملائي التجار : انكم ملح هذه الارض . انه ليس فيها من  
عدلكم جدا واجتهادا . ان كل ما فعلته البشرية فيها فعلته بأيديكم  
م انه لا نهاية مطلقا لما لا يزال في وسعكم أن تقوموا به .. ومن  
جل هذا فأنا أشرب هذه الكأس في نخبكم . انى أحبكم وأجلكم  
لاجلال كله .. وأنا أقولها من سويداء قلبي :

يعيش تجار روسيا الشجعان المجدون الثابرون ا نفع الله بهم  
لادنا حتى يتم لها المجد والازدهار . عاشوا . عاشوا .

وأثار هتاف ماياكين المجلجل عاصفة كالرعد من استحسنان  
لقوم . فقد أخذ كل هذا الحشد الكبير المتلاحم يتحرك فجأة ، وكان  
لصوت المدوي المنبعث من حناجرهم من القبوة بحيث كان كل  
ما حولهم يبدو كأنه يزلزل ويرتجف .

وصاح زوبوف وهو يرفع كأسه نحو ماياكين :

- يا كوف ! يا بوق الرحمن !

وهنا .. أخذت الكراسى تنقلب ، والموائد تهتز ، والقوارير تتساقط ، والأطباق تتخبط ، وذلك على حين كان التجار المحبورون المستوفزون يندفعون كالسيل نحو ماياكين وقد رفعوا في أيديهم الكئوس والأكواب .. والدموع تترقرق في أماقبيهم .  
وراح كونونوف يسائل روبستوف ، وهو ممسك بكتفه يهزه هزا :

- ما قولك في هذا ؟ .. هل تدرك معنى هذا الذي حدث ؟ لقد استمعنا الآن الى خطبة عظيمة !

- دعنى أقبلك يا ياكوف

- ارفعوه على الاكتاف !

- ارفعوه على الاكتاف ! مرحى !

- موسيقى !

- موسيقى ! النشيد الفارسى

- الى الجحيم بموسيقاك !

- ألم تكن خطبته من الموسيقى بالقدر الكافى !

- ياله من ضئيل الجسم ، عظيم العقل !

- هذا كذب يا تزوفيم !

- وا أسفاه على أنك طاعن فى السن متقدم فى العمر الى هذا

الحد يا ماياكين ! ماذا نصنع حين لا تكون بيننا ؟

- أوه .. ان جنازته ستكون شيئا رائعا !

- أيها السادة .. هلموا فلنفتتح اكتتابا نسميه اكتتاب ماياكين

... وسأدفع أنا الألف الأول !



- أمسك لسانك ! فيم تسرعك هكذا ؟

وهنا .. يعود ماياكين الى الكلام من جسديده وهو يرتجف  
ارتجافا :

- أيها السادة : ان من أهم الأسباب التي تجعلنا ملح هذه  
الأرض ، وتجعلنا كذلك حكام بلادنا الحقيقيين هو أن دماء الفلاحين  
تجرى في عروقنا .

- هذا حق .. كل الحق !

- يا لله ! يا لك من رجل عظيم !

- لا تقاطعوا .. سماعا !

- اننا روسيون ذوو دماء نقية .. وكل ما يصدر عنا هو  
روسي تتدفق فيه الدماء الروسية النقية ، ومن ثمة كان كل ما يصدر  
عنا شيئا عظيما أصيلا .. ومن أهم الاشياء وأصفاها جوهرًا .

- وأضح وأضح .. كأنفك الذي يحمله وجهك !

- اليس كذلك !

- ان رجلنا العجوز حكيم .. حكيم كالبومة !

- ووديع كال ..

- كالصقر .. هاها ! ..

وازدخم التجار حول خطيبهم ، وأخذوا يحدقون فيه بعيون بللها  
الدمع ، وهم لا يقدرّون على الاصغاء اليه في هدوء من شدة انفعالهم ،  
وكان طنين أصواتهم ، وخشخشة الآلات ، وضرب القلابات في الألاء  
.. يكون دفعة من الصوت الذي يضيع فيها صوت الرجل

- هلموا فلنرقص رقصة روسية ! رقصة كارمنسكية ،  
يصيح ماياكين :

- هلموا انظروا ما صنعت أيدينا ... أيدينا نحن .. وليس  
أحد غيرنا ! اتنا نحن الذين جعلنا الحياة ما هي الآن !

ثم يعلو أحد الأصوات فجأة ، فتتلاشى فيه الأصوات الأخرى  
جميعا :

- اذن فأنتم الذين جعلتم الحياة ما هي .. أليس كذلك ؟ أنتم ..  
نم أردف - أنتم هذه - بطائفة من أقدر الكنى وأقبح الألقاب .  
وسمعها كل من الحاضرين ، وساد صمت أشبه بصمت القبور .  
على حين راحت الأنظار تجول حولها باحثة عن المتكلم . وكان  
الشيء الوحيد المسموع فى تلك الآونة هو حُشخشة الآلات وصرير  
سلاسل الدفة

وقال كونونوف متسائلا ، وقد قطب وجهه :

- من قال هذا ؟

وزفر رز نيكوف قائلا :

- أخ ! اننا لا يمكن أن نعمل شيئا دون أن يحدث شجار !  
وكانت سيماء الوجوه يختلط فيها الشر والعجب والتطلع  
والأسف . وكان التجار جميعا يتمتمون بشيء من الامتعاض  
والاحتجاج ، الا ياكوف ماياكين وحده .. فقد حافظ على هدوئه  
ورباطة جأشه ، وبدا كأنه راض عما حدث . ووقف على أطراف  
أصابعه وراح يمد عنقه كأنما ينظر الى شيء فى الطرف الآخر من  
المائدة ، وكان فى عينيه لآلاء ، كأنه كان جد مسرور مما رأى .

وهمس أحد الموجودين يقول :

- انه فوما جوردييف

واتجهت الانظار نحو الجهة التي كان يحدق فيها ماياكين عينيه .  
وهناك .. كان يقف فوما وقد أسند يديه على المائدة . لقد كان  
كشرا وهو يتفرس فى التجار بعينين مشتعلتين واسعتين . وكان  
بكه الأسفل يرتجف ، وكتفاه تختلجان ، وأصابعه القابضة على  
طرف المائدة لا تنى تحربش فى المفرش بحركة تشنجية ، وقد  
خرست التجار وقفته المغضبة ، والنظرات المتوحشة التي كانت  
نبعث من عينيه .

ويسألهم فوما ، وكأنه يزيح عن صدره سلسلة أخرى مما يجثم  
عليه من قبائح :

- فيم تحدقون أنظاركم هكذا ؟

ويهز بوبروف رأسه قائلا :

- انه سكران !

ويهمس رزنيكوف متسائلا :

- لماذا دعوه ؟

ويهتف به كونونوف فى لهجة مهذبة :

- فوما اجناتيفيتش .. أرجو أن تحاول ضبط أعصابك ،  
وتتصرف بما يليق بك .. وإذا كنت قد أكثرت من الشراب فيمكنك  
أن تذهب بهدوء الى احدى القمرات وأن تنام فيها .. اذهب ونم  
يا بنى .. اذهب ..

ويتفرس فيه فوما وهو يصيح به :

- اخرس ! احذر أن توجه الى أية كلمة ! اننى لست سنكران  
أنا أكثر وعيا من أى واحد فيكم . أتفهم ؟

ويصعد الدم في وجه كونوف مما لحقه من تعهد واهانة ، ويقول  
متسائلا :

- لحظة أيها الرجل العزيز .. لحظة ... من الذي دعاك الى هذا  
الحفل ؟

ويسرع ماياكين بالرد قائلا :

- أنا الذي دعوته .

- أوه ! في هذه الحال فأنا ألتمس منك الصفرح يا فوما اجناتيفتشر  
.. ولكن ما دمت أنت الذي أحضرته يا ياكوف فعليك أن تلتزمه ..  
ان هذا شيء لا يصح .

ويبتسم فوما ، ولا يقول شيئا . وينظر اليه التجار ولا يقولون  
شيئا كذلك .

أما ماياكين فيهتف به قائلا :

- أواه ! فوما .. فوما .. هأنت ذا تفضحني في هذه البس  
المتقدمة مرة أخرى !

ويجيبه فوما وهو لا يزال مكشرا :

- أيها الوالد العزيز .. اننى لم أصنع شيئا بعد .. ومن ثمة  
.. فمن سبق الحوادث أن توجه الى هذا التعنيف ... اننى لست  
سكران ... بل لم أذق قطرة واحدة من الخمر - وكل ما فعلته أن  
كنت أجلس وأستمع . أيها السادة .. اسمحوا لى أن ألقى عليكم  
كلمة الآن . اسمعوا اذن الى ابن السيد ماياكين الروحي .

ويتساءل رزنيكوف :

- 'خطب ؟ هل يجب أن نستمع الى خطب ؟ لقد جئنا هنا لنمتع  
انفسنا

١٠ لا داعي للخطابة يا فوما اجنائيفتش !

١١ حذ لك كأسا بدلا من الخطابة !

١٢ - أجل . دعنا نتناول كأسا . آه يا فوما ! لله ما كان أطرف  
أناك !

وترك فوما حافة المائدة ، ثم شد نفسه وهو لا يزال يبتسم ،  
ووقف يستمع الى كلمات الاسترضاء التي يوجهونها اليه لكي يسكنوا  
ثأثرته . لقد كان أصغر سنا وأبهى منظرا من أى تاجر من هذه  
الطبقة البارزة من تجار المدينة ، وكان قوامه الوسيم في فراكه الذى  
بناسبه تمام المناسبة ، يناقض أجسامهم القصيرة السمينة ببطونها  
المنتفخة . وكان لوجهه الاحمر الداكن بعينه الكيرتين نضارده  
وقسمات منتظمة لم تكن لوجوههم المتورمة الحمراء .

لقد أبرز فوما صدره ، وكشر عن أسنانه ثم فرج ما بين طرفى  
معطفه ، ودفح يديه فى جيوب بنطلونه . وبدأ يقول فى لهجة  
سارمة متحدية :

١٣ - انكم لا تستطيعون أن تغلقوا فى عباراتكم اللطيفة . . وأنا  
بصم على أن أقول ما أريد قوله سواء استمتم الى أو لم تستمعوا .  
١٤ لن تستطيعوا اخراجى من هذه السفينة .

وهنا طرح الى الخلف رأسه ، ورفع كفيه الى أعلى :

١٥ - ثم . . انى ساقتل أى مخلوق على أن يمسنى بأصبعه ،  
أقسم بالله على ذلك .

وترنج الواقفون أمامه كما تترنج غصون الشجر هبت عليها  
لريح . . وأخذت همسات الخوف تنطلق هنا وهنا . . وقطب وجه  
نوما وازدادت عيناه اتساعا أكثر من قبل .

- لقد قيل : انكم أنتم الذين جعلتم الحياة ما هي الآن ، وان كل ما فيها من جودة وحسن هو من صنع أيديكم .

وهنا ، شهق شهقة طويلة ، ثم راح يرمقهم بكراهية لا يمكن تصويرها ، ويتفرس في تلك الوجوه التي كانت تبدو كأنما تورمت من شدة الاستياء والاشمئزاز .

وتككب التجار بعضهم الى بعض ، ولم يقولوا شيئا .

ثم اذا واحد فى الصف الخلفى يتمتم قائلا :

- علام كل هذا ؟ وهل هذا من آى الكتب المقدسة ، أو هو من تلمعه ؟

ويهز فوما رأسه ويقول :

- يا أبناء الكلاب ، ماذا صنعتم ؟ انكم بدلا من أن ترتقوا بالحياة فد حولتموها الى سجن ، وبدلا من أن تدخلوا عليها النظام قد وضعتهم اهلها فى السلاسل والاغلال ، فلن يستطيع أحد فيه قبس من حياة ان يجد ما يستنشقه من الهواء فى دنياكم الخائفة هذه . انكم قتلة مختالون . . . ولا شىء غير هذا . . . وليس ثمة سبب فى أنكم لا تزالون أحياء الى اليوم الا طول ما قاساه الناس منذ أمد بعيد . . . ثم أنتم لا تريدون أن تنسوا هذا !

ويقول رزنيكوف متعجبا وهو ينثر يده محتجا :

- اننى لم أسمع شيئا مثل هذا من قبل ، ولا أريد أن أسمع كلمه فوق هذا !

ويصيح بوبروف :

- خذ حذرك يا جوردييف . انك تقول أشياء قد تندم على أنك ، قلتها !

ويقول له زوبوف محذرا أيضا :

- هل تدري ماذا يمكن أن يعود عليك من قولك مثل هذه  
الاشياء ؟

ودمدم فوما والدم يكاد ينبثق من عينيه :

- ويل لك ! اهد بقدر ما يحلو لك الهديان أيها الخنزير !

ثم يقول ماياكين بصوت فيه حكة ونذير كصوت المبرد فوق  
المعدن :

- أيها السادة : أرجوكم ألا تقاطعوا .. دعوه يتكلم ما دام الكلام  
يحلو له .. فما يضركم كلامه في شيء .

ويصيح يوشكوف :

- عجبنا ! كيف لا يضرنا ؟

أما سمولين الذي كان يلي فوما فيهمس في أذنه قائلا :

- كفى كفى .. هل أنت مجنون ؟

ويصيح به فوما ، وهو ينظر اليه بعينين ملتهبتين :

- اعزب عن وجهي .. اذهب وألق يدى ماياكين عسى أن يلقي  
ليك بلقمة !

ويصفر سمولين صبغيا خفيفا ثم ينسحب الى الطرف الآخر ..  
ويتبعه التجار الآخرون فينسحبون واحدا في اثر واحد ، ويزيد  
هذا في غضب فوما وثورته .. لقد كان يجب أن يستولى عليهم  
بكلامه .. الا أنه لم يكن يجد الكلام القوي الذي تكفى قوته أن  
تثنيه غرضه .

ويعود الى قوله :

- فأنتم اذن الذين صنعتم من الحياة ما هي الآن ؟ أليس كذلك  
ومن أنتم ؟ أيها اللصوص النصابون !

ويرتد بعض التجار ممن ناداهم فوما بأسمائهم .

- كونونوف ! قل لى : متى يا ترى تحاكم على فعلتك التى فعلت  
بتلك الفتاة الصغيرة ؟ انك سوف يحكم عليك بالاشغال الشاقة  
جزاء فعلتك هذه ! انه سيكون الوداع يا كونونوف ! ما أسوأ  
ما بنيت تلك الباخرة الظريفة يا صاح ! انهم سوف يشحنوك الى  
سيبيريا ، ما فى ذلك شك !

ويغوص كونونوف فى أحد الكراسى وقد صعد الدم الى وجهه ،  
وراح يهدد بقبضته فى الهواء . ويقول :

- ما عليك الا أن تنظر .. سوف ترى .. اننى لن أنسى لك  
هذا أبدا !

لقد كان وجهه يتعقد ، وشفته تترجفان بشدة ، حتى أدرك فوما  
أن السلاح الذى شهره سوف يغيظ هؤلاء الرجال ويؤلمهم أكثر .

- تقولون : انكم حسنتم الحياة وارقيتم بها .. حسن .. حينئذ  
.. يا سيد جوشتمشين : هل تؤدى شيئا من الصدقة الى اولاد  
أخوانك ؟

- انك - ولا بد - تعطيمهم كوبكا على الاقل فى اليوم الواحد ،  
فلقد سرقت منهم الكثير الذى يجعلك تؤدى هذا اليهم ! وأنت  
يا سيدى بوروف ! لماذا ألقيت بمعشوقتك الى السجن بافترائك  
عليها تلك الكذبة حينما ادعيت أنها سرقت نقودك ؟ اذا كنت قد  
شبعتم منها فقد كان فى امكانك أن تنزل عنها لابنك ، وعلى كل  
فقد حل محلك مع أقخوانتك الاخيرة البرية ! ألم يبلغك هذا ؟ أه  
أيها الخنزير السمين ! أما أنت يا ليوب .. فلماذا لا تفتح لك



هاخورا مرة ثانية حتى يمكنك أن تسلخ « زبائنك » الظرفاء قبل  
أن توجه اليهم ضرباتك القاضية ؟ اننى أستطيع أن أراك تفعل هذا  
الآن ٠٠ هاها ٠٠ ان من اليسير على رجل ذى محيا صالح ورع مثل  
صحيك أن يفلت من عقوبة القتل ! ٠٠ ترى ؟ من كان هذا الشخص  
الذى قتل تلك المرة يا ليوب ؟

وكان فوما يضحك وهو يتكلم ٠٠ وكان بوسعه أن يلاحظ الآثار  
الواضحة التى يحدثها كلامه فى وجوه مستمعيه . انه حينما كان  
يوجه اليهم الحديث اجمالا اول الامر - كان يلاحظ أنهم كانوا يزوون  
وجوههم ويشيخونها عنه . وأنهم كانوا ينسحبون فى جماعات  
صغيرة ، ويقفون بعيدا عنه وهم ينظرون اليه ، وقد شاعت فى  
وجوههم ابتسامات الزراية والأستهزاء ، وكان هو يقرب ابتساماتهم  
ويلمس سخطهم عليه فى كل حركة من حركاتهم ، وحينما أخذ  
الغضب يبدو فى كلماته لم يكونوا يبالون كثيرا . وكان هذا يشيع  
البرد والتثلج فى روجه ٠٠ ومن ثمة كان يواجه ما قد ينتهى اليه  
معجومه عليهم من مرارة الاخفاق وحسرة الخذلان ٠٠ لكنه لم يكذب  
يتحدث الى كل هؤلاء التجار على حدة حتى تبدلت الحال غير الحال  
٠٠ وصعق القوم جميعا .

وعندما تهالك كونونوف على الكرسي وكانما أسقطته عليه  
سخرية فوما ، لاحظ فوما ابتسامات الشماتة ترف على شفاه بعض  
التجار ، وسمع بعضهم يهمس فى غيب وموافقة :

- مرحى ! أعطه أعطه ٠٠ أعطه جامدا !

فأمد هذا بقوة جديدة ، وشرع فى توجيه سخرياته وتوبيخاته  
الى أول شخص وقعت عليه عيناه . وابتهج أيما ابتهاج حينما أدرك  
قوة كلماته . وحينما لاحظ أن مستمعيه كانوا يصغون اليه وكان  
على رؤوسهم الطير ٠٠ بل كان بعضهم يزداد منه اقترابا .

لقد لغت بعض الأصوات بالاحتجاج .. لكنها لم تكن أصواته مرتفعة ولا حادة . وبمجرد أن نطق فوما باسم أحد التجار أزهف الجميع آذانهم ، وأخذوا يلقون نظرات شزاء ملؤها الشماتة المحبورة بالرجل الذي كان الهدف الجديد .

وصدرت عن بوبروف ضحكة خفيفة مكتومة ، وأخذت عيناه الحادتان الصغيرتان تتفرس في فوما .. وتتفرس . وطفق ليوب رزنيكوف يلوح بيديه في الهواء ، وهو يحجل هنا وهناك متأوها فأغرا فاه . وهو يقول :

- انكم سهودى على ذلك .. وأنا لن أغفر له مثل هذه الاقوال ! بل سأرفع أمره الى المحكمة ! كيف يجرؤ على هذا ؟

ثم يلوح بذراعيه نحو فوما فجأة ويصرخ :

- امنعوه من الكلام ! امنعوه !

ويضحك فوما ، ويقول :

- انه لا يمكن منع أحد من قول الحق !

ويقول كوتونوف بصوت أجش :

- سننظر في هذا !

ويتدخل ماياكين بصوته المرسع :

- أيها السادة .. أرجو أن تنظروا اليه نظرة طيبة .. لاحظوا بأنفسكم ماذا يشبه

- وأخذ التجار يدنون من فوما واحدا بعد واحد . ولاحظ هو

أمارات الخوف والانفعال والتطلع والشماتة الراضية على وجوههم . ويهمس أحد الضيوف الأكثر اتضاعاً في اذن فوما قائلاً :

- اعض في قولك ولا تبال .. أعطهم جيئدا ... ان هذا كله سيكتب لك في صحيفة فخارك !

ويصيح فوما :

- علام تضحك يا روبستوف ؟ ما الذى يجعلك سعيدا مسرورا هكذا ؟ هل تظن أنهم لن يذهبوا بك الى سبيريا ؟

ويصرخ روبستوف وقد وثب على رجله :

- اخرجوا الى الشاطيء !

وينادى كونوتوف ربان الباخرة قائلا :

- ارجع بنا ! ارجع بنا الى المدينة ! الى المحافظ !

- ان هذا أمر مييت ، وتدبير له ما وراءه . لقد اتخذوه مغلب قَط لانفاذه ؛ وأسكروه أولا .

- ان هذا شغب علنى :

- امنعوه من الكلام ! أجموا لسانه !

ويتناول فوما زجاجة فارغة من زجاج الشمبانيا ثم يلوح بها فى الهواء قائلا :

- حذار أن تلمسونى ! انه لا بد لكم من أن تستمعوا الى سواء رضيتم أو لم ترضوا !

وفى فورة من الانفعال ... فى حميا حيوره وهو يرى هؤلاء الرجال يتسلون تحت ضرباته ... يبدأ فوما فى الجهر بأسماء أخرى ، وفى سب ضحاياهم وقذفهم بأقذر الاساليب ... ولا يكاد يفعل حتى تخمد أصوات الاحتجاج . وكان أولئك الذين لا يعرفون فوما ينظرون اليه فى اعجاب وتطلع .. بل كان بعضهم ينظر اليه

راضيا موافقا على ما يقول • ونظر واحد من هؤلاء •• وهو رجل عجز قميء أشيب ذو خدين موردين وعينين حادتين •• نظر الى الذين كان يهينهم فوما ويتحداهم وقال لهم فى لهجة مداهنة :

- ان ضميره هو الذى يحفزه الى قول مثل هذه الأشياء ، فلا تلقوا بالا اليها • لقد كتب علينا أن نعانيها • انها دينونة نبي • اننا أيها السادة عصاة آثمون •• وواجبنا أن نتكلم بالصدق - وننطق بالحق لأننا •••

وارتفعت أصواتهم ضده حتى أسكتوه ، ودفع زوبوف دفعة لطيفة غابت به عن الانظار • وهنا يصيح فوما :

- زوبوف ! كم رددت من الناس عن وردك ، دون أن تمنح أحدا منهم كوبكا واحدا ؟ ألا يزورك فى منامك طيف ايفان بتروفتش ماياكينيكوف الذى سنق نفسه بسببك ؟ وهل حقيقة أنك تسرقه عشرة روبلات كل يوم أحد من طبق التحصيل ؟

وأصابت زوبوف هذه الهجمة باليكم ، فظل واقفا حيث هو ، وذراعه معلقة فى الهواء • فلما أفاق أخذ يثب ثم يقعد ثم يهم واقفا وهو يصرخ :

- اذن فأنت لا تعفينى أنا أيضا من لسانك •• أنا أيضا ! ثم نفخ خديه ، وراح يلوح بقبضته نحو فوما •• ومضى فى صراخه يقول :

- تا لله لأبلغن عنك الأسقف ، أيها المجدف الملحد •• انك أنت الذى سوف يحكم عليك بالاشغال الشاقة !

وازداد الشغب على الباخرة ، وقد جعل فوما منظر هؤلاء القوم الهائجين الساخطين يشعر كأنه بطل من أبطال الأساطير ينقض على

نعوان ضخم ليقضى عليه . لقد كانوا يجيئون ويروحون وهم  
بتصايحون ويلوحون بأيديهم . . . . وقد احمرت وجوه بعضهم ،  
امتقعت وجوه بعض . . . وهم جميعا عاجزون عن صد تيسار  
تشييعاته وتشهيراتاه

ويمسك رزنيكوف بكثف كونونوف ويقول له :

- ادع عمال الباخرة وملاحيها . ماذا تعنى بهذا يا ايليا ؟ هل  
عوتنا الى هنا ليتلاعب بنا ويشنع علينا ؟

ويصرخ زوبوف :

- هذا الكليب !

وأحدقت شردمة من التجار حول ماياكين الذى كان يتحدث اليهم .  
فى هدوء ، ويصفون اليه بوجوه تقطر شرا ، وهم ينغضون رؤسهم  
من حين الى حين .

ويقول روبستوف بصوت مرتفع :

- هيا . . . هيا فى الحال وبلغ . . . اذهب حالا . . . فنحن شهود  
يا ياكوف .

الا أن صرت فوما المدوى يعلو على هذا الضجيج قائلا :

- انكم بدلا من تحسين أحوال العالم والارتقاء به قد انحططتم  
به فجعلتموه شراكا وحفرة قدرة لصيد ضحاياكم . انكم قد  
تكونون رجال أعمال . . . الا أن كل ما فعلتموه هو جمع القاذورات  
والدنس ونشر التتن والروائح الجيئة ! أليست لكم ضمائر ؟ الا  
اله لكم ؟ أجل . . . ان الهكم المعبود هو الذهب ، أما ضمائركم فقد  
استبعدتموها . فأين استبعدتموها يا مصاصى الدماء ؟ انكم انما  
تحيون على حساب غيركم من الناس ، وأنتم انما تعملون بأيدي

غيركم • وكم من الناس ذرفوا الدموع من أعينهم دماء بسبب  
« أعمالكم العظيمة » التي تتيجحون بها ! ان الجحيم هي خير مثوى  
لأمثالكم من الانفسال المخادعين •• وأجدر بكم ألا تتعذبوا في  
لهبها الطاهر النقى ، بل يجب أن تحرقوا فيها في زبالتها المنتنة التي  
تغلي كالحميم ، خالدين فيها أدهارا وأدهارا !

ثم تنتاب فوما نوبة من الضحك المفاجيء ، وينثر رأسه الى  
الخلف ، ويشند جانبيه ، ويقف وهو يتمايل على قدميه • وفي هذه  
اللحظة يتبادل كثير من التجار النظرات والغمزات ، ثم ينقضون  
على فوما ، متكبكين عليه بثقل أجسامهم •

لقد بدأت معركة •

ويصيح بعضهم في دهشة :

- لقد أمسكوه !

ويلهف فوما قائلا :

- اذن •• فهذه هي مؤامرتكم !

ولم يطل النضال بين فوما وتلك الحلقة من الجسوم السوداء  
المحكمة من حوله ، والتي كانت تدق الأرض دقا عنيفا ، وهي  
تتصايح بأصوات مرتفعة :

- اطرحوه أرضا •

- امسكوا يده •• يده !

- آه •• لحيتي !

- ارفعوا أيديكم •• ارفعوا أيديكم ، قلت لكم :

- خلاص !



فوما مقيد في جلسة حزينة

- يا لله ! يا لها من عضلات !

وسحبوا فوما فوق ظهر السفينة الى غرفة الربان . . ثم انثنوا وهم يصلحون ملابسهم ، ويمسحون العرق من فوق وجوههم . أما فوماً ، فكان يجلس حيث هو ، دون أن ينبس ، بعد اذ أجهده النضال ، وفتت في عضده فضيحة الهزيمة ، وقد تمزقت ملبسه وتلوئت بصورة مزرية . وكانت يدها وقدماء مربوطة بالفوط ربطاً محكماً .

والآن . . لقد جاء دورهم لتقريعه والسخرية منه . وكان زوبوف أول من بدأ ذلك ، فقد ذهب اليه ثم رفسه رفسية في أضلاعه ، وراح يقول له في لهجة ساخرة ، وجسمه كله يرتجف من فرحة الانتقام:

- وهكذا صمت صوت النبي المدوى ! ترو ، ما احساسك بأن تكون أسيراً من أسرى بابل ؟ ها ها . . ها . .  
ويجيبه فوما دون أن ينظر اليه :

- صبرك ، صبرك ! ليس عليك الا أن تنتظر حتى أسترد أنفاسي . . . وتذكر أنكم لم تربطوا لساني بعد !

على أن فوما كان يعلم أنه لم يكن ثمة ما يستطيع أن يقوله أو يفعلته ، لا لأنه كان موثقاً مقيد اليدين والقدمين . . بل لأن شيئاً مالم كان قد مات في أعماقه ، وأن روحه كانت قد غدت سوداء خاوية .  
وأقبل رزنيكوف وانضم الى زوبوف . . ثم انضم اليهم آخرون ، على حين تبع كونونوف وبوبروف وآخرون ياكوف ماياكين الى غرفة الربان ، حيث وقفوا يتباحثون في أمر ما ، بأصوات خفيفة .  
وكانت السفينة تغذ السير بأقصى سرعتها الى المدينة ، وكان وجيب الآلات يهز الزجاجات فوق المواثد فتحدثت صريراً عاليه



رفيعا ، وكان هذا الصرير هو وحده ، من بين جميع الاصوات .  
لاخرى ، الذى يفرض فرضا على اذنى فوما ، وكان القوم  
يزدحمون حوله ويشيرون اليه اشارات ائيمة مزرية .

الا أن فوما لم يكن يتبين وجوههم الا فى صورة مبهمه ، كأنما كان  
بنظر اليهم خلال ستار قائم ، وكانت الكلمات التى يوجهونها اليه  
! تنال منه منالا . وكان فيض غامر من المرارة يتدفق فى أغوار  
نفسه ، فيشعر به يطغى وينتشر ، وبينما كان معناه أدق على فهمه  
من أن يدركه ، كان يدرك ما هو فيه من شدة وزرايه .  
ويقول له رزنيكوف :

- انظر ما جلبته على نفسك أيها المغفل ! كيف يمكنك أن تحتمل  
لحياة بعد هذا ؟ انه ليس فينا الآن من تحدثه نفسه حتى بأنه  
يتنزل ويبصق عليك !

ويسأله فوما :

- ولماذا ؟ ماذا صنعت ؟

ويحلق به التجار فى حلقة سوداء محكمة .

ويقول له ياشتشوروف :

- لقد انتهى أمرك الآن يا فوما !

ويقول له زوبوف بصوت ناعم شامت :

- سنريك الآن يا صاح !

فيقول له فوما :

- اذن ففكوا وثاقي !

- أوه ٠٠ كلا ٠٠ ولو بحياتك !

- نادوا اشبينى !

ولكن ماياكين يكون قد وصل فى تلك اللحظة دون أن يـدعو  
أحد ٠ ويقف الرجل أمام فوما ثم يتفرس فيه وهو فى مكانه ذاك ،  
«وهيئته تلك ٠ ثم يتأوه قائلا :

- آه ٠٠ فوما

ويقول له فوما فى صوت ذليل :

- قل لهم يفكوا وثاقى

- يفكون وثاقك لكنى يـجن جنونك مرة أخرى ؛ كلا ٠٠ ابق كم  
أنت وقتا ما ٠

- لن أقول كلمة أخرى ٠٠٠ وأقسم بالله على ذلك ٠٠٠ أطلقوا  
سراحى ٠٠ من العار أن أجلس هنا هكذا ٠٠ اننى لست سكراناً ،

- اذن ٠٠ أقسم أنك ستسلك سلوكاً طيباً ٠

ويتأوه فوما قائلا :

- أوه ٠٠ طبعاً ٠٠ وأقسم على ذلك بربى !

وفكوا رباط قدميه ، لكنهم لم يفكوا رباط يديه ٠

وحينما هم واقفا على قدميه راح ينظر فى الوجوه المحدقة به ن  
حال ، وهو يبتسم ابتسامة خاطفة مؤثرة :

- لقد كسبتم !

ويضحك ماياكين ضحكة خسنة ثم يقول :

- نحن نكسب دائماً !

ومشى فوما ، ويداه مربوطتان خلف ظهره ، ليستخفى عند احدى الموائد ؛ دون أن ينبس بكلمة ، ودون أن يرفع عينيه فى أحد ، وقد بدا وكأنه تقاصر بعد طول ، ونحل بعد سمنة ، وقد تساقط شعره المنكوش الاشعث فوق جبينه ، وبرز قميصه الممزق المجعد من صدره ، وياقته تغطى فمه . وكان يلوى رقبتة ليهبط بالياقة تحت ذقنه . . . . ولكن بلا فائدة ! . . . ولما لاحظ ماياكين ذلك ، أقبل نحوه ، ثم أصلح له ياقته . وقال وهو يبتسم فى وجهه :

— كان لازما أن تعانى ذلك !

فأما وقد حضر ماياكين . . . فقد سكنت ريح أولئك الذين كانوا يهزءون بفوما ، وأخذوا ينظرون الى الرجل العجوز نظرة المتطلع المتسائل ، كأنما كانوا يتوقعون أن يصنع ماياكين شيئا . لقد كان لا يزال محتفظا برباطة جأشه ، الا أن عينيه كانتا تومضان وميضاً . لا يكاد يتفق مع الظرف الحاضر ، بالرغم من بريقهما ويقول فوما وهو يجلس عند المائدة ويتكىء بذقنه فوقها بشدة :

— أريد شرابا !

لقد كان يبدو عاجزا عجزا مؤلماً وهو يجلس ثمة ، كأنه كومة من خظام . وكان من حسوله يتهامسون وهم يمشون على أطراف أصابعهم ، يختلسون نظرة اليه مرة ، ومرة الى ماياكين الذى كان يجلس فى الجانب الآخر من فوما . . . ولم يعجل ماياكين بتلبية طلب فوما للشراب . . . بل كان ينظر اليه متفحصاً ، وهو يصب له كوباً من الفودكا فى نمهل وبطء ، حتى اذا امتلأ الكوب ، رفعه الى فمه فى بطء أيضاً ، دون أن ينبس بكلمة

ورشف فوما الشراب . ولما فرغ الكوب قال :

— كوباً آخر .

فقال له ماياكين :

- بل هذا يكفى .

ثم تلت ذلك فترة من الصمت المطبق ، كانت مجهدة لأعصاب  
الجميع . وكان القوم يسترقون النظر من فوق المائدة ، وهم يمدون  
أعناقهم لكي يختلسوا نظرة الى العاجز المسكين

ويسأله ماياكين قائلا :

- حسن . هل أدركت الآن ماذا صنعت يا فوما ؟

وبالرغم من أن ماياكين كان يكلمه بصوت خفيض ، فان الجميع  
سمعوا ما قال

وأوما فوما برأسه :

ويقول له ماياكين بصوت أعلى :

- لا تنتظر منا أن نصفح عنك . . . ولن نصفح عنك أبدا . .  
وبالرغم من كوننا مسيحيين . . . وهذا هو ما سيكون

ويرفع فوما رأسه ويقول فى تفكير :

- لقد نسيت أن أذكرك فيمن ذكرت يا اشبينى العزيز ! اننى  
نظم أذكرك بكلمة سوء . . كلمة واحدة !

ويصبح به ماياكين فى مرارة وهو يشير اليه بيده :

- اسمعوا ماذا يقول !

وتعلو هممة خفيضة من أصوات الاستنكار

ويزفر فوما ثم يقول :

- ولكن .. ما قيمة هذا ؟ ما قيمة هذا ؟ ماذا يعينى على  
الاطلاق ؟ انه لم يحدث عن هذا شيء على الاطلاق !

ويسأله ماياكين فى شدة :

- وماذا كنت تريد أن يحدث عن هذا ؟

ويرفع فوما رأسه ، ويجيل عينيه فى التجار الواقفين حوله ، ثم  
بضحك ضحكة خفيفة مشوبة بالأسف ، ويقول :

- ماذا كنت أريد ؟ .. لقد كنت أريد أن ..

- انك سكير ووغد !

ويقول فوما فجأة :

- اننى لم أكن سكران .. ولم أشرب غير كاسين .. لقد  
كنت فى كامل وعيى .

ويقول بوروف :

- وهذا دليل على أنك على حق . يا كوف تارازوفتش : انه مختل  
العقل .

وينطلق فوما قائلاً :

- أنا ؟

غير أنهم لم يلتفتوا اليه . وجلس رزنيكوف وزوبوف وبوروف ،  
ومالوا برؤوسهم الى ماياكين ، ثم أخذو يتهامون .. وقد سمعهم  
فوما يقولون :

- .. تصبح فيما عليه ..

وهنا . يصيح فوما وهو يندفع الى الورا فوق كرسيه ، متفرسا  
فيهم بعينين زائغتين :

- اننى سليم العقل ٠٠ وأعرف ما كنت أريد ٠٠ لقد كنت أريد  
أن أقول لكم الحق ٠٠ كنت أريد أن أكتشف عنكم على حقيقتكم .

والتهمت عواطفه وفارت مرة أخرى ، وأخذ يملخ أربطة ذراعيه  
ملخا ، ويمسك بوروف بكتفيه وهو يقول له :

- ليس بهذه السرعة ٠٠ ليس بهذه السرعة ٠٠٠ أمسكوه أيهـ  
السادة ٠٠ أمسكوه !

ويقول فوما يائسا :

- آه ٠٠ أمسكونى ٠٠٠ أمسكونى ٠٠٠

ويصيح به ماياكين بخشونة :

- الزم الهدوء !

ولا يجيب فوما بشيء ٠٠ ان كل ما حاول أن يقوم به ٠٠ قام به  
بلا نتيجة ٠٠ ولم يكن لكلامه أى أثر فى نفوس هؤلاء الناس . وهاهم  
أولاء لا يزالون حوله كالبنيان المرصوص ٠٠٠ وهو لا يرى حوله غير  
هذا البنيان ٠٠٠ لقد كانوا ينظرون اليه فى هدوء وعقيدة ثابتة على  
أنه شخص مجنون ، وكان هو يعلم أنهم يكيّدون له كيّدا ما . ولقد  
كاد هذا السور الاسود المكون من أولئك التجار البارعين الكبيرى  
التقى بأنفسهم يسحقه سحقا . انه لم يكن يعرف نفسه فى تلك  
اللحظة ، بل لم يكن يدري ما فعله ، ولماذا فعله . بل لقد كاد  
يחס بالآلام السديدة فى حلقة ، وبأن قلبه ينوء تحت أثقال من  
التراب خففت من ضرباته وأضعفت من نظامها .

وانطلق يقول فى تفكير عميق ، دون أن ينظر الى أحد :

- لقد أردت أن أعلن الحقيقة .

ويجيبه ماياكين فى ازدراء وسخط :

- أيها المغفل ! كيف يمكنك أن تعلن الحقيقة ، كأنك تفهم  
شيئا ما !

- لقد كان قلبي يوشك أن ينفجر ٠٠٠ وكنت أشعر بزيف كن  
نىء ويقول بعضهم :

- واضح من الطريقة التى يتكلم بها أن بعقله مسا .

ويقول ماياكين بلهجة الذى يعلم من حوله ، وهو يؤكد كلامه  
أحدى يديه :

- انه غير مسموح لكل انسان بأن يقول الحق . وليس يكفى أن  
نحس بالأشياء ، فالبقرة نفسها تستطيع الاحساس بأنك تلوى  
بيلها ٠٠٠ فالشئ يجب أن يفهم ٠٠٠ لا أن يحس فقط ! يجب أن  
يفهم كل شئ ٠٠ أن تفهم أعداءك ٠٠ تفهمهم فهما جيدا يمكنك من  
أن تحزر ما يدور فى أخلادهم ٠٠ وعند ذلك تستطيع أن تقتحمهم  
تحتاما .

وكان ممكنا أن يمضى ماياكين فى عرض أفكاره الفلسفية بحماسه  
لمعاداة نفسها لو لم يدرك فجأة أن الانسان لا يصح أن يعلم خططه  
لحربية لعدوه المهور ٠٠ لقد نظر اليه فوما فى اكتئاب ، ثم أخذ  
بتوسل وهو يومئ ايماءة هينة برأسه ويقول :

- دعونى وشانى ! لقد كسبتم ، أفلا يكفيكم هذا !

لقد كان كل من المجتمعين حول فوما فى اللحظة التى فتح فيها  
فاه متنبها مرهقا أذنيه ٠٠٠ وكان فى تنبههم هذا ، غير الطبيعى ،  
لذير من نذر الشر

- ان هذا الذى شهدته يجرى من حولى جعل دمي يغلى فى عروقى ،  
حتى فار آخر الامر ٠٠ وهذا هو كل ما جرى ٠٠ والآن ليس ثمة  
قطرة واحدة من القوة باقية فى ٠٠٠ لقد استنزفت قواى كلها .

وكان يتكلم بلهجة رتيبة لا طعم لها ولا لون ، كأنه فى ذهول .  
وضحك ماياكين :

- وهل تظن أن فى وسعك أن تزيل جبلا بأن تلغقه بلسانك ؟  
وهل من الحكمة أن تهاجم دبا وأنت فى قوة بعوضة ؟ انظروا بالله  
عليكم الى هذا النبى ؟ آه ، لو أن والدك المسكين رآك فى حالتك  
هذه !!

ويجيبه فوما بصوت عال كله تصميم ، وبعينين ينطلق البرق من  
أعماقهما :

- ولكنك أنت الملوم فى هذا كله . فأنت الذى تفسد كل شيء .  
انك الرجل الذى يضيق الارض على الناس بما رحبت ، وأنت الذى  
تأخذ بخناقهم حتى يلفظوا أنفاسهم . ومهما يكن هذا الحق الذى  
أنطق به ضدك ضعيفا فانه الحق على كل حال . . . انك كل هذا  
. . وأقولها صراحة . . وعليك لعنة الله !

ثم يبذل كثيرا من الجهد وهو يشد نفسه عسى أن يفك ذراعيه  
فاذا لم يقدر ، راح يزار ، وعيناه تدوران فى ثورة وفورة :  
- فكوا يدى !

ويحذق به التجار أكثر وأكثر ، وقد اكتست وجوههم بأماران  
الحق والغضب . . . ويقول له رزنيكوف مهددا :

- اقصر الآن وأمسك لسانك . . اننا نوشك أن نصل ا.  
المدينة ، فلا تفضح نفسك وتفضحنا معك . أو تريد أن نأخذ  
مباشرة من المرفأ الى مستشفى المجاذيب !  
ويصيح به فوما :

- اذن فهذا هو ما دبرتم ! تريدون أن تذهبوا بى الى مستشفى  
المجاذيب ؟ أليس كذلك ؟



ولم يرد عليه أحد • وجعل ينظر في وجوههم لحظة ، ثم نكس رأسه •

وقال بعضهم :

- اذا سلكت سلوكا حسنا فسوف نفك يدك •  
ويجيبه فوما بهدوء :

- لا تتعب نفسك •• ان هذا لا يهم !  
ثم يعود الى الحديث من جديد وكأنه فى ذهول :

- لقد ضعت ••• ولم أضع لأنكم أقوىاء ••• ولكن لأننى ضعيف جد ضعيف • وأنتم أيضا لستم أكثر من ديدان أمام الله •• وما عليكم الا أن تنتظروا ، وستلقون جزاءكم ••• لقد ضعت بسبب عمى • لقد نظرت الكثير الذى أعمانى • كالبومة ، البومة التى كنا نطاردها فى الاخدود اذ نحن أطفال • لقد كانت لا تنفك تعلق وتنخبط فى كل شىء • وكانت الشمس تعشى بصرها ••• وكانت تنخبط كثيرا حتى أصابتها الجراح والندوب فى جميع أجزاء جسمها ••• وعند ذلك فقدتها • وأذكر أن الذى قال لى حين ذاك : ان هذا نفسه هو الحال مع الكائنات البشرية ، ففى بعض الاحيان يندفع الانسان هنا ثم يندفع هناك ، وهو يتخبط فى هذا الشىء ثم فى ذاك ، حتى تصيبه القروح والكلال ، ويتمنى لو يزحف ليختبئ فى أول جحر يصادفه ليجد فيه الخلاص ••• يا لله ! فكوا يدى الا يملون ؟

ويمتقع ، ويصفر لون وجهه ، ثم يغمض عينيه ، وترتجف كتفاه ، ويشرع يتأرجح فى كرسيه الى الامام والى الورا ، وهو فى هذه المزق والاسمال التى كانت ملابس أنيقة من قبل ، ويضرب صدره فى حافة المائدة ، وهو يتمتم فى نفسه بكلام غير مفهوم •

وتبادل التجار نظرات لها معناها • ولكن بعضهم جيرانهم وهم

يومثون برءوسهم فى جهة فوما دون أن ينطقوا بكلمة • وكان وجه  
ماياكين جامدا صارما كأنما نحت من جرانيت

ويهمس بوبروف قائلا :

— لعل الواجب يقتضيها أن نكف يديه !

ولكن ماياكين يقول فى صوت منخفض :

— كلا •• يجب ألا نفعل •• بل سنتركه هنا •• وليذهب بعض  
لاحضار النقالة ••• وسيحمل عليها الى المستشفى مباشرة •

ثم مشى نحو جسر القيادة ، وهو يقول :

— خذوا بالكف منه ، فقد يحاول أن يشب فوق ظهر السفينة •

ويقول بوبروف وهو ينظر الى ماياكين ذاهبا :

— لشد ما أشعر بالاسف لهذا الغلام !

ويجيبه رزينكوف فى حدة :

— لا لوم على أحد اذا كان هو نفسه مغفلا !

ويهمس زوبروف •• وهو يرمى الى ماياكين ، وهو عائد من  
حيث ذهب :

— ولكن ماياكين •••

— وماذا فى ذلك ؟ انه لن يفقد شيئا اذا تم هذا العمل •

— هذا صحيح •• صحيح تماما •• انه سيتولى كل شىء بوصفه  
القيم على هذا الولد •

وكانت همساتهم وضحكاتهم تضيق فى خشخنة الآلات • ولم  
يكن فى وسع فوما أن يسمعهم ، فقد كان يجلس وهو يحدق باكتئاب  
فى اللانهاية ، وشفته تخرجان من حين الى حين •

ويقول بوبروف هامسا :

- لقد عياد ولده

ويجيئه ياشتشوروف :

- انى أعرفه • لقد قابلته فى يرم •

- وما صفته يا ترى ؟

- شاب رشيق • يراس عملا كبيرا فى أوسولى •

- وبعبارة أخرى ••• ان ماياكين لم يعد بحاجة الى هذا الولد ،  
وهذا هو المهم !

- انظروا •• انه يبكى !

- ما هذا ؟

لقد كان فوما متكئا فوق كرسيه الى خلف ، وراسه مائل الى أحد  
جانبيه ، وعيناه مغمضتان ، والدموع تترقق من أسفل أهدابها  
فتتسائل عبرة بعد عبرة فوق خديه •• ومنهما خلال شاربه على  
حين تختلج شفتاه اختلاجا شديدا •• ثم تنحدر الدموع من خلال  
شاربه لتتلاشى فوق صدره • وكانت الحركة الوحيدة التى يأتيتها  
هى حركتى الشهيق والزفير •• يعلو معهما صدره ويسفل • وجعل  
التجار يلاحظون وجهه الممتقع الأصفر لحظة ، وقد نال منه الألم ،  
وبللتة الدموع ••• ثم راحوا ينسحبون فى هدوء •

لقد تركوا فوما وحده ، ويداه مربوطتان من خلف ، جالسا الى  
المائدة المغطاة بالاطباق القنطرة ، وبقايا الوليمة ••• وكان هو يفتح  
عينيه من حين الى آخر للنظر خلال جفونه المتورمة وخلال دموعه  
أيضا ، الى الانقراض والاطلال المتناثرة فوق الموائد !

وتحضى ثلاث سنوات

ويكون ماياكين قد قضى بعد تدشين باخرة كونونوف بعامين ٠٠٠  
وقد ظل محتفظا بكامل قواه العقلية الى آخر لحظة فى حياته ، وقبل  
أن يلفظ آخر أنفاسه بساعات قلائل دعا اليه ابنه وابنته وزوج  
ابنته ، ثم راح يقول لهم باللهجة التى لزمته طول عمره :

- عيشوا واطفروا يا أبنائى ٠٠٠ لقد استمتعت بثمرات هذه  
الحياة حتى امتلأت منها ٠٠٠ وقد حان أن أخرج من بستانها ٠٠  
هل ترون أن فى وسعى أيضا أن أموت دون أن أشكو ؟ وسيضيف  
الله سبحانه هذا الى مفاخرى ٠ انى ربما أكون قد أغضبت المولى جل  
وعلا ببعض احتيالاتى وُخدعى ، ولكنى لم أغضبه قط بالتأوهات  
والتوجعات ! تباركت يا ربى ٠٠ انى ليسعدنى أن أقول ذلك !  
أقسم بعظمتك وجلالك لقد عرفت كيف أشق طريقى فى هذه الدنيا !  
وداعا يا أولادى ٠ عيشوا فى اخاء ومودة ، ولا تبذروا تبذيرا ،  
واذكروا ان هذا الذى يختبىء من الذنب ويحرص على أن يضع جنبه  
فوق المضجع الآمن ، لن يكون بهذا قديسا أبدا ٠ ان الجبن لن  
ينجىكم من الآثام ، كما تروى لنا قصة الوزنات ٠ فاذا صمتم على  
أن تظفروا من حياتكم بشيء ، فيجب ألا تجزعوا من الوقوع فى  
الاثم ٠ ان الله سوف يغفر لكم خطاياكم ٠ لقد خلق الله الانسان  
ليهدب الحياة ٠٠ ومع هذا ، فانه لم ينعم عليه بالكثير من الذكاء ،  
ومن ثمة فهو لا يمكن أن يطالبه بما يشق عليه ٠ ان رحمته واسعة ،  
وطرقه مستقيمة ٠٠٠

ولقد كانت سكرات الموت التى عاناها ماياكين قليلة غير طويلة ،  
وان كانت وبيلة مؤلمة ٠



لقد كان باستمرار رث الهيئة لا يكاد يفوق من سكره أبدا وكان  
يبدو عليه اختلال العقل .

ولم يمض زمن طويل على الاضطرابات التي وقعت في باخرة  
كونونوف حتى أجبر ييزهوف على مغادرة المدينة .  
وتكونت شركة تجارية جديدة تحمل اسمي : « تاراس ماياكين  
وأفريكان سمولين »

ومرت سنوات ثلاث لم يكن الناس يسمعون خلالها شيئاً عن  
فوما . ويقال انه بمجرد خروجه من المستشفى أرسله ماياكين الى  
أقارب والدته في اقليم الاورال

ثم ظهر في المدينة بعد مضي سنوات ثلاث . لقد كان باستمرار  
رت الهيئة ، أشعث الهندام ، لا يكاد يفارق من سكره أبداً . وكان  
يبدو عليه حقيقة اختلال العقل ، وربما كان يرى أحيانا وهو يطوف  
في شوارع المدينة مقطب الجبين منكس الرأس عليه سيماء الكراهية  
والمقت ٠٠٠ وأحيانا أخرى ، كان يرى وقد افتتت شفتاه عن بسمة  
حزينة مؤثرة ٠٠٠ بسمة رجل صالح أبله ! وكانت تعاوده فورات  
هياجه القديم في بعض الظروف ٠٠٠ الا أن هذا كان لا يحدث الا  
نادرا . وقد سمحت له ليوبا سمولينا بالاقامة في منزل صانع  
خلاوى خلف منزلها .

وكان من يعرفونه من التجار وأهل المدينة لا ينفكون يتخذون منه  
مادة لدعاباتهم ، وكانوا اذا رأوه مقبلا من بعيد صاحوا به :  
- ايه ! أيها النبي ! تعال هنا !

وكان قلما يستجيب لهم . انه كان يتجنب لقاء الناس ، ولم  
يكن يطيق التحدث اليهم . لكنه كان اذا فعل ، غمزوه قائلين :  
- حدثنا بشيء عن يوم الدين . هل تفعل ؟ هاها ٠٠ ها ٠٠ أما  
انك لنبي حقا !







## المؤلف



مكسيم جوركي من أدباء روسيا  
المخضرمين ، امتزجت حياته الخاصة  
بأحداث روسيا الاجتماعية حتى أصبح  
انتاجه الأدبي تعبيرا عن المجتمع الروسي  
وتطوره الثقافي .

ولد جوركي سنة ١٨٦٨ م في نرنى نوفجورود بإقليم الفولجا ،  
ومازس مهنا شتى أكسبت حياته الفكرية ثراء ، وغرست في نفسه  
الأحساس بالواقعية بجانب ما كان يراوده من آمال في حياة أفضل .  
وجوركي يتغنى بالانسان المتحرر ذى العقل والبصيرة ، المسيطر  
على الآلة والطبيعة .

ومن أشهر أعماله « ماكار شودورا » و « الأم » و « الاعتراف »  
و « فوما جوردييف » المنشورة سنة ١٨٩٩ م ، وهي اتجاه للتحرر  
من القيود والاذلال .

ومات جوركي عام ١٩٣٦ .